كتاب المونس

في

اخبار افريقية وتونس

تاليف

الفقيه النبيه العلامة ابي عبد الله الشيخ

محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني

المعروف

بابن ابي دينار

رحمهما الله تعالى

طبعة اولى

في مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية

سنة ١٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله الذي لا يبدا احد في كتاب إلّا باسمه ليصل الى التمام * ولا يدون ديوانا إلّا ويشحنه بالثناء عليه بما له على العباد من الفضل والانعام * ولا يورخ تاريخا إلّا ليعلم من عجائب مخلوقاته وغرائب مصنوعاته ما تعجز عنه العقول وتقصر عنه الافهام * الملك الذي بيده مقادير الامور مدى الدهور والاعوام * الذي اخترع العالم بحكمته وابرزه للوجود بقدرته تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام * احمده حمد من اقر بربوبيته واعترف بوحدانيته من غير شك ولا ايهام * واشكره شكر من وهبه جزيلا من فضله فطلب منه المزيد بالشكر لقوله اشكروني ازدكم من الخير والانعام * واشهد ان لا اله إلّا الله وحده لا شريك له المتفرد بالتصرف في ملكه وملكوته بالعدل والاكرام * واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي جاء بالصدق وقطع دعوة الملحد ببلاغة من كلام العزيز العلام * وهاجر من اعز البقاع الى اعز البقاع فاقام الدين واظهر شرائع الاسلام * ويوم هجرته صار تاريخا لمن تمسك بشريعته بين الانام * صلى الله عليه وسلم صلاة عاطرة يتضوع من نشرها مسك الختام * وعلى آله الطاهرين الطيبين الذين اثنى عليهم الملك العلام * انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا من جميع الانام * وعلى اصحابه الذين فتحوا مشارق الارض ومغاربها

وهدموا صوامع الشرك وقتلوا عباد الاصنام * واعلنوا بكلمة التوحيد فانار الهدى وانقطع الباطل وارتفع الخصام * صلاة وسلاما ادخرهما ليوم العرض والزحام * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه تكون لي نجاة من النار ومثوبة بالفوز في دار السلام * ورضي الله عن التابعين وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم الدين السادة الفضلاء الاعلام * ما ترنم طير على ايكه ورقت على منابر الاصابع خطباء الاقلام * وبعد فيقول العبد الفقير الى رحمة الملك الغفار * محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني المشهور بابن ابي دينار * عامله الله بلطفه * واسبل عليه ستائر حلمه وعطفه * بمنه وكرمه آمين * قال بعض اهل العلم ان في علم التاريخ عبرة لمن يعتبر * وتذكرة لمن يتذكر * لانه ينبي عن صنع الله في القرون الخالية * وكيف تصرفت قدرته بارادته في الامم الماضية * وحكمته تعالى جارية في مخلوقاته بعدله واحسانه بحسب ارادته على مر الدهور والازمان * وهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شان لا يشغله شان عن شان * وقال تعالى قل سيروا في الارض على احد اقوال المفسرين هو النظر في كتب السير * والتطلع على اخبار الماضيين من البشر * فمن امعن النظر في اخبار الماضين راى ما يعجب منه العجب * وان تامل سير الملوك سرح طرفه بمرءاة الزمان في مروج الذهب * وان شنف سمعه باخبار الزمان * افتتح ازهار حدائقها عن قلائد المرجان * وعلم ان الدر المشرق * في اخبار اهل المشرق * وان استغرب فالمعرب * عن احوال اهل المغرب * فان اختصر فالمختصر في اخبار البشر * والحديث شجون * والعشق جنون * والجنون فنون * وكل حزب بما لديهم فرحون * ولهذا كثرت كتب السير في غالب المعمور من الارض الا ان كل امة يستمد بعضها من بعض * والبلاد متفاوتة على قدر مراتبها * والعقول مختلفة فيما تجمعه من عجائبها وغرائبها * الا ان مدينتنا الخضراء العلية * وعروس البلاد الافريقية * تونس حرسها الله تعالى لم يتقيد لجمع اخبارها مصنف * واذا تامل المتامل الى معناها وترتيبها وجدها احق بالتصنيف من غيرها اذا كان المتامل منصفا لا

متعسف * لانها عروس بلاد المغرب ونزهة الاقليم الافريقي ودار الخلفاء من بني ابي حفص * وهي اشهر من نار على علم وخبرها رونه الثقاة بالنقل والنص * وتمت محاسنها وان كانت غير ناقصة بالدولة العثمانية * وعظم صيتها بين حبائبها لما نشرت عليها الاعلام الخاقانية * الا انه تقدم لابن الهنتاتي مجموع لطيف اخبر فيه من احوال القوم * وانفق من بضائع بني ابي حفص ما تيسر له ولكنه غالى في السوم * وما ذاك الا لانه لم ينظر الى حلية تونس في هذا الزمان * ولم ينظر الى معناها ومغناها الذي له شان واي شان * ولو ادرك زماننا لطغى بقلمه والقى العصا * ولو شاهد حسنها في حلل الهناء لقال هذا مما لا يعد ولا يحصى * ولما تمت محاسنها اصابها سهم من نظر المعيان * فلم تخطا رميته حتى راينا مصارع العشاق في حروب الاخوين ومقاتل الفرسان * وكانت قبل اليوم في ذروة الشرف * واهلها في نعيم مقيم في الرفعة والترف * الى ان قدر الله علينا بخطوب واي خطوب * وقابلها الزمان بعد التبسم بوجه قطوب * فتكدرت احوال اهل البلاد * واصبح كل انسان يقول نفسي نفسي ولا يسال احد عن احد * وقد كنت اتمنى ان اجد من فيه نباهة ليجمع ما حدث في زماننا من الوقائع العجيبة * ويضيفه الى ما جمعه ابن الشماع في تلك المدة البعيدة الى هذه المدة القريبة * وكم تشوقت الى هذا الجمع بنفسي * وملت اليه بحسي وحدسي * الى ان قدر الله علي بفرقة الاحباب وموت الاولاد * ودهيت بما تتقطع منه كبدي وكبد غيري من اهل البلاد * فكان هذا هو الباعث لي في هذا التقييد * واستشرت مامونا في مشورته فرسم لي برايه الرشيد * فجمعت ما كان متفرقا بالرواية والسند * وجعلته مقام تبريد اشتعال الكبد بموت الولد * وجعلت اتسلى به من حزني * لاني في غمرات امتلا القلب منها وقال قطني * ورحم الله ابن الوردي حيث قال — لي مهجة في النازعات وعبرة : في المرسلات وفكرة في هل اتى — والا فكيف لي ان اكون من فرسان هذا الميدان * ولست من ابناء الحضراء على الحقيقة حتى يحصل لي هذا الشان * ورحم الله الاحنف حيث

قال ـ فسد الزمان فسدت غير مسود : ومن الشقاء تفردي بالسودد ـ ولكن لي العذر وقد تطفلت على موائد الكرام واساءتي مغفورة عند العلماء من اهل الحضرة وان كنت معدودا من العوام * والّا فكيف لي ان اضرب بقداحي بين القوم وافوز بسهم * ام كيف يكون لمثلي بين العقلاء نصيب او قسم * وانا خائض في غياهب الجهالة * وسارح في مروج اللهو والبطالة * فصرت كحاطب ليل او جامع سيل * وطلع صباح الشيب فبدت ءاية النهار مبصرة فمحت ءاية الليل * وفقد الشباب والاحباب * اعظم المصاب * قال بعضهم ـ

شيئان لو بكت الدماء عليهما   عيناي حتى تؤذنا بذهاب

لم يبلغ المعشار من حقيهما   فقد الشباب وفرقة الاحباب

وها انا استهدفت للرامي * وابرزت مرامي * وقدمت ما اورده ابن الشماع ليكون البناء على اساس * وارجع الى كلامه ما انقله عن غيره وما رويته عن غير واحد من الناس * واذا ذكرت شيئا مما ثبت عنده * اذيل عليه بنكت من كلام الغير وكل احد ينفق ما عنده * وابذل جهدي بقدر الطاقة عسى ان يحصل لي نصيب * واجتهد فيما اردته ان شاء الله وما كل مجتهد مصيب * فان ظفرت بشيء مما رمته وبلغت المنا * كنت ابن ظفر على الحقيقة ونظمت في سلك نجباء الابنا * ومن الله استمد الاعانة والطول * لاني عاجز ولا قوة لي ولا حول * واسال التوفيق في القول والعمل * والنجاة من الخطا والزلل * ان شاء الله تعالى * وسميته * المونس في اخبار افريقية وتونس * * ورتبته على سبعة ابواب بعدد ابوابها وخاتمة *

الباب الاول في التعريف بتونس : الباب الثاني في التعريف بافريقية : الباب الثالث كيف فتحتها الجيوش الاسلامية : الباب الرابع كيف استولت عليها الخلفاء العبيدية : الباب الخامس في الامراء الصنهاجية : الباب السادس في الدولة الحفصية : الباب السابع في الدولة العثمانية : والخاتمة تتضمن احداثا ظهرت في الديار التونسية ، ومآثر تفتخر بها بين جيرانها الافريقية ، وما تميزت به في البلاد المغربية *

البـــاب الاول

فـي التعريـف بتونس

قـال ابن الشماع مدينة تونس هي اسلامية احدثت بعد الثمانين من الهجرة * وكان ابو جعفر المنصور العباسي اذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له ما فعلت احدى القيروانين يعني تونس تعظيما لها * وهي اليوم قاعدة البلاد الافريقية وام بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجر اهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرهما * فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها واحدثوا بها المباني والكروم وبينها وبين قرطاجنة عشرة اميال * وبين تونس ومرساها بحيرة يقال انها كانت كثيرة الجنات والمياه والزرع طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر * قلت عرف بها صاحب الجغرافية حيث قال ومدينة تونس في الجزء الثاني من الاقليم الثالث * ومدينة تونس في ذاتها قديمة اسمها في التواريخ ترشيش ولما افتتحها المسلمون واحدثوا البناء بها سموها تونس * ومدينة تونس في جون خارج من البحر وهي على بحيرة محتفرة وعرضها اكثر من طولها وذلك ان طولها ستة اميال وعرضها ثمانية اميال ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي * وذلك ان هذه البحيرة لم تكن قبل وانما حفر في البر حفير انتهي به الى مدينة تونس ومن فم هذه البحيرة الى مدينة قرطاجنة ثلثة اميال ونصف * قـــلت الذي ذكره صاحب الجغرافية انها قديمة لا شك فيه لقول غيره وذكر سبب فتحها وكذلك حفر البحيرة يدل انه كان في زمن الاسلام لان قبل الاسلام كانت قرطاجنة حائلة بينها وبين البحر والبحر بعيد عنها جدا وانما احدث البحر بعد خراب قرطاجنة * وما ذكره ابن الشماع انها كانت بساتين ومزارع تشهد له الابار التي في وسطها وربما وقع فيها صيادو السمك احيانا ويتجنبون مواضعها ولهم بها خبرة * قـــــال ابن الشماع ولمدينة تونس سور يدور بها وان دورها

اربعة وعشرون الف ذراع * قلت ولم يذكر الباني لسورها حيث كانت عنده اسلامية والجاري على السنة اهلها ان بناءه كان على يد الشيخ سيدي محرز والشيخ المذكور كان في اول المائة الرابعة الّا ان يكون الشيخ جدده بعد المحنة التي وقعت عليها من ابي يزيد الخارجي وذلك في سنة ست عشرة وثلثمائة لانه نهب افريقية ومدينة تونس ونهب منها نحو اثنى عشر الف خابية زيتا غير الاموال والعبيد والامتعة والدواب والنساء والاطفال وغير ذلك وسياتي خبر ابي يزيد بعد ان شاء الله تعالى وكذلك القصبة لم يذكر بناءها * وقال عند ذكر المولى عبد الواحد انه سكن بقصبتها عند حلوله بتونس وهذا يدل على ان قصبتها متقدمة من زمن بني ابي حفص * قلت ولعلها من بناء بني الاغلب كما سياتي والعمال كانوا يسكنون بها وابناء خراسان كانوا بهما لما خرجوا من طاعة بني باديس * والغالب على ظني انها القصبة القديمة واما هذه فهي بناء بني ابي حفص كما سياتي ان شاء الله تعالى * قال ابن الشماع وجامع تونس مليح الصنعة حسن الموضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحبحاب ودار الصناعة سنة اربع عشرة ومائة وانفذ اليها البحر * قلت عبيد الله بن الحبحاب كان عاملا لهشام بن عبد الملك بن مروان على مصر وارسله الى افريقية سنة عشر ومائة فلما وصل القيروان اخرج المستنير من السجن وارسله الى تونس واليا عليها ولعله لم يدخل الى تونس وتقدمه البكري حيث قال ومدينة تونس دورها اربعة وعشرون الف ذراع وذكر بناء عبيد الله بن الحبحاب * قال ومدينة تونس اسمها في الاوائل ترشيش ويقال لبحرها بحر رادس ومرساها مرسى رادس وان حسان بن النعمان افتتحها وذكر غيره ان زهير بن قيس البلوي افتتحها * قلت وقع التناقض بين قوله من بناء بني امية وبين قوله افتتحها حسان وقول غيره افتتحها زهير وزهير كان سنة سبع وستين وحسان سنة سبع وسبعين والبناء سنة ثمانين الّا ان يكون الفتح اولا ثم استقر بها قدم المسلمين واستوطنوها

واتخذوا بها المنازل والديار وكان نزولهم بها في سنة ثمانين فلذلك نسبت الى بني امية ولم يكن قبل ذلك ينزلها احد من المسلمين وابن الشماع ادرى بلده * وقـال البكري وبمدينة تونس بحيرة دورها اربعة وعشرون ميلا وهي في جبل يعرف بجبل ام عمرو وفي بحيرتها جزيرة مقدار ميلين تسمى شكلي تنبت الكلخ وبها ءاثار قصر خرب * قـلت في زماننا هذا بها قصر مشيد والذي حكاه البكري وغيره عمر بعد ذلك في حدود الاربعين والتسعمائة على ايدي النصارى وبنوا فيه حصارا منيعا الى ان اخذه من ايديهم العسكر العثماني وسياتي ان شاء الله تعالى وخرب وما تبقى منه الّا ءاثاره وجدد في زمان الحاج مصطفى داي بعد السبعين والالف وهو الى يومنا هذا غير عامر * قـال ابن الشماع وتونس دار فقه وعلم وعلى عشرة اميال منها غربا وادي مجردة ويقال ان من شرب منه قسا قلبه . وسميت تونس لان المسلمين لما فتحوا افريقية كانوا ينزلون بازاء صومعة ترشيش ويتانسون براهب هناك فيقولون هذه الصومعة تونس فلزمها هذا الاسم * قـلت ذكر غيره ان العرب كانوا يسمعون اصوات الرهبان طول الليل في صوامعهم فيتانسون بهم فقالوا هذه البقعة تونس * وقـال ابن الشباط وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا هذه تونس وسمي المسجد بجامع الزيتونة * وذكر غيره انهم لما نزلوا بازاء صومعة تونس الراهب الذي نسبت اليه الصومعة فقالو صومعة تونس اطعمهم دشيش الحنطة* فصار عادة لاهل البلد في راس كل سنة حتى كاد ان يكون عندهم من الواجب وانهم راوا مكانا محروقا عنه بالشوك فسالوا الراهب عن سببه فاخبرهم انه يرى في بعض الليالي نورا ساطعا من تلك البقعة قال ـ فعلمت ان سيكون لها شان فصنتها من القذرات وبول الكلاب ـ فصلوا في تلك البقعة وهي موضع المحراب واتخذوا هناك مصلاهم * قـلت ان صح هذا فالشرف سابق لهذه البقعة بحيث صلى بها الصدر الاول من المسلمين والفضلاء من المتاخرين وام بالناس فيها عدة اعلام ونجباء كرام وهي بقعة

مباركة يستجاب فيها الدعآء الى يومنا هذا ولله الحمد * وقـــال البكري يدور بتونس خندق حصين ولها خمسة ابواب * وقـــال ابن الشباط لهـا في زماننـا عشرة ابواب بعضهـا في البلد وبعضهـا في القصبة * قلـــت وفي زماننا لها سبعة ابواب ولم يبق في القصبة الّا باب غدر وهو مغلق في هذا الوقت * وذكر غير واحد ان لها خمسة اسمآء . ترشيش . وتونس وقيل تانس . والحضراء . والخضراء . والدرجة العليا * فترشيش اسمها في القديم . وتونس حادث لها واشتقاقه من التانيس . والحضراء لانها حضرة السلاطين من بني حفص . والخضرآء لكثرة زيتونها . والزيتون لا يزال اخضر طول الزمان وهو الشجرة المباركة . او لان خيراتها كثيرة عن غيرها وسعة ارزاقها وقد يقال لمن هم في سعة من الرزق خضر المرابع فلذلك عبر عنها بالخضراء . والدرجة العليا قيل لأن بها الجامع الاعظم وقيل لارتفاعها عن غيرها من البلدان وارتفاع صيتها في كل اوان * ولقد اخبرني من اثق به ان السلطان احمد صاحب مراكش لما ارسل جيشه صحبة محمود باشا مملوكه الى بلد السودان وفتحها الى تنبكت واخذ على اهلها البيعة لاستاذه وكان بها اذ ذاك الاستاذ العالم العلامة الشيخ ابو العباس احمد عرف بابا رحمه الله سال الناس لمن بايعوا فاخبروه بسلطان مراكش فقال لست اعلم في اقليم الغرب سلطانا الّا صاحب مدينة تونس حرسها الله تعالى * انظر ايها المتامل كيف ثبت عند هـذا العلامة خبر تونس وسلطانها مع قرب بلاده من مراكش وبعدها عن تونس والشيخ احمد صاحب الطلاع وهو من اكابر علمآء وقته وما ذاك الّا لفخامة ذكرها وعلو قدرها زادها الله علوا * ولنرجع الى قول ابن الشباط قال وجامع تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواره ويرقى الى الجامع من جهة المشرق على اثنتي عشرة درجة * قلت ابن الشباط محقق فيما ينقله ولم يذكر من الباني لهذا الجامع الّا ما ذكره غيره وهو ان عبيد الله بن الحبحاب هو الباني له كما مر ءانفا ولعل عبيد الله هو الذي اسمه * وذكر ابن ناجي ان زيادة الله بن الاغلب بنا جامع

الزيتونة وسور تونس وقصبتها فهي من بناء بني الاغلب * قلت ولعل البناء الضخم هو من بناء الاغالبة ويشهد لذلك ما هو مكتوب في القبة التي فوق المحراب اسم امير المومنين المستعين بالله العباسي سنة خمسين ومائتين وزيد فيه على بنائه الاول كما زيد فيه في ايام بني حفص والله اعلم * وقال ابن الشباط وبتونس اسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق كبيرة رفيعة وبها خمسة عشر حماما * قلت في وقتنا هذا بها اربعون حماما * قال ومصادات ابواب دورها كلها رخام بديع وهي دار علم وفقه ولي منها قضاة افريقية جماعة كثيرة * ويصنع بتونس آنية الماء من الخزف شديد البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في سائر الاقطار * ومدينة تونس من اشرف مدائن افريقية واطيبها ثمرة وانفسها فاكهة وبها من اجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها * قلت رحم الله ابن الشباط وغيره لو شاهدوا ما في هذا الوقت من خيراتها وكثرة بساتينها وجناتها لاعجزهم الوصف وراوا من الفواكه ما ليس له حد ولا طرف وشهادة الله انه يوجد فيها ما لا يوجد في غيرها كثرة وحسنا بحيث لا يدخل تحت حصر واذا افتخر المصريون بمصرهم قلنا لهم هذه اخت مصر وناهيك ان في فصل الخريف يدخل اليها كل يوم ازيد من الف حمل من العنب هذا خلاف ما يباع مع العنب من تين وبطيخ وغيرهما من الفواكه الرطبة واليابسة * ولقد اخبرني بعض خدمة المحتسب في سنة احدى وستين والف انه حصر ما بيع للخمارات من العنب فكان مقداره ستين الف حمل خلاف ما بيع في اسواقها وقس على هذا القدر وفيه كفاية واما الخزف فهو اقل شيء في الفخر وهم اهل الحضرة اعلى من ذلك * وقال صاحب اقتباس الانوار وتونس من بلاد افريقية بينها وبين القيروان اربع مراحل وهي مما بناه بنو امية والمدينة القديمة الرومية اسمها قرطاجنة وينسب الى تونس جماعة من العلماء منهم ابو الحسن علي بن زياد التونسي سمع من مالك الموطا وتفقه عليه وتفقه به سحنون وعاش بعد مالك نحوا من خمس سنين

وقبره بداره داخل باب المنارة * وقـــال ابن الشماع ومنهم الشيخ الامام العابد سيدي محرز بن خلف وقبره بداره داخل باب السويقة . وبقبلي مدينة تونس جبل يعرف بجبل التوبة لا ينبت شيئا وهو المسمى بجبل الجلاز وفي اعلاه قصر مبني مشرف على البحر * قلـــت القصر الذي ذكر هو مقام الشيخ العارف بالله سيدي ابي الحسن الشاذلي نفعنا الله ببركاته والعجب كيف غفل عن التعريف بالمقام مع ان الشاذلي متقدم على ابن الشماع بزمان او لعل المقام لم يشتهر الا من بعده * قـال وشرقي القصر غار منحني الباب يسمى بالمعشوق وبالقرب منه عين جارية * قلـــت لم يبق له اثر الا ان يكون المغارة التي تنسب للشاذلي ايضا في زماننا هذا والغار الذي ادركناه قبل اليوم تحت الجبل وبه عين ماء يقال لها الحمام وخرب واليوم في موضعه ماجل وهو على الطريق على شاطي البحيرة * قـال وجامع تونس يرقى اليه من ناحية المشرق على اثنتي عشرة درجة وقد تقدم هذا النقل عن غيره بزيادة ايضاح * وقـال ابن الشباط ومحاسن تونس ومبانيها في حصره مما يقصر عنه الوصف وانشد لبعض الشعراء يمدحها

فتونس تونس من جاءهــا * وتدركه حسرة حيث سار
فلو حل عنها لارض العــراق * لحن اليها حنين الحــوار
يحن اليها ويشتاقهــا اشــتياق الفرزدق فقد النوار

والنوار امراة الفرزدق الشاعر المشهور وله فيها عدة قصائد في محبته اياها * وذكر البلاذري ان زهير بن قيس افتتحها * وقـال البكري افتتحها حسان بن النعمان وقاتل النصارى بفحصها فاذعنوا له وسالوه ان لا يدخل عليهم ويضع الخراج عليهم ويقوموا له بما يحمله واصحابه فاجابهم الى ذلك وكانت لهم سفن فاحتملوا فيها اموالهم واهليهم ليلا واسلموا المدينة فدخلها حسان فحرق وخرب وبنى فيها مسجدا وخلف فيها طائفة من المومنين قال واغارت الروم من البحر على من بقي فيها من المسلمين فقتلوا وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ووصل الخبر الى حسان فرحل الى

تونس وارسل اربعين رجلا من اشراف العرب الى عبد الملك بن مروان وكتب اليه بما نال المسلمون من البلاء فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه الامر وكان اذ ذاك التابعون متوافرين وفيهم اثنان من الصحابة انس بن مالك وزيد ابن ثابت فقالا للمسلمين من رابط يوما برادس فله الجنة وقالا لعبد الملك ادرك هذه البلاد وانصر اهلها ليكون لك ثوابها فانها من البلاد المقدسة فكتب عبد الملك الى اخيه عبد العزيز وهو وال على مصر ان يوجه لتونس الف قبطي باهله وولده وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس وكتب الى حسان بن النعمان يامره ان يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يصنع بها المراكب ويغير منها على سواحل الروم . فوصل القبط الى حسان وهو مقيم بتونس فاجرى البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجعل فيها المراكب الكثيرة وامر القبط بعمارتها * قال ابن الشباط وقد تقدم ان عبيد الله بن الحبحاب هو الذي بنى دار الصناعة فلعل من روى ذلك يريد ان عبيد الله جددها وزادها تحصينا فلم تزل تونس معمورة من يومئذ يغزو منها المسلمون بلاد الروم ويكثرون فيهم النكاية والاذاية * وذكر البكري ان حسان هو الذي خرق البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة * وقال غيره ان الوليد ابن عبد الملك بن مروان لما علم ان الروم اشاروا على تونس وبلغ ذلك من المسلمين كل مبلغ وان علماء المشرق كتبوا الى اهل افريقية من رابط عنا يوما برادس حججنا عنه حجة وعظم قدر رادس عند العلماء وزاد فضلها وان حسان بعث الى الوليد يعلمه باذاية الروم كتب الوليد الى عمه عبد العزيز بن مروان وهو وال على مصر وافريقية ان يوجه الف قبطي والف قبطية ويحملهم الى بلاد افريقية وامره ان يخرق البحر الى تونس * وذكر غيرهما ان الذي خرق البحر الى تونس هو موسى بن نصير وجعل دار الصناعة بتونس وجر البحر اثني عشر ميلا حتى اقحمه دار الصناعة فصارت مينا المراكب وامر بصناعة مائة مركب وغزا بها بلاد الروم وعقد لولده عبد الله

عليها وامره بالانصراف الى صقلية وكانت اول غزوة غزيت في بحر افريقية فسار عبد الله الى صقلية فافتتح فيها واصاب ما لا تدرى قيمته ثم انصرف قافلا سالما وكانت تسمى غزوة الاشراف وعقد بعد ولده لبعض اصحابه على مراكب اخر فوصل سرقوسة وملكها والله اعلم بحقيقة ذلك * وحاصل الامر ان تونس ليست محتاجة الى تعريف وذكرها طبق الوجود فهي كما قيل في المثل طابق الاسم المسمى لانها تونس الغريب وقلما يوجد غريب دخلها الا وحصلت له بها علاقة ولا يفارقها الا وهو متحسر عليها ومن قطن بها حنت عليه وحن لها ان فارقها وعزت عليه * وذكرها غير واحد من العلمآء واثنى عليها بمحاسن كثيرة لا تعد ولا تحصى * وزمزم الحداة بذكرها في المسجد الحرام والمسجد الاقصى — وكيف يصح في الاذهان شيء : اذا احتاج النهار الى دليل — وهي حرسها الله واسطة البلاد الافريقية كما ان افريقية واسطة البلاد الغربية فهي بمنزلة الراس من الجسد بل بمنزلة العين من الراس واذا ثبت ما قلته وتقرر ما نقلته فالذي صح عندي انها قديمة من بنآء الاوائل والذي ذكر فتحها هو اقرب من غيره وان حسان هو الذي فتحها وبنى بها مسجدا وعبيد الله بن الحبحاب زاد في ضخامته كما ان زيادة الله بن الاغلب زاد فيه وضخمه وكملت ضخامته في أيام بني حفص كما سيأتي بعد ان شآء الله تعالى * وحسان بن النعمان هو الذي فتح قرطاجنة وقطع عنهم القناة المجلوب عليها المآء وفتح تونس واتخذ بها مسجدا وهو الجامع الاعظم وسمي بجامع الزيتونة كما مر في اول الكتاب * وتونس لا شك انها قديمة البناء وكانت معاصرة لقرطاجنة * واسمها ترشيش وقيل هذا الاسم علم لها من قديم الزمان الذي هو تونس * وسالت بعض النصارى ممن لهم علم بالتاريخ فقال اسمها تنس في كتبنا وهذا الاسم باللسان الاعزيقي معناه تقدم واوقفني على كتاب عنده في التاريخ وكلتا المدينتين فيه مصورتان تونس وقرطاجنة والحناية ووادي مجردة وتونس اصغر حجما من قرطاجنة وسالته عن تاريخهما فقال ازيد من الفي عام * والنصارى

لهم اهتمام بهذا العلم والبلاد كانت لهم وصاحب الدار ادرى بالذي فيها ولا يعلم الغيب إلّا الله تعالى * واما من قال بناها بنو امية في حدود الثمانين والذي بنى الجامع ودار الصناعة عبيد الله بن الحبحاب سنة اربع عشرة ومائة فبعيد اذ كيف يمكن ان يقال مكثوا نيف وثلاثين سنة بغير مسجد وهولاء القوم كانوا في صدر الاسلام إلّا أن يكون تاسيس المسجد في الاول والبناء الضخم في الاخر وبهذا يرتفع الاشكال بحول الله * واما السور فمن بناء بني الاغلب والقصبة ايضا وكانت عمال افريقية سكناهم القيروان واول من سكن تونس من العمال الاغالبة * قال ابن ناجي رحمه الله واتخذ بنو الاغلب تونس لتنزهاتهم وبنوا الجامع الاعظم * قلت ومات بتونس عبد الله بن احمد بن ابراهيم بن الاغلب سنة ست بعد التسعين والمائتين مقتولا قتله بعض خدمته باتفاق من ابنه زيادة الله واستقل بالملك بعده * وبالجملة فان مدينة تونس لها حظ وافر * وحسن باهر * حازت قصبات السبق في البلاد الغربية * وعظم شانها بين جيرانها وحبائبها الافريقية * ولا سيما في هذه الدولة التركية * والسلطنة الخاقانية * خلد الله ايامها * وسير بالعدل احكامها * تميزت بجمع المحاسن * وصفا منها كل ماء اسن * واتسعت عماراتها * وكثرت خيراتها * وعمرت فيها الاسواق والدور * وبنيت فيها المنازه والقصور * وظهر فيها كل حسن غريب * وهاجر اليها البعيد والقريب * وطابق الاسم المسمى كما يقال تونس الغريب * إلّا انها في هذا الزمان اصيبت بالمحن * وقام بها سوق الخوف من بعد الامن من شدة الفتن * عسى الله ان يجعل بعد عسر يسرا * واهلها ولله الحمد لهم اخلاق رضية ونفوس أبية * وعقل ثاقب * وراي صايب * وعلو شان * وحدة اذهان * وعلماؤها مميزون عن من سواهم بالذكاء والنباهة حتى ان الواحد منهم اذا لازم الاشتغال يحصل له في سنة ما لا يحصل لغيره في عدة سنين * ورزقها الله تعالى سرا تميزت به بين البلدان * واعظم سرها جامعها الاعظم كانه بين المساجد مسجد سليمان * وذكرها العبدلي في رحلته واثنى على اهلها خيرا * وذكر

علمآءها بما هم اهله ولما ذكر مصر قال سماعك بالمعيدي ومن كابر في النقل فلينظر الاصل * وكان العلامة الشيخ ابو عبدالله محمد بن مصطفى الازهري نزيل تونس رحمه الله لما استوطن هذه الديار التونسية وتأنس بها وحضر عند اهلها وامرائها يقول لو سئلت عن ثلاث لاجبت بلا ولو قطع راسي لو قيل لي هل رأيت اعلم من الشيخ ابراهيم اللقاني لقلت لا . ولو قيل لي هل رأيت اسر من جامع الزيتونة لقلت لا . والسؤال الثالث ياتي في محله ان شاء الله تعالى * ولقد غالى بعض العلماء في مدح تونس وحريمها حتى قال من لم يتزوج بتونسية ليس بمحصن وفي هذا القدر كفاية * لمن له خبرة ودراية * ولو تتبعنا محاسنها لطال بنا الكلام وخرجنا عن الشرط * ولما مد القلم لسانه في هذا المحل حكمنا عليه بالقط * وعسى ان نصل الى ما هو اهم * وننتقل من الخصوصية الى ما هو اعم * وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *

البـــــاب الثـاني

في التعـريف بافريقـية

افـــريقية من بلاد المغرب وعند اهل العلم ان اطلق اسم افريقية فانما يعنون به بلد القيروان واما اهل السير فيجعلونه اقليما مستقلا وله حدود ولهم اختلاف فيه وافريقية اوسط بلاد المغرب وخير الامور اوسطها * وقيـل انما سميت بافريقية لانها فرقت بين المشرق والمغرب ولا يفرق بين الاثنين إلّا احسنهما * وقيل سميت افريقية باسم اهلها وهم الافارقة والافارقة من ولد فاروق بن مصرايم وقال ءاخرون الافارقة من ذرية قوط بن حام بن نوح عليه السلام سموا باسم البلاد * وقيـل ان افريقش بن ابرهة بن ذي القرنين لما غزا بلاد المغرب ودوخ البلاد بنى مدينة سميت باسمه فقالوا افريقية وسموا اهلها الافارقة ذكره المقريزي * وقيل اسمه افريقين بن قيس بن صفي

الحميري افتتحها وقتل ملكها واسمه جرجير فسميت به ويومئذ قال لاهلها ما اكثر بربرتكم فسموا بربر قاله ابن خلكان * وقيل كان اسمه افريقس بالسين المهملة فعربتها العرب بالشين المعجمة * ونقل ابن الشباط عن بعضهم انه كان يقول اسمها ابريقية من البريق لان سماءها خال من السحب قلت وهذا القول بعيد لان افريقية كثيرة السحب حتى قال بعضهم ان القيروان لا تخلو من السحب في غالب السنة ويعبر عن فحص القيروان بمزاق لان السحب تتمزق منه حتى قال بعضهم تنشا السحابة بالقيروان وتمطر بصقلية وغالب بلاد افريقية كثيرة البرد والامطار وغالب الاوقات لا تخلو من السحب * وسمعت بعض الفقهاء يقول معنى قوله تعالى — اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز — يعني الارض المخرشفة على احد التأويل ولا يوجد في غالب المعمور اكثر خرشفا من افريقية والله علم * وافريقية اقليم عظيم جمع المحاسن الجميلة * والفوائد الجليلة * والمدن العظيمة * والمزارع الكريمة * والمياه العذبة * والفواكه اليابسة والرطبة * والمباني المنيفة * والمعادن الشريفة * والمسارح المعدة للضرع * والاثار البديعة للزرع * وجميع ما يحتاج اليه * وتقبل النفوس عليه * وجعلوا حدود المغرب من سيب بحر النيل بالمشرق الى ساحل البحر المحيط من ناحية المغرب * وحد افريقية بالطول من برقة الى طنجة وعرضها من البحر الشامي الى الرمال التي اول بلاد السودان قاله غير واحد * قلت في زماننا هذا لا يعبر بافريقية إلّا من واد الطين الى بلد باجة * وقال ابن الشباط واوصاف افريقية اشهر من ان تذكر * او يخاف عليها من ان تجحد وتنكر * ولم يزل بها على مر الزمان من العلماء والكتاب * وذوي البراعة في المعارف والاداب * من تزدان باوصافه الاقطار * وتشرق بانوار كلامه الاسطار * وذكر احاديث شريفة في فضل المغرب وفضل افريقية * وتقدمه ابن الدباغ في ذلك واورد احاديث وردت في فضل المنستير ورادس * وقال ابن ناجي لا شك ان الاحاديث التي في المنستير ورادس موضوعة * وها انا

اورد من تلك الاحاديث ما ثبتت صحته على وجه التبرك * ذكر ابن الشباط قال في كتاب مسلم حدثنا يحيى بن يحيى قال حدثنا هشام عن داوود ابن ابي هند عن ابي عثمان عن سعد بن ابي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة * وفي كتاب الطبقات في علماء افريقية حدثني فرات بن محمد قال حدثنا عبد الله بن ابي حسان اليحصبي عن عبد الرحمن بن زياد عن ابي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لياتين اناس من امتي من افريقية يوم القيامة وجوههم افضل نورا من نور القمر ليلة البدر * وذكروا عدة احاديث وردت في افريقية وان المنستير باب من ابواب الجنة * ولا شك ان لها فضلا وشانا والله اعلم * وحكى بعض المورخين عن عبد الرحمن بن زياد بن انعم انه قال كانت افريقية من طنجة الى طرابلس ظلا واحدا وقرى متصلة عامرة فاخربت جميع ذلك الكاهنة وذلك لما هزمت حسان بن النعمان الغساني بعد ما فتح قرطاجنة وتونس وهزم البربر هزيمة شنيعة وفروا امامه الى برقة ورجع الى القيروان فسال هل بقي احد ممن له شوكة قوية من البربر فقيل له امراة ساحرة يقال لها الكاهنة وهي بجبل اوراس في عدد عظيم * فسار اليها والتقى معها فاقتتلوا اشد قتال فقتل من العرب خلق كثير وانهزم حسان واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس واسرت من اصحابه ثمانين رجلا وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان * وكتب حسان الى عبد الملك يخبره بما لقي المسلمون فوافاه الجواب يامره بالمقام حيث ادركه كتاب امير المومنين فادركه وهو في عمل برقة فاقام هنالك خمسة اعوام بموضع يقال له قصور حسان وبه سمي الى الان * وملكت الكاهنة افريقية خمس سنين منذ انصرف حسان منها وقالت للبربر ان العرب يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع ولا نرى لكم إلّا خراب افريقية حتى ييأسوا منها وارسلت قومها الى كل ناحية لقطع الشجر والزيتون

فخربت البلاد باسرها وهدمت الحصون وكانت كلها قرى متصلة * وفي تواريخ النصارى انه كان لملك افريقية وهو صاحب قرطاجنة مائة الف جفن بين حصن ومدينة يحكم عليها وانه لما غزا الى رومة المدآئن اخذ من كل بلدة رجلا ودينارا وسار اليها على ناحية المغرب على بحر الزقاق من ناحية الاندلسية وافرنجة واناخ على رومة وحاصرها حصارا شديدا وبعث صاحب رومة عسكره في البحر الى قرطاجنة واناخ عليها ووقع القتال بينهم على وادي مجردة وكان بينهم قتال شديد وكان الخيالة من اهل قرطاجنة ثمانين الفا غير الرجالة فعند ذلك رحل صاحب قرطاجنة عن رومة ورجع الى بلاده ومن ذلك الوقت بقيت الافارقة في الاندلسية وملكوها مئين من السنين والله اعلم * وقـــال الملشوني لم يدخل افريقية نبي قط واول من دخلها بالايمان حواري عيسى عليه السلام * قلـــت الحواري الذي دخلها اسمه متى العشار وقتل بقرطاجنة وهو اول من كتب الانجيل بلسان العبراني بعد رفع المسيح بتسع سنين * وقـــال غيره بل دخلها نبي الله خالد بن سنان العبسي وكان في زمن الفترة ولكن لم يدخلها بدعوة وهو مدفون في المغرب في بلد بسكرة وانكر بعض الفقهآء ذلك وصححه ءاخرون والشيخ التواتي ممن اثبته انه هو * ورايت بخط والدي رحمة الله عليه قـــال حضرت الشيخ المذكور وهو متوجه لزيارة نبي الله خالد بن سنان العبسي وله كتاب صنفه الشيخ وثبت عنده صحته وهو في تلك البلاد يسمونه خالد النبي ويزورونه ويتبركون بمقامه صلى الله عليه وسلم * ومن مدن افريقية — برقة — وطرابلس — وغدامس — وفزان — واوجلة — وودان — وكوار — وقفصة — وقسطيلية — وقابس — وجربة — وتيهرت — وباجة — والاربس — وشقبنارية — وصبرة — وسيطلة — وباغاية — ولميس — واذنة — ودرعة — وبجانة — وسوسة — وبنزرت — وزغوان — وجلولا — وقرطاجنة — وتونس — وكل هذه وقع عليها الفتح * وانما كانت دار الملك اولا في قديم الزمان بقرطاجنة لما كانت بيد الافارقة الاغريقيين الى ان

دخلت عليهم البربر من بلاد المشرق بعد ما قتل ملكهم جالوت وتفرقوا في البلاد فانحاز اكثرهم الى افريقية والمغرب واستوطنوا البلاد سهلها ووعرها الى ان ظهر فيهم دين النصرانية فتغلبت الروم على سواحل البلاد وصارت في من لهم ذمة * وكانت قرطاجنة اعظم مدن المغرب وهي قديمة البناء قال بعضهم انها بنيت في زمن داوود عليه السلام وان بين بنائها وبناء رومة اثنين وسبعين سنة ولم يذكر ما السابق منهما * قلت هذا بعيد جدا إلّا ان يكون بناؤها الثاني او الثالث لقول احد المفسرين ان الذي كان ياخذ كل سفينة غصبا هو صاحب قرطاجنة * وموسى كان قبل داوود عليهما السلام بزمان طويل * وذكر ان مجمع البحرين برادس والجدار بالمحمدية وهي طنبذة واهل تلمسان ايضا يسمون بلدهم بالجدار الى الان والله اعلم * ويستشهد لقدمها ما روته الثقاة عن عبد الرحمن بن زياد بن انعم قال كنت وانا غلام مع عمي بقرطاجنة نتمشى في ءاثارها ونعتبر بعجائبها فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية — انا عبد الله بن الاواسي رسول رسول الله صالح * وفي رواية بعضهم — شعيب بعثني الى اهل هذه القرية ادعوهم الى الله تعالى اتيتهم ضحى فقتلوني ظلما حسيبهم الله * وذكر بعض المورخين ان موسى بن نصير لما فتح الاندلسية ذكر له بها شيخ كبير فدعا به فاذا الشيخ وقعت حاجباه على عينيه فقال له اخبرني كم اتى عليك من السنين قال خمسمائة عام فساله عن اشياء فاجابه الى ان قال له اين بلدك قال قرطاجنة قال له كم عمرت بها قال للثمائة عام وبهذه البلاد مائتي عام فساله عن خبر بناء قرطاجنة فقال بقية من قوم عاد الذين اهلكهم الله بالريح العقيم فعمروها ما شاء الله ثم خربت وبقيت الف سنة خرابا حتى اتى النمرود بن لاوذ بن النمرود الجبار فبناها على البناء الاول ثم احتاج الى الماء العذب فبعث الى ابيه وكان ابوه بالشام والعراق وعهد على السند والهند فارسل اليه ابوه المهندسين والفعلة فهندسوا له الماء حتى اوصلوه الى المدينة ومكثوا يرتادون الماء اربعين سنة * ولما حفروا

اساسه وجدوا حجرا مكتوبا عليه بالخط الاول سبب خراب هذه المدينة
اذا ظهر فيها الملح فبينما نحن ذات يوم عند غدير بدار الصناعة بقرطاجنة
اذ نحن بالملح منعقد على الحجر فعند ذلك رحلت الى هنا ومن كان على مثل
راي في ذلك ، وسألته عن عمر الملك فقال عمر سبعمائة عام والله اعلم *
وهـــــذه الحناية من اعجوبة الدنيا واذا افتخر المصريون بالاهرام تفتخر
اهل افريقية بهذه الحناية على مصر لان اصل الماء منبعث من عين جنقار
واليوم اسمها الحميدية وهي وراء زغوان بمسافة بعيدة وجلبوا ماء زغوان معها
وكلما وجدوا في طريقهم ماء جلبوه من اليمين والشمال عدة فراسخ وكانت
من اولها الى ءاخرها محفوفة بالبساتين والامياه جارية بينها * وفي تواريخ
النصارى ان طول مسافة الحناية من منبعثها الى المدينة ستون ميلا على
الاستقامة وبتعريجها وعطفاتها ثلثمائة ميل ونيف وثلثون ميلا وانها كملت
في ثلثمائة سنة واربع سنين * قلـــــت لا يستغرب طول هذه المدة
لان هذا البناء من اغرب الابنية واذا كان طولها ثلثمائة ميل ونيف وثلثين
ميلا فلا يبعد ان يكون البناء في كل سنة ميلا مع هذا الاتقان الذي
بها وطول اعمار القوم ومن شاهدها حكم بعقله بصحة ذلك * وعنـــد
النصارى كان بقرطاجنة ثلثة اسوار دائرة بها والبحر يضرب في سورها وهي من
اعجب بلاد الله وكان تكسيرها اربعة عشر الف ذراع وهي من اعظم بلاد
افريقية * وقـــــال البكري لو دخلها الداخل ايام عمره لراى كلّ يوم
اعجوبة وبها قصر يعرف بالمعلقة مفرط في العلو فيه طبقات كثيرة مطل على
البحر * قلت لم يبق مما ذكر إلّا هذا الاسم وبقيت خرائب بها يسمونها
المعلقة الى الان * قـــال وبها قصر يسمى الطياطر فيه دار الملعب وقصر
يقال له ترمس فيه سواري من رخام مفرطة في الطول يتربع على راس
السارية عشرة رجال وبينهم سفرة وسبعة مواجيل تعرف بمواجيل الشياطين
فيها ماء لا يدرى من اين دخلها * قلـــــت المواجيل موجودة ليومنا
هذا * قـــــال وداخل المدينة مينا تدخلها السفن بشرعها وهي اليوم

ملاحة عليها قصر ورباط يعرف ببرج ابي سليمان * قلـــــت الملاحة التي ذكرها وبرج ابي سليمان هي الان البلد التي عمرها الاندلس وبرج ابي سليمان بها معروف وملاحة اخرى قريبة من اوهام الموسى والله اعلم ايهما كانت * قـــــال وبها قصران من رخام يعرفان بالاختين فيهما ماء مجلوب من قبل الجوف لا يعرف من اين منبعه * قلـــــت هو والله اعلم الماء الذي عليه ءاثار سكرة مجلوب من الجوف من تحت الجبل الذي خلف جعفر وفيه ايضا ماء مجلوب من تحت الملاحة التي بها لانهم وجدوا ارض سكرة كثيرة المياه والغالب عليها الرمل فحصروا الماء بتحكيم البناء العظيم وجعلوه متصلا بعضه ببعض وادار وا بالبناء كالحلقة لجمع الماء فيها وانحصاره ولها منفذ الى نحو قرطاجنة * واخــــبرني بعض من اطلع عليها انه راى المنفذ الجاري وراى بعض بنيانها من ناحية الجوف والذي من ناحية قموت من تحت الملاحة * ويقـــول من لا خبرة له ان هذا الماء يقصد بساتين سكرة وهذا شيء لا يفي بعضه ثمن سكرة اضعاف مرات وانما هذا من عمل الملوك لامر مهم * وكــــذلك الحناية لما احيى بعضها المولى المنتصر الحفصي وجلب الماء عليها الى بساتينه بابي فهر ويعبر عنه اليوم بالبطوم عجز عن بنائها بالحجر وجعل اقواسها طابية وهي اقواس يسيرة وجلب الماء الى البركة التي هنالك وهي باقية الى الان هذا مع ضخامة ملكه وعلو سلطنته وارتفاع صيته لم يستطع اصلاح بعض ما فسد منها ولا قدر على ردها كما كانت اول مرة * وبقية الحناية وءاثارها باقية الى يومنا وهي تدل على امر عجيب * وامـــــا ءاثار المدينة فلم يبق منها إلّا بقية خراب يعبر عنها بالمعلقة فيها اماكن كان يستقر بها الماء * وءاثار المدينة يراها من يركب البحر وبقية البنيان ظاهرة من تحت الماء وهي ممتدة في البحر بين القبلة والمشرق * ولا شـــك ان البحر الذي في حلق الوادي اليوم لم يكن قبل هذا الوقت وانما حدث بعد ما خربت قرطاجنة * واذا كانت المعلقة قصرا من قصورها وبرج ابي سليمان متصل

بها وعصوب منها بل كما قالوا انه من البناء الذي في وسطها تكون مسافتها ازيد من اثني عشر ميلا والله اعلم * وسمعت من يذكر ان باب جهنم من بعض ابوابها وهي متصلة في الجبل الذي بازاء بلد سليمان المسماة به في زمننا هذا * وفي سليمان المذكورة قصر ابي سليمان السابق ذكره وبه داموس لم يعلم احد منتهى طرفه * فسبحان المتصرف في البلاد والعباد * وسبحان من ايد دين الاسلام وعصابته بالنصر على اهل العناد * وتمزيقهم في كل واد * وفتح الله تعالى هذه المملكة العظيمة على يد حسان ابن النعمان * في خلافة عبد الملك بن مروان * في سنة تسع وسبعين من الهجرة ودخل الى افريقية في جيش لم يدخل بمثله احد قبله ومقداره اربعون الفا * ولما نزل على قرطاجنة وبها خلق عظيم التقى الفريقان والتحم الحرب وقتل حسان شجعانهم وابطالهم فاجتمع رايهم على الهرب وكانت لهم مراكب معدة فارتحل الملك ومن قدر معه ليلا * فمنهم من هرب الى الاندلس ومنهم من هرب الى جزيرة صقلية * ولما علم اهل بواديها بهروب الملك تحصنوا بها فقاتلهم حسان وحاصرهم الى ان دخلها بالسيف وارسل الى من حولها وامرهم بهدمها وكسر القناة المجلوب عليها الماء وذلك من قبل ان ينفذ البحر الى تونس وانما حدث من بعد ولله عاقبة الامور * وانما اطلت الكلام عليها لانها بديعة الاثار قريبة من هذه الدار وءاثارها تنبي من اخبارها والله يعلم وانتم لا تعلمون *

الباب الثالث

في فتح جيوش المسلمين افريقية وذكر كل امير دخل اليها في زمن الصحابة
وفي زمن التابعين وفي زمن الخلفاء ومن بعدهم الى ان
ينتهي بنا الغرض ان شاء الله تعالى

اعلم ان الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم فتح في ايامهم جل بلاد المشرق ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والاسكندرية بعث عقبة

ابن نافع الى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد فصارت تحت ذمة الاسلام وسار عمرو بن العاص فغزا مدينة طرابلس وفتحها وافتتح جبال نفوسة وكانوا على دين النصرانية كل هذا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في سنة ثلث وعشرين * وفي اقامة عمرو بن العاص على طرابلس بعث بشر بن ارطات فنتح ودان وجبال نفوسة ولم يتجاوز عمرو بن العاص الى اقليم افريقية ورجع الى مصر قافلا رضي الله تعالى عنه *

الخبر عن قدوم عبد الله بن ابي سرح

وفي خلافة امير المومنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه اقر كل عامل كان لامير المومنين عمر بن الخطاب وكان لا يعزل احدا الّا عن شكاية فاقر عمرو بن العاص على مصر وكان عبد الله بن سعد بن ابي سرح من جند مصر * فامره عثمان على الجند وسرحه الى افريقية وكان اخا عثمان من الرضاعة وسرح معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع ابن الحصين فساروا حتى وصلوا افريقية واوغلوا فيها ونازل قابس في طريقه ورحل منها وبث سراياه في افريقية وكان معهم من الجند عشرون الفا الى ان وصلوا سبيطلة * وكان الملك اذ ذاك جرجير وهو اعظم ملك بافريقية * وقيل انه كان عاملا لهرقل وخلع طاعة هرقل واستقل بالملك وضرب الدينار باسمه اي باسم جرجير وكان سلطانه من برقة الى طنجة ودار ملكه سبيطلة وكانت بين عبد الله بن ابي سرح وبين جرجير مراسلات فابى جرجير عنها وتاهب للحرب وجعل ابنته على ديدبان مال واقسم بدينه لا يقتل احد امير العرب الّا زوجه ابنته * وبلغ الخبر الى عبد الله بن ابي سرح فاقسم بالذي جاء به محمد لا يقتل احد جرجير الّا نفله ابنته * والتحم القتال وكان عسكر جرجير مائة الف وعشرين الفا * فنصر الله المسلمين وقتل جرجير قتله عبد الله بن الزبير واخذ ابنة جرجير * وقتل المسلمون المشركين وهزموهم الى ان دخلوا مدينتهم * فنزل عليها المسلمون وحاصروهم بها وفتحها الله عليهم وذلك في سنة سبع

وعشرين واصابوا فيها ما لا يحصى من ذهب وفضة وبعث بالفتح الى امير المومنين عثمان بن عفان وكان رسوله ابن الزبير فيقال انه بلغ المدينة في خمسة وعشرين يوما وبث عبد الله بن ابي سرح سراياه فبلغت الى بلد قصور قفصة فذلت الروم بافريقية والتجا اكثرهم الى الحصون وداخلهم الرعب وبعثوا الى عبد الله يطلبون الصلح وبذلوا له ثلثمائة قنطار من الذهب وان يرجع من حيث جاء * فاجابهم عبد الله الى ذلك وصالحهم وقبض المال ثم انصرف عن افريقية بعد اقامة سنة وشهرين وكر راجعا الى مصر بعد ما اذعنت له بلاد افريقية كلها وقسم الغنائم على الجند * وقيــــل انه بعث عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس من فورهما ذلك الى الافرنجة والاندلسية فاتياها من قبل البحر وغنموا ما شاء الله * وقيــــل لما رجع عبد الله الى مصر استعمل على عمله عبد الله ابن نافع بن عبد القيس وهذا قول من قال ان الاندلس كان فتحها في زمن عثمان واكثر الناس من المورخين يقولون في زمن الوليد بن عبد الملك وهو الصحيح او لعل الفتح مرتان قاله غير واحد والله اعلم *

الخبر عن قدوم معاوية بن حديج الى افريقية
وفيه خلاف بين المورخين

قيــــل انه غزا افريقية في سنة اربع وثلثين قبل مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وله ثلث غزوات الاولى سنة اربع وثلثين والثانية سنة اربعين والثالثة في خلافة معاوية ولم يذكر احد من المورخين ما كان في خلافة امير المومنين علي بن ابي طالب ولا ولده الحسن الا ان معاوية بن حديج كان سنة خمسين وكان معاوية بن ابي سفيان اذ ذاك خليفة وسنة اربعين كان الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه والله اعلم * وفي سنة خمس واربعين في زمن معاوية بن ابي سفيان ارسل معاوية بن حديج الى افريقية في عشرة الاف مقاتل وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان ويحيى بن

فقال له اصحابه وعلى من تسلم يا ولي الله فقال على قوم يونس ولولا البحر لاريتكم اياهم * ثم قال — اللهم انك تعلم اني انما اطلب السبب الذى طلبه وليك ذو القرنين الا يعبد الا الله — ثم كر راجعا وتخلى الناس من طريقه خوفا من جيوشه وقد دوخ البلاد وليس بافريقية من يخالفه * ووصل الى مدينة طبنة وكان ملكهم كسيلة فتقدمت جيوش عقبة وبقي في نفر يسير من اصحابه الى ان بلغ تهودة وبادس فغلقوا ابوابهم دونه وشتموه من اعلى اسوارهم ودعاهم الى الله فلم يجيبوا وبعثوا الى كسيلة وكان ممن اسلم على يد ابي المهاجر لما فتح تلمسان * ثم صار في عسكر عقبة فاستخف به عقبة وكان ذبح غنما لاصحابه فامر كسيلة بسلخ شاة فقال كسيلة ايها الامير هؤلاء غلماني فابى عليه فقام مغضبا وجعل يسلخ الشاة ويمسح يده على ذقنه والعرب تسخر منه فمر بهم رجل من العرب فقال ان البربري يتوعدكم * وقال ابو المهاجر لعقبة ان الرجل قريب عهد بالاسلام فلا تهنه فلم يلتفت اليه عقبة * ولما ارسل له الروم امكنته الفرصة فقال ابو المهاجر لعقبة عاجله قبل ان يجتمع اليه امره فزحف اليه عقبة ففر امامه ووافاه بمقبرة من تهودة فنزل عقبة وصلى ركعتين واطلق ابا المهاجر وقال له عقبة الحق بالمسلمين فقم بامرهم وانا اغتنم الشهادة فقال ابو المهاجر وانا اغتنمها ايضا فكسرا اغماد سيوفهما ومن معهما من المسلمين والتحم القتال بينهم فتكاثر العدو فقتل عقبة وابو المهاجر ومن كان معهما ولم يفلت الا القليل * واجتمع الى كسيلة جميع اهل المغرب من الروم والبربر واشتعلت افريقية نارا وزحف كسيلة الى القيروان فلما سمع زهير حرض الناس على لقائه فامتنعوا منه واقبل كسيلة الى القيروان بعساكر البربر فخرج اهل القيروان هاربين منه ولم يبق بالقيروان الا الذراري والضعفاء فبعثوا الى كسيلة وطلبوا منه الامان فامنهم ودخل كسيلة القيروان وفر زهير بمن معه الى برقة واقام بها الى ان مات يزيد بن معاوية بن ابي سفيان وتولى الملك معاوية [illegible]

الملك بن مروان * فلما اشتد سلطانه سالوه ان ينظر في احوال افريقية وتخليصها من يد كسيلة فقال ما ارى لها الا زهيرا لدينه وورعه وهو اعرف الناس بسيرة عقبة فبعث الى زهير وامده بالجيوش والاموال وارسله الى افريقية * فلما ترادفت عليه الجموع اقبل الى افريقية في جيش عظيم وذلك في سنة سبع وستين وقيل تسع وستين من الهجرة والله اعلم بحقيقة ذلك *

الخبر عن امارة زهير بن قيس البلوي

ولما قدم زهير الى افريقية وسمع به كسيلة رحل من القيروان ونزل على ليس وقيل ممس * ولما بلغ زهيرا خبره لم يدخل الى القيروان واقام على بابها ثلاثا وارتحل رابع يوم حتى اشرف على كسيلة فنزل الناس وباتوا على مصافهم ولما اصبح صلى بالناس ثم زحف بهم والتحم الحرب فقتل من البربر خلق كثير وفر كسيلة وقفل الى ممس ومضى المسلمون في طلب البربر يقتلونهم كيف شاءوا ورجع زهير الى القيروان فخافه جميع من بافريقية وتحصنوا بمعاقلهم ولم تقم لهم شوكة بعد ذلك وفتح تونس على احد اقوال بعض المورخين كما سبق * وقيل ان حسان بن النعمان افتتحها وقد مر في اول الكتاب * وقيل ان زهيرا كانت ولايته من قبل عبد العزيز بن مروان وعبد العزيز على مصر من قبل عبد الملك اخيه ثم ان زهيرا راى بافريقية ملكا عظيما فكره الاقامة بها لرفاهية عيشها وقال انما جئت للجهاد واخاف ان تميل بي الدنيا وكان من الزاهدين العابدين فكر قافلا الى المشرق فلما انتهى الى برقة امر العسكر بالمسير على الطريق واخذ هو في عصابة قليلة على طريق البحر فوجد اقواما من النصارى اخذوا جملة من المسلمين اسارى فاستغاث به المسلمون فوقع فيهم بمن معه فاستشهد رحمة الله عليه ومن معه * ولما انتهى الخبر الى عبد الملك بن مروان عظم عليه ذلك وكانت مصيبته به

مثل مصيبة عقبة رحمهما الله * واستغاث المسلمون لعبد الملك وسالوه ان ينظر في امر افريقية فاتفق رايه على حسان بن النعمان الغساني وكان بمصر في عسكر عظيم عدة لما يحدث * وفتحت في ايام زهير بن قيس باجة وشقبنارية وهي اليوم تسمى الكاف والاربص وهي قرية قريبة منها ومدينة تونس وقرطاجنة على الاختلاف في هذين البلدين والله اعلم *

الخبر عن ولاية حسان بن النعمان الغساني

فكتب اليه عبد الملك يامره بالتوجه الى افريقية واطلق يده على اموال مصر يعطي منها ما شآء لمن يرد عليه من الناس فوصل افريقية في اربعين الفا ولم يدخل افريقية اعظم منه قبله وذلك في سنة سبع وسبعين وقيل في سنة ست وسبعين وقيل تسع وسبعين * فلما بلغ القيروان سال عن اعظم ملك بافريقية فقيل له صاحب قرطاجنة * وكانت مدينة عظيمة تضرب امواج البحر سورها وبينها وبين تونس اثنى عشر ميلا وبين تونس والقيروان مائة ميل وقد سبق التعريف بها ولكن جئت بها هنا لاتمام الفائدة * واعجب ما بقرطاجنة دار الملعب ويسمونه الطياطر وقد بنيت اقواسا على سواري وعليها مثلها * وصور في حيطانها جميع الحيوان واصحاب الصنائع * وفيه صور الرياح فصورة الصبا وجه مستبشر وصورة الدبور وجه عبوس * ورخام قرطاجنة لو اجتمع اهل افريقية على نقله لم يمكنهم ذلك لكثرته * قلت لم يبق بها في زماننا من الرخام شيء * وضبط ابن الشباط قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء المهملة وبعدها طآء مهملة وفتح الجيم وتشديد النون وتآء مونثة وقيل بكسر الجيم * وقال سمعت من يقول قرطاجنة بفتح الجيم وكانت دار الملك بافريقية * فبعث اليها الخيل وضايق بها وقطع القناة التي جلب عليها المآء وكان البحر لم يخرق الى تونس وانما خرق بعد ذلك * وهدم المدينة وشتت اهلها واستقام امره * ثم ان حسانا بلغه ان النصارى تجمعوا له وساعدتهم البرابرة * فسار اليهم وهزمهم الى برقة ورجع الى القيروان فاستدام بها

وسال هل بقي احد اذا قتل خافت البربر والنصارى فقيل له امراة يقال لها الكاهنة وهي بجبل اوراس تخافها النصارى والبربر فتوجه الى لقائها وعلمت الكاهنة بامره فقدمت اليه في عسكر عظيم من البربر والروم * فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا ففر حسان منهزما وقتل من العرب خلق كثير واسرت من اصحاب حسان ثمانين رجلا واتبعت حسانا حتى خرج من عمل قابس ونزل في برقة بمكان يعرف به الى اليوم يقال له قصور حسان وقد سبق في اول الكتاب بما فيه كفاية ومكث هنالك خمسة اعوام الى ان جاءه كتاب عبد الملك بن مروان وامده عبد الملك بالمال والرجال وكر راجعا الى افريقية * فلما سمعت به الكاهنة بعثت الى عمال افريقية كلها وقطعت اشجارها وخربت بساتينها علما بان العرب لا يطلبون الّا المدن واذا اخليت المدن لم يكن لهم ارب في افريقية واسم الكاهنة دامية بنت ينفاق وهي من عظماء البربر الذين ملكوا افريقية وكما سبق في اول الكتاب انها كانت ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة * وكانت الكاهنة اطلقت من اسرته من العرب الّا واحدا اسمه خالد فآخت بينه وبين ولديها وقالت لهم اني مقتولة وكانها تنظر الى راسها يركض به الى ناحية المشرق ثم امرت ابنيها وخالدا ان يمضوا الى حسان ويستامنوه فتوجهوا الى حسان واعلموه بالخبر * ثم تقدم حسان حتى التقى بها واقتتلا قتالا عظيما حتى ظن الناس انه الفنا * فانهزمت الكاهنة وتبعها حسان وقتلها بمكان يعرف ببئر الكاهنة وقيل في طبرقة وبعث براسها الى عبد الملك * وعقد لولدي الكاهنة على اثني عشر الفا من البربر الذين اسلموا وبعثهم الى المغرب يجاهدون في سبيل الله ولم يبق له بافريقية منازع فرجع الى القيروان وقد دانت له البلاد وذلك في سنة اربع وثمانين وكتب الخراج على النصارى وعلى من تمسك بدين النصارى من البربر وتقدم ان زهيرا افتتح تونس نقله ابن الشباط عن البلاذري وعن البكري ان حسانا افتتحها * قال ابن الشباط ولعل الفتح كان مرتين والله اعلم * وسبق في اول

ابي الحكم بن العاص وعدة اشراف من قريش ففتح مدينة سوسة وكان ارسل اليها عبد الله بن الزبير وقاتل النصارى الذين بها وظهرت منه شجاعة قوية على باب سوسة بحيث انه صلى صلاة العصر والعدو قريب منه ولم يكترث به ورجع الى معاوية بن حديج وارسل ابن حديج عبد الملك ابن مروان الى جلولا فحاصرها اياما وقتل من اهلها عددا كثيرا وفتحت عنوة وسبوا الذرية واصابوا مغنما كثيرا وقسم معاوية الفيء بين المسلمين والله اعلم هل كانت في سنة اربع وثلاثين او خمس واربعين وبين جلولا والقيروان اربعة وعشرون ميلا وبقرب جلولا متنزه لبني عبيد يعرف بسردانية ليس بافريقية اجل منه وكانت كثيرة الثمار واكثر رياحينها الياسمين والورد وبها قصب السكر * قـــال ابن ناجي كان يدخل الى القيروان اربعون حملا وردا جلوليا في اليوم وبوردها يضرب المثل * وارسل معاوية بن حديج جيشا في البحر في مائتي مركب الى صقلية ففتحوها وسبوا وغنموا واقاموا شهرا وانصرفوا بغنائم كثيرة * وبـعث معاوية بالخمس الى معاوية بن ابي سفيان * وفي سنة احدى واربعين فتح بنزرت وكان معه عبد الملك بن مروان فشذ عن الجيش فمر بامراة من العجم فقرته واكرمته فشكر لها ذلك ولما ولي الخلافة كتب الى عامله بافريقية ان يحسن لها ولاهل بيتها * وبنزرت قديمة البناء وهي اجل بلاد على ساحل البحر * قـلت وسمعت من يقول معنى قوله تعالى — وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي — هي بنزرت * وسـمعت من يقول في قوله عز وجل — وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر — هي بنزرت * وسمعت من يقول كان الحاكم بها يهوديا في الزمن السابق ولما ضعف امرهم وصاروا تحت الذمة عاملهم المسلمون الذين تملكوهم بان جعلوا سوقهم يوم السبت نكاية لهم عن ما سبق من اذاهم حتى لا يتصرفوا معهم في معايشهم يوم السبت والله اعلم بحقيقة ذلك * وبـعث معاوية بن حديج رويفع بن ثابت الانصاري الى جربة ففتحها وهي جزيرة في البحر تقرب من قابس وبينهــا وبين

البر جاز وفيها بساتين كثيرة وزيتون كثير * وقيل ان رويفع بن ثابت كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس سنة ست واربعين فغزا افريقية من طرابلس سنة سبع واربعين وفتح جربة والله اعلم * ورجع معاوية بن حديج الى مصر فلما وصل مصر عزله معاوية بن ابي سفيان عن افريقية واقره على مصر ووجه معاوية عقبة بن نافع الفهري الى افريقية في عشرة آلاف من المسلمين وقاتل من بها من النصارى والبربر حتى افناهم واتخذ قيروانا للعسكر وهي القيروان التي في زماننا هذا * وسبب بنائها مذكور في غير هذا المكان مبسوط بزيادة بيان واختط بها الجامع الاعظم وصلى فيه * وكان عقبة رضي الله تعالى عنه مستجاب الدعوة * وقيل ان غزوته هذه كانت سنة اثنتين واربعين والله اعلم * وفي سنة احدى وخمسين عزل معاوية بن ابي سفيان عقبة عن افريقية وولى مسلمة بن مخلد على مصر وافريقية *

الخبر عن ولاية مسلمة بن مخلد الانصاري

فلما وصل الى مصر بعث مولى له اسمه دينار ويكنى بابي المهاجر الى افريقية فلما وصل اليها كره ان ينزل في بلد اختطه عقبة فبعد عن القيروان وبنى مدينة واخلى القيروان وامر الناس بعمارة بلده واسمها تيكروان فلما سمع عقبة بذلك حنق عليه ودعا الله تعالى ان يمكنه من ابي المهاجر فاستجاب الله دعاءه وسياتي بعد * وفي ولاية ابي المهاجر فتحت جزيرة شريك * قلت جزيرة شريك هي الجزيرة المعلومة في زماننا هذا التي بها جامع الانف وبناها الاندلس مثل سليمان وتركي وغيرهما واليها ينسب باب الجزيرة في يومنا والله اعلم * وجزيرة شريك كانت عامرة في ذلك الوقت وبها مدن وقصور كثيرة وخيرات ومزارع حسنة وهي بين مدينة سوسة ومدينة تونس * وسميت جزيرة شريك نسبة الى شريك العبسي الذي كان واليا عليها وبعث اليها ابو المهاجر حنش بن عبد الله الصنعاني فافتتحها وغنم منها وقتل اهلها وسبى سبيا عظيما * ورجع عقبة الى

المشرق فشكى الى معاوية ما فعله ابو المهاجر به فوعده بالرجوع الى عمله * وتوفي معاوية رضي الله تعالى عنه واستخلف ولده يزيد بعده فولي عقبة بن نافع افريقية في سنة اثنين وستين من قبل يزيد بن معاوية فسار عقبة حنقا على ابي المهاجر * فلما بلغ افريقية اوثقه بالحديد وامر بتخريب مدينته التي بناها واعاد الناس الى القيروان وعمروها واجمع عقبة على الغزو في سبيل الله * واستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان ومضى في عسكر عظيم حتى نزل مدينة باغاية وهي قريبة من جبل اوراس والجبل مطل عليها وكان قد لجا اليها جمع من البربر والنصارى فقاتلهم عقبة قتالا شديدا وهزم الروم والبربر وغنم منهم خيلا لم يروا احسن منها * ولجا جلهم الى الحصن وارتحل عنهم الى مدينة لميس وهي اذ ذاك من اعظم مدائن الروم فقاتلهم اشد قتال وهزمهم الى باب الحصن * ولميس قريبة من بلد قسطينة وبينهما مرحلتان واكثر اشجارها التين والعنب والخوخ والجوز * وفتحت في ايام عقبة غدامس ايضا ولكن في ولايته الاولى سنة اثنين واربعين فقتل وسبى وبلغ في غزوته الى بلد السودان وعامة بلاد البربر وفتح فزان وفتح ودان وقفصة وقسطيلية فتحا ثانيا لانها فتحت قبله وارتدوا فاعادهم بغزوته هذه حتى اذعنوا له * وكذلك نفطة وتقيوس وتابس والحامة * ولما غزا فزان خرج اليه ملكهم فصالحه على ثلثمائة عبد وستين عبدا * وغزا قصور كوار وفرض على اهلها ثلثمائة عبد وستين عبد وهنالك ادركه هو واصحابه العطش فصلى ركعتين وسال الله سبحانه وتعالى الماء فجعل فرسه يبحث برجليه حتى طلع الماء وهو الذي يقال له عين الفرس الى زماننا هذا * وضايق على اهل كوار ورحل منهم واخذهم بغتة بعد ما رحل عنهم واطمانوا فاباح ما في مدينتهم وسبى نساءهم وذراريهم ثم انصرف الى زويلة ثم رجع الى معسكره فاقام فيه مدة اشهر وسار بعد ذلك الى قفصة وقسطيلية * وذكروا ان باني سور قفصة غلام النمرود * ثم توجه الى المغرب ففتح مدينة سبتة ومدينة طنجة * وسبتة

مدينة على بحر الزقاق من ناحية المغرب وكان صاحبها اليان وهو الذي اعان طارق بن زياد على دخول بلاد الاندلس * وهي مدينة قديمة من بناء الاول وهي في زماننا في يد اعداء الدين اعادها الله للاسلام * فصالحه صاحبها واقره على بلاده وسار الى طنجة ففتحها وقتل رجالها وسبى من فيها وهي طنجة البيضاء وكانت دار ملك لملوك المغرب * وقيل انه كان للملك من ملوكها في عسكره ثلاثون فيلا وهي آخر حدود افريقية في المغرب وبينها وبين القيروان الف ميل وهي اليوم في يد الكفرة اعادها الله تعالى للاسلام وما ذاك إلا من اصل الفتن التي كانت بين ملوك المغرب الاشراف الذين كانوا بمدينة مراكش حرسها الله وملكوا العرايش والمعمورة والبريجة ووهران وعدة اماكن بالمغرب اعادها الله تعالى للاسلام وذلك بعد الالف من الهجرة * ووصل عقبة الى السوس الادنى والسوس الاقصى ومن طنجة الى تاجرا مدينة السوس الادنى عشرون يوما وليس في بلادهم شجر ولا نخل ولا زيتون وعندهم القمح والشعير والاشنام ولباسهم الصوف * ومن تاجرا الى طرفلة مدينة السوس الاقصى مسيرة شهرين * وليس وراء طرفلة انيس في المغرب الى منتهى بحر الرمل * ومن طرفلة الى غانة ثلثة اشهر والله اعلم * قال وقاتل عقبة اهل السوس وسبى منهم سبيا كثيرا وفتح مدينة يغلى وسبى منها سبيا لم ير مثله حسنا * وكانت الجارية منه تباع بالف واكثر من ذلك اي الدنانير * وفتح درعة وهي مدينة عظيمة لها وادي يجري بالماء وعليه اسواق بعدد ايام الجمعة كل يوم سوق وربما كان سوقان في اليوم الواحد في اماكن متفرقة وذلك لكثرة اهلها وطول عمارتها * وفتح مدينة نفيس وكانت حصينة واليها التجا كثير من البربر والنصارى لحصانتها فحاصرهم عقبة وقاتلهم حتى فتحها واصاب غنائم كثيرة * ووصل الى درعة من بلاد السوس الاقصى ودخل الى بلاد لمتونة في الصحراء وفر الناس امامه لا يقوم بين يديه احد ولا يعارضه الى ان بلغ الى البحر المحيط — قال فادخل فيه قوائم فرسه وقال — وعليكم السلام —

الكتاب ان حسانا هو الذي خرق البحر الى تونس وانه بعث الى عبد الملك بن مروان يخبره بحال تونس حتى بعث له القبط كما مر آنفا ومهد قواعد افريقية الى ان عزل بموسى بن نصير والله اعلم *

الخبر عن امارة موسى بن نصير القرشي

من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد ما عزل عنها حسانا وقيل انه استعفى منها وان الوليد اراده الى افريقية فامتنع منها وحلف عنهما فكتب الوليد الى عمه عبد العزيز ان يبعث موسى بن نصير الى افريقية وقطع افريقية من عمه عبد العزيز وارسل اليها موسى بن نصير فقدم لافريقية سنة ثمان وثمانين فوجد البلاد خالية لاختلاف ايدي البربر عليها ولما سمعوا به فروا امامه الى المغرب فتبعهم يقتل ويسبي ولا يدافعه احد حتى بلغ السوس الادنى فاستامنه البربر فامنهم وولى عليهم واليا واستعمل على بلاد طنجة طارق بن زياد مولاه وترك معه سبعة عشر الف فارس من العرب والبربر ثم رجع الى افريقية ففتح مجانة * وقيل كان فتحها على يد بسر بن ارطاة استعمله موسى بن نصير وبعث بخمسها الى الوليد وفتح زغوان وكان بها عدة قرى وبها من البربر عالم عظيم فغزاها موسى بن نصير وفل جمعهم وسبى منهم سبيا عظيما فبلغ سبيهم عشرة آلاف وهو اول سبي دخل القيروان في ولاية موسى بن نصير وغزا هوارة وزناتة وصنهاجة * وقيل ان موسى كانت اول ولايته من قبل عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين ولم يزل الى ايام الوليد بن عبد الملك فتوالت عليه فتوحات موسى ابن نصير فعظمت منزلته عند الوليد * وقيل ان موسى هو الذي خرق البحر الى تونس وبنى دار الصناعة وصنع بها مائة مركب وغزا صقلية * وبعث ولده مروان الى السوس الاقصى في خمسة آلاف فارس فغنم منه ما لا يبلغ الحصر * قيل ان السبي بلغ اربعين الفا * وبلغ موسى الى ما لا يبلغه غيره الى البحر المحيط وراى عجائب يقصر عنها الوصف وهي مدونة في غير هذا الموضع يطول شرحها لمن تتبعها وراى ما لم يره غيره * وبعث الى

الاندلس طريفا مولاه ولقبه ابو زرعة في سنة احدى وتسعين وبلغ الى جزيرة طريف وبه سميت الى الان * وفي سنة اثنتين وتسعين بعث مولاه طارقا الى الاندلس وكان عامله على طنجة واعانه على الدخول اليها اليان صاحب طنجة وقيل صاحب سبتة وقيل اليان وصل الى القيروان مستنجدا بموسى ابن نصير لامر حدث عنده من قبل ردريق ملك الاندلس وهون على موسى فتح بلاد الاندلس وان موسى كتب الى طارق يامره بالمسير الى الاندلس * وكـــانت دار الملك بها مدينة طليطلة وركب طارق في البحر ونزل في جبل الطار هكذا اسمه في زماننا هذا وانما اسمه جبل طارق لانه سمي به واعانه اليان صاحب الجزيرة الخضراء من عمل طنجة وشرحه يطول ذكر ذلك صاحب كتاب المغرب وفي الاكتفاء لابن الكردبوس والطبري وصاحب المختصر وغير واحد من اهل السير والعمدة عليهم * ولما حل طارق بجبل طارق وسمع به ردريق ملك الاندلس حشد جيشه وجمع جموعه واتى الى طارق فالتقى معه وكانت ايام القتال بينهم ثمانية ايام فهزم الله الكافرين ومنح النصر للمسلمين * وكـــان مع طارق اثنى عشر الفا وعسكر الروم شيء عظيم واصاب المسلمون من السبي ما لا حد له من الذهب والفضة والجوهر حتى ان الرجل منهم اذا ضلعت دابته وجد في حافرها مسمارا من ذهب او فضة او حصبات من جوهر وهذا شيء لم يسمع بمثله * وفــتح اشبيلية وقرمونة وشذونة ومورور واستجة وقرطبة وطليطلة وباجة ومارذة وسرقسطة واكثر بلاد الاندلس * ولـــما سمع موسى بن نصير بهذا الفتح احب ان يكون شريكا معه فاستخلف ابنه عبد الله على افريقية وشخص بنفسه وذلك في سنة ثلث وتسعين وكان في عشرة ءالاف فارس * فـــسار على غير الطريق التي سلك عليها طارق وفتح في طريقه عدة مدن اخر * وغـــزا موسى من طليطلة الى الجلالقة فطلبوا الامان من موسى وسار على سرقسطة مسيرة عشرين يوما وبـين سرقسطة وقرطبة مسيرة شهر * وكـــانت اقامته بالاندلس عشرين شهرا وخرج عن الاندلس

وقدم الى الوليد كتابا يقول فيه - يا امير المومنين انه الحشر وليس بالفتح - واقبل بمائة عجلة وثلثين عجلة مملوة بالذهب والفضة واللولو وءاثاث لا يعلم قيمتها الّآ الله ومن ابناء الملوك والاسرى ما يقرب من ثمانين الف اسير والمآئدة التي كانت لسليمان بن داوود عليه السلام واتى افريقية سنة اربع وتسعين واستخلف ولده عبد الله على افريقية وعلى الاندلس ولده عبد العزيز * واقبل يجر الدنيا خلفه ووصل الى مصر سنة خمس وتسعين ورحل الى الشام فوجد الوليد في شكايته التي مات فيها * وبعث اليه سليمان اخوه يامره ان لا يدخل في ايام الوليد لانه كان ولي العهد فخالفه موسى ودخل دمشق والوليد في مرضه فلما ولي سليمان الخلافة حقد على موسى بن نصير وصادره بمائتي الف دينار * وحج سليمان ومعه موسى فمات في تلك السنة بعد ما طلب في مصادرته في احياء العرب وقاسى كربا حتى ان خادمه هم بالهروب عنه لما قلق منه فلما راى موسى ذلك دعا الله ان يقبضه فاصبح ميتا رحمة الله تعالى عليه وكان مجاب الدعوة فسبحان المعز المذل بعد ما ملك ما لم يملكه غيره وحاز نصف المعمور من الدنيا لم يمت حتى احتاج الى السوال في اقرب مدة ومات في مصادرته رحمة الله عليه * وانما اطلت الكلام هنا لان غالب اهل بلدنا ليس لهم اعتناء بالاخبار فاذا نظر احد في هذه الاوراق علم ان افريقية لها صيت في كل زمان * وان هذه البلاد كلها فتحت على يد عمال افريقية * وكانت دار الامارة بالقيروان * ومنها فتحت صقلية ايضا في ءاخر المائة الثالثة كما سياتي ان شاء الله تعالى * وموسى بن نصير هذا من التابعين يروي عن تميم الداري رضي الله تعالى عنه * وكان عاقلا كريما شجاعا لم يهزم له جيش قط ذكره ابن خلكان واثنى عليه بزيادة ثناء * ونقل عن الليث بن سعد انه قال بلغ الخمس ستين الف راس في غزوة افريقية على يد موسى بن نصير وانه وجه ولده عبد الله فاتاه بمائة الف راس من السبايا ووجه ولده مروان الى ناحية اخرى

فاتاه بمثلها * وقـــال الصدفي لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام واستصحب عند قدومه الى الوليد سبعة وعشرين تاجا مكللة بالدر والياقوت تيجان ملوك الاندلس اليونانيين ومن الرقيق ثلاثون الف راس وقـــيل ان الوليد بن عبد الملك هو الذي نقم عليه واقامه في الشمس يوما كاملا حتى خر مغشيا عليه * والاصح انه صادره سليمان بن عبد الملك وحج معه في سنة تسع وتسعين وقيل سبع وتسعين ومات في الطريق بوادي القرى والله اعلم ذكره المسعودي وابن خلكان وغالب المورخين بابسط من هذا * وكـــانت ولايته بافريقية ست عشرة سنة ومات وله من العمر ثلث وسبعون سنة * ولــــما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ست وتسعين عـزل عبد العزيز بن موسى بن نصير عن الاندلس * وقـــيل عبد العزيز هذا كان اخا موسى بن نصير * وبـعث اليها الشيخ ابن مالك * وكـانت ولاية عبد العزيز على الاندلس سنة * وبـعث الى افريقية عبد الله بن كريز واقام بافريقية الى ايام امير المومنين عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه * وعـبد الله بن كريز هذا هو القائل كنت عامل افريقية في ايام عمر بن عبد العزيز فشكوت اليه الهوام والعقارب التي بافريقية فكتب الي وما على احدكم اذا امسى ان يقول — وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما ءاذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون — قـــلت وعلى راس المائة الاولى دانت له جميع افريقية من برقة الى السوس الاقصى ولم تقم بعد قائمة للنصارى والبربر الذين بها * فـــمنهم من دخل في الاسلام ومنهم من ضربت عليه الجزية * وكـانت بها عدة قرى عامرة بالكفر الى بعد المائة الرابعة * وكـــانت الاساقفة تاتي من الاسكندرية من قبل البترك الذي بها الى نصارى افريقية والان طهر الله تعالى هذه البلاد من دنس الشرك ولله الحمد * وكـانت الولاة في الزمن الاول سكناهم القيروان ويبعثون بعمالهم الى اقصى المغرب * وفي ايام عمر بن عبد العزيز عزل عبد الله بن كريز الذي كان عاملا

اسليمان بن عبد الملك وبعث الى الاندلس حذيفة بن الاحوص * وبعث لافريقية محمد بن زيد الانصاري فاقام بها الى ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان * فعزله يزيد بن عبد الملك بن مروان وبعث الى افريقية يزيد بن ابي مسلم الذي كان وزير الحجاج بن يوسف الثقفي وكان سجنه سليمان بن عبد الملك بن مروان وبقي في السجن ايام سليمان وايام عمر بن عبد العزيز فلما استخلف يزيد بن عبد الملك اطلقه من السجن وبعثه الى افريقية واليا عليها فلما قدم افريقية واجتمع بمحمد بن يزيد الانصاري قال له يزيد الحمد لله الذي مكنني منك والله لو حال القضآء بيني وبينك لسبقته اليك * وقيل كان بيده عنقود من العنب وانه قال والله لو سبقني ملك الموت عن اكل هذا العنقود لسبقته اليك وامر بتقبيله وحطه في النطع فبينما هم في المحاورة اذ اقيمت صلاة المغرب فقام يزيد ليصلي بالناس فلما سجد طعنه رجل فقتله واشار الى محمد بن يزيد ان سر في امن الله قال محمد فسرت وانا متعجب من صنع الله ذكره ابن خلكان بابسط من هذا * وذكره صاحب الفرج بعد الشدة * وقيل سبب قتل يزيد ابن ابي مسلم انه اراد ان يسير في الناس بسيرة الحجاج فدسوا عليه من قتله * وقيل ان الذي قتله من الخوارج * وقيل ان اهل افريقية كتبوا الى امير المومنين يزيد بن عبد الملك — انا لم نخلع لك طاعة وانما عاملك سار فينا بالجور فقتلناه — فرد عليهم محمد بن يزيد الانصاري وصرفه ببشر بن صفوان الكلبي * وبعث الى الاندلس عقبة بن الحجاج واقام بشر بن صفوان الكلبي بافريقية الى سنة خمس ومائة * فقفل من افريقية بهدية عظيمة الى يزيد بن عبد الملك فبلغه في الطريق وفاة يزيد فاقبل بهديته الى هشام بن عبد الملك فرده الى عمله بافريقية فلم يزل بها الى ان مات في سنة تسع ومائة * واستخلف بشر على افريقية ابن قرط الكلبي فعاث بها * ولما بلغ خبره الى هشام عزله وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي وذلك في صفر سنة عشر ومائة فلما قدم عبيدة الى

افريقية بعث المستنير بن الحارث غازيا الى صقلية فاصابتهم ريح فاغرقتهم وسلم المركب الذي به المستنير والقته الريح الى طرابلس * فكتب عبيدة الى عامله بطرابلس يامره باسماك المستنير وان يشد وثاقه ويرسله اليه ففعل به ذلك وارسله الى القيروان فلما وصل الى عبيدة جلده وطيف به في القيروان والقاه في السجن * وانما انتقم من المستنير لانه اقام بارض الروم حتى دخل الشتآء واشتدت عليه امواج البحر حتى عطبت المراكب ولم يزل محبوسا الى ولاية عبيد الله بن الحبحاب فاطلقه ابن الحبحاب وبعثه الى تونس كما مر في اول الكتاب وسياتي بقية خبره ان شآء الله * قلت وهذا ينافي ما تقدم من ان عبيد الله بن الحبحاب هو الذي بنى دار الصناعة بتونس — ودار الصناعة عبارة عن المكان الذي ينشا به المراكب لان المراكب غزت من بحر تونس من قبل ان يتولى عليها ابن الحبحاب بزمن طويل — ويويد قول من قال ان الذي بنى دار الصناعة هو حسان بن النعمان او من قال ان موسى بن نصير هو اول من غزا في بحر تونس او غيره * وابن الشماع صح عنده ان الباني لدار الصناعة عبيد الله بن الحبحاب والعقل والنقل يشهدان بخلاف ذلك والله اعلم وسياتي بمزيد ايضاح * ولم يزل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الى سنة عشر ومائة فقفل الى المشرق وقدم على هشام من افريقية ومعه هدايا كثيرة * وكان في ما قدم به من العبيد والامآء والجواري المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والاواني من الفضة والذهب فقدم على هشام بهداياه واستعفاه فاعفاه * وكان خلف على افريقية عقبة بن قدامة التجيبي

الخبر عن ولاية ابن الحبحاب

فكتب هشام الى عبيد الله بن الحبحاب وكان عامله على مصر فامره بالمسير الى افريقية وولاه اياها وذلك في ربيع الاخير سنة عشر ومائة فاستخلف ولده على مصر وقدم الى افريقية فاستخرج المستنير من السجن وولاه تونس * وبعث حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع الى

السوس وارض السودان فغنم مغنما لم ير مثله واصاب ذهبا كثيرا وكان في ما اصاب جاريتان من جنس تسميه البربر اجان ليس لكل واحدة منهن الا ثدي واحد * ووجه خالد بن ابي حبيب الفهري الى البربر بطنجة ومعه وجوه اهل افريقية من قريش ومن الانصار فقتل خالد ومن معه ولم ينج منهم احد فسميت غزوة الاشراف وقفل عبيد الله بن الحبحاب الى هشام في جمادى الاولى سنة ثلث وعشرين ومائة ذكره صاحب كتاب الاكتفاء ابن الكردبوس * ونقل ابن الشباط ان عبيد الله بن الحبحاب ارسل حبيب ابن ابي عبيدة في البحر غازيا الى صقلية في سنة اثنتين وعشرين ومائة فظفر ظفرا لم ير مثله ونزل على سرقوسة وهي اعظم مدنهم بصقلية فقاتلهم وقاتلوه حتى ضرب بابها بالسيف فاثر فيه فهابته النصارى فاذعنوا باداء الجزية فاخذها منهم ورجع سالما الى عبيد الله بن الحبحاب * وكان ابن الحبحاب رئيسا نبيلا واميرا جليلا وكاتبا بليغا حافظا لايام العرب وهو الذي بنى الجامع بتونس ودار الصناعة سنة اربع عشرة ومائة كما تقدم كذا نقل ابن الشباط وذكر من غيره ان ولايته كانت سنة ست عشرة ومائة وقفل الى المشرق في جمادى الاولى سنة ثلث وعشرين ومائة والله اعلم *

الخبر عن ولاية كلثوم بن عياض القيسي

قال صاحب الاكتفاء وفي جمادى الثانية من سنة ثلث وعشرين ومائة وجه هشام ابن عبد الملك كلثوم بن عياض القيسي الى افريقية فلما قدمها غزا الى طنجة فقتله البربر هنالك ولم يذكر وفاته وانما ذكر ذلك اجمالا لا تفصيلا ولم اطلع على خبره في غيره ولعل صاحب تاريخ القيروان ذكره بابسط من هذا واني متشوق الى روية هذا التاريخ ولم اتصل به ولعل ما ذكرته في هذا المجموع هو موجود في تاريخ القيروان بزيادة ايضاح وما جمعت هذا القدر اليسير الا من غيره ولي العذر فيما جمعته من تشتت البال وترادف المحن والاهوال ومن ضيق الوقت وكثرة المقت وقلة الاطلاع وقصر الباع وقلة المساعد وكثرة الناقد والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله *

الخبر عن ولاية حنظلة بن صفوان

قال بن الكردبوس ولما سمع هشام بن عبد الملك بوفاة كلثوم بن عياض ارسل الى افريقية حنظلة بن صفوان في صفر سنة اربع وعشرين ومائة فاقام بها الى ايام مروان بن محمد * وفي ايام هشام بن عبد الملك عزل عقبة بن الحجاج عن الاندلس وولى مكانه الحسام بن ضرار الكلبي فاقام واليا بالاندلس تسعة اعوام وهو الذي جوز اليها من اهل الشام عشرة ءالاف رجل وهزم بهم ابن يفرن الزناتي اذ كان قام بها عليه فظفر به وصلبه وصلب عن يمينه كلبا وعن يساره خنزيرا وخلفه قردا وامامه دبا واسكن اهل دمشق البيرة واهل فلسطين شذونة واهل الاردن ريتة واهل قنسرين جيان واهل مصر باجة واهل حمص اشبيلية وبهم سميت اشبيلية حمص ومات بها في ايام هشام فولى عوضه الهيثم بن الكلبي وما ذكرت هذه النبذة الّا لابين ان الاندلس كانت من تحت ايدي ولاة افريقية ومنها فتحت والمزية لافريقية عما سواها من بلاد المغرب وكل بلد بالمغرب كانت تحت ايدي البلاد الافريقية ولم تزل الولاة تتردد اليها من ايام الفتح من قبل الخلفاء الامويين الى ايام هشام بن عبد الملك * ولما توفي هشام سنة خمس وعشرين ومائة في ربيع الاخر وكانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة اشهر وعشرة ايام قام بالامر بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي مات هشام فيه * وكان يحب اللهو والصيد واظهر الملاهي وانهمك في شرب الخمر وجاهر بالكبائر وعم الجور في ايامه حتى كاد يقال فيه جبار بني امية ومثالبه مذكورة في غير ما موضع وقام عليه يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم فبعث اليه الوليد جيشا فقتل يحيى في تلك الحروب وجيء براسه الى الوليد وصلبت جثة زيد ولم يزل مصلوبا الى ايام ابي مسلم * والوليد هو الذي قرا في المصحف قوله تعالى — واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد — فنصبه غرضا للنشاب وجعل يقول

تهددني بجبار عنيد   فها انا ذاك جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم تطل ايامه حتى عاجله القدر وقام عليه ابن عمه يزيد بن الوليد فلم يترك له عينا ولا اثرا وقطع راسه وحمله الى دمشق وكانت خلافته سنة وشهرين وقام بالامر بعد الوليد المذكور ابن عمه يزيد *

الخبر عن خلافة يزيد بن الوليد
ابن عبد الملك بن مروان

بويع بعد موت ابن عمه الوليد في جمادى الاخيرة سنة ست وعشرين ومائة ويسمى يزيد الناقص * وقام عليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم غضبا لما فعله يزيد بالوليد * ولما دخل دمشق فر يزيد فظفر به مروان بن محمد فقتله وصلبه وكانت خلافته ستة اشهر * وقام بالامر بعده اخوه ابراهيم *

الخبر عن خلافة ابراهيم بن الوليد
ابن عبد الملك بن مروان

بويع في اليوم الذي مات فيه اخوه يزيد فلم تطل ايامه ولم يكن له في دولته اقبال فكانوا تارة يسمونه بامير المومنين وتارة بالامير فقط وقام عليه مروان بن محمد وسار اليه في سبعين الفا * وبعث ابراهيم اليه سليمان بن هشام في مائة الف فاقتتلوا بغوطة دمشق فظهر عليهم مروان وقتل منهم خلقا كثيرا ودخل دمشق * وخلع ابراهيم نفسه وكانت خلافته شهرين وبعد شهرين من خلعه قتله مروان بن محمد واستقل بالامر بعده *

الخبر عن خلافة مروان بن محمد بن مروان بن
الحكم ابن اخي عبد الملك بن مروان

بويع في صفر سنة سبع وعشرين ومائة ولقبه مروان الحمار ومروان الجعدي * ولما ولي الخلافة نبش قبر الوليد واخرجه وصلبه وعزل عبد الملك بن قطن عن الاندلس وقدم عليها ثوابة بن نعيم الانصاري فاقام

واليا بالاندلس اربع سنين الى ان ظهرت الدولة العباسية فبقى الامر بالاندلس سدى واتفق رايهم على ان يقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري فاقام واليا عشر سنين الى ان دخل اليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان كما سياتي ان شاء الله * ولنرجع الى ذكر مروان الجعدي * وفي ايام خلافته خالفت عليه حمص ففتحها وهدم سورها ولم يزل في تشتيت من امره واضطراب النواحي وهو في ذلك يقيم الحج الى سنة ثلثين ومائة وقام ابو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس سنة تسع وعشرين ومائة * وكانت حروب كثيرة بينهم وفر مروان بن محمد وتبعه جيش بني العباس الى قرية من قرى الصعيد يقال لها — ابو صير — سنة اثنتين وثلثين ومائة * وكانت خلافته خمس سنين وعشرة اشهر وبه انقرضت دولة بني امية من المشرق وظهرت دولة بني العباس * وكانت ايام بني امية الف شهر * ولما دانت لبني العباس بلاد المشرق قتلوا من وجدوه من بني امية الا من استخفى منهم او من كان دخل الى بلاد المغرب * ومن الذين دخلوا المغرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم دخل بلاد الاندلس سنة تسع وثلثين ومائة فوجد احوال الاندلس غير مجتمعة ولم تصل اليهم ولاة من قبل الخليفة والناس فرق بين هاشم وامية فاجتمع الى عبد الرحمن كل من كانت في باطنه حرارة او موجدة عن يوسف بن عمر الفهري فانضاف الى عبد الرحمن وقاسى بها عبد الرحمن خطوبا * وله بها وقائع مشهورة الى ان دانت له البلاد * وقاتل الفهري وهزمه وقتله وملك مدينة قرطبة ودانت له البلاد وبقي ملكا ثلثا وثلثين سنة وتداولتها بنوه من بعده ولم يخطب احد منهم لبني العباس ولم يدخل تحت طاعتهم الى ايام عبد الرحمن الذي تلقب بالناصر لدين الله وتسمى بامير المومنين — لما ظهرت بنو عبيدة في افريقية وتسموا بامراء المومنين تسمى عبد الرحمن بامير المومنين * وقيل ان من تقدمه من اباته

كان يخطب لبني العباس وعبد الرحمن هذا الذي تلقب بالناصر هو ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الاموي توفي سنة خمسين وثلثمائة * وكانت امارته خمسين سنة ونصف سنة وعمره ثلث وسبعون سنة * ولما مضت من امارته سبع وعشرون سنة وراى ضعف الخلافة بالعراق وظهور العلويين بافريقية تسمى بامير المومنين * وتولى بعده ابنه الحكم وتلقب بالمستنصر وتوفي سنة ست وستين وكانت امارته خمس عشرة سنة وخمسة اشهر وعمره ثلث وستون سنة وسبعة اشهر * وعهد الى ولده هشام وعمره عشرة اعوام وتلقب بالمويد وهو الذي حجبه محمد بن عبد الله بن ابي عامر الملقب بالمنصور واستحكم على امر المويد هشام وامال اليه الجند ولم يبق للمويد الا الخطبة والسكة فدانت له ملوك الشرك وانزلهم من صياصيهم وحكم على ملوكهم وجعلهم عمالا له ودخلوا في طاعته * وكان حازما عاقلا واكثر الغزوات في بلاد الكفرة حتى اذلهم الله على يده وجعلهم ينقلون التراب من اقصى بلادهم الى قرطبة وبنى به الجامع وفعل بهم ما لم يفعله غيره ممن تقدمه وكان يقال في حقه انجب مولود ولد في الاسلام * ونقل ما في خزائن بيت المال وجعله تحت يده وكان خراج الاندلس حصر في زمن عبد الرحمن الناصر فبلغ خمسة آلاف الف دينار فكان يجعل ثلثه في بيت المال والثلث للجند والثلث الباقي لبنائه وصلاته للشعراء والعلماء وغير ذلك * وما اطلت في هذا الفصل الا لكون الاندلسية اصل افتتاحها من هذه البلاد ومتنت بناء الحكاية ليتصل بعضها ببعض وربما لم يخل هذا الموضع من فائدة وان كانت في غير هذا ابسط من هذا وليعلم الواقف على هذه النبذة ان افريقية لها الشرف السابق بين بلاد المغرب لان الاندلسية فتحت منها في زمن الجاهلية وفي زمن الاسلام وكذلك الصقلية فتحت منها * وكانت عمالها من تحت عمال افريقية مئين من الاعوام * وكانت دار ملك بني الاغلب القيروان

ثم قامت بها بنو عبيد الفواطم ثم تملكت عليها ملوك صنهاجة * وكان لهم صنهاجة ملك وهم عمال للفواطم عندما رحلوا الى بلاد المشرق * وكان حكم بني الاغلب ومن كان قبلهم من الامراء ومن كان بعدهم من صنهاجة الى حد السوس من بلاد المغرب الا ما خرج عن ايدي بني الاغلب عند تمكن الادارسة من بلاد المغرب * وكان اولهم ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وذلك بعد السبعين والمائة في ايام المهدي امير المومنين العباسي وادريس بن ادريس هذا هو الذي بنى مدينة فاس * وبقية اخبارهم تاتي بعد ان شاء الله تعالى عند ذكر الخلفاء الذين كانوا بالمغرب وملوك لمتونة وبني عبد المومن الذين يقال لهم دولة الموحدين لكي يرتبط النظام بدولة بني حفص ومن بعدهم ان شاء الله من الامراء الذين كان استيلاوهم بتونس وكيف تنقل الامر من حال الى حال والله هو المتصرف في البلاد والعباد لا يسال عما يفعل وهم يسالون * ولما آل بنا الغرض الى هنا نذكر الان من دخل افريقية من امراء بني العباس ونسرد اسماءهم على الولاء من غير اطناب الا ما تمس الحاجة بنا اليه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل *

ذكر الولاة من قبل العباسية

ولما كان قيام بني العباس بالمشرق وتشتت جمع بني امية وكثرت الفتن بافريقية واشتغل بنو العباس بتمهيد البلاد في المشرق وهاجت فتن الخوارج بالمغرب قام ابو الخطاب راس الخوارج بافريقية وكثر شرهم واشتدت شوكتهم فارسل ابو جعفر المنصور محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعي سنة اربع واربعين * وقال ابن نباتة الذي بعث محمد بن الاشعث امير المومنين عبد الله السفاح سنة ثلث وثلثين ومائة والقول الاول اصح * فحارب الخوارج وقتل ابا الخطاب وشرد الصفرية وبددهم وبنى سور القيروان من الطوب سعته عشر اذرع وذلك في ربيع الاول من السنة المذكورة وكمل في رجب الفرد الاصب

سنة ست واربعين وهو اول قائد للمسودة * والمسودة كناية لبني العباس لان شعارهم السواد وكانوا يلبسون السواد وكانت اعلامهم سودا وخلعهم سودا لانهم خرجوا طالبين لدم الحسين وزيد رضي الله تعالى عنهما فجعلوا شعارهم السواد * فمنهم عمر بن حفص من ولد قبيصة بن ابي صفرة اخو المهلب بن ابي صفرة المشهور لنباهة ذكره ولقبه هزار مرد معناه الف رجل بالفارسية لغة فارس وما لقب بهذا الا لشجاعته كان يقوم مقام الف فارس في الحرب * وكان بطلا شجاعا اولاه المنصور امير المومنين واسمه عبد الله المنصور اخو امير المومنين عبد الله السفاح ولي الخلافة سنة ست وثلثين ومائة وكنيته ابو جعفر وكان مقدما لعمر بن حفص ولاه ولايات منها البصرة والسند وغيرهما وسيره الى افريقية سنة احدى وخمسين ومائة ومعه خمسمائة فارس واجتمع اليه وجوه اهل القيروان فواصلهم واحسن اليهم واقام الامور المستقيمة ثلث سنين واشهرا ثم سار الى الزاب وبنى مدينة طبنة وذلك بعد ان ورد عليه كتاب المنصور وقتلته الخوارج بافريقية * ومنهم الامير يزيد بن حاتم بن ابي قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة دخل افريقية سنة خمس وخمسين ومائة من قبل المنصور وكان معه خمسون الفا من العسكر فقتل الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص المتقدم ذكره ومهد البلاد ودانت له العصاة ودخل القيروان لعشر بقين من جمادى الاخيرة من السنة المذكورة ورتب امر القيروان وجعل كل صناعة في مكانها وكان جوادا مشهورا * وحكي عنه سحنون انه كان يقول والله الذي لا اله الا هو ما هبت شيئا قط كهيبة رجل واحد يزعم اني ظلمته وانا اعلم انه لا راحم له الا الله يقول بيني وبينك الله * وهدم جامع القيروان ما عدا المحراب وبناه واشترى العمود الاخضر بمال جزيل * وكان جوادا سريا يعد من الكرماء * ولما رحل عن العراق كان في صحبته يزيد السلمي عامل مصر فكان يزيد بن حاتم ينفق على الجيشين من عنده وهذا غاية الكرم * وقصده جماعة من الشعراء فاحسن اليهم وقصده

مروان بن ابي حفصة الشاعر فانشد هذين البيتين —

اليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر ثم شهر نواصله

فلا نحن نخشى ان يخيب رجاؤنا لديك ولكن اهنا البر عاجله

فامر للجند بعطاياهم وقال من احبني يعطي هذا الشاعر درهما فحصل له خمسون الف درهم وزاده من عنده خمسين الفا فرجع الشاعر بمائة الف درهم في بيتين * قلت انظر ايها المتامل في نفاذ سوق الادب في ذلك العصر وقلة نفاذه في زماننا هذا حتى ان الشاعر في هذا الزمان ربما جهد جهده في مدح انسان ويود ان يحصل له من الممدوح السماع فضلا من الجائزة فلا يحصل على شيء وكفى بمن يبخل بسمعه والامر لله وكانت ولاية يزيد خمس عشرة سنة ومات بالقيروان سنة سبعين واستخلف ولده من بعده فعزله امير المومنين هارون الرشيد باخيه روح بن حاتم رحم الله تعالى الجميع * والامير روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة الازدي اخو يزيد بن حاتم المقدم ذكره كان عالي الهمة ولي الولايات الكبار لخمسة من الخلفاء — السفاح — والمنصور — والمهدي — والهادي — والرشيد — ودخل افريقية سنة احدى وسبعين بعد موت اخيه يزيد واقام بها اربع سنين * ومن الاتفاق الغريب انه كان واليا على السند واخوه يزيد على المغرب فلما مات اخوه يزيد كان الناس يقولون ما ابعد قبري هذين الاخوين احدهما بافريقية والاخر بالسند فاتفق ان الرشيد عزله عن ولاية السند وبعثه الى افريقية فمات بها في شهر رمضان سنة اربع وسبعين ومائة ودفن مع اخيه في قبر واحد ولله عاقبة الامور * وفي ايامه ظهرت دولة الادارسة بالمغرب وبويع الامام ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب بمدينة وليلى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة واستفحل امره بتلك البلاد وسياتي بقية من خبره ان شاء الله تعالى * ومنهم الامير هرثمة بن اعين الهاشمي ولاه امير

المومنين هارون الرشيد افريقية سنة تسع وسبعين وقدم الى افريقية يوم الخميس لثلث خلون من ربيع الاخير من السنة المذكورة واقام بها الى سنة ثمانين * وفيهـــا بنى بلد المنستير قاله ابن خلكان * ونقـــل ابن الشباط انه بنى القصر الكبيـر بالمنستير سنة ثمانين على يد زكرياء بـن قادم * وبنى سور مدينة طرابلس وامن الناس في ايامه * وقفل الى المشرق في رمضان سنة احدى وثمانين ومائة بعد ما كتب الى الرشيد يستعفيه من الولاية لما رءاه من الخلاف فاعفاه الرشيد * وكتب اليه بالقدوم الى المشرق وعاش الى ايام امير المومنين المامون وكان يعتمد عليه في الامور العظام * وفي سنة مائتين حقد عليه وحبسه ثم ارسل اليه من قتله في السجن رحمه الله * وكان من اكبر قواد المامون ممن عاضد طاهر الحسين في محاربة الامين * ومنهـــــم ابراهيم بن الاغلب كان سنة اربع وثمانين ومائة من قبل هارون الرشيد وقيل خمس وثمانين وهو الذي بنى مدينة القصر على ثلثة اميال من القيروان * وهدم دار الامارة التي كانت بالقيروان قبلي الجامع وانتقل الى القصر وجعله دار الامارة وعمرت بازائه مدينة القصر وصار بها اسواق وحمامات وفنادق وجامع وذلك في سنة اربع وثمانين ومائة ومات سنة خمس وثمانين ومائة * ومنهـــم زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب استقل بالامر في سنة احدى ومائتين واقام في الولاية الى سنة ثلث وعشرين ومائتين * وقام عليه منصور الطنبذي وحاصره اثنتي عشرة سنة ونسبه اهل القيروان الى الجور وءاخر الامر انتصر على الطنبذي وهزمه * وكان الطنبذي قام مع جماعة من الجند وملك مدينة القيروان وافريقية وكانت بينهما واقعات وفي ءاخر الامر انهزم منصور الطنبذي وفتح الله عز وجل لزيادة الله وعاد اليه ملك افريقية وهو الذي سور مدينة القيروان وحصر الجامع بها وانفق عليه ستة وثمانين الف دينار بعد ما هدمه ما عدا المحراب ايضا وبنى سور مدينة سوسة * وفي ايامه بعث الى صقلية اسد بن الفرات وكان

قاضيه بالقيروان ومعه من الجيش نحو عشرة ءالاف فركب البحر من سوسة وسار الى صقلية والتقى بصاحبها بلاطة * ويقال انه كان في مائة الف وخمسين الفا فهزم الله الكافرين وغنم المسلمون اموالهم وبددوا شملهم واستفتحوا من صقلية مواضع كثيرة * وتوفي اسد بن الفرات وهو محاصر لسرقوسة في ربيع الاخير سنة ثلث عشرة ومائتين ودفن هنالك وسكنها المسلمون واستوطنوها ما شآء الله وتداولت عليها الولاة من قبل القيروانيين وكان محمد بن عبد الله بن الاغلب واليا على صقلية سنة ثمان عشرة ومائتين ومات سنة سبع وثلثين وفتح فيها فتوحات عظيمة وكان مقامه في بليوم لم يخرج منها وانما يبعث سراياه ومدة امارته تسع عشرة سنة الى ان اخذها منهم العدو وذلك بعد الاربعين وخمسمائة وسياتي بقية خبرهم فيما بعد ان شآء الله * وتوفي زيادة الله سنة ثلث وعشرين ومائتين رحمة الله عليه * ومنهم ابو عقال واسمه الاغلب بن ابراهيم ابن الاغلب اخو زيادة الله المتقدم ذكره وتوفي ابو عقال سنة ست وعشرين ومائتين رحمة الله عليه * ومنهم ابو العباس احمد بن ابراهيم وكان في زمانه سحنون بن سعيد وفي ايامه منع سحنون اهل الاهواء من المسجد الجامع وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه ويتظاهرون بمذاهبهم مثل الاباضية والصفرية والمعتزلة فمنعهم سحنون من الاجتماع * وكان عامله بصقلية ابن عمه محمد بن عبد الله بن الاغلب المتقدم ذكره ومات بها سنة سبع وثلثين ومائة * وتولى بعده العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة وسياتي بعد ان شآء الله تعالى * ومنهم محمد بن ابراهيم بن محمد بن الاغلب وكان في سنة اربعين ومائتين * وفي ايامه عصى اهل تونس عليه فغار عليهم وسبى منهم خلقا كثيرا * وله واقعة مشهورة مع الامام سحنون في رد المسبيات ومنع بعض امرائه من التصرف فيهن واستخرجهن من داره * وبعث الامير محمد الى سحنون في ردهن فاقسم لا يردهن ما دام قاضيا إلَّا ان يرفع يده من القضا فكف عنه رحم الله الجميع

وفي ايامه فتح العباس بن الفضل بن يعقوب بن قرارة مدينة باثة من صقلية وبنى بها مسجدا وصلى فيه الجمعة وهي دار الملك عندهم وكان الملك قبل ذلك يسكن سرقوسة وتوفي بها سنة سبع واربعين ومائتين وتولى بعده ولده عبد الله بن العباس اميرا على الجزيرة * ومنهم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن الاغلب قام بالامر بعد ابيه ومات في سنة تسع واربعين ومائتين * ومنهم زيادة الله بن محمد بن ابراهيم بن الاغلب قام بالامر بعد اخيه وكانت ولايته عاما وستة اشهر وتوفي سنة احدى وخمسين ومائتين * ومنهم ابن اخيه ابو عبد الله محمد بن احمد ابن محمد بن ابراهيم بن الاغلب تولى بعد عمه زيادة الله سنة احدى وخمسين ومائتين في جمادى الاولى وكانت امارته عشر سنين وخمسة اشهر ومات سنة احدى وستين ومائتين * وكان عامله على صقلية خفاجة بن سفيان ارسله من افريقية فغزا فيها مدة غزوات وفتح فتوحات عظيمة ولم يزل بها الى ان اغتاله رجل من عسكره فقتله وفر الى العدو واقام الناس ابنه محمد بن خفاجة وارسل اليه الامير محمد فاقره على عمله ولم يزل الى سنة سبع وخمسين ومائتين فقتله خدمه الخصيان واستعمل بعده الامير محمد الاغلبي على الجزيرة احمد بن يعقوب * ومات الامير محمد سنة احدى وستين ومائتين * ومنهم الامير احمد بن محمد بن احمد ابن محمد بن ابراهيم الاغلب قام بالامر بعد ابيه وهو الذي بنى ماجل القيروان وجامع تونس وله واقعة مشهورة * ومنهم الامير ابراهيم بن احمد بن محمد الذي بنى مدينة رقادة وانتقل اليها وابتدا بناءها سنة ثلث وستين ومائتين فكملت سنة اربع وستين وسكنها واتخذها دارا للملك * وكان يكثر الاقامة بتونس وكان ذا فطنة عظيمة وصاحب معروف وطالت مدته وكانت ولايته سنة احدى وستين ومائتين وبعث الى صقلية الحسن بن العباس عاملا عليها فبعث الحسن سراياه وفتح عدة اماكن مشهورة ودانت له البلاد وصلح حالها في ايامه وانتقل من افريقية الى صقلية بعد ما

استخلف ولده ابا العباس احمد وجاهد في الله حق جهاده * وفتح الفتوحات العظيمة وتوفي بالدرب وحمل الى القيروان سنة تسع وثمانين وماتين وتصدق بجميع ماله رحمة الله تعالى عليه * وكانت امارته ثماني وعشرين سنة * وفي ايامه ظهر ابو عبد الله الشيعي بارض كتامة يدعو الى ءال البيت وسياتي بقية خبره * ومنهم الامير ابو العباس احمد بن ابراهيم بن احمد المتقدم ذكره استخلفه ابوه على افريقية عند مسيره الى صقلية واقام بها بعد وفاة والده الى ان توفي سنة ثمان وثمانين ومائتين وقام بالامر بعده ولده عبد الله بن احمد * ومنهم الامير عبد الله ابن احمد بن ابراهيم بن احمد بن محمد وكان حسن السيرة كثير العدل صاحب معروف واحسان انتقل اليه الامر بعد ابيه سنة ثمان وثمانين وكانت اقامته بتونس وقيل سنة تسع وثمانين ومات بتونس سنة خمس وتسعين مقتولا قتله ثلثة من الصقالبة باتفاق من ابنه زيادة الله لانه سجنه من شرب الخمر فاتفق معهم على قتل ابيه فقتلوه واحضروا راسه بين يدي زيادة الله ولده وهو في السجن فلما تولى زيادة الله امر بقتلهم فقتلوا وهو الذي كان امر بذلك * ومنهم الامير زيادة الله بن عبد الله بن احمد استقل بالامر بعد ابيه ولما تم له الامر انعكف على لذاته ولازم المضحكين واهمل احوال الرعية والمملكة وقتل من اعمامه واهل بيته من قدر عليه وفي ايامه استفحل امر ابي عبد الله الشيعي القايم بدعوة الفاطميين بالمغرب * وارسل زيادة الله عسكرا مع ابن عمه ابراهيم وقدره اربعون الفا فهزمهم ابو عبد الله الشيعي * ولما راى زيادة الله هزيمة عسكره وضعفه عن مقاومته جمع ما قدر عليه من الاموال وخرج عن ملكه فارا الى المشرق وذلك في خلافة المقتدر بالله العباسي فوصل الى مصر وبها النوشري عاملا عليها * فكتب الى المقتدر يخبره بزيادة الله ثم سار زيادة الله الى ان بلغ الرقة فوافاه كتاب امير المومنين بالعود الى بلاده لقتال الشيعي ويامر عامل مصر ان يمده بما يحتاج اليه من المال والرجال * فرجع الى

مصر فماطله العامل بها وزيادة الله في اثناء ذلك منعكف على لذاته واستماع الملاهي وشرب الخمر فلما طال مقامه تفرق جمعه وفرت عنه اصحابه وتتابعت به الامراض فتوجه الى بيت المقدس لقصد الاقامة بها فمات بالرملة ودفن بها ولم يبق بالمغرب من بني الاغلب احد * وكانت مدة ملكهم مائة واثنتي عشرة سنة تقريبا * فسبحان من لا يزول ملكه ولا يفنى دوامه وتتصرف في العباد احكامه يفعل في ملكه ما يشآء وهو على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم *

الباب الرابع في ذكر الدولة العبيدية وابتداء امرهم والقائم لاصلاح دولتهم

فاولهم ابو عبد الله الشيعي واسمه الحسين بن احمد بن محمد بن زكريآء من اهل صنعآء وقيل من اهل الكوفة اخذ اسرار الدعوة عن ابن حوشب وارسله الى المغرب فقدم الى مكة ايام الحج واجتمع بجماعة من المغاربة من اهل كتامة وكان عندهم طرف من ذكر ءال البيت فجلس اليهم وتحدث معهم وذكر لهم فضائل اهل البيت فانسوا به واعجبهم ومالوا اليه وسالوه عن قصده فاظهر لهم انه يريد مصر لقصد التعليم فاستصحبوه معهم الى مصر * ولما ءان رحيلهم اخذ يودعهم وقد عز عليهم فراقه فسالوه الصحبة معهم الى بلادهم اذ كان قصده التعليم والثواب فاجابهم لما طلبوه وقفل معهم الى المغرب ولم يظهر لهم مراده وفي اثنآء ذلك يسالهم عن خبر بلادهم وعشائرهم الى ان احاط بها خبرة * ولما وصلوا الى بلادهم تنافسوا فيه وعند من تكون اقامته الى ان كادت ان تكون بينهم فتنة * فعند ذلك سالهم عن فج الاخيار ولم يكن سالهم عنه قبل ذلك فعجبوا منه وقال اذا جئناه ناتي كل قبيلة منكم في مكانها فرضوا بذلك وكان اسمه عندهم ابا عبد الله المشرقي وقدم المغرب منتصف ربيع الاول سنة ثمانين ومائتين واتاه البربر من كل مكان وذلك في زمن ابراهيم بن احمد الاغلبي * فلما سمع به استصغر امره واحتقره * ثم مضى ابو عبد الله الى تيهرت فملكها واتته وفود البربر من كل فج ولا زال في زيادة من امره

الى ايام زيادة الله الاحول فبعث اليه عدة الوف فهزمهم ابو عبد الله ولما راى زيادة الله ابا عبد الله يتزايد امره فر باهله وماله الى المشرق كما تقدم ولما اتصل الخبر بابي عبد الله ان زيادة الله هرب وكان اذ ذاك في بلد سبيبة رحل منها وقدم بين يديه عروبة بن يوسف بن ابي خنزير في الف فارس فارسلهم الى رقادة وامرهم ان لايتعرضوا لاحد بمكروه * فلما سمع اهل القيروان بذلك خرجوا الى ابي عبد الله وهنوه بالفتح ودخل رقادة يوم السبت اول رجب سنة ثلث وتسعين ومائتين * ولما حضرته الجمعة كتب كتابا لخطيب رقادة وخطيب القيروان بما يقولان * ونقش على السكة من وجه — بلغت حجة الله — وعلى الوجه الاخر — تفرقت اعداء الله — ولما استقام له الامر ومهد البلاد واجتمع باخيه ابي العباس استخلفه وخرج من رقادة في اول رمضان من سنة ست وتسعين وتوجه الى سجلماسة فاهتز له المغرب وخافته زناتة وقبائل العرب والبربر المخالفون له فطلبوا منه امانا * ولما قرب سجلماسة سمع به اليسع بن مدرار وكان عاملا لبني الاغلب وكان زيادة الله كاتبه يخبره بخبر المهدي وهو اذ ذاك في بلده فبعث الى المهدي وساله عن حاله فانكر وكان وصل الى بلاده في زي التجار فتجاوز عنه ولما بلغه الخبر عن ابي عبد الله الشيعي امسك المهدي وسجنه فلما سمع ابو عبد الله بامساكه للمهدي كاتب اليسع وتلطف اليه فلم يغن عنه شيئا وخرج اليه اليسع فقاتله ساعة من نهار وانهزم فدخل ابو عبد الله البلد واستخرج المهدي وولده من السجن وقرب اليهما مراكب رائعة فركبا ومشى ابو عبد الله ووجوه القبائل بين يدي المهدي وابو عبد الله يبكي من الفرح ويقول هذا مولاي ومولاكم وانزله في فسطاط اعد له ورحل ابو عبد الله في طلب اليسع فظفر به وقتله بعد ما طيف في العسكر وضرب بالسياط واقام المهدي في سجلماسة اربعين يوما ثم نهض الى افريقية وكان دخوله اليها في ازيد من مائتي الف بين فارس وراجل * وكان وصول المهدي الى رقادة يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الاخر

سنة سبع وتسعين ومائتين ونزل بقصر من قصورها وفرق باقيها والدور على جميع الاجناد * وكتب الى جميع البلاد فاخذ البيعة وامر الخطباء ان يذكروا اسمه على المنابر واستبد بالامر ودون الدواوين وهو اول من تسمى بامير المومنين * وفي هذه السنة زالت دولة بني مدرار من سجلماسة الذين ءاخرهم اليسع بعد مائتين وستين سنة ودولة بني رستم من تيهرت بعد ثلثين ومائة سنة ودولة بني الاغلب بعد مائة واثنتي عشرة سنة والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين *

الخبر عن خلافة الامام المهدي

هو ابو محمد عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم نقله ابن خلكان عن صاحب تاريخ القيروان وقال ابن خلكان وجدت في نسبه اختلافا * قلت وللناس مذاهب في نسبهم والله سبحانه وتعالى اعلم ومولده بسلمية وقيل ببغداد سنة ستين ومائتين واستقل بالامر سنة سبع وتسعين وكان جيلا مهيبا حسيبا عالما بكل فن عارفا بالسياسة والتدبير للمملكة ولما تم له الامر باشر الامور بنفسه وبعث العمال وجبى الاموال واستعمل على صقلية ابا عبد الله الحسين بن احمد بن محمد بن زكرياء الشيعي * ولما استبد بالامر دخل ابا العباس الحسد واخذ في تغيير قلوب اهل الدولة وظهر الخبر والمهدي مسر لذلك الى ان فشا بين الناس فنقم المهدي على ابي عبد الله وعلى اخيه ابي العباس فقتلهما سنة ثمان وتسعين ومائتين * وكان ابو عبد الله الشيعي يلبس الخشن من ثياب الصوف وياكل الخشن من الطعام ويظهر الزهد والورع وهو الذي بنى اساس بيت الفواطم في مملكة المغرب وكان كالباحث عن حتفه بظلفه * واستقام الامر للمهدي وعهد الى ولده ابي القاسم محمد ونفذت الكتب عنه بولي عهد المسلمين وعصت عليه صقلية فبعث اليها اسطولا وفتحها وبعث اليها عاملا من قبله * وخالفت عليه طرابلس فبعث اليها جيشا ففتحها واغرم اهلها ثلثمائة الف

واربعين الف دينار * وفي سنة ثلثمائة خرج بنفسه الى تونس وقرطاجنة يرتاد لنفسه موضعا يمنعه لان عنده خبر برجل يخرج على دولته فوقع اختياره على المهدية فبناها وحصنها ولما مد الخيط على اول حجر من اساس البلد امر راميا فرمى بالقوس فانتهى السهم الى موضع المصلى فقال — الى هذا الموضع اي موضع السهم يبلغ صاحب الحمار - يعني ابا يزيد الخارجي * وامر بقياس مسافة الرمية فبلغت مائتي وثلث وثلثين ذراعا فقال — هذا مقدار ما تقيم المهدية في ايدينا * وبعث ولده ولي العهد الى مصر فملك الاسكندرية والفيوم وحاربه عامل مصر فهزمه ورجع الى المغرب ثم رجع ايضا سنة سبع وثلثمائة الى المشرق فوقع الوباء في عسكره فكر راجعا الى المغرب * وفي سنة خمس عشرة خرج ولي العهد الى المغرب وبلغ الى تيهرت وامر ببناء مدينة وسماها المحمدية وهي المسيلة وامر عامله ان يخزن من الاقوات بها ويستكثر منه * ولما دانت له العباد وصفت البلاد عاجله حمامه ودنت ايامه وتوفي للنصف من ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة عن ثلث وستين سنة * وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة رحمة الله عليه ودفن بالمهدية وبلغت دعوته من برقة الى المغرب * وفي ايامه انقرضت الفواطم الادارسة عن المغرب ولم تكن لهم قوة بعد ذلك * وكانت عماله بفاس واعمالها الا مدينة سبتة كانت لبني امية * وملك مدينة فاس سنة خمس وثلثمائة على يد قائده مطالة وبايعه صاحبها وسيأتي ان شاء الله تعالى *

الخبر عن خلافة القائم بامر الله ابي القاسم نزار — وقيل محمد — بن المهدي

تولى بعهد من ابيه فقام مقام ابيه واتبع سيرته وجهز اسطولا وامر عليه علي بن اسحاق فسبى مدينة جنوة وبعث ميسور الفتى في عسكر ضخم الى المغرب فبلغ الى مدينة فاس * وفي ايامه ظهر ابو يزيد بن كيداد الخارجي * ولنذكر طرفا من اخباره — هو ابو يزيد مخلد بن

كيداد مولده بيلد السودان واصل ابيه من مدينة توزر وهو زناتي الاصل واتى به ابوه الى المغرب فتعلم القرءان العظيم وخالط جماعة من النكار فتعلم مذهبهم الخبيث * وكان يعلم اولاد المسلمين وكانوا يتصدقون عليه * ومذهبه تكفير اهل السنة واستباحة اموالهم * وسكن تقيوس ولزم بها مسجدا يعلم الاطفال * فكان يلبس جبة صوف وعلى راسه قلنسوة صوف وفي عنقه سبحة وكان يعتقد الخروج من السلطان وصارت له جماعة يعظمونه ويسمعون منه وذلك في ايام المهدي ولم يزل على ذلك الى ان اشتدت شكيمته وقويت شوكته فنشر غاراته في بلاد البربر * وفي ايام القائم عظم امره وافسد البلاد وحصر باغاية وقسطيلية وفتح مجانة وهنالك اهدي له حمار اشهب كان يركبه وبه دخل افريقية ونهب بلد الاربص ففر الناس الى جامعها فقتلهم فيه واقتض اصحابه فيه الابكار وفعل بهم ما لا يفعله مسلم * وارسل القائم جيشا مع بشر الفتى لحراسة بلاد باجة فسمع به ابو يزيد فرحل اليه وجعل كل ما مر على مكان افسده وسبي حريمه والتقى مع بشر فهزمه بشر اولا وعاود معه القتال ثانيا فهزم بشرا وفر بشر الى مدينة تونس ودخل ابو يزيد باجة بالسيف واباحها ثلثا وحرق ديارها وسبى حريمها وعبث بالاطفال الرضع وفعل باهلها العجائب فخافته جميع القبائل واتوه طوعا وكرها * ووصل الاخبية والبنود وبعث جيشا الى بشر وهو بتونس فخرج اليه بشر بالتونسيين وهزمه * ووقعت فتنة بتونس فكاتب اهل تونس ابا يزيد فامنهم وولى عليهم رجلا منهم ونزل ابو يزيد بفحص ابي صالح * قلت هو الفحص المعلوم في زماننا قريب من بلد زغوان واقتتل مع الفتى بشر على هرقلة فانهزم عسكر ابي يزيد مرة اخرى وقتل منه اربعة آلاف رجل واسر خمسمائة فانفذهم الى المهدية فقتلوا هنالك * ورجع ابو يزيد فجمع جموعا اخر وانصرف الى الجريرية بقرب القيروان فاقتتل مع طلائع الكتاميين فهزمهم الى رقادة * ونزل ابو يزيد على اربعة اميال من القيروان ومن الغد نزل في شرقي رقادة في مائة الف بين

فارس وراجل وزحف الى القيروان فاقتتل مع اهلها فهزمهم * واتى ابو يزيد الى ماجل باب تونس من القيروان وركن بنوده * ودخلت البربر الى القيروان فنهبوا وافسدوا * ونـزل بعد ذلك في رقادة وخرج شيوخ القيروان وطلبوا منه الامان فقال — هلا طلبتم قبل اليوم — فاعتذروا له فماطلهم وعسكره مع ذلك ينهبون في البلاد ويقتلون * فسالوه ثانيا وقالوا له قد خربت القيروان — فقال لهم — وما عسى ان يكون خربت مكة وبيت المقدس مرتين — ثم امنهم بعد ذلك واتاه الخبر ان عسكرا قادم عليه من نحو القائم فنادى في القيروان — من تخلف عن الجهاد معي حل دمه وماله — فنفر معه خلق كثير والتقى مع عسكر القائم بعد ذلك فكادت الهزيمة ان تقع على ابي يزيد ثم انتصر وملك الاخبية والقازات وهزم عسكر القائم حتى بلغ المنهزمون المهدية فوجلت قلوب الناس اذ ذاك وانتقلوا من الربض الى المدينة واقام ابو يزيد في قيطنته ثمانية وستين يوما وهو يبعث سراياه الى جميع بلاد افريقية والحصون التي بها على البحر واخذ جميع ما فيها من اقوات وسلاح * وبعث جيشا الى بلد سوسة فدخلها بالسيف وحرق المنازل وسبى النساء ومثل بالناس بقطع الايدي والاعضاء وشق فروج النساء وبقر بطونهن وفعل باهل سوسة ما لا تفعله اعداء الدين ولم يبق بافريقية منزل عامر * وفرت الناس الى القيروان حفاة عراة ومات اكثر اهل افريقية جوعا وعطشا ونهب مدينة تونس واخذ منها اثني عشر الف خابية زيتا غير الاموال والعبيد وقد مر خبرها في اول الكتاب * ونهب من غيرها من البلاد ما لا يحصى وحمل ذلك البربر الى بلادهم لان عامة جنده بربر * وكتب الى قبائل البربر يحثهم على الجهاد الى المهدية * وفي سنة ثلث وثلثين وثلثماية امر القائم بحفر خندق على ارباض المهدية * وانفذ الكتب الى صنهاجة وكتامة يستنفرهم الى المهدية ويحرضهم على قتال ابي يزيد * ورحل ابو يزيد ونزل قريبا من المهدية ونهب ما حولها وخرج اليه جيش القائم

واقتتلوا معه فهزمهم وسار ابو يزيد الى الخندق المحدث بنفسه واقتتل مع الحراس الذين هنالك فهزمهم * واقتحم ابو يزيد ومن معه البحر الى ان وصل المآء صدور الدواب وجاوز السور وبلغ الى مصلى العيد ولم يبق بينه وبين المهدية الا رمية سهم واصحابه في زويلة ينهبون ويقتلون ثم قويت نفوس اهل المهدية وتحاموا واقتتلوا قتالا شديدا فازالوا ابا يزيد واصحابه من البلد ورجع ابو يزيد الى مقيطنته وامر بحفر خندق على عسكره واتته جميع القبائل من طرابلس وقابس ونفوسة والزاب واقاصي المغرب * وحاصر المهدية اشد حصار ومنع منها الداخل والخارج وزحف اليها مرة اخرى وكان بينهما حرب شديد مات فيه وجوه عسكر القائم وزحف اليها مرة ثالثة فكان بينهما الفنآء الاعظم فانتصر فيه عسكر القائم وانهزم ابو يزيد وقتل من اصحابه خلق كثير ورجع الى موضعه متحزيا * وزحف اليها المرة الرابعة فكان بين الفريقين القتال الشديد * واشتد الغلاء في المهدية وخرج منها عالم عظيم من شدة الجوع * فعند ذلك فتح القائم خزائن الطعام المدخرة عنده من عهد ابيه ففرقها في جنده وعبيده * وعظم البلاء على الرعية حتى اكلوا الميتة والدواب والكلاب * وفر غالب اهل البلد حتى لم يبق مع القائم الا جنده * والبربر كل من وجدوه في الطريق شقوا بطنه لئلا يكون فيها ذهب وفعلوا بهم من المنكرات ما لا يحل * وكتب القائم الى كتامة واستفزهم وفي اثنآء ذلك تفرقت عساكر ابي يزيد لاشتغالهم بالنهب ولم يبق معه الا اليسير فعلم القائم بذلك فتاهب للخروج لابي يزيد فخرج عسكره والتقى مع ابي يزيد فتناوشوا الحرب ساعة ورجع كل الى موضعه واتصلت بينهما مدة وقائع والحرب تارة وتارة * ودخلت سنة اربع وثلثين وثلثمائة وقع فيها اختلاف في عسكر ابي يزيد فتفرقت جموعه ولم يبق معه الا ثلثون رجلا فرجع الى القيروان واسلم ما كان معه * فخرج الناس من المهدية ونهبوا ما خلفه فصلحت حالهم ورخصت اسعارهم واخذوا جميع ما خلف من طعام وامتعة واخبية وفازات وغير ذلك * ولما وصل ابوا

يزيد القيروان نزل بالقصر ولم يخرج اليه من اهل البلد احد والصبيان يسخرون به ويضحكون منه * وبلغ القآئم خبره فبعث عمالا الى البلاد واخرجوا عمال ابي يزيد وتسامعت الناس انه هزم * ثم تقوى عزمه مرة اخرى واتته البرابر من كل فج فبعث عسكرا الى تونس فدخلها بالسيف يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة اربع وثلثين وثلثمائة وانتهبوها وسبوا النسآء والاطفال وقتلوا الرجال وهدموا المساجد * ولجا كثير من الناس الى البحر فماتوا غرقا ودخل غيرهم قناة قرطاجنة فماتوا جوعا * وبعث القآئم عسكرا الى تونس فالتقى بعسكر ابي يزيد عند وادي مليان فاقتتلوا فانهزم عسكر القآئم ولجا الى جبل الرصاص واعادوا القتال ثانيا فانهزم اصحاب ابي يزيد ورجع عسكر القآئم الى تونس فنهب وقتل من بها من النكار الخوارج واخذ لهم نحو ثلثة ءالاف جمل من الطعام وذلك يوم الاثنين لخمس خلون من ربيع الاول من السنة المذكورة ورجع الى المهدية * ولما سمع ابو يزيد بهذا الخبر جمع جيشا عظيما وزحف به الى تونس فقتل من عاد اليها من اهلها واحرق ما بقي منها وتوجه الى باجة ففعل بها كذلك * وكان بافريقية من السبي والهرج ما لا يوصف ولما وصل سبي تونس الى القيروان وثب الناس فانتزعوا السبي من ايدي البرابر . وانتدب جمعا ءاخر فاجتمع له عدة اقوام ورحل الى سوسة وحاصرها في جمادى الاخيرة سنة اربع وثلثين ومعه من البربر سبعة وثمانون الفا * واقام على سوسة الى ان فوض القآئم الامر الى ولده المنصور وجعله ولي عهده في شهر رمضان سنة اربع وثلثين وثلثمائة * وفي شوال من السنة المذكورة توفي القآئم بامر الله وتولى ولده المنصور الخلافة *

الخبر عن خلافة المنصور بالله

ابو الطاهر اسماعيل بن القآئم بامر الله ابي القاسم نزار بن الامام المهدي بويع بعد وفاة ابيه سنة اربع وثلثين وثلثمائة ولما توفي والده كتم موته وبذل المال للجند وكان شجاعا قوي الجاش فصيحا مفوها يرتجل الخطبة

ولما استوفى له الامر جد في قتال ابي يزيد وخرج في طلبه فازاله من مدينة سوسة بعد عدة واقعات وانهزم ابو يزيد الى القيروان فمنعه اهلها من الدخول وقتلوا من دخل اليهم من اصحابه والتحق به المنصور الى القيروان وكانت بينهما عدة وقائع والحرب سجال * وءاخره انتصر المنصور بالله وهزم ابا يزيد الى المغرب واسره بعد عدة وقائع جرت بينهما هنالك ومات ابو يزيد بعد اسره باربعة ايام ءاخر المحرم سنة ست وثلثين وثلثمائة فلما مات سلخ جلده وملاه قطنا وبعث بالبشائر الى جميع عماله وقفل الى افريقية ولما وصل القيروان خرج اليه الناس وهنوه بالفتح واظهر لهم ابا يزيد ووضع على كتفه قردا وطيف به في الناس ثم حمل الى المهدية وصلب على السور الى ان نسفته الرياح * وبنى المنصور مدينة المنصورية بازاء القيروان تفاولا بهذا النصر ورجع الى المهدية واقام بها الى ان مهدها ورجع الى قصره بالمنصورية ولم يظهر وفاة ابيه الّا بعد ظفره بابي يزيد وهنالك تسمى باميرا لمومنين * وفي ايامه اطاع زيري بن مناد وخدم بني عبيد هو وبنوه من بعده وفي سنة ست وثلثين بعث المنصور اسماعيل بن الحسن بن علي بن الحسين عاملا على صقلية ودامت ولايته الى سنة ثلث وخمسين وثلثمائة وبقيت في عقبه وفي سنة اربعين بعث المنصور اصطولا عظيما الى صقلية لانه سمع بملك الروم عازما على الحركة اليها وتوفي رحمه الله يوم الجمعة ءاخر شوال سنة احدى واربعين وثلثمائة وعمره اربعون سنة وولايته سبع سنين وثمانية عشر يوما وكان اكد بالعهد لولده ابي تميم معد ودفن بصبرة في قصره رحمه الله تعالى * وكانت له مواقف مشهورة مع ابي يزيد وباشر القتال فيها بنفسه وكادت تكون الدائرة عليه مرارا شتى لولا لطف الله به وثبات جاشه وكان ابو يزيد قد استولى على جميع بلاد افريقية حتى لم يبق للقائم ابيه ولا له الّا المهدية * ولما مات ابوه وابو يزيد محاصر له اخفى موت ابيه وهو يدبر الامور ولم يظهر موت ابيه الّا بعد ظفره بابي يزيد الخبيث وكانت ايام ابي يزيد ازيد من ثلثين سنة دمر فيها غالب

الاقليم الافريقي * والمنصور رحمه الله تعالى اربى عن ابيه وجده في الصبر وقوة الجاش والتخلق بالادب * قـــــال ابو جعفر المروردي خـرجت مع المنصور يوم هزم ابي يزيد فسايرته وبيده قضيب ريحان فسقط من يده فمسحته وناولته اياه وتفاءلت له وانشـدته

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافـر

فقـــال ـ الا قلت ما هو احسن من هـذا واصدق فالقى موسى عصـاه فاذا هي تلقف ما يافكون ـ فقلت انت ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت ما عندك من العلم وانا قلت ما عندي * وكان موته من أرق اصابه فعالجه طبيبه اسحاق بن سليمان الاسرائيلي ونهـاه عن دخول الحمام فلم يقبل منه ودخل الحمام فيبست الحرارة الغريزية ولازمه السهر والطبيب ملازم على معالجته والسهر باق على حالـه فلما اشتد امره سال عن طبيب غيره فاتوه به فشكـا اليه حاله وقلة النوم فعالجه بما ينام به فمات رحمه الله *

الخبر عن ولاية المعز لدين الله

ابـو تميم معد بن المنصور بالله ابي الطـاهر اسماعيل بن القـايم بامر الله ابي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله مولده بالمهدية سـنة تســــع عشرة وثلثمائة وبويع بعهد من ابيه في حياته وجددت له البيعة بعد وفـاة ابيه في شوال وقيل في ذي القعدة سـنة احدى واربعين وثلثمـائة فدبر الامور وساسها واجراها على احسن احكـامها وفي اليوم الاحد سـابع ذي الحجة جلس على سرير ملكه ودخل اليه الخاص والعام وسلموا عليه بالخلافة وله من العمر اثنتان وعشرون سنة * وكـان المعز عالما فاضلا جوادا سمحا شجاعا جاريا على منهاج ابيه من حسن السيرة وانصاف الرعية وفي سنة اثنتين واربعين وثلثمائة رحل المعز الى المغرب وصعد الى جبل اوراس وجالت فيه خيوله وقاتل من به من العصاة حتى اطاعوا له وعقد الى مولاه قيصـر بولاية المغرب كله وعلى اشير زيري بن مناد الصنهاجي وعلى المسيلة

واعمالها جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي وعلى باغاية واعمالها نصير الصقلي وعلى فاس احمد بن بكر وعلى سجلماسة محمد بن واسول وقد عصى فيما بعد وتلقب بالشاكر لله وعلى قابس بن عطاء الله الكتامي وعلى مدينة سرت باسيل الصقلي وعلى اجدابية ابن كافي الكتامي وعلى برقة واعمالها افلح الناسب وعلى خراج افريقية حمولة الكتامي واستوفت له امور البلاد كلها وهاداه ملك الروم * وفي سنة خمس واربعين وثلثمائة ارتفعت رتبة جوهر الكاتب وصار في رتبة الوزارة وجعل مظفر الصقلي على اعنة الخيل وتحت يده من رقادة الى اعمال مصر يدبرها ويجبي اموالها * وفي سنة سبع واربعين وثلثمائة في صفر بعث عسكرا ضخما وولى عليه غلامه جوهر المذكور وكان جوهر رجلا حازما وامره ان ياخذ من كل بلدة عددا معروفا فخرج جوهر بامم لا تحصى فدخل مدينة اكان فنهبها وامر بهدمها وسار الى مدينة فاس وحاصرها فلم يفتحها ورحل الى سجلماسة واسر صاحبها محمدا وكان قد خطب لنفسه وتسمى بالشاكر لله ثم مضى لا يدافعه احد الى ان بلغ الى البحر المحيط وامر بصيد السمك وجعله في قماقم بالماء وارسله الى مولاه المعز وكتب اليه كتابا وجعل فيه من صريع البحر ورجع الى فاس فنزل عليها وحاصرها وفتحها واخذ صاحبها وقيده وجعله مع صاحب سجلماسة وجعل لهما قفصين من خشب وجعل كل واحد في قفص وحملهما على الجمال وقفل الى افريقية بعد ما دوخ المغرب وخطب لمولاه في سائر بلاد المغرب ما عدا سبتة وكانت غيبته ثلثين شهرا ووصل الى المنصورية فطيف بصاحب فاس وصاحب سجلماسة في البلد وسجنا واستوت للمعز البلاد ودانت له العباد ولم يبق بلد الا اجتمعت فيه دعوته ودخل تحت طاعته الفواطم الذين في اقصى المغرب وبعث الى صقلية الحسن بن عمار بن علي بن الحسين وتوفي بها سنة ثلث وخمسين وثلثمائة وبعث المعز الى ولده احمد بن الحسين بولاية صقلية وفي سنة اربع وخمسين خرج المعز مستشرفا على البلاد ومتنزها وبلغ الى تونس وقرطاجنة

وراى عجآئبها ثم ارتحل الى غيرها واقام ثمانين يوما في غيبته ثم رجع الى المنصورية * قلــــت وهي المعبر عنها بصبرة الى زماننا هذا * وفي سنة خمس وخمسين وثلثمائة امر بحفر الآبار في طريق مصر وان يبنى له في كل موضع قصر وفي ءاخر جمادى الثانية من السنة المذكورة جاءه الخبر بوفاة كافور صاحب مصر وفيها وجه مولاه جوهر الى المغرب في عسكر عظيم فمهد البلاد وحشد سآئر الاجناد وقبآئل كتامة وجبى ما على البربر ورجع الى مولاه سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وخرج المعز بنفسه الى المهدية واخرج من قصور ابيه خمسمائة حمل دنانير ورجع الى قصره ولما كان في يوم السبت لاربع عشرة خلون من ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة رحل القائد جوهر في عسكر عظيم من البربر وكتامة والزويليين والجند بعد ما وسع المعز عليهم بالارزاق والعطايا وانفق فيهم مالا جزيلا واعطى من الف دينار الى عشرين دينارا حتى عمهم كلهم بالعطاء * وسار القآئد جوهر في عدد يقصر عنه الوصف ومعه الف حمل من المال واما الخيل والعدد والسلاح فلا تحصى * ودخـــل جوهر الى مصر يوم الثلثاء لاثنتي عشرة ليلة بقين من شعبان من السنة المذكورة وصعد المنبر لعشر بقين من شعبان ودعا لمولاه المعـــز * وفي النصف من رمضان وصلت النجب بالبشارة الى المعز وصورة الفتح فعمه السرور وصار في كل وقت تصل اليه كتب القائد جوهر يحثه على الرحيل الى مصر وان الشام والحجاز تحت طاعته وقامت له الدعوة في تلك البلاد * وفي سنة ستين وثلثمائة وصل جعفر بن القائد جوهر بهدية من عند ابيه وفيها من اواني الذهب والفضة والعماريات والسروج المحلات واحمال الامتعة وصنوف الثياب وطرائف المشرق وذخائر الملوك ما لا يوصف ومعه القواد الذين حكم عليهم جوهر عند تملكه مصر فاقبل عليهم المعز وعفا عنهم وجلس لهم في زي عجيب وجعل التاج على راسه ودخلوا عليه فسلم عليهم ولاطفهم واكرمهم غاية الاكرام * وفي شوال سنة احدى وستين عزم على المسير الى مصر ورحل من المنصورية

واقام بسردانية ولحقه عماله واهل بيته وجمع ما كان له في قصوره وكان مقامه بسردانية اربعة اشهر وسردانية قرية من القيروان وكانت قصورهم وبساتينهم بها * وفي اول صفر رحل منها واطلق النار في زربها ولما حاذى صبرة قال — سلام عليكم من مودع لا يرد ابدا * وخلف على افريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وكتب له بولاية المغرب كله وسياتي خبره بعد ان شآء الله تعالى وكان بلكين فارقه من عمل قابس ورحل المعز من قابس يوم الاربعآء عاشر ربيع الاول من السنة المذكورة ودخل طرابلس يوم الاربعآء الرابع والعشرين من الشهر ورحل عنها يوم السبت لثلث عشرة بقين من ربيع الثاني فوصل الى سرت في الرابع من جمادى الاولى ورحل عنها ونزل بقصره الذي بني له باجدابية ورحل من اجدابية فنزل بقصره المعروف بالمعزية في برقة وتم في سيره منها الى ان وصل الاسكندرية فنزل تحت منارها واتاه اهلها فسلموا عليه ولما دخل عليه قاضي الاسكندرية سلم عليه ولم يسلم على ولي عهده فقال له المعز يا قاضي هل حججت قال نعم يا امير المومنين فقال له هل سلمت على الشيخين قال لا فقال له ولما ذا قال شغلني السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلني السلام على امير المومنين حين لم اسلم على ولي عهده فاعجب المعز منه * وساله مرة اخرى فقال له هل رايت خليفة قط قال واحدا يا امير المومنين فقال له ومن هو قال انت والباقون ملوك فسر بكلامه ودخل الاسكندرية ومشى في منازلها ودخل الحمام بها * ثم رحل عنها ووصل الى مصر يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان واقام هناك ثلثا واخذ العسكر في التعدية باثقالهم وانزل الناس في مصر والقاهرة وغالب العسكر في الفازات والمضارب بين مصر والقاهرة . والقاهرة هي التي بناها القائد جوهر لاجل العسكر لما ضاقت بهم مصر فسميت باسم استاذه المعز فيقال القاهرة المعزية وهي التي فيها القلعة والجامع الازهر ومصر في ذلك الوقت هي مصر العتيق الان ويقال لها الفسطاط بنيت في زمن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه

وامـــا مصر فرعون فيقال لها منف والله اعلم * ويوم الثلثاء لخمس خلون من رمضان سنة اثنين وستين وثلثمائة عبر المعز النيل ودخل القاهرة ولم يدخل مصر وتلقاه القائد جوهر عند الجسر الثاني فترجل عند لقائه وقبل الارض بين يديه ولما دخل القاهرة دخل القصر الذي كان معدا له فدخل مجلسا وخر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين وفي العشر الاخيرة من المحرم سنة اربع وستين عزل المعز القائد جوهر من دواوين مصر وجباية اموالها وكان في المعز عدل وانصاف وكان ينظر في النجوم * والمعز لدين الله هو ءاخر الخلفاء العبيديين بالمغرب واول الخلفاء منهم بمصر واسكن الجند بالقاهرة واقتسموا منازلها وسكنت كل طائفة بمكان معروف بها فيقال حارة زويلة الى يومنا هذا ينسب اليها باب زويلة من اجل الزويليين سكنوا هناك وحارة كتامة والبرقية وعدة حارات بها باقية الى اليوم باسمائها وتوفي المعز لدين الله بمصر في سابع عشر ربيع الاول سنة خمس وستين وثلثمائة وعمره خمس واربعون سنة وقيل ست واربعون وكانت خلافته ثلثا وعشرين سنة وخمسة اشهر وايام مقامه بمصر سنتان وتسعة اشهر وبقيتها ببلاد المغرب * وسبب موته ان ملك الروم ارسل اليه رسولا عدة مرار وتردد اليه بافريقية ومصر فخلا به بعض الايام وكان اسمه نكولة فقال له المعز لدين الله اتذكر اذ اتيتني وانا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علي بمصر وانا ملك عليها قال نعم فقال له وانا اقول لك الان لتدخلن علي ببغداد وانا خليفة فقال الرسول ان امنني على نفسي ولم تغضب اقول لك ما عندي فقال له قل ما عندك وانت ءامن قال بعثني اليك الملك ذلك العام فوصلت الى صقلية فلقيني غلامك بجيشه فرايت منه العجب ثم جئت الى سوسة فرايت بها من جندك وضخامته ما اذهل عقلي ثم سرت الى المهدية فما كدت اصل اليك من كثرة اجنادك وخدمك وكثرة اصحابك فكدت اموت ووصلت الى قصرك فرايت نورا غطى بصري ثم دخلت عليك وانت على سريرك فرايت عظمتك فظننتك خالقا لا مخلوقا فلو قلت

لي انك تعرج الى السماء لتحققت ذلك ثم جئت اليك الان فما رايت من ذلك شيئا ولما اشرفت على مدينتك هذه كانت في عيني سوداء مظلمة ثم دخلت عليك في قصرك فما وجدت عليك مهابة مثل ذلك العام فقلت ان ذلك كان مقبلا وانه الان بضد ما كان عليه فاطرق المعز راسه وخرج الرسول من عنده واخذت المعز الحمى لشدة ما وجد وثقل مرضه واتصل به حتى مات رحمة الله عليه وعهد لولده ابي منصور نزار المتلقب بالعزيز بالله *

الخــــــبر عن خلافة العزيز بالله

ابو منصور نزار بن المعز لدين الله ابي تميم معد بن المنصور ابي الطاهر اسماعيل بن القائم بامر الله ابي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله مولده يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة اربع واربعين وثلثمائة بالمهدية وولي الامر بعد وفاة ابيه في ربيع الاخير سنة خمس وستين وكان شجاعا حسن العهد اديبا فاضلا خطب له بمصر والشام وافريقية وفتح حمص وحما وحلب والموصل وخطب له باليمن وكان استناب بالشام يهوديا اسمه ميشا واستكتب عيسى ابن نسطور النصراني فاعتز بهما النصارى واليهود * فكتب اهل مصر قصة وجعلوها في يد تمثال من قراطيس وفيها — بالذي اعز اليهود بميشا والنصارى بعيسى واذل المسلمين بك الا ما كشفت ظلامتي — فلما راى الرقعة امر باخذها وقراها فعلم ما اريد بذلك فقبض عليهما واخذ من ابن نسطور ثلثمائة الف دينار ومن اليهود شيئا كثيرا * وصعد المنبر يوما فراى ورقة مكتوبا فيها

بالظلم والجور قد رضينا * وليس بالكفر والحماقة

ان كان ما تدعيه حقا * بين لنا كاتب البطاقة

لان العزيز كان يدعي علم الغيب وذلك انه كانت له عجائز يسرقن الاخبار من الدور ويأتينه بها فكان يقابل الناس ويقول ما بال احدكم قال كذا وفعل كذا فيتوهم السامع ويظن ان ذلك من سر اعطيه ويزعم هو انه يعلم المغيبات ولا يعلم الغيب الا الله * وكان خليفته بافريقية خليفة ابيه بلكين ووزيره يعقوب بن كلس كان يهوديا واسلم وكان

من عجائب الدهر وخبره مشهور في غير ما موضع ولولا الاختصار لذكرنا جميع اخباره * وكتب العزيز بالله الى الحكم صاحب الاندلس كتابا يسبه فيه فاجابه الحكم قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك هجوناك يعني به انه دعي في نفسه وقيل ان الحكاية بالعكس والله اعلم بذلك ومات بمدينة بلبيس من امراض لحقت به النقرس والقولنج وله من العمر اثنان واربعون سنة في ثامن عشر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة رحمة الله تعالى عليه *

الخبر عن خلافة الحاكم بامر الله

ابو علي منصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله بن المنصور بالله بن القائم بامر الله بن المهدي عبيد الله مولده ثالث ربيع الاول سنة خمس وسبعين وثلثمائة وبويع بالخلافة بعد وفاة ابيه سنة ست وثمانين وثلثمائة وعمره عشر سنين وقيل احدى عشرة اخذ له البيعة برجوان خادم ابيه وكان خصيا ابيض اللون وهو الذي دبر دولة الحاكم بامر الله وبالغ في النصيحة له وقتله الحاكم بعد ذلك وبرجوان له بمصر حارة مشهورة الى يومنا هذا يقال لها حارة برجوان * وكان الحاكم متناقض الاخلاق يامر بالشيء ثم ينهى عنه واخباره في ذلك شهيرة وكان سفاكا للدمآء قتل عددا كثيرا من اهل دولته ومات في ذي القعدة سنة احدى عشرة واربعمائة وعمره سبع وثلثون سنة وايام خلافته خمس وعشرون سنة * وقيل ان اخته دبرت في قتله لامور ظهرت منه فامرت من اغتاله وكان ينفرد بنفسه ويركب حمارة ويطوف في الاسواق ويقيم الحسبة بنفسه * فاتفق ركوب الحاكم الى جبل حلوان وكان قد كمن له فيه من قتله هناك واتوا به الى اخته سرا فدفنته وكان بعض شيعته من المغاربة يزعمون انه يعود فكانوا اذا راوا سحابة في الجو سجدوا لها زعما منهم انه في السحاب * وقيل انه اراد ان يدعي الالوهية - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - واخذت اخته البيعة الى ولده ابي هاشم علي الظاهر لاعزاز دين الله *

الخـــــبر عن خلافة الظاهر لاعزاز دين الله

ابو هاشم علي بن الحاكم بامر الله ابي علي منصور بن العزيز بالله ابي منصور نزار بن المعز لدين الله ابي تميم معد بن المنصور بالله ابي الطاهر اسماعيل بن القائم بامر الله ابي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله مولده في رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة بويع له يوم عيد النحر سنة عشر واربعمائة وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفا للرعية يحب الدعة والراحة * وفي ايامه طمع من طمع في اطراف بلاده وتضعضعت دولته ومات في منتصف شعبان سنة ست وعشرين واربعمائة وايام خلافته خمس عشرة سنة وتسعة اشهر وايام وبلغ عمره ثلثا وثلثين سنة وقام بالامر بعده ولده المستنصر بالله ابو تميم *

الخـــــبر عن خلافة المستنصر بالله

ابو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بامر الله مولده بالقاهرة المعزية سنة عشرين واربعمائة بويع بعد وفاة ابيه في شعبان سنة سبع وعشرين واربعمائة وجرى في ايامه ما لم يجر في ايام احد من اجداده منها الغلاء الذي وقع في ايامه حتى اكل الناس بعضهم بعضا * ومنها انه خطب له ببغداد سنة ولم تكن لغيره قبل وذلك سنة خمس وثلثين * ومنها قيام الصليحي باليمن وخطب له على منابرها * ومنها انه لم تزل دعوتهم بالمغرب من اول امرهم الى ايامه قطعها المعز بن باديس الصنهاجي وسياتي خبره * وخطب له بالكوفة وواسط والموصل * ومنها انه ولي وهو ابن سبع سنين واقام في الخلافة ستين سنة وهذا شيء لم يبلغه احد من اهل بيته ولا من بني العباس * واقام الغلاء في ايامه سبع سنين حتى توجهت امه وبناته لبغداد من شدة الجوع وبيع الرغيف الواحد بخمسين دينارا وكان في هذه الشدة يركب وحده وحاشيته مترجلون وربما استعار دابة يركبها صاحب المظلة من عند كاتب الانشاء ابن هبة الله وقاسى شدائد واستوزر بدر الجمالي وحسنت احواله فيما بعد وكانت وفاته في ثامن عشر ذي

الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة وعمره ثمان وستون سنة وهو اطول العبيديين مدة واقام بالامر من بعده ولده المستعلي بالله *

الخبر عن خلافة المستعلي بامر الله

ابو القاسم احمد بن المستنصر بالله بن الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بامر الله بن العزيز بالله بن المعز لدين الله بن المنصور بالله ابي الطاهر بن القائم بن المهدي عبيد الله مولده في المحرم سنة تسع وستين واربعمائة بالقاهرة ولي الامر بعد ابيه سنة سبع وثمانين واربعمائة وله من العمر احدى وعشرون سنة * وفي ايامه اخذ الافرنج انطاكية والمعرة والقدس ووهنت دولتهم ولم يكن له مع الافضل ابن امير الجيوش حكم وانقطعت دعوتهم من بلاد الشام وتغلب عليها الاتراك ومات في صفر سنة خمس وتسعين وبلغ عمره تسعا وعشرين سنة وكانت خلافته ثماني سنين واياما واستخلف بعده ولده ابو علي *

الخبر عن خلافة الامر باحكام الله

ابو علي منصور بن المستعلي بالله ابي القاسم احمد بن المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ابي هاشم علي بن الحاكم بامر الله ابي علي منصور بن العزيز بالله ابي منصور نزار بن المعز لدين الله ابي تميم معد بن المنصور بالله ابي الطاهر اسماعيل بن القائم بامر الله ابي القاسم محمد بن المهدي ابي محمد عبيد الله مولده في المحرم سنة تسعين واربعمائة بويع له بالخلافة سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين وهو ابن خمس سنين ولم يقدر على الركوب وحده لصغر سنه ودبر دولته الافضل ابن امير الجيوش * ولما اشتد الامر باحكام الله قتل امير الجيوش المتقدم ذكره والافضل هذا لقبه شاهنشاه واسمه ابو القاسم بن امير الجيوش بدر الجمالي الارمني قتل سنة خمس عشرة وخمسمائة * والامر هذا كان قبيح السيرة ظلم الناس واخذ اموالهم وسفك الدماء وارتكب القبائح * وفي ايامه ملك العدو كثيرا من بلاده ومات سنة اربع وعشرين وخمسمائة في صفر ولم

يكن اعرق منه نسبا في خلافة العبيديين لانه العاشر في الخلفآء على نسق واحد ابا عن جد وتوفي قتيلا ايضا وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله *

الخبر عن خلافة الحافظ لدين الله

هو ابو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله بن الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي مولده سنة سبع وستين واربعمائة وتولى يوم قتل ابن عمه في صفر سنة اربع وعشرين وخمسمائة وغلب على امره ابو علي احمد بن الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش الجمالي وبقي الحافظ صورة معه من تحت حكمه وحبسه وءاخر الحال دس الحافظ على الوزير فقتله واحد من الخاصة فبادر الاجناد الى الحافظ واخرجوه من السجن وبايعوه مرة اخرى * وكان الحافظ ملازمه مرض القولنج فصنع له شيرماه الديلمي طبل القولنج وكان مركبا من المعادن السبعة والكواكب السبعة في اشرافها فاذا ضرب به صاحب القولنج خرج منه ريح متتابعة فيستريح * وهذا الطبل وجده صلاح الدين في خزائنهم عند تملكه الديار المصرية * ومات الحافظ في جمادى الاولى سنة اربع واربعين وخمسمائة فكانت خلافته عشرين سنة وله من العمر بضع وسبعون سنة وتولى بعده ولده اسماعيل بوصية من ابيه وتلقب بالظافر بالله *

الخبر عن خلافة الظافر بالله

ابو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله ابي الميمون عبد المجيد بن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله مولده منتصف ربيع الاول سنة سبع وعشرين وخمسمائة بويع بالامر بعد ابيه وقتل في نصف المحرم سنة تسع واربعين لاشيآء اضربنا عنها لاجل الاختصار وهي مشهورة في كتب التواريخ وبويع ولده ابو القاسم عيسى ولقب بالفائز بنصر الله *

الخـــــبر عن خلافة الفائز بنصر الله

ابو القاسم عيسى بن الظافر بالله بن الحافظ لدين الله بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله بويع بالخلافة يوم قتل والده في المحرم سنة تسع واربعين وخمسمائة وله من العمر خمس سنين ولما اراد الوزير مبايعته ادخل الجند وقال هذا ابن مولاكم فبايعوه * وكان الوزير هو الذي قتل اباه فلما رءاه الاجناد ضجوا بالبكآء في وجه الفائز وكان على كتف الوزير ففزع الطفل من ذلك وصار يعتريه الصرع والاضطراب الى ان مات في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهو ابن عشر سنين فكانت خلافته خمس سنين رحمة الله تعالى عليه *

الخـــــبر عن خلافة العاضد لدين الله

ابو محمد عبد الله العاضد بن يوسف بن الحافظ لدين الله بن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي عبيد الله مولده سنة ست واربعين وخمسمائة بويع بعد وفاة الفائز بنصر الله في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة واستولى على وزارته الملك الصالح طلايع بن رزيك فكان العاضد كالمحجور عليه * وكان رافضيا خبيثا * وفي ايامه دخل شاور بالغز من الشام وقتل طلايع ومات قتيلا في اثناء ذلك شاور على يد اسد الدين شيركوه ارسله نور الدين الى مصر وبعده تولى الوزارة ابن اخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب بن شادي وتمكن من المملكة وبقي معه العاضد صورة الى ان خلعه * وخطب في حياته لبني العباس والخليفة العباسي في ذلك الوقت الامام المستضيء بامر الله في بغداد وذلك في حياة العاضد وكان مريضا فلم يعلم بشيء من ذلك ومات يوم عاشورآء سنة سبع وستين وخمسمائة وانقرضت دولتهم من سائر البلاد فسبحان من لا يفنى ملكه *

قـــــــال ابن خلكان سمعت من اهل الديار المصرية ان العبيديين

في اول امرهم قالوا لبعض الكتاب اكتب لنا القابا تصلح للخلفاء حتى اذا ما تولى احد خليفة لقب بشي منها فكتب لهم ورقة فيها عدة القاب ءاخرهم العاضد فكان هذا العاضد ءاخر خلفائهم * وكانت ايامهم مائتي سنة وستين سنة منها في مصر مائتا سنة وثمان سنين واثنتان وخمسون سنة بالمغرب وعدة خلفائهم اربعة عشر خليفة اولهم المهدي وءاخرهم العاضد * ومــــا اطلنا الكلام عليهم الّا لارتباط اخبارهم وانمام الفائدة وانما غرضنا ان نذكر من ملك افريقية لا غير * ولمــــا كان اول ملكهم بافريقية وكان ظهورهم بالخلافة منها ورحلوا عنهــا للديار المصرية جذبتنا مسافة الاخبار منهم الى نهاية ايامهم ولولا خيفة التطويل لاتينا من اخبارهم بما فيه الغرض واخبارهم مطولة في غير هذا * ومنهــــــم من صحح نسبهم واثبته ومنهم من ذم فيه ورفضهم ولا يعلم الغيب الّا الله وبقيت لنا نبذة من اخبــارهم نأتي بهــا في ءاخر الفصل الذي بعد هذا في محله ان شآء الله تعــالى *

البــاب الخــامس

في الامراء الصنهــاجــــــية

هذا الباب نذكر فيه ملوك صنهاجة وان كانوا في الحقيقة عمالا لبني عبيد فانهم بلغوا درجة الملوك وكانت لهم ضخامة وصيت وغالب اهــل تونس لايتحقـقون ولايتهم وانا استغفر الله اقــول ان ايــامهم ودولتهــم اقوى من دولة بني حفص الّا ان بني حفص خطب لهم بامراء المومنين ولم يخطب لصنهاجة بهذا الاسم وزادت ايامهم على مايتي ســــنة واستقلوا بالامر في افريقية حيــن سار المعز لدين الله الى مصر فاستعمل على عمله ابا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهــاجي وصنهاجة قبيلة من البربر وقيل صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حيــر وان الملــك افريقش بن وائل بن حمير وقيل افريقس بن ابرهة بن ذي القرنين لما ملك حميرا وغــزا المغرب وبنى مدينة افريقية خلف فيها من قبائل حمير وزعمائهــا

صنهاجه وقدمهم على البربر ليدبروا امورهم ويأخذوا خراجهم وقيل صنهاجة ابو صنهاجة بن حصين بن سبا لصلبه وقيل هم فخذ من هوارة وهوارة فخذ من حمير وصنهاجة تنقسم على سبعين قبيلة منهم لمتونة الذين ملكوا بلاد المغرب وسياتي من اخبارهم شيء ان شاء الله تعالى وفي هذا القدر كفاية * واول اتصال زيري بالمنصور لما دخل المغرب في طلب ابي يزيد الخارجي ودخل بلاد صنهاجة سنة خمس وثلثين وثلثمائة هناك وافاه زيري بعساكره واهل بيته ودخل في طاعته فخلع عليه ووصله بصلة ونصب له فازة وقلده سيفا وعقد له على اهل بيته ومن اتصل به من اهل صنهاجة والبربر وعظم شانه وحضر مع المعز لدين الله عند دخوله المغرب سنة اثنتين واربعين وثلثمائة واستعمله على اشير وما والاها وكان حازما شجاعا شديد الباس وحضر مع جوهر لما دخل المغرب في سنة ست واربعين وثلثمائة على فاس وجوهر محاصر لها فكان زيري سببا لفتحها فزادت رتبته في الدولة وزاده جوهر ولاية تيهرت فضمها الى عمله واتسعت ولايته. وكان بينه وبين جعفر ابن علي المنعوت بالاندلسي وكان عاملا على المسيلة ضغائن في النفوس بسبب الولايات * وجعفر هذا ابوه الذي بنى المسيلة واضاف الى جعفر عمل الزاب من بلاد المغرب . وكان طائعا للدولة العبيدية ويخطب لهم في بلاده وكان يعد من الملوك * ولما عزم المعز لدين الله على التوجه الى الديار المصرية شاع بين الناس ان المعز يريد ان يستخلف يوسف بن زيري على جميع بلاد افريقية فعظم ذلك على جعفر بن الاندلسي واتفق ان المعز ارسل الى جعفر يامره بالقدوم اليه وكرر ذلك مرارا فاظهر جعفر انه قاصد له فخرج من المسيلة وفر الى زناتة فقبلوه وملكوه على انفسهم فخلع طاعة المعز فلما بلغ الخبر الى زيري بادر بالخروج الى جعفر في عدد من صنهاجة فالتقى معه وكانت وقعة عظيمة فكبا بزيري فرسه فقتل ومات قدامه خلق عظيم . وبعث جعفر بن علي اخاه يحيى الى الاندلس والخليفة بها الحاكم الاموي يبشره بقتل زيري * ولما علمت زناتة ان يوسف بن

زيري يطالبهم بدم ابيه اصرث الغدر لجعفر وعزموا على امساكه فلما احس بذلك فر الى الاندلس باهله واولاده فقبله الحاكم واجرى عليه الوظائف السنية وبقي عنده في اعلى مكان مدة ثم نقم عليه الحاكم ونكبه ثم افرج عليه بعد ذلك وعاد الى رتبته ولم يزل هنالك الى ايام الوزير ابن ابي عامر فقتله سنة سبع وستين وثلثمائة وبعث براسه الى بلكين * وكان زيري المذكور حسن السياسة والتدبير في الرعية والتشديد على البرابر ما راى الناس مثل ايامه في المغرب واقام على حسن السيرة ستا وعشرين سنة * ولما مات كما ذكرنا وبلغ الخبر الى ولده بلكين وهو باشير وكان هو المقدم عند معد يعظمه على جميع اخوته جمع اهل بيته وعبيده واختار من جنده من احب وخرج طالبا لثار ابيه ، فادرك زناتة وكانت له فيهم فتكات فقتلهم قتلا ذريعا وسبى نساءهم واطفالهم واجلاهم من البلاد * فبلغ الخبر الى معد فسره ما فعل وارسل اليه يامره برد السبي والقدوم عليه فقدم على المعز بعد ما استخلف على عمله من يثق به ومهد قواعد بلاده ونفذت كتبه الى عماله بـ من يوسف بن زيري خليفة السلطان * ولم يترك في المغرب عند احد من البرابر فرسا ولا جملا ولم يترك الا من يحرث ويحصد وقدم الى المنصورية وقد شاع بين الناس انه المستخلف في افريقية فهادته على قدر مراتبهم وكثرة اموالهم وزادت مكانته * ولما وصل الى المعز جلس له في الايوان وادخل عليه فقبله احسن قبول وتحدث معه وشكر افعاله وقلده سيفه وخلع عليه خلعة من لباسه وقاد بين يديه اربعين فرسا بسروج الذهب المثقلة واربعين تختا بالثياب الفاخرة وخلع على جميع اصحابه واكرمهم غاية الاكرام * ومن هنا نذكر توليته وبنيه من بعده * وما قدمنا هذه النبذة الا توطئة لخبرهم وليعلم الناظر في هذه الاوراق مبتدا امرهم الى ان ياتي على ءاخرهم ان شاء الله تعالى لارب غيره ولا خير الا خيره *



الخبر عن ولاية الامير بلكين

هو يوسف بن زيري الصنهاجي ابو الفتوح بلكين فوض له الامر بافريقية والمغرب كافة ما عدا طرابلس وصقلية لم يدخلا في عمله وذلك يوم الاربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة احدى وستين وثلثمائة عند رحيل المعز لدين الله الى المشرق وكتب له سجلا وامر الناس بالسمع له والطاعة وسار معه الى قابس وكل يوم يوصيه ويوكد عليه ولما اراد وداعه قال له — يا يوسف ان نسيت ما اوصيتك به فلا تنس ثلثا لا ترفع الجبايا عن البادية ولا ترفع السيف عن البرابرة ولا تول احدا من اهل بيتك فانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك واوصيك خيرا باهل الحاضرة — وودعه وانصرف راجعا الى المنصورية فدخلها يوم الخميس لاحدى عشرة خلت من ربيع الاول سنة اثنتين وستين وثلثمائة فنزل بقصر السلطان بصبرة وخرج اليه اهل القيروان فهنوه واظهروا السرور بقدومه واقام هنالك شهرين وبعث العمال والولاة الى جميع البلاد ونفذت اوامره في فريقية والمغرب * ولما مهد الامور بافريقية رحل الى المغرب في شعبان سنة ثلث وستين وثلثمائة * وفيها عصى اهل تيهرت فنزل عليها وظفر باهلها فسبى الذرية ونهب الاموال وبلغه الخبر عن زناتة انهم نزلوا على تلمسان وملكوها فرحل اليهم ففروا امامه وفتح تلمسان * وبعث اليه المعز كتابا يامره الا يتباعد عن افريقية ولا يتوغل في الدخول الى المغرب * وفي ايام امارته قام بالمغرب زيري بن عطية الزناتي فملك فاس وسجلماسة وما جاورهما وخطب فيهما لبني امية فسار اليهما بلكين بعساكر ضخمة ففتحهما وطرد عمال بني امية * ونازل مدينة سبتة وحاصرها اياما ثم رحل عنها واتى الى البصرة فنهبها * قلت البصرة التي بالمغرب هي التي يقال لها اصيلة في زماننا هذا * وبعث هدية الى مصر سنة خمس وستين وثلثمائة فبلغه خبر موت المعز وولاية ولده العزيز فرد الهدية من طرابلس ستانف هدية اخرى وسيرها باسم العزيز فكانت اول هدية قدمت عليه *

فكتب العزيز تجديدا بولايته على المغرب وبعث له سجلا ودراهم من السكة التي ضربت باسمه اي باسم العزيز بالله صاحب مصر * وبعث بلكين الى العزيز بالله يطلب منه - سرت - واجدابية - وطرابلس - وان يضيفها الى عمله فانعم عليه بها وبعث بلكين اليها عماله وغزا بني غواطة فكانت بينهما حروب انتصر بلكين فيها وسبى منهم سبايا لم يدخل لافريقية اعظم منها وتوغل في المغرب حتى لم يبق له به منازع . وهربت زناتة امامه حتى دخلوا الرمال في الصحراء وخالفته اهل سبتة فدافعه منصور بن ابي عامر منها بان بعث اليه براس جعفر بن الاندلسي الذي قتل اباه زيري وتقدم ذكره وكانت مكاتيب معد الذي هو المعز بالله تصل اليه من مصر الى مدينة فاس * وفي سنة سبعين وثلاثمائة بعث ولده المنصور الى القيروان لتجهيز هدية الى مصر فوصل الى رقادة واقام بها مدة وبعث بالهدية وكانت اول هدية خرجت على يده واول وصوله الى القيروان لانه لم يكن دخلها قبل ذلك لان ولادته كانت في اشير واقامته بها ولم يدخل الى افريقية الا في هذه السنة ورجع الى المغرب وفي سنة ثلث وسبعين وثلثمائة خرج ابن حزون وضرب على سجلماسة فنهبها فوصل الخبر الى بلكين * فرحل اليه بلكين فاصابه في طريقه قولنج فمات في مكان يقال له واركلان لسبع بقين من ذي الحجة بعد ما اسند وصيته الى ولده المنصور رحمه الله *

الخبر عن ولاية المنصور بن بلكين بن زيري

استقل بالامر بعد وفاة ابيه وكان ببلد اشير فاخذ البيعة عن الاجناد واطاعه الخاص والعام وخرجت الاوامر عن امره وبعث الى العمال ونفذت كلمته وكان رجلا عاقلا عفيفا عن الدماء يحب الرفق بالامور فجبلت الناس على محبته ومهد الامور بتدبيره وجلب القلوب باعطائه وتبذيره ووفدت اليه العمال بالهدايا فقبلهم احسن قبول وعمهم بالعطايا وخرج من القيروان القضاة والامناء ووجوه الناس قدر مائتي رجل لتهنيته بالملك وتعزيته في ابيه فوصلوا اليه باشير فوجدوه خارج البلد على جبلها فسلموا عليه وقبلوا

يده ودعوا له ففرح بهم وانزلهم منزلا حسنا * وفي ثاني يوم من وصولهم جلس لهم مجلسا عظيما ودخلوا عليه وهو في زي عجيب من ضخامة الملك واوقف حوله الصقالبة والاجناد واظهر لهم من ابهة الولاية ما ابهر عقولهم وقال لهم — يعز علي حركتكم في هذا الزمان إلّا ان سروري برويتكم احب الي من الدنيا وما فيها — وامر لهم بعشرة ءالاف دينار ففرقت فيهم وفي خامس يوم من وصولهم امر بهم فدخلوا عليه فلاطفهم ومما قال لهم — ان ابي وجدي كانا ياخذان الناس بالقهر وانا لا آخذ احدا إلّا بالاحسان ولا اشكر على هذا الملك إلّا الله سبحانه وتعالى — ثم امر لهم بالانصراف الى بلادهم وولى عبد الله الكاتب جميع افريقية والنظر في جميع امورها على ما كان عليه في ايام ابيه * وفي سنة اربع وسبعين وصل المنصور الى رقادة فتلقاه اهل القيروان باجمعهم فسر بهم ووعدهم وعدا جميلا واتته العمال من كل بلد بالهدايا واهدى اليه عامله على القيروان ما لا يدخل تحت حصر * وامر بتجهيز هدية الى مصر وهي اول هدية بعث بها الى نزار من قبله بعد وفاة ابيه بلكين وكانت قيمتها الف الف دينار وصام ومضان برقادة وامر ببناء مصلى للعيد فيها وخرج يوم العيد للصلاة في زي عجيب بسرج مكلل بالدر والياقوت * وفي ءاخر ذي الحجة رجع الى المغرب وصحبته عبد الله الكاتب خليفته على القيروان وخلف ولده يوسف بن عبد الله المذكور وسلم اليه اعمال افريقية قاطبة وفي هذه السنة يعني سنة اربع وسبعين وثلثمائة ازداد للمنصور ولده باديس وكنيته ابو مناد لاحدى عشرة خلون من ربيع الاول من السنة المذكورة * وفيها بعث عسكرا مع اخيه يطوفت الى فاس وسجلماسة لتغلب زيري بن عطية الزناتي عليهما فالتقى العسكران فكانت بينهما مقتلة عظيمة وانهزم عسكر المنصور وبلغ اخوه منهزما الى اشير فلم يتعرض المنصور بعد ذلك الى بلد زناتة * وفي سنة ست وسبعين بنى قصرا له بصبرة فبلغ الانفاق عليه ثمانمائة الف دينار وغرس حوله الاشجار من كل ناحية * وفي هذه السنة

قتل عبد الله الكاتب وولده يوسف واعطي اعمال افريقية لمولاه يوسف ابن ابي محمد وفيها دخلت عمال المنصور الى بلد كتامة وجبوا منها الاموال ولم تكن قبل ذلك تدخل اليها * وفيها بعث نزار الخليفة بمصر هدية الى المنصور وفيها خالف عليه عمه ابو البهار ببلد تيهرت فزحف اليه المنصور بعسكره ففر امامه الى المغرب فدخل المنصور تيهرت فنهبها وطلب اهلها الامان فامنهم ورجع الى اشير * وفي هذه السنة مات عامل صقلية عبد الله بن محمد بن ابي الحسين واوصى الى ولده يوسف من بعده واتاه سجل من نزار خليفة مصر بالولاية فصلحت احوال صقلية في ايامه يعني ايام يوسف بن عبد الله * وفي سنة احدى وثمانين وثلثمائة وصل المنصور بن بلكين الى قصره الذي بناه في صبرة وعيد فيه عيد الاضحى وخرج للناس يوم العيد في زي عجيب من الركوب والملبوس ورفع عن اهل البادية بقية خراج وكان مالا عظيما وعد ذلك من مناقبه * وفي شهر ربيع الاول ختن ولده باديس واهدت له العمال على قدر مراتبهم واتته هدية من عند ابن الخطاب عامله على زويلة فيها زرافة وطرف من اثاث السودان وشيء مستكثر * وقدم اليه عامل طرابلس بهدية جليلة فيها مائة حمل من المال سوى الخيل ولطائف المشرق * وفي هذه السنة وصل اليه سجل من المشرق بولاية ولده باديس من بعده فسر بذلك وفيها عزل عامله عن الاربس وسير اليها مولاه قيصر فوجد في المخازن التي للوالي المعزول ستمائة الف قفيز من الطعام * وفي ذي القعدة خرج متنزها الى سردانية وخرج اليه الشيوخ من اهل القيروان وسالوه ان يعيد عندهم فاجابهم الى ذلك * وفي سنة ثلاث وثمانين خرج ولده ولي عهده باديس الى مدينة اشير ومعه جدته يعلان * وفي سنة اربع وثمانين رجع من المغرب الى المنصورية وكانت اول سفرة سافرها فخرج اليه ابوه واهل الدولة وجميع اهل القيروان فسلموا عليه وكان يوما مشهودا * واتته من مصر هدية سنية ومعها الفيل فركب المنصور بعسكره وتلقاها * ولما كان يوم العيد

خرج باديس لصلاة العيد والفيل امامه وركب في موكب عظيم ولم يخرج معه ابوه ذلك اليوم * واقاما بافريقية ولم يرجعا الى المغرب * وفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة توفي المنصور يوم الخميس لثلث خلت من ربيع الاول ودفن في قصره الكبير الخارج عن صبرة وكانت امارته نحو ثلث عشرة سنة وكان رحمه الله كريما جوادا صارما حازما عاقلا عادلا بين الرعية وايامه طيبة * وفي هذه السنة في شهر رمضان كانت وفاة نزار خليفة مصر وتولى بعده ولده الحاكم بامر الله بعد وفاة المنصور بستة اشهر * ومن الملوك الصنهاجيين باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وكنيته ابو مناد تولى ملك افريقية بعد وفاة ابيه المنصور في ربيع الاول سنة ست وثمانين وثلثمائة ورحل الى قصره بسردانية في رجاله وعبيده واتته الوفود بالتعزية في ابيه وتهنئته بالملك * واستقامت له الامور واحتفل بتجهيز هدية يرسلها الى خليفة مصر فجآءه الخبر بوفاته في شهر رمضان كما ذكر فبقيت بحالها في رقادة الى ان سيرها باسم الحاكم * وفي سنة سبع وثمانين وثلثمائة عقد لعمه حماد بن بلكين على اشير والمغرب وجعله عاملا على تلك البلاد * وفي هذه السنة جآء تسجيل من الحاكم بامر الله الى باديس ولقبه بنصير الدولة يخبره بوفاة نزار والده ويعزيه في والده المنصور وبعث من اخذ البيعة عن باديس واهل بيته من بني مناد * وقلد باديس امور افريقية لمحمد بن ابي العربي وخرج الى المهدية متنزها فقصد سوسة فاقام بها اياما ولما وصل المهدية لعبت المراكب بين يديه ورمى النفاطون بالنفط واقام بها اياما ورجع الى صبرة * وفي يوم العيد سنة سبع وثمانين وثلثمائة خرج في زي لم ير مثله لمن تقدمه من ءابائه وبين يديه الفيل وزرافتان وجمل ابيض ساطع البياض * وارسل له الحاكم خليفة مصر هدية تشتمل على جوهر نفيس واثاث وطرف من بلاد المشرق تولـه العقل فتلقاها باديس ودخلت بين يديه لصبرة * وجآءه الخبر ان زيري بن عطية الزناتي خرج بالمغرب وقصده الى بلد

اشير فجهز اليه جيشا عظيما وارسله مع محمد بن ابي العربي عامله على افريقية فالتقى بزيري بن عطية قريبا من تيهرت فكانت بينهما حروب انهزم فيها عسكر باديس واحتوى زيري بن عطية على جميع الاثاث والاثقال والمال والسلاح * فلما بلغ باديس خبر الهزيمة خرج بنفسه الى قتال زيري بن عطية فخرج من رقادة بعساكره وشيعه مشيخة البلد والفقهاء واهل القيروان وجد في سيره الى اشير وكان زيري محاصرا لها فلما بلغه خبر باديس رحل عنها وتم باديس في طلبه الى ان ادخله المغرب وكر راجعا الى اشير * وفي هذه السفرة خالف عليه اعمامه وكانت بينهم وبينه حروب انتصر فيها باديس بعد ما كان بينهم الفناء مات فيها سبعة الاف من زناتة الذين كانوا مع اعمامه ورجع الى القيروان منصورا وبعث برءوس القتلى فطيف بها في المنصورية والقيروان * وقام في ايامه فلفل الزناتي وعاث في جميع اعمال باديس وكانت له مع فلفل وقعات عديدة * وخرج عنه بعض الثوار بطرابلس فخرج بنفسه اليه واستنقذ طرابلس وولى عليها من قبله * وكانت ايامه كثيرة الحروب والثوار عليه من اعمامه ومن الزناتيين وكان منصورا عليهم في ايامه * وفي سنة ثلث واربعمائة جاءته هدية من الحاكم صاحب مصر وسجلات له ولولده المعز فخرج باديس الى لقائها وخرج ولده المعز ولم يكن خرج قبل ذلك ومعه القضاة واكابر الدولة وترجل لها وقرئت على الناس وفيها اضافة برقة الى ما بيده من الاعمال فارسل عامله الى برقة * ولم تزل ايام باديس في مكافحة الاعداء ورحل الى المغرب عدة مرار وكان مقداما جوادا يعطي العطاء الضخم وكان محسنا لاصحابه ويعفو عن اساءتهم * وخرج الى المغرب لقتال زناتة فادركه اجله على مدينة المحمدية ءاخر ليلة من ذي القعدة سنة ست واربعمائة فكتم اكابر دولته موته وتشاوروا بينهم فاتفق رايهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين فجعلوا باديسا في تابوت ورجعوا به الى افريقية بعد ما جاءت الاجناد

لولده المعز وانقادت له اجناده بعد موته احسن انقياد واوصلوه في تابوته الى المهدية وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها لما كانت ترى من الفتن في دولة ولدها باديس فاستوطنت المهدية * وكانت ولاية بني زيري في مدينة اشير وانتقل المنصور بن بلكين الى صبرة ثم ولده باديس كانت غالب اوقاته بصبرة الا ان ايامه كانت اكثرها حروبا * واول من بويع من بني مناد بمدينة المهدية المعز كما سنذكره ان شاء الله تعالى * ومن ملوك صنهاجة المعز بن باديس ابن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بويع بالامارة يوم وفاة ابيه اخذت له البيعة على الاجناد بمدينة المحمدية لثلث خلت من ذي الحجة سنة ست واربعمائة وعمره اذ ذاك ثمان سنين وسبعة اشهر * ولما وصل الخبر بموت باديس خرج عامل القيروان ومعه الفقهاء والشيوخ من اهل البلد واكابر صنهاجة فوصلوا الى المهدية وعزوا المعز في والده وهنوه بالملك وكانت جدته تباشر الامور وتصرف الاحوال من رايها فاحسنت لاهل القيروان وامرتهم بالرجوع الى بلادهم وركب المعز بالطبول ونشرت البنود على راسه وقبل الوفود باحسن قبول وظهرت عليه مخائل الملك وفرح الناس بما راوا منه من العقل والنجابة وشمائل الكرم مع صغر السن وقابل كل انسان بما يليق به * في اول المحرم وصل العسكر الذين كانوا مع ابيه واتوا به محمولا في تابوت فدفن وجددت له البيعة مع الاجناد وركب المعز للقائهم وعرضت عليه اكابر الدولة وتعرف احوالهم واحسن اليهم ورحل من المهدية الى مدينة صبرة فحل بها ونزل بقصره وفرح الناس بقدومه * ولما استقر بصبرة خرجت طائفة من القيروان وقتلوا جماعة من الشيعة لانهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نساؤهم واولادهم وكانت فتنة بالقيروان من اجل النهب والقتل ولجا طائفة منهم بالجامع في المهدية فقتلوا فيه * وكان لا يرى بالقيروان احد منهم في الطريق الا ضرب ضربا عنيفا وربما قتل واحرق ، واجتمع منهم قدر الف وخمسمائة

رجل تحت قصر المنصورية واستغاثوا بالمعز فامر بالكف عنهم * والمعز هذا هو الذي طهر الله تعالى على يديه افريقية من مذهب الشيعة وان كان من عمالهم الّا انه كان لا يتمذهب بمذهبهم * وحمل الناس في ايامه على مذهب الامام مالك رضي الله تعالى عنه وقطع ما عداه * وكانت بافريقية مذاهب الصفرية والشيعة والاباضية والنكارية والمعتزلة ومن مذاهب اهل السنة الحنفية والمالكية فلم يبق في ايامه الّا مذهب الامام مالك * والمعز هذا لما اشتدت سلطنته خرج عن طاعة بني عبيد وخطب لبني العباس كما سياتي * وخرج عن طاعته عمه حماد بالمغرب وحاصر اشير فزحف اليه المعز بعساكر لا تحصى وكانت بينهما وقعات وحروب انتصر بها المعز على عمه وءاخر الحال رجع الى الطاعة وبعث ولده بكتاب يسال فيه العفو عما سبق منه فعفا عنه * واجرى المعز على ابن عمه حماد في اقامته كل يوم ثلثة ءالاف درهم وخمسة وعشرين قفيزا شعيرا لدوابه ودواب اصحابه وخلع على اصحابه مائة خلعة واعطاه ثلثين فرسا بسروج الذهب ومن الثياب المثقلات ما لا يدخل تحت حصر وانفذه الى حضرة ابيه وفرق عماله في جميع بلاد المغرب * وبعث اليه الحاكم خليفة مصر تجديدا بولايته ولقبه بشرف الدولة * وفي سنة ثمان واربعمائة بعث اليه مولاه صندل وكان عاملا على باغاية هدية فيها ثلثمائة وخمسة وثلثون برذونا بالسروج المحلاة وعبيدا وشيئا كثيرا * واهدى له الحاكم صاحب مصر سيفا مكللا بالدر ليس له قيمة وكتب اليه تشريفا لم يكتب مثله لاحد من اجداده قبلا * وتوفيت جدته سنة احدى عشرة واربعمائة فكفنها بما قيمته مائة الف دينار وعمل لها تابوتا من العود الهندي مرصعا بالجوهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها الف مثقال وادرجت في مائة وعشرين ثوبا وذر عليها من المسك والكافور ما لا حد له وقلد التابوت باحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر [illegible] عليها فوق ما ذكرناه * وحملت

الى المهدية فدفنت بها وامر المعز بخمسين ناقة ومائة راس من البقر والف شاة فنحرت وانتهبها الناس وفرق في مآتمها على النساء عشرة آلاف دينار * وصنع وليمة لعرسه سنة ثلث عشرة واربعمائة لم يكن مثلها لاحد في بلاد المغرب * ولما بدا بالحركة للعرس نصبت القباب خارج المدينة ونشر ما فيها من الاثاث والثياب وحمل المهر على عشرة ابغال كل بغل عليه عشرة آلاف دينار وحضر من آلات الملاهي ما لا يوصف وقوم حذاق التجار ما حمل للعروسة فكان ازيد من الف الف دينار * وبنيت له مصانع وقصور لم ير مثلها وصنع ايوانه الاعظم وبنى الخورنق تشبيها بخورنق النعمان بن المنذر بالعراق * وايام ملكه اربت في الحسن على ايام بني مناد * وفي ايامه اشتدت شوكة زناتة من ناحية طرابلس وكانت له معهم حروب وله فيهم فتكات * قلت والزناتيون هم الذين يثني عليهم عدد من العمال ويذكرون كثيرا من جملة اخبارهم عند ما يذكرون سيرة بني هلال وما جرى لهم مع خليفة الزناتي ولاهل طرابلس اهتمام بسيرتهم حتى لا يذكر بينهم حديث إلّا بها وكذلك عند عوام اهل مصر لها صيت لاستماعها . والمعز كان اكرم اهل بيته بالمال وكان دينا يجتنب سفك الدمآء إلّا في حق وكان رقيق القلب حديد الذهن عارفا بعدد صنائع من الالحان والتوقيعات وعلم الاخبار وله شعر جيد وهداه ملك الروم بهدية جليلة وفتح جزيرة جربة * وفي سنة خمس وثلثين واربعمائة اظهر الدعوة لبني العباس وورد عليه عهد من الامام القائم بامر الله العباسي وفي سنة اربعين واربعمائة قطع خطبة بني عبيد وقطع بنودهم واحرقها بالنار * وفي ايام المعز خرج غالب البلاد عن طاعته وكثرت عليه المخالفون وخالفت سوسة وقفصة وصفاقس وباجة وخرج جل البلاد الغربية وفي ايامه كان ظهور لمتونة ببلاد المغرب واستولوا على جميعها وسياتي بعض خبرهم ان شآء الله تعالى * وفي ايامه جآءت العرب من المشرق وسكنوا بافريقية وسبب دخول العرب الى افريقية ان المعز بن باديس لما قطع خطبة صاحب مصر

وهو المستنصر بالله كان يسب بني عبيد سرا الى ان صرح به على المنابر وكان يكاتب وزير المستنصر ويستميله ويعرض له بالتحريف عليهم وانما يكتب له تلويحا لا تصريحا وكتب اليه قطعة بخط يده وتمثل فيها ببيت من الشعر وهو

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم   لولاك ما كنت ادري انهم خلقوا

فقال الوزير لبعض اصحابه الا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب ان يخدع شيخا عربيا عراقيا وانما اراد المعز ان يوقع بين الوزير وخليفته الشر ولما خلع طاعة بني عبيد وجاءته الخلع من بغداد اشار الوزير على المستنصر العبيدي بارسال العرب فارسل المستنصر الى عرب الصعيد الذين بمصر وارسلهم الى المغرب واباح لهم من برقة الى ما بعدها واعانهم على ذلك بمال وهم رياح وزغبة وعدي بطون من بني عامر بن صعصعة فلما وصلوا الى افريقية عاثوا فيها كيف شاءوا وملئت ايديهم من النهب فتسامعت بنو عمهم بذلك فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك الا ان يعطوه شيئا من اموالهم فاخذ منهم اضعاف ما اعطاه لبني عمهم وسرحهم ولما وصلوا الى المغرب كانت لهم وقعات مع زناتة باقليم طرابلس وكثر ضررهم وافسدوا البلاد ولما قربوا من افريقية خرج المعز في جمع من صنهاجة وزناتة فاجتمع له عسكر عظيم فالتقى معهم وكانت بينهم مصاف فخذلته زناتة وانهزمت صنهاجة حتى لم يبق معه الا عبيده وكان عدد العبيد عشرين الفا وثبت المعز في تلك الحروب ثباتا لم يثبته امير هزم جيشه وءاخر الحال انهزم ورجع الى المنصورية واقبل العرب حتى نزلوا بازاء القيروان واقتتلوا بين رقادة والقيروان ومات بين الفريقين خلق عظيم * ولما راى المعز ما حل به ركن الى الصلح ورفع الحرب بين العرب وبينه واباحهم دخول القيروان ليشتروا منها ما يحتاجون اليه وظن انهم يرجعون الى بلادهم فلم يغن عنه ذلك وملكوا البلاد باسرها واقتسموا برابرها وافسدوا حواضرها وكان الخطب جليلا * فلما راى المعز كثرة

ضررهم وعجزه من دفع اذاهم رحل الى المهدية وبها حشمه وكان ولده تميم واليا عليها وخرج في رمضان سنة تسع واربعين واربعمائة ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء اهلها عنها ولما وصل الى المهدية تلقاه ولده تميم وترجل له وقبل يده وادخله البلد فسلم الامر الى ولده تميم في حياته فقام بامور الدولة احسن قيام وتوفي المعز سنة ثلث وخمسين واربعمائة فكانت ايام ولايته تسعا واربعين سنة وكان من الكرم على جانب عظيم قيل انه اهدى لبعض اصحابه في يوم واحد مائة الف وسبعين الف دينار الّا ان ايامه كثرت فيها الفتن وقام كل عامل ببلده وخرج من طاعته والملك لله وحده * ومن الملوك الصنهاجية تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري مولده بالمنصورية سنة اثنتين وعشرين واربعمائة وولاه ابوه المهدية سنة خمس واربعين واستبد بالملك يوم وفاة ابيه ودخل اليه الناس وهنوه بما صار اليه وكثرت في ايام تميم الثوار من كل في فقام عليه اهل تونس وخرجوا من طاعته فارسل اليهم جيشا عظيما فحاصروها سنة وشهرين والقائم بتونس هو ابن خراسان فلما اشتد عليهم الحصار صالحوا عسكر تميم على ما رضي به تميم وارتحلوا عنها وخالفت عليه بلد سوسة فحاصرها وفتحها عنوة وحقن دماءهم وخرج عليه حمو بن فلفل البرغواطي ببلد صفاقس فخرج اليه تميم في جمع من البربر والعرب مثل زغبة ورياح فكانت بينهم مصاف وانتصر تميم وانهزم البرغواطي * وفي ايامه طردت بنو رياح زغبة عن افريقية وباعت القيروان من الناظر بن علاء الناس بن حماد وجاءت بنو قرة من ناحية برقة ونزلوا بازاء القيروان * وفي سنة سبع وستين واربعمائة اصطلح تميم مع الناظر بن علاء الناس وزوجه ابنته وارسلها اليه في عسكر عظيم وبعث معها من الاموال والذخائر ما لا يوصف وولى ولده مقلدا على طرابلس وتم الصلح بينهما * وقام عليه مالك بن علي الصخري بجمع كثير من العرب ونازل المهدية فقاومه تميم حتى رحل عنها خائبا الى القيروان فبعث اليه تميم بعسكر كثير فحاصره بها مدة فلما

علم مالك ان لا طاقة له فر عن القيروان وحاصر تميم قابس وصفاقس في وقت واحد وفي غيبته جآءت عمارة المهدية من الجنويز والبلنسيان نحو ثلثمائة مركب فنهبوا المهدية وزويلة واضرموا النار في البلد ولم يكن بها مدافع لهم لغيبة الجند عن المهدية وكان عدد الروم ثلثين الف مقاتل فغنموا ورحلوا عنها * وفي ايام تميم كانت المجاعة العظمى بافريقية والوبآء الذي لم يسمع بمثله وذلك سنة ثلث وثمانين واربعمائة وغالب اوقاته كان مقاوما فيها لمن ثار عليه وقاسى حروبا مع العرب وبني عمه وكان رحمه الله ذكيا مفرطا في الذكاء وينظم الشعر ويجيز من مدحه ويحب المنادمة والاستماع ومن ندمآئه ابن رشيق القيرواني وله فيه المدائح الطنانة وكان احلم بني مناد واعفاهم عن الامور العظام وانقدهم للشعر وله اخبار عجيبة اضربنا عنها خوف الاطالة * وفي ايامه استولى عدو الدين على جميع صقلية وكان ذلك سنة اربع وثمانين واربعمائة اعادها الله للاسلام * وحيث انتهى بنا مساق الحديث الى صقلية وان كنا اتينا بطرف من ذكرها فيما تقدم وجب الان ان نذكر طرفا منها لزيادة الفآئدة ولكن على سبيل الاختصار وليكن المتامل هنا على بصيرة من ان صقلية كانت تحت حكم افريقية برهة من الزمان * فاقول وبالله المستعان قد تقدم في اول الكتاب فتح الجزيرة على يد الشيخ البركة اسد بن الفرات من قبل ابراهيم بن الاغلب في خلافة امير المومنين عبد الله المامون بن الرشيد وتداولتها العمال من قبل بني الاغلب الى ايام ابي عبيد ولما كان الخليفة العبيدي وهو المنصور بالله بن القآئم بن المهدي متمكنا من البلاد الغربية وتم له الحكم على سآئر اعمالها عقد ولاية جزيرة صقلية للحسن بن علي ابن ابي الحسن الكلبي وذلك سنة ست وثلثين وثلثمائة واستمر الحسن بها حتى مات المنصور وتولى ولده المعز واقبل الحسن الى افريقية واستخلف على صقلية ولده احمد في سنة اثنتين واربعين وثلثمائة ووفد على المعز بجماعة من اهل صقلية فبايعوا المعز وخلع عليهم واعاده الى عمله * وفي

سنة احدى وخمسين وثلثمائة بعث اليه كتابا يامره بختن اطفال الجزيرة وكسوتهم في اليوم الذي يختن فيه المعز ولده في مستهل ربيع الاول من السنة المذكورة فابتدا الامير احمد بختن اولاده واخوته ثم الخاص والعام وخلع عليهم ووصلهم من المعز مائة الف درهم وخمسون حملا من الصلات ففرقت بين المختونين وكانت جملتهم خمسة عشر الف طفل * وفي سنة اثنين وخمسين بعث الامير احمد بسبي طبرمين بعد ما فتحها وجملته الف وسبعمائة ونيف وسبعون راسا * وفي سنة ثلث وخمسين وثلثمائة بعث المعز اسطولا عظيما وقدم عليه الحسن بن علي والد الامير احمد فوصل الى صقلية وكان بينه وبين الروم حرب شديدة انتصر فيها الحسن وقتل من المشركين ازيد من عشرة الاف وغنم مغنما عظيما ومن جملته سيف منقوش عليه - طالما ضربت به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم - فبعث به وبالسبي الى المعز وتوفي الحسن سنة ثلث وخمسين وثلثمائة وفيها استقدم المعز لدين الله الامير احمد من صقلية بماله وولده واستخلف يعيش مولى ابيه على الجزيرة ولما وصل احمد الى افريقية ارسل المعز علي بن الحسن نائبا عن اخيه احمد وبعث المعز الامير احمد مقدما على اسطول الى مصر فلما وصل طرابلس اعتل بها ومات بها وبعث المعز الى الامير علي سجلا بولايته بعد اخيه فمكث اثنتي عشرة سنة ومات في غزوته بالارض الكبيرة بمكان يعرف بالشهيد عرف به لان مقتله هناك * وتولى ولده جابر من غير عهد من الخليفة وكان جابر سيء التدبير فعزله الخليفة وبعث مكانه جعفر بن محمد بن الحسين وبقي واليا عليها حتى مات سنة خمس وسبعين وثلثمائة * وتولى اخوه عبد الله وتوفي سنة تسع وسبعين * وتولى ولده ابو الفتوح يوسف بن عبد الله وكان حسن السيرة واصابه فالج فتولى ولده جعفر في حياته واتاه سجل من الحاكم ولقبه تاج الدولة واحدث مظالم على اهل صقلية فخرجوا عن طاعته وحاصروه في القصر فخرج اليهم ابوه يوسف في محفة وشرط للناس عزله وسكنهم وقدم عليهم اخاه احمد

ولقبه تأييد الدولة وذلك سنة عشر واربعمائة وبقي الى سنة سبع وعشرين خرج عليه اهل الجزيرة فقتلوه وتولى اخوه الحسن ولقبه صمصام الدولة واضطربت الاحوال في ايامه وكثرت الثوار فاخرجوا صمصام الدولة وانفرد كل انسان ببلد فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وطرابني وغيرهما وابن الحواس بقصر يانة وجرجنت وغيرهما والقائد ابن الثمنة بسرقوسة وقطانية وقامت بينهم الفتن فانتصر ابن الثمنة بالافرنج من مالطة وهون عليهم امر المسلمين وكان امير النصارى اسمه روجار فساروا مع ابن الثمنة الى البلاد التي بايدي المسلمين فحاصروها واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة فحينئذ فارق الجزيرة جماعة من العلماء واتوا الى المعز يستنجدونه فبعث اسطولا للجزيرة فلم يغن شيئا وذلك لاضطراب الجزيرة فلم يزل العدو ياخذ الجزيرة شيئا فشيئا ولم يثبت غير قصر يانة وجرجنت فحاصرها الافرنج اشد حصار حتى اكلوا الميتة فسلم اهل جرجنت وبقيت يانة ثلث سنين ثم اذعنوا واستغلب روجار على سائر الجزيرة في سنة اربع وثمانين واربعمائة ومات بعلة الخوانيق وعمره ثمانون سنة * وتولى بعده ولده فاربي عليه في الخزي وسلك طريقة ملوك المسلمين من الجناب والحجاب واسكن الافرنج في الجزيرة مع المسلمين واكرم المسلمين وقربهم ومنع من التعدي عليهم وكانت اساطيله مشحونة بالمسلمين والافرنج واخذ كثيرا من بلاد الاسلام وهو الذي اخذ المهدية وسوسة وجربة وطرابلس واشتدت يده في البلاد وملك عدة جزائر في البحر وبلغت بعوثه الى المشرق وملك انطاكية وكانت له فتكات لعنه الله عليه * وجزيرة صقلية من اجل الجزائر التي في البحر وبها مدن عظيمة وافخر مدائنها مدينة بليرم وهي المدينة العظمى على ساحل البحر محدقة بها الجبال وهي ثلث اسطة وبها المدينة القديمة المساة بالخالصة كانت مستقر السلطان * وكانت الخالصة في ايام المسلمين دار الصناعة لانشاء المراكب ومكثت في ايدي المسلمين مائتي ونيف وسبعين سنة اعادها الله للاسلام * وما ذكرت هذه النبذة الا لكونها فتحت على يد عمال افريقية

ولم تزل تحت الحكم الى ان قدر الله بردها لاعداء الدين والسبب المفضي للهلاك التحاسد والفتن حسم الله هذه المآدة عنا لاننا في طوف منها عسى الله ان يعافينا وبلطفه يداركنا * ولنرجع الى ما كنا فيه من بقية اخبار تميم بن المعز قال ابن ايوب وتوفي تميم بن المعز صاحب افريقية سنة احدى وخمسمائة وعمره تسع وثمانون سنة وايام ولايته ست واربعون سنة وعشرة اشهر وعشرون يوما وخلف مائة ولد ذكر وستين بنتا وتولى ولده يحيى من بعده * ومن امراء صنهاجة الامير يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد تم له الامر يوم وفاة ابيه وعمره حينئذ ثلث واربعون سنة فركب على العادة باكابر الدولة وغير لباس الحزن وفرق في الناس اموالا ووعدهم بالجميل ففرح الناس به ولما استوثقت له الامور عدل في رعيته وجرد عسكرا الى قلعة اقليبية ففتحها وكان ابوه لم يقدر عليها وبعث اسطولا الى بلاد الروم فغنمت وكانت عمارته في البحر كل سنة منصورة وكان يباشر الامور بنفسه عارفا بها وكان رحيما بالضعفآء مطالعا لكتب السير واخبار الزمان عالما بالنجوم واحكامها وبصناعة الطب وينظم الشعر الجيد حسن الخلق ودامت ولايته ثمان سنين وستة اشهر وتوفي وعمره اثنتان وخمسون سنة مات فجئة اول ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة وخلف من الذكور ثلثين ومن البنات عشرين وكانت ايامه ايام عدل الا ان ملكه دخلته القهقرة والملك لله الواحد القهار * ومن امراء صنهاجة الامير علي بن يحيى بن تميم تم له الامر بعد ابيه باتفاق من جنده وكان في صفاقس فارسلوا اليه خفية من اخوته فجآء الى المهدية وقدم الى القصر فتولى تجهيز ابيه ودفنه ودخل الناس عليه فهنوه بالملك واستقام له الامر وابتدا دولته بتجهيز اسطول الى جربة فحاصرها وفتحها ولم تكن طاعت لمن سلف من اجداده مع سعة ملكهم وكثرة جيوشهم وحاصر تونس وضيق عليها فصالحه صاحبها احمد بن خراسان على ما اراد وبعث جيشا الى جبل

وسلات فضايق به وفتحه عنوة وكان اهله اذ ذاك اهل فساد ونفاق وعصى
عليه رافع عامله على قابس وبعث الى رجار صاحب صقلية فدخل تحت
طاعته وطلب منه الاعانة على الامير علي بن يحيى واجتمعت لرافع جموع من
العرب وقصد المهدية وحاصرها فمكر به الامير علي باستجلاب نفوس الاعراب
ووعدهم واعطاهم فخذلوا رافعا ففر الى القيروان واقتسمت العرب بينهم
البلاد وقويت شوكة العرب في ايامه وكبرت بينه وبين صاحب صقلية
الوحشة فبعث اليه يهدده بغزوه المهدية فهيا الامير علي مراكب في البحر
واستخدم الاجناد وكثر من الرجال وعمر المدينة واخذ اهبة الحرب ومشت
بينهما مراسلات بالتهديد من الجانبين واراد علي ان يستنصر بامير المسلمين
يوسف بن تاشفين لان الامير عليا علم انه ليس له طاقة بصاحب
صقلية فاخذ بالحذر منه بقية حياته إلّا انه وقع بينهما الصلح في الظاهر
دون الباطن * وفي ايام علي دخل محمد بن تومرت الى المهدية وغير بها
المنكر وسياتي خبره وتوفي الامير علي سنة خمس عشرة وخمسمائة من مرض
اصابه وفوض الامر في حياته لولده الحسن وعمره اثنتا عشرة سنة وبويع يوم
وفاة والده والله يرث الارض ومن عليها * ومن امراء صنهاجة الامير
الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس تم له الامر يوم وفاة
والده وقام بتدبير دولته القائد صندل مولاه وركب على عادته وطاف البلاد
وفرح الناس به وفرق اموالا في العبيد والاجناد وخلع على اصحاب دولته
واكابر اجناده * وفي ايام الحسن تحرك صاحب صقلية على اخذ المهدية
ومنته نفسه ان يستاصل افريقية فحشد من جميع البلاد وجمع جيشا عظيما
وبعث باسطول عظيم الى المهدية فلما احس الحسن بمجيء اهل صقلية ارسل
الى البلاد واستعد لهم استعدادا كليا واجتمعت له مائة الف رجل وعشرة
آلاف من الخيل ونزلت طائفة من النصارى من الاحاسي وتحصنوا بقصر
الديماس فانذر المسلمون بهم فاخذوهم * وكان عدد المراكب الواردة
من صقلية ثلثمائة مركب منها ما هو مشحون بالسلاح وآلات الحرب ومن

الخيل الف فرس وفرسان وكان غالب المراكب عطبت قبل وصولها من شدة هيجان البحر فلم يرجع منها الى صقلية الّا قدر مائة مركب ولم ينج من الخيل الّا فرسان * وفي ايام الحسن قصد صاحب بجاية اخذ المهدية لانه سمع بالامير الحسن انه صالح الملك رجار الرومي صاحب صقلية ووقعت بينهما الهدنة وكان ذلك لان الحسن ارسل اليه بهدية وصالحه مخافة من شره فتم الصلح وشرط اللعين عليه شروطا فقبلها فكاتب اهل المهدية يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية واطمعوه بتسليم البلد فوثق بهم وبعث اليها جيشا في البر ومراكب في البحر وبعث مقدم الجيش الفقيه مطرفا فنازلها برا وبحرا وجاءته العربان من كل فج ولم يكن له ارب في القتال لاطماع اهل البلد اياه وطال الحصار على اهل المهدية واتصل الخبر برجار صاحب صقلية فبعث اسطولا عظيما لنصرة الحسن وامر المقدم على الاسطول ان يقف عند امر الحسن ونهيه فلما جاء اسطول اللعين وانتشر حول المهدية طاح ما بيد صاحب بجاية واراد النصراني ان يعكس مراكب اهل بجاية فمنعه الحسن وامره بالكف عن القتال لانه كره سفك دماء المسلمين وفرت مراكب بجاية بالخيبة ورحل الذين كانوا منازلي المهدية من البربر بعد اقامتهم عليها سبعين يوما وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة ورجع الاسطول الى صقلية وكتب الحسن كتابا الى الملك رجار يشكره على فعله وانه داخل تحت امره ونهيه فتاكدت بينهما المخالصة وعند ذلك استقامت امور الحسن * وفي هذه السنة ارسل عدو الله رجار اسطولا الى جزيرة جربة مشحونا برجال المسلمين من اهل صقلية ورجال من الافرنجيين بعدد وقوة عظيمة ونازل جزيرة جربة واخذها عنوة بالسيف وقتل رجالها وسبى حريمها وبناءهم في صقلية ورجع اليها من سلم ودخل تحت طاعة رجار وولى عليها عاملا من قبله وكتب لهم امانا من عنده وجعلهم خولا له ودانت له بلاد المهدية وجربة وخافته البلاد كلها وتشمخ اللعين بانفته والحسن في غالب اوقاته يدافعه عن نفسه بالتي هي احسن

الى ان كانت سنة ست وثلثين وخمسمائة ابتدات بينهما الوحشة بسبب مال استسلفه الحسن من بعض وكلاء اللعين وماطله به * فبعث مراكب الى المهدية واظهر شره فدافعه بالحسنى واهدى اليه عدة أسارى فلم تغن عنه شيئا وارسل الحسن رسولا الى الملك رجار ولاطفه وشرط اللعين شروطا على الحسن فقبلها ودخل تحت طاعته وجعله عاملا من عماله وهادنه هدنة مكر * وفي سنة سبع وثلثين وخمسمائة نازل اللعين مدينة طرابلس فهزموه ولم يتعلق منها بشي وفي هذه السنة بعث الى جيجل فاخذها عنوة وسفك دماء اهلها وسبى حريمها واحرقها بالنار وهي من عمالة بني حماد من ولاة بجاية * وفيها ملك جزيرة قرقنة وسبى اهلها وباعهم في صقلية ومن سلم ورجع لها دخل تحت طاعته وخافته جل البلاد الافريقية * وفي سنة احدى واربعين وخمسمائة ارسل مائتي مركب الى طرابلس وفتحها عنوة وقتل وسبى وعفا عن الباقين واحسن اليهم وامن من جاء هاربا واذعنوا لطاعته ولما ذاع خبر طرابلس خافته جميع البلاد الافريقية وكتب اليه صاحب قابس يتضرع اليه ويتلطف وسلم له ما تحت يده ورضي ان يكون عاملا له فكتب له سجلا بذلك وبعث له ما يتشرف به من تشاريف النصارى وجبى اموال قابس من تحت طاعته * قلت اعوذ بالله من الخذلان والّا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين وانما هي من حزب الشيطان لكن حب الدنيا والرياسة الجاتهم الى هذه الرذائل وحبك الشي يعمي ويصمي * وفي هذه السنة كان القحط بافريقية حتى فر غالب الناس الى صقلية * وفي سنة اثنين واربعين وخمسمائة استعان معمر بن رشيد بالحسن صاحب المهدية وبجمع من الاعراب على يوسف صاحب قابس وعاضده محرز بن زياد فحاصروا قابس وقتلوا يوسف عاملها واحتوى محرز بن زياد عليها * وفر القائد عيسى اخو يوسف الى صقلية واعلم النصراني ان الحسن ممن اعان على قتل يوسف فانف اللعين من ذلك لكون كل منهما تحت طاعته فعول على غزو المهدية فحشد

جيشا عظيما وبعثه في مراكب مشحونة بالسلاح وءالات الحرب فدهموا المهدية على حين غفلة فاندهل الناس عند ما راوا الاسطول ففرت الناس ولم يكن لهم مدافع وفر الحسن دون قتال وحمل اهله ومن ساعده وخف ذخائره وبعض اهله وتوجه الى المعلقة التي بمقربة من تونس ونزل عند محرز بن زياد فرحب به واكرم مثواه واما اهل البلد فتراجعوا عنه * وان المقدم على الاسطول لما دخل المهدية امر بالكف عن القتل والنهب ونادى في الناس بالامان ومن له مسكن رجع اليه وهدن اهل البلد واحسن لمن رجع واحتوى على ذخائر الحسن وءاثاثه ما لا يوصف ولقي بعض اولاده واهله وامهات اولاده يعني اولاد الحسن فاحسن اليهم وارسلهم لصقلية وعمر عدو الله المدينتين زويلة والمهدية ودفع للتجار رؤوس اموال واحسن لفقهآئهم وجعل قاضيا مرضيا يحكم بين الناس ومهد قواعد البلدين وبعث في اثنآء ذلك بجيشين احدهما لسوسة والاخر لصفاقس اما اهل سوسة فسلموا له البلد دون قتال فاحتوى عليها عدو الدين ونهبها واعاد لها اهلها واما اهل صفاقس فدافعوا عن انفسهم بقدر طاقتهم واخذها العدو عنوة واخذ ما فيها ورد اليها اهلها واحسن اليهم واولى عليهم ولاة من قبله * وجآءته وفود العرب واكابرهم فدخلوا في طاعته واستوثق له الحكم على اكثر البلاد وجبى خراج رعاياها برفق منه واحسان واستمال الناس وسار فيهم سيرة حسنة بالرفق بهم ونازل قلعة اقليبية فلم يقدر عليها لتجمع اكثر العرب فيها * ولم تزل هذه البلاد بيد اللعين الى ايام امير المومنين عبد المومن بن علي فاستنقذها من ايديهم سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورد الامير الحسن الى المهدية كما سياتي ان شآء الله تعالى * والامير الحسن هو ءاخر الصنهاجيين من بني مناد * واول من ملك افريقية بلكين عند رحيل المعز الى مصر كما سبق في اول الكتاب وان كان زيري ومناد ملكين فانهما لم يتصرفا في عمل افريقية * وعدة من ملك منهم افريقية ثمانية ءاخرهم الحسن الّا انه لم يبلغ ما بلغ من قبله لان ملك من تقدم من اجداده من

برقة الى تلمسان وما وراء ذلك * وقسمت البلاد بينهم بعد موت المنصور ابن بلكين فقام حماد بن بلكين على ابن اخيه باديس وجرت بينهما عدة وقائع * واحتوى حماد على البلاد الغربية وصارت بلد بجاية دار مملكة بني حماد كما ان بني زيري دار ملكهم اولا المنصورية ثم انتقلوا الى المهدية في زمن المعز عند دخول العرب وقد تقدم * ومدفنهم في بلد المنستير بقصر السيدة وكان لهم ناموس عظيم وعساكر عديدة وبلغوا رتبة السلاطين * قلت وانا استغفر الله ان بني حفص لم يبلغوا ما بلغوا وان كان ذكرهم عند الناس اكثر الّا النادر منهم وكون بني حفص خطب لهم بامير المومنين ولم يخطب لبني حماد بامير المومنين وكانوا كلهم اهل نجدة وشجاعة واحسان ومعروف * والحسن هذا الذي هو ءاخرهم كان قوي النفس جتمع الفكر لا يتزحزح لعظائم الامور ولا يتضعضع لنوائب الدهور مستوقد الذهن شجاع القلب كريم النفس حسن الفروسية ينظم الشعر الّا ان ايام ملكهم اخذت في الادبار * وانقطعت كواكب سعودهم وافلت من منازلهم الشموس والاقمار * وهذه الدنيا لا يدوم نعيمها * ولا ييأس سقيمها * وبهذا جرت عادة الله في خلقه انما الدهر دول بعد دول لا يسال عما يفعل وهم يسالون * ولنختم هذا الباب بفائدة وهي ان عبيد الله المهدي لما اراد بناء المهدية ووضع اول حجر منها امر ان يرمى بسهم من عند الحجر الى ناحية المغرب فانتهى الى المصلى فقال المهدي الى هاهنا يبلغ صاحب الحمار يعني ابا يزيد الخارجي وامر بقيس مسافة الرمية فكانت مائتين وثلثا وثلثين ذراعا * فقال هذا عدد ما نقيم بايدينا والبناء سنة ثلث وثلثمائة واخذت سنة ثلث واربعين وخمسمائة فاتفق الحساب كما قال تقريبا او تكون سنين شمسية فالحالة بينهما قريبة على ما اخبر به وذلك ان الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه قتل سنة احدى وستين ولم يكن لبني فاطمة بعده ملك الى ايام ظهور بني عبيد واستقرارهم في الخلافة لانهم يجعلون ابتداء امرهم بناء المهدية فالمدة التي بين مقتل

الحسين وابتداء الملك مائتان واربعون سنة فتكون ايام دولتهم بقدر ذلك لان دولتهم انقرضت باخذ المهدية وان بقيت بقية منها بمصر في تلك المدة لان العاضد توفي سنة سبع وستين وخمسمائة فان المهدي لم يخبر بدوام الملك لهم إلّا بدوام المهدية واذا خرجت خرج الملك عنهم فكان كذلك لان المدة الزائدة كان فيها اضطراب فلا يعد * ومن ذلك ان المعز لدين الله لما اراد ان يتوجه لمصر قال لبلكين يا يوسف اعلم ان المهدية دار ملكك وصيانة ذريتك وملكك ملتصق بملكنا فمتى خرب ملك المهدية خرب ملكنا لان ملك المهدية خرب بموت علي والد الحسن فان الحسن لا يعدونه سلطانا لانخلاعه من الملك وخروجه عن سلطنته كما انهم لا يعدون من الخلفآء من كان بعد الامر باحكام الله لان الامر هو العاشر من الخلفآء على نسق واحد اب عن جد ومن بعده خرجت لابن عمه وكذلك جعل بعض من يتعاطى هذا الحساب ان العشرة من الخلفآء الذين هم على نسق واحد يقابلونهم بعشرة من صنهاجة على نسق واحد اولهم مناد وءاخرهم الحسن وان اردت فاسقط الثلثة الذين حكموا بالمغرب وعد من الذي اخذ مصر وهو المعز الى الامر باحكام الله تجد سبعة على نسق واحد فقابلهم بسبعة من صنهاجة اولهم بلكين لانه تقدم من قبل المعز على افريقية * وكما ان المعز اول المصريين فيوسف اول من تملك في الافريقيين الى علي فيكون العدد سبعة سلاطين وسبعة خلفآء كلهم مستقل غير مغلوب عليه * وهذا علم لا يعلمه إلّا الله وما ذكرت هذا الكلام إلّا لان مثله لا يصدر إلّا بالهام من الله او اخبار عن مصدق وان ثبت هذا الكلام من هولاء القوم فهم عندي من اهل بيت النبوءة بلا شك والله حسيب من طعن في نسبهم بلا دليل ثابت * وهذه الاخبار تكون لهم من الكرامات ورايت كثيرا من التواريخ تثني عليهم بالمحاسن الجميلة والعلوم الجليلة إلّا ما قل منهم والبعض يخرجهم عن دائرة الاسلام لاظهارهم مذهب الشيعة والغلو فيه والتنقص من اصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم واهل البيت يجل قدرهم عن الرذائل ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم . انتهى خبر صنهاجة وتتلوه الدولة الحفصية *

البــــاب السادس

في الدولــة الحفصـــــــــية

فيه فصلان الفصل الاول في ذكر من تولى من الخلفآء بالمغرب ودانت له البلاد ومن بلغ درجة الملك ولم يبلغ درجة الخلافة ومن بلغ درجة الخلافة ولم يتسم بها ومن بلغها وتسمى بها ومن لم يبلغها وتسمى بها وكيف اتصل الامر ببني حفص ليكون توطئة لاخبارهم * ويعلم المتامل مبتدا امرهم اذا سرح طرفه متتبعا ءلاثارهم * والفصل الثاني في كيفة اتصالهم بالملك وبعض اشيآء من اخبارهم وسيرتهم ومحاسنهم *

الفـــــــصل الاول

اعلم ايها المتامل اصلح الله احوال الجميع انه تقدم في ما نقلته واوردته هنا ان افريقية لما فتحت في صدر الاسلام كانت دار الامارة بالقيروان ومن هناك تخرج العمال الى ءاخر المغرب ومنها فتحت الاندلسية وصقلية * ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي الى الاندلس فارا من بني العباس لما سلبوهم ملكهم فاستحوذ على بلاد الاندلس واستقل بها ودامت في ايدي بني امية وخرجت الاندلسية عن طاعة بني العباس فلم تكن لعمال افريقية عليها يد * وقال بعض المورخين : بيع امير المومنين هارون الرشيد باجماع الامة ما عدا جزيرة الاندلس وذلك لبعدها والبعد رحائل بين المملكتين * وفي سنة ثمانين ومائة ظهرت بنوادريس في المغرب وبايعهم خلق من البربر واستخلفوا هناك وتسموا بامراء المومنين ولكن لم يبلغوا درجة الخلافة ولما ظهرت بنو عبيد بالمغرب وقعدوا مقعد الخلافة

نازعوا الادارسة في اعمالهم وانزلوهم منزلة عمالهم واستحوذوا على اكثر ما بايديهم الى ان ساروا الى بلاد المشرق وخلفوا صنهاجة عمالا لهم وملكوهم بلاد المغرب فظهرت زناتة بالمغرب وتمسكوا بدعوة المروانيين وكانت بينهم حروب مات من الفريقين ممن تمسك بالدعوتين عالم لا يعلمهم الا الله تعالى . وخرجت عساكر بني امية لبر العدوة واحسنوا الى من تمسك بدعوتهم وميزوا بين عمل هاشم وامية الى اول المائة الخامسة ضعفت فيها الدولتان وقام بالمغرب عدة قوام من المفسدين وقليل من المصلحين فقيض الله سبحانه وتعالى دولة الملثمين صنف من البربر من لمتونة ويقال لهم المرابطين فملكوا بلاد المغرب باسرها وكانت ايامهم مستقيمة الى ان قام عليهم ابن تومرت المهدي . ولم يتسم احد من لمتونة باسم السلطان الا يوسف ابن تاشفين تسمى بامير المومنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده وكان له سلطان بالمغرب وبلغ درجة الخلافة * ولما قام عليه المهدي تسمى بامير المومنين ولما مات اوصى بها لعبد المومن فورثها واورثها بنيه وتمت لهم الخلافة الى ان ظهرت بنو مرين وغلبوا بني عبد المومن تسموا بامراء المومنين ايضا الى ان نزع الله ملكهم على يد الاشراف الذين قاموا عليهم قبل الالف من الهجرة . ولما ضعفت دولة بني عبد المومن بالمغرب وكثر اضطرابها استقل بنو حفص بافريقية وتسموا بالخلفاء ولم يصل احد منهم الى رتبتها الا ما قل منهم وكانوا عمالا لبني عبد المومن في السابق واستقام امرهم بافريقية ودار ملكهم الحضرة العليا الى ان وصل اليهم ما وصل لغيرهم واتى عليهم ما اتى على غيرهم واستولت الدولة الخاقانية على بلادهم * وطردوا القوم عن اوطانهم * واوحشوهم بعد الايناس * وتلك الايام نداولها بين الناس * وحيث بلغنا الى هذا المقام * ووطانا الامر بالقول وجب علينا التمام * فاقول اول من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة بنو امية بالمغرب كفعلهم بالمشرق * واول من تامر بالاندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك فانحاز اليه كل اموي كان هناك وقصد قرطبة دار الامارة

وقتل يوسف بن عبد الله الفهري بعد وقائع واستولى على الجزيرة واطاعته الاندلس باسرها وملكها ثلاثا وثلثين سنة وقاسى بها شدائد الى ان توفي وتولى بعده ولده هشام بن عبد الرحمن فملكها سبع سنين وتوفي وولي ابنه الحكم بن هشام فاقام واليا ستا وعشرين سنة ثم توفي وولي ابنه عبد الرحمن ابن الحكم وملكها احدى وثلثين سنة ثم توفي وولي ولده محمد بن عبد الرحمن فاقام واليا اربعا وثلثين سنة . وفي ايامه انتهى جيش المسلمين الى مائة الف فارس منهم عشرون الفا بدروع الفضة وانشا في البحر سبعمائة غراب ثم توفي وولي المنذر بن محمد فاقام واليا خمسا وعشرين سنة ثم توفي وولي عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجلس مجلس الخلافة وتسمى بامير المومنين وكان من تقدمه يخطب لبني العباس ولما ظهرت بنو عبيد وخطب لهم بامير المومنين اقتدا بهم واقام واليا خمسين سنة منها خمس وعشرون في غزو وحروب وباقيها في الخلافة والراحة وبنى الزهراء فكملت في خمس وعشرين سنة ، وحصر الامناء ما انفق عليها فوجدوه خمسة وثلثين مدا من الدراهم القاسمية سوى ما سخر فيها من الرعية وزوامله وزوامل اصحابه واجناده ثم توفي وولي ولده الحكم ابن عبد الرحمن فكانت خلافته خمس عشرة سنة ثم توفي وولي ولده هشام بن الحكم وتلقب بالمويد وحجب له محمد بن ابي عامر وكان في غاية الذكاء واستمال الجند وسار في الناس سيرة حسنة وبعث لكل عمل من يثق به واحسن للرعايا فكانوا معه على كلمة واحدة . وحجر على هشام وجعل بيت مال ونقل اليه اموال الخلافة ولم يبق لهشام سوى الخطبة والسكة وينفذ الامور ويظهر للناس انها تصدر عن اذن الخليفة وسمت همته الى ان قاد العساكر الى الروم ونال منهم ما لم ينله غيره من قبله ولا من بعده وقادهم بنواصيهم وانزلهم من صياصيهم وجاءته من القسطنطينية ومن رومة الرسل والهدايا وطلبوا مسالمته وانزل قوامس قشتالة وجليقة منزلة عماله وقبلوا سجلاته ودخلوا تحت طاعته واقام على هذه الحالة ثماني وعشرين سنة وتوفي سنة ثلث وتسعين وثلثمائة واخباره دونت فيها عدة

دواوين * وقـام بالامر بعده ابنه عبد الملك واقره هشام على ما كان عليه أبوه فاقام سبع سنين ومات وله عدة وقائع مع العدو وكان النصر له وسماه الخليفة الحاجب المظفر وقام بالامر بعده اخوه عبد الرحمن فعامل الاجناد والناس بالكذب وطلب من الخليفة ان يجعله ولي عهده ففعل ذلك فلما علم بنو امية قاموا عليه وقتلوه وقتلوا هشاما الخليفة معه وقيل ان الخليفة اختفى ولم يظهر بعد * ولما سمع اهل الجزيرة ثار كل عامل ببلده فثار زيري بن زيري بناحية غرناطة وعباد القاضي باشبيلية واسماعيل بن ذي النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة وابن الافطس ببطليوس وابن صمادح بالميرية وابن مجاهد بدانية . هولاء مشاهيرهم . وانقطع اسم الخلافة واشتعل الحرب بين الامراء وتفرقت كلمتهم وحارب بعضهم بعضا وكثرت الفتن وانبسط عدو الدين في الجزيرة وبلغ منهم كل مبلغ ما بين قتل واسر وءاخر الامر التي صاحب قشتالة على اهل الجزيرة الجزية فادوها . وانما اهلكهم التحاسد واختلاف الكلمة وها نحن في طرف من ذلك حمانا الله من هذه الفتن بكرمه ءامين . ولما ضعف الطالب والمطلوب من الاندلس وظهر الفنش ابن فردند قوي عزمه وطمعه في البلاد وضايق على اهلها وكان يغري بعضهم على بعض ويعين هذا على هذا ويستاصل اموالهم وهم مع ذلك منعكفون على الانهماك والمحاربة . وتسمى كل واحد منهم بغير اسمه كالمقتدر والمعتضد والمتوكل والموتمن وغير ذلك . وكان ابن عباد ارسل الى الفنش رسولا للمهادنة فلاطفه الرسول بالكلام واخذ يعتذر عن صاحبه فقال له الفنش لعنه الله — كيف يحق لي ان ابقي هولاء الحمقا يعني روساء الاندلس وكل واحد منهم تسمى باسم خليفة وهو لا يدفع عن نفسه ضرا ولا نفعا — * قـلت رحم الله ابن رشيق حيث قـال *

مما يبغضني في ارض اندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب سلطنة في غير مملكة كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

ولم يزالوا في شرهم الى ان تبدد شملهم * ويحكى ان بعض روساء

الاندلس اهدى للفنش مدينة قيمتها مائة الف دينار فاعوضه عنها قردا فكان يفتخر بذلك القرد اعاذنا الله من الخذلان * واول مدينة اخذها عدو الدين طليطلة سنة ثمان وسبعين واربعمائة * ولما ملك طليطلة تسمى لعنه الله بالانبراطور ومعناه كالخليفة عند المسلمين واقسم لا يدع الا من يدخل تحت طاعته * ولما راى روساء الاندلس ان لا طاقة لهم بمدافعته بعثوا الى امير المؤمنين يوسف بن تاشفين ودخلوا تحت طاعته فنصرهم على عدوهم وجلا عنهم ما كانوا فيه وسياتي ان شاء الله تعالى * ومن الملوك الذين كانوا بالمغرب وهم الفواطم الذين يقال لهم الادارسة قاموا بالمغرب واشتدت دولتهم ولكن لم يبلغوا درجة الخلافة * فاولهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه بويع بمدينة وليلى في رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة واستقام له الامر وكثرت جموعه وذلك في خلافة هارون الرشيد فيقال انه بعث الى عامله بالقيروان ابراهيم بن الاغلب فبعث الى ادريس من اغتاله ومات مسموما وكانت ايامه خمس سنين وستة اشهر * وبويع ولده ادريس ابن ادريس وكان خلفه في بطن امه ولما كبر استقل بالامر وكانت له عدة غزوات وهو الذي بنى مدينة فاس واسسها وصارت دار ملك الادارسة وتوفي سنة ثلث عشرة ومائتين وعمره ثلثون سنة * وتولى ابنه محمد بن ادريس بن ادريس بعد وفاة ابيه وقسم البلاد بين اخوته وتوفي في ربيع الاول سنة احدى وعشرين ومائتين فكانت ايامه ثمانية اعوام * وقام بالامر بعده الامير علي بن محمد بن ادريس بن ادريس وسنه يوم بويع تسعة اعوام بوصية من ابيه لما يعرف فيه من الذكاء فسار بسيرة ابيه وجده في اقامة الحق وتوفي في رجب سنة اربع وثلثين ومائتين فكانت ايامه ثلث عشرة سنة * وعهد لاخيه يحيى بن محمد بن ادريس فسار بسيرة اجداده وكثرت العمارة في ايامه وقصده الناس من الافاق وبنى في ايامه جامع القرويين بفاس ومات من كمد اصابه على حادثة

جرت لم يطول شرحها * وقام بالامر بعده الامير علي بن عمر بن ادريس بعد وفاة ابن عمه وقام عليه عبد الرزاق الخارجي فاقتتل معه فانتصر عبد الرزاق عليه وفر علي المذكور امامه وملك عبد الرزاق مدينة فاس فكتب اهل البلد الى يحيى بن القاسم بن ادريس فقتل عبد الرزاق واستقل بملك فاس وتم له الامر الى ان خرج لبعض اصدقائه فمات * وخلفه ابن عمه يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس وكان اطيبهم ذكرا واقواهم سلطانا وعدلا وكرما حازما بطلا ذا صلاح ودين ولم يزل على ملكه الى ايام مصالة قائد الشيعة سنة خمس وثلثمائة فحاصره بفاس بعد المدافعة وصالحه عن مال وبايع لعبيد الله الشيعي * وفي سنة تسع وثلثمائة عاد مصالة للمغرب فسعى يحيى لمصالة فاوثقه بالحديد وعذبه وسبى امواله ونفاه الى مدينة اصيلا واستولى على فاس ريحان الكتامي ثلثة اعوام وقام عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس بن ادريس سنة عشر وثلثمائة ومات في قتاله ابن ابي العافية لما تغلب على مدينة فاس وخطب لبني مروان ولما قدم ميسور الفتى قائد الشيعة فر ابن ابي العافية وتبعه ميسور بمن معه وكانت بينهما حروب الى ان قتل ابن ابي العافية ورجعت بنو ادريس الى غالب بلادهم ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة * وتولى القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الملقب بكنون وتوفي سنة سبع وثلثين وثلثمائة * وتولى ولده احمد بن القاسم كنون وكان عالما فقيها وكان مائلا الى بني مروان فقطع دعوة العبيديين ودخل الاندلس بقصد الجهاد فمات هناك سنة ثلث واربعين وثلثمائة * وتولى اخوه الحسن بن كنون وهو ءاخر الادارسة ولا زال الامر لبني مروان الى ايام جوهر لما دخل المغرب فبايع الحسن لبني عبيد * ولما رجع جوهر الى افريقية نكث ورجع للمروانيين الى ايام بلكين عاد الى بني عبيد وءاخره سلب ملكه ومات شريدا وبه انقرضت دولة الادارسة من المغرب * وايام ملكهم تقرب من مائتي سنة وبلادهم من سوس الاقصى الى وهران وقاعدة

ملكهم مدينة فاس وكانوا يكابدون مملكتي هاشم وامية * وتملكت بعدهم يفرن وزناتة من بلاد المغرب وخطب بها للمروانيين والله اعلم بذلك * واما الذين تم لهم الامر وبلغوا مبلغ الخلفاء هم الذين يقال لهم المرابطون والملثمون قبيلة من البربر يقال لها لمتونة ولمتونة فخذ من صنهاجة ولد عبد شمس بن وائل بن حمير خلفهم افريقش لما دخل المغرب فاستوطنوا افريقية وصنهاجة وكتامة من دهاة البربر والبربر قبائل لا تحصى واكثرهم صحراويون وبلادهم في القبلة مسيرة ستة اشهر طولا واربعة اشهر عرضا ولا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فواكه وعيشتهم اللحم واللبن يقوم احدهم طول حياته لا ياكل طعاما واكثرهم على السنة والجماعة * قلت والله اعلم هم الذين يقال لهم التوارك في هذا الزمان ويجاهدون السودان * واول من تملك منهم بالصحراء تيولتان ابن تيكلان ملك الصحراء باسرها ودانت له ملوك السودان وادوا له الجزية وكان يركب في مائة الف نجيب وكان في ايام عبد الرحمن الداخل ودامت ايامه وعاش ازيد من الثمانين وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين * وتسولى حفيده الافرين بن نصير بن فلويمان فاقام بامر صنهاجة وتوفي سنة سبع وثمانين فكانت ايامه خمسا وستين سنة * وقام من بعده بامر صنهاجة تميم بن الاثير الى سنة ست وثلثمائة فقام عليه اشياخ صنهاجة فقتلوه وتمزق شملهم ولم يجتمعوا على احد نحو مائة سنة وعشرين سنة الى ان قام فيهم ابو عبد الله محمد بن تيفات اللمتوني فاجتمعوا عليه وقدموه وكان من اهل الدين والفضل والصلاح والحج فاقام ثلثة اعوام واستشهد بغارة وهم قبيلة من السودان على دين اليهودية وقدموا بعده صهره يحيى بن ابراهيم الكدالي فاقام على رياسته الى سنة سبع وعشرين واربعمائة فارتحل الى الحج واستخلف مكانه ولده ابراهيم ابن يحيى على قبائل صنهاجة يدبر حروبهم مع اعدائهم ولما قضى يحيى حجه قفل الى المغرب فاجتاز بالقيروان فلقي فيها الشيخ الولي ابا عمران موسى ابن ابي حجاج الفاسي يدرس العلم فجلس اليه وسمع منه فرءاه ابو

عمران محبا للخير فساله عن حاله وعن بلاده فاخبره عنها وعن اهلها . فقال وما ينتحلون من المذاهب فقال انهم قوم غلب عليهم الجهل فساله هل يعرف شيئا من الكتاب والسنة فلم يجد عنده شيئا إلاّ انه حريص على التعلم صادق النية فقال له الشيخ وما يمنعك من ذلك فقال يا سيدي غلب منا الجهل وليس عندنا من يرشدنا ولو وجدنا من يعلمنا السنة والقرءان لسارعنا اليه فان اردت الثواب فابعث معي من طلبتك من يعلمنا ولكم الاجر فانتدب الشيخ طلبته فلم يجد فيهم احدا فقال الشيخ اني اعرف رجلا ببلد نفيس من المصامدة تقيا صالحا لقيني هنا واخذ عني علوما كثيرة اسمه وجاج بن زلوا اللمطي اكتب اليك كتابا اليه يبعث معك احدا من طلبته فكتب له الشيخ كتابا فسار يحيى بن ابراهيم الى الشيخ وجاج وناوله كتاب ابي عمران فانتدب لذلك رجلا من طلبته يعرف بعبد الله بن ياسين الجزولي * وكان من حذاق الطلبة ومن اهل الدين والعلم والصلاح فخرج مع يحيى الى بلاده فلما وصلوا تلقتهم قبائل كدالة وفرحوا بهم . ولما نزل ابن ياسين وحل بساحتهم راى المنكرات فاشية وان الرجل منهم يتزوج ما شاء من النساء فانكر عليهم ذلك . وصار يعلمهم الكتاب والسنة وينهاهم عن المنكرات فلما شدد عليهم تبرءوا منه ونافروه ومع ذلك لم يجد عندهم من الدين إلاّ الشهادتين . فلما راى عبد الله بن ياسين اعراضهم وتتبعهم اهواءهم اراد ان يرتحل عنهم . فقال له يحيى يا سيدي انما جئت بك لخاصة نفسي وما علي ممن ضل من قومي ولكن ان كنت تريد الاخرة فهذه عندنا جزيرة في البحر اذا حسر الماء عنها دخلنا اليها على الاقدام فيها الحلال المحض من الشجر والسمك ندخل اليها ونتعبد فيها الى الموت فقال له نعم فدخلاها ودخل معهما سبعة انفار من كدالة وبنوا بها رابطة فاقام معه اصحابه يتعبدون فتسامع الناس بهم وبخبرهم وانهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم واخذ عبد الله يعلمهم القرءان وشرائع الاسلام ويرغبهم في ثواب الله الى ان تمكن من قلوبهم فسموا بالمرابطين لملازمتهم رابطة ابن ياسين فلما اجتمع عنده الف

رجل قام فيهم خطيبا ووعظهم وحذرهم عذاب الله وقال لهم الان يجب
عليكم قتال من خالفكم فقالوا له مرنا بما شئت فقال لهم اخرجوا لقبائلكم
وادعوهم الى التوبة فان استتابوا والا فقاتلوهم فخرج بهم الى قبائلهم وانذرهم
وحذرهم سبعة ايام فلم يرجعوا عن غيهم فقاتلوهم واول من قاتلوا منهم كدالة
فقتل منهم خلق كثير واسلم الباقون ثم لمتونة واخذ يغزوهم قبيلة بعد قبيلة
الى ان هداهم الله واجتمعوا على الكتاب والسنة وما يجب عليهم وقسم فيء
القتلى على المرابطين وجعل بيت مال على مقتضى الكتاب والسنة فتسامع
به اهل الصحراء وانتشر عدله في بلاد السودان * وتوفي الامير يحيى بن ابراهيم
الكدالي فقدم عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر اللمتوني ليقوم بحروبهم
وابن ياسين هو الامير على الحقيقة يامر وينهى ولما قدم ابن ياسين يحيى
وكان من اهل الدين والصلاح امره بجهاد العدو * ولما كانت سنة سبع
واربعين واربعمائة بعث فقهاء سجلماسة ودرعة الى ابن ياسين يشكون
اليه جور عاملهم فغزاهم فوجد عاملها قد استعد له فكانت بينهما حروب
انتصر فيها المرابطون وغنموا مغنما عظيما وقسمت الغنائم واخذ ابن ياسين
الخمس ومهد البلاد وجعل عليها عاملا وابطل المكوس وغير المنكرات ورجع الى
الصحراء * ومات الامير يحيى فقدم عليه عبد الله ابن ياسين اخا الامير
يحيى وهو الامير ابو بكر بن عمر اللمتوني وكان صالحا متورعا فغزا بلاد المصامدة
والسودان ففتح بلادا كثيرة * وبعث عبد الله بن ياسين العمال الى ما
تحت يده وامرهم بالكتاب والسنة وغزا بالمرابطين مجوس بني غواطة وهم
قبائل كثيرة على مذهب صالح بن طريف لما ادعى النبوءة في زمن هشام بن
عبد الملك وشرع لهم دينا وشرائع سخيفة لعنه الله تركناها خيفة التطويل
فقتل بين الفريقين خلق كثير واستشهد عبد الله بن ياسين في تلك
الحروب رحمه الله تعالى سنة احدى وخمسين واربعمائة * وكان رحمه
تعالى شديد الورع لم ياكل من لحومهم وانما ياكل لحم الطير وكان دينا
حبرا رحمه الله تعالى * واستقل بالامر ابو بكر بن عمر اللمتوني وتمادى

في غزوات بني غواطة فقتلهم واستأصلهم ففروا بين يديه للصحراء وتبعهم الى ان احتوى عليهم واسلموا اسلاما جيدا * وكان ابو بكر دينا لا يستحل دماء المسلمين فخرج الى الصحراء لقتال من بها من كفار السودان واستخلف على المغرب عمه يوسف بن تاشفين فخرج ابو بكر للصحراء وبقي يوسف بن تاشفين بنصف الجيش يمهد البلاد واستقامت اموره وذلك سنة ثلث وخمسين واربعمائة وفتح غالب بلاد المغرب وكثرت جيوشه وتوفي الامير ابو بكر في الصحراء شهيدا سنة ثمانين واربعمائة *. واستبد الامير يوسف بملك المغرب كله لا ينازعه منازع ودانت له البلاد وكان على جانب عظيم من الدين ولباسه الصوف ولم يلتفت الى زخرف الدنيا ولم ياكل الا الشعير والبان الابل ولحومها مع ما اعطاه الله من الملك ومسالك جزيرة الاندلس والسودان والمغرب الى جزائر بني مزغنة ولم يجر في بلاده مدة حياته مكس ولا ما هو خارج عن الشرع وخطب له على الف وتسعمائة منبر وبنى مدينة مراكش وجعلها مستقرا لملكه . ولما شاع ذكره في الوجود بعث اليه اهل الاندلس لنصرتهم لان عدو الدين تغلب على اهل الجزيرة وكان رسولهم المعتمد بن عباد فلقيه في احواز طنجة فشكا اليه بحال اهل الجزيرة وما عليها من الخوف والذل فوعده بالمسير اليهم وبعث الى جميع اعماله يرغبهم في الجهاد ويستفزهم معه فاجتمع له خلق عظيم ودخل الى الاندلس بجيوش المرابطين بقصد الجهاد سنة تسع وسبعين واربعمائة وكانت له بها الواقعة المشهورة بالزلاقة * وكان عدد عسكر الفنش لعنه الله فيما نقل ثمانين الف فارس ومائتي الف راجل فلم ينج منهم الا الفنش ومعه اربعمائة منقلون بالجراح ولم يدخل الى بلد قشتالة الا في خمسين فارسا وبعث يوسف الى جميع البلاد بهذا الفتح وكان يوم الجمعة لثاني عشر رجب سنة تسع وسبعين واربعمائة وفيه يقول من قصيدة

لم تعلم الروم اذ جاءت مصممة يوم العروبة ان اليوم للعرب

والعرب تسمي يوم الجمعة العروبة وانصرف راجعا الى العدوة ودخل الى

الاندلس مرة اخرى في سنة احدى وثمانين واربعمائة فتلقاه ابن عباد بالوف دابة تحمل للميرة فعاث في بلاد الكفرة وحرق وخرب ورجع الى العدوة فاقام الى سنة ثلث وثمانين واربعمائة ثم دخل الاندلس ايضا برسم الجهاد فلم يلقه احد من روساء الاندلس وهموا بغدره ففطن بهم وكان عاهدهم ان لا يغدر بهم * فلما احس بمكرهم استفتى علماءهم فكلهم افتاه بخلعهم اي خلع امراء الاندلس وقالوا ليوسف نحن خصماؤك عند الله لان هولاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم وضيعوا غالب البلاد فتغير عليهم يوسف وخلعهم واحدا بعد واحد واخذ ابن عباد اسيرا وسجنه في اغمات الى ان مات في السجن ويحكى ان يوم موته نودي عليه الصلاة على الغريب * وروي ان بعض بناته تغزل بالاجر في بيوت بعض خدامهم وابن ابنه يضرم النار في حانوت صائغ بعد ما كان ملكا على اشبيلية وقرطبة ودام ملكهم بها نحو ثمانين سنة فسبحان من لا يزول ملكه لا يسال عما يفعل وهم يسالون * ولما استوثق المغرب والاندلس ليوسف ابن تاشفين تسمى بامير المسلمين وضرب الدرهم والدينار باسمه ونقش في الدينار — لا اله الا الله محمد رسول الله — وتحت ذلك — امير المسلمين يوسف بن تاشفين — وفي الوجه الاخر — ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين الامير عبد الله امير المومنين العباسي ولا زال يبعث جيوشه الى الاندلس متفقدا لاحوالها الى ان مات سنة خمسمائة وعمره مائة سنة رحمه الله تعالى * واستقل بالامر بعده ابنه امير المومنين علي بن يوسف بن تاشفين بويع بمراكش يوم وفاة ابيه اول المحرم سنة خمسمائة وتسمى بامير المومنين وملك جميع بلاد المغرب من بجاية الى السوس الاقصى وبلاد القبلة من سجلماسة الى جبل الذهب من بلاد السودان وجميع بلاد الاندلس وملك ما لم يملكه ابوه وخطب له على الفي منبر وثلثمائة منبر * واقام العدل وتولى الجهاد وسار سيرة ابيه وهديه وفوض احكام البلاد الى القضاة ودخل الاندلس سنة ثلث وخمسمائة

فاقام شهرا على طليطلة * وكان في عسكره مائة الف فارس ففتح عدة قلاع ونكى فيها الروم وفعل بهم العجائب ورجع الى المغرب * ودخل الى الاندلس مرة ثانية بجيوش لا تحصى فنزل على قرطبة وتفقد احوالها وولى ابن رشد القضاء وغزا غرب الاندلس فشرّ امامه الروم وتحصنوا بقلاعهم وقتل واسر منهم خلقا كثيرا لا يحصى ورجع الى العدوة سنة اربع عشرة وخمسمائة * وفي هذه السنة ظهر الامام المهدي محمد بن تومرت ونازل مراكش وكسر عدة جيوش لعلي بن يوسف * ومن هذه السنة اخذ امر المرابطين في التقهقر ودامت ايام علي بن يوسف في حروب مع جيش المهدي الى ان توفي سنة سبع وثلثين وخمسمائة * وتولى بعده ابنه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين بويع بعد وفاة والده وجهز الجيوش لقتال عبد المومن وكابد في دولته اهوالا شاقة ولم يصف له الدهر بشيء لان دولة عبد المومن في الاقبال ودولته اخذت في الادبار ولم تكن له اخبار يذكر بها كمثل من تقدمه من اهل بيته الى ان توفي رحمه الله وهو في مكافحة اعدائه * وهذه الدولة اللمتونية ويقال لها دولة المرابطين ودولة الملثمين ايضا كانت من اجل الدول بالمغرب وملكت من البلاد ما ذكرنا وما لم نذكره خشية الاطالة وحسمت دولا كانت قبلها بالمغرب مثل مغراوة وبني يفرن ملوك فاس ودولة القيام بالاندلس ويقال لهم ملوك الطوائف كابن عباد وامثاله واحسن ايامهم ايام يوسف بن تاشفين * وناهيك ان امام عصره وهو الشيخ الاكمل صاحب العلوم النفيسة ابو حامد الغزالي كان عزم على دخول المغرب في ايام يوسف بن تاشفين فلما وصل الاسكندرية بلغه موت امير المسلمين يوسف بن تاشفين فرجع الى المشرق هذا لما يسمع الشيخ عنه من الصلاح رحم الله الجميع آمين * وقيل انما خرب ملك لمتونة بدعاء الشيخ الغزالي وذلك في ايام علي ابن يوسف دخل كتاب احياء علوم الدين للغزالي الى المغرب وظهر عند الناس وراوا فيه تشديدا فهجروه وانكره علماء لمتونة لانهم كانوا غير عالمين

بعلم الاصول فبلغوا في الانكار فيه الى ان افتوا بحرقه وتمزيقه حيثما وجدوه وتطلبوه عند الناس فمن انكره حلفوه بالايمان المغلظة كالطلاق وغيره ولما بلغ الشيخ الغزالي ذلك دعا عليهم بان قال مزق الله ملكهم وكان اذ ذاك في مجلسه محمد بن تومرت فقال على يدي يا سيدي فقال وعلى يديك فكان كذلك وانقرضت دولتهم كعادة الدهر ما من دولة الا واعقبها بالقهر والملك لله وحده لا اله غيره ولا معبود سواه * ومن الدول التي كانت بالمغرب الدولة الموحدية والخلافة المومنية واصل مبداها الامام المهدي واولها عبد المومن بن علي وبنيه الى ان بلغت لبني حفص وانا اذكر طرفا من ذلك بعون الله سبحانه وتعالى * ذكر المورخون ان المهدي اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن سلم بن عدنان بن شعبان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطا بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه * وقيل هو دعي في هذا النسب ذكره ابن مطروح وقال هو رجل من المصامدة والله تعالى اعلم * واول امره كان متقشفا مشتغلا بطلب العلم فرحل الى المشرق ولازم ابا حامد الغزالي ثلث سنين وحصل عليه علما عظيما * وكان ابو حامد اذا راى ابن تومرت يقول لا بد لهذا البربري من دولة فذكر بعض الطلبة لابن تومرت مقالة الشيخ واخبره ان ذلك عند الشيخ في كتاب له فلازم ابن تومرت ابا حامد الى ان اطلعه على ذلك فقفل الى المغرب سنة عشر وخمسمائة فما اجتاز ببلد الا وغير فيه المنكر ويظهر الزهد في الدنيا والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدرس العلم الى ان وصل الى افريقية والى المغرب وكان اوحد عصره في علم الكلام فلما بلغ الى بجاية وقيل تلمسان لقيه عبد المومن بن علي فانضاف الى خدمته واطلعه ابن تومرت على ما في مراده فبايعه على موازرته في الرخاء والشدة فلما وصل الى فاس قام يدرس العلم في بعض مساجدها الى سنة اربع عشرة وخمسمائة فارتحل عنها الى مراكش فقصد مسجدا ياوي اليه

وصار يمشي في الاسواق ويغير المنكر ويكسر المزامير فبلغ ذلك لعلي بن يوسف فامر باحضاره فرأى تقشفه فسأله عن فعله فقال له - ايها الملك انما انا رجل فقير وغيرت منكرا وانت اولى بذلك لقدرتك عليه - ووعظه وحذره . فلما سمع الامير علي مقالته جمع له الفقهاء واشياخ لمتونة وامرهم بمناظرته فابكت الجميع وكان الغالب عليهم علم الحديث وليس لهم علم بالاصول والجدل فلما ابكتهم لبسوا عليه وقالوا هذا رجل خارجي فامره الامير بالخروج من المدينة فخرج الى الجبانة وبنى خيمة بين القبور وقعد فيها واتته الطلبة يقرؤون عليه وكثرت تلاميذه وامتلأت قلوبهم بمحبته واعلم الخواص منهم بما يريد واخذ يطعن في دولة المرابطين وانهم كفرة مجسمون وانه هو الامام المهدي المنتظر فبايعه على ذلك الف وخمسمائة رجل فبلغ خبره الى امير المسلمين علي بن يوسف فبعث اليه وقال له - اتق الله في نفسك الم انهك عن هذا الجمع - فقال له - ايها الامير انا امتثلت امرك وسكنت بين القبور فلا تسمع لاقوال المضلين - فاغلظ له في القول وانتهره ولما خرج من عنده قال له وزيره - هذا الرجل لم يرد بك الا شرا اقتله والا فخلده في السجن وان ابقيت عنه ليسمعنك طبلا يسمع به في الخافقين واظن هذا هو صاحب الدرهم المربع - فبدا لامير المسلمين فيه وارسل خلفه من يوثقه فسمع بعض تلامذته فاتى حتى قرب من المهدي ونادى برفيع صوته - يا موسى ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك - ففطن المهدي وخرج على وجهه الى ان وصل تينمال في شهر شوال سنة اربع عشرة وخمسمائة فلحق به اصحابه العشرة عبد المؤمن بن علي - وابو محمد البشير - وابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وهو جد الحفصيين الذين ملكوا تونس فيما بعد - وابو حفص عمر بن علي - وسليمان بن خلوف - وابراهيم بن اسماعيل الهرجي - وابو محمد عبد الواحد - وموسى بن تمار - وابو يحيى بن نكيث - هؤلاء هم السابقون لدعوته فبايعوه على الرخاء والشدة واقاموا بتينمال الى رجب سنة خمس عشرة وخمسمائة فاجتمع عليه خلق كثير ولما رأى

ذلك اظهر امره وبايعوه بيعة رضى • واول من بايعه اصحابه العشرة ثم بايعه اصحاب تينمال وسائر القبائل فارسل من اصحابه الى البلاد القاصية ودعوا الناس لبيعته وذكروا لهم فضائله فدخل الناس في طاعته واتوه من كل فج عميق واعلمهم انه هو الامام المهدي المنتظر وجعل لهم توحيدا بلسان البربر وسمي الذين دخلوا في طاعته الموحدين • ولا زال يخدعهم بمكره الى ان تمكن من قلوبهم فاجتمع عنده ازيد من عشرين الفا فخطب بهم وندبهم لجهاد لمتونة فبايعوه على الموت فانتخب منهم عشرة ءالاف وبعثهم الى مدينة اغماة فاتصل الخبر بامير المسلمين فبعث اليهم جيشا فهزمه اصحاب المهدي واتبعوهم بالسيف الى ان ادخلوهم مراكش واتو بغنائمهم فقسمت بين الموحدين • وانتشر خبر المهدي في جميع بلاد المغرب والاندلس وتمادى في قتال من خالفه وجهز جيشا ءاخر فحصروا مراكش ثلثة اعوام وارتحل عنها وذلك من سنة ست عشرة الى سنة تسع عشرة • ولما رجع الى تينمال استراح بها وخرج الى اغماة وسائر من خالفه الى ان دانت له البلاد وبعث الى مراكش جيشا ءاخر وقدم عليهم عبد المومن بن علي وابا محمد البشير وجعل عبد المومن امام الصلاة فالتقى بهم جيش امير المسلمين علي بن يوسف فهزموه الى ان ادخلوه مراكش وغلق الابواب في وجوههم فحاصروه ثلثة ايام • ورجعوا الى تينمال فخرج المهدي الى لقائهم وفرح بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح ومدة ملكهم واعلمهم انه يموت في تلك السنة ثم بدا به مرضه الذي مات فيه وقدم عبد المومن للصلاة وتوفي في شهر رمضان سنة اربع وعشرين وخمسمائة هذا ملخص خبر المهدي ولو تتبعنا خبره لطال الكلام وانما اتيت بهذا القدر ليتمهد الامر الى دولة بني حفص • وللناس في اخبار المهدي عدة دواوين بين مكثرين ومختصرين ومقلين • والمهدي ممن مهد الملك لغيره وباء باثمه وشره وكان حصورا فيما قيل عنه وفخذاه ملتصقين الى ركبتيه ولا يركب على الدابة الا متعرضا والله اعلم بحقيقة امره واستخلف بعده عبد المومن •

الخـــبر عن خلافة عبد المومن بن علي الكومي الزناتي

هو ابو محمد عبد المومن بن علي الكومي الزناتي كان ابوه نجارا يعمل النوافخ وعبد المومن تطلب العلم من صغره ولازم المساجد الى ان اتصل بالمهدي فضمه اليه لما اراد الله سبحانه به * بويع بعد وفاة المهدي بيعة خاصة بايعه عشرة من اصحاب المهدي لما يعرفون من سجيته وتقديم المهدي له في حياته * وبـويع البيعة العامة سنة ست وعشرين وخمسمائة ولم يتخلف عنه احد * وفي ايامه انقطعت دولة لمتونة من المغرب واول فتحه بلاد تادلا خرج اليها من تينمال في ثلثين الفا من الموحدين ففتحها وسبى ثم غزا درعة ففتحها وبلاد فزاز وغياثة ولا زال يفتح بلدا بلدا وقبيلة قبيلة ولم تزل الحرب بينه وبين علي بن يوسف الى ان مات علي وتولى بعده ولده تاشفين فقامت بينهما الحرب وجرت بينهما وقائع عديدة وسار عبد المومن الى تلمسان فسبقه تاشفين اليها فاتى عبد المومن اليها وحاصره بها وخلف جيشا منها ورحل الى وهران فخرج تاشفين خلفه ليدرك وهران فمات تاشفين في تلك الخطرة وفتح وهران واخذ تلمسان سنة اربعين وخمسمائة * وبـعث الى الاندلس جيشا ففتحوا ما هنالك وبايعه اهل الاندلس وملك مدينة فاس * وفي سنة احدى واربعين وخمسمائة ملك طنجة وفيها ملك مدينة مراكش * وفي سنة اثنتين واربعين وفد اليه اهل اشبيلية بالبيعة وفيهم ابو بكر بن العربي فساله عبد المومن هل راى المهدي عند الشيخ ابي حامد الغزالي قال ما لقيته ولكن سمعت به فقال له فما كان ابو حامد يقول فيه قال كان يقول لابد لهذا البربري ان يكون له شان * وفي سنة ثلث واربعين وخمسمائة دخل عبد المومن سجلماسة وامن اهلها ورجع الى مراكش ثم غزا بني غواطة فهزموه ثم كانت الكرة عليهم فاجال عليهم السيف حتى لم يبق منهم الا من لم يبلغ الحلم وقام عليه اهل سبتة وخلعوا طاعته وذلك براي القاضي عياض وبايعوا لابن غانية فتحرك عبد المومن وقاتل اصحاب ابن غانية وهزمهم فلما علم اهل سبتة

كاتبوا عبد المومن وطلبوا منه الامان فامنهم وعفا عنهم ومن القاضي عياض وامره بسكنى مراكش وفيها فتحت مكناسة بعد محاصرتها سبعة اعوام ودخلها بالسيف * وفيها فتحت قرطبة واخذها من يد لمتونة ومدينة جيان * وفي سنة اربع واربعين وخمسمائة اخذ مليانة * وفيها فتحت مدينة بجاية ملك بني حماد بعد محاصرتها ونزل صاحبها بالامان فامنه ونقله باهله الى مراكش * قلت الذي اخذت منه بجاية اسمه يحيى بن العزيز والذين ملكوا بجاية اولهم حماد بن يوسف بلكين الذي تقدم ذكره عند ذكر صنهاجة وحماد هذا قام على ابن اخيه باديس وكانت بينهم ملاحم واستقل بعد ذلك بالبلاد الغربية واتخذ بجاية دار ملك فبقيت في يد بنيه الى زمن عبد المومن واولهم حماد كما ذكرنا ثم ابنه القائد بن حماد ثم ابنه الاخر محمد بن حماد ثم بلكين بن محمد بن حماد ثم الناصر بن علاء الناس بن حماد ثم ولده المنصور بن الناصر ثم ولده باديس بن المنصور بن الناصر ثم اخوه العزيز بن المنصور ثم ولده يحيى ابن العزيز وهو ءاخر ملوك بني حماد وانقرضت دولتهم وملك عبد المومن جميع ما بايديهم مثل بونة وجزائر بني مزغنة وهي مدينة الجزائر اليوم وقسطينة وغيرها ورجع الى مراكش * وفي سنة احدى وخمسين وخمسمائة بايع له اهل غرناطة * وفي سنة ثلث وخمسين وخمسمائة تحرك امير المومنين عبد المومن بن علي من مدينة مراكش وقصد افريقية بامم لا تحصى فوصل الزاب وبلاد افريقية فقتل من عصى وامن من استامن الى ان وصل مدينة تونس فحاصرها ثلثة ايام وارتحل عنها وترك جيشا محاصرا لها وسار الى القيروان ففتحها وفتح سوسة وصفاقس وارتحل الى المهدية فحاصرها سبعة اشهر وضايق عليها برا وبحرا ونصب عليها المجانيق وجعل قتالها نوبا ليلا ونهارا حتى فتحها وقتل خلقا كثيرا من النصارى الذين كانوا فيها ورد اليها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي الذي اخذت منه المهدية

وكان لما ان فر منها قصد ابن عمه ابن حماد فلم يلق عنده مراده وهم بالقبض عليه ففر منه الى الجزائر واستوطنها الى ايام عبد المومن لما قصد بلاد المشرق فاتصل به الحسن وبايعه وسار معه الى ان اخذ المهدية فرده اليها وخطب له بها * وفتح مدينة تونس وخطب له بها وفتح جميع بلاد افريقية من برقة الى تلمسان ولم يبق له منازع وفرق عماله وعماله * وقيل فتح المهدية كان سنة خمس وخمسين والله اعلم . وفيها امر عبد المومن بن علي بتكسير بلاد افريقية من برقة الى السوس الاقصى طولا وعرضا بالفراسخ والاميال واسقط الثلث من التكسير في مقابلة الجبال والانهار والسباخ وما بقي قسط عليه الخراج والزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق * وهو اول من احدث ذلك بالمغرب وارتحل عن افريقية الى المغرب واخذ من كل قبيلة من عرب افريقية الفا وادخلهم الى المغرب بعيالتهم * وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة جاز عبد المومن من طنجة الى الاندلس متبشرا على احوال البلاد ورجع الى مراكش * وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة امر بانشاء الاساطيل في جميع بلاده واراد غزو بلاد الروم برا وبحرا فاجتمع له قريب من سبعمائة قطعة وامر بضرب السهام في جميع عمله فكان يضرب له منها في كل يوم عشرة قناطير * واستجلب الاجناد والمطوعة من سائر عمله يستنفرهم للجهاد فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من بلاد افريقية والمغرب والقبائل واجتمع له من الموحدين وقبائل زناتة ومن العرب ازيد من ثلثمائة الف فارس ومن جيوش المطوعة ثمانون الف فارس ومائة الف راجل فضاقت بهم الارض * ولما استوفت له الجنود وتطاولت اليه الوفود ابتداه المرض الذي توفي منه في جمادى الاخيرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمرة ثلث وستون سنة وقيل اربع وستون وايام خلافته ثلث وثلثون سنة وخمسة اشهر فسبحان الحي الدائم الذي لا يموت ودفن بازاء المهدي في تينمال * وكان رحمه الله فقيها فصيحا عالما بالجدل والاصول حافظا لحديث النبي

صلى الله عليه وسلم مشاركا في علوم كثيرة الدينية والدنياوية وعلم النجوم واللغة والادب والتاريخ وعلم القراءات نافذ الراي ذا حزم وسياسة وشجاعة واقدام ميمون النقيبة لم يقصد بلدا الا وفتحه * وكان سخيا كريم الاخلاق محبا لاهل العلم مقربا لهم وله شعر جيد وامتدحه بعض الشعراء واظنه من بلد بنزرت بقصيدة اولها :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المومن بن علي

فلما انشد بين يديه هذا البيت اشار اليه بالسكوت وامر له بالف دينار * ولما عاد اليه من الغد انشده البيت المذكور فاسكته وامر له بالف دينار * ولم يزل ينشده كلما دخل عليه ويامر له بالف الى ان اوصله باربعين الفا . فحسده بعض الشعراء وقال له ــ الى متى وما يامنك من تغيير اخلاق امير المومنين وقد اوصلك بما فيه غناءك ــ فارتحل من فوره الى بلده ، وسال عنه عبد المومن فاخبر برحيله فقال ــ لا حول ولا قوة الا بالله لقد ظن بنا غير ما اردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك ــ فقيل له ــ لم لم تسمع تمام القصيدة ــ فقال عبد المومن ــ وما عسى ان يقول بعد قوله ما هز عطفيه (البيت) رحم الله هذه النفوس الابية والاخلاق المرضية ماتوا وذكرهم لم يمت سبحان الحي الدائم الذي لا يموت *

الخــــبر من خلافة يوسف

ابن عبد المومن بن علي الكومي الزناتي

بويع في الحادي عشر من جمادى الاخيرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بعد وفاة ابيه وكان عاقلا صالحا مترفقا في سفك الدماء حسن السياسة اخذ منهج ابيه وسار بسيرته واستكثر من الجيوش ومهد البلاد وضخم الملك * وكان ملكه من قاصية افريقية الى السوس الاقصى الى بلاد القبلة وبلاد الاندلس تجبى اليه خراجها دون مكس ولا جور فكثرت الاموال وامنت الطرقات وكان يتفقد احوال مملكته لا يتكل على احد من وزرائه * وجاز الى الاندلس سنة ست وستين متفقدا لاحوالها واقام بها اربعة

اعوام وعشرة اشهر ورجع الى مراكش سنة احدى وسبعين * ودخل افريقية سنة خمس وسبعين لقيام ابن زيري بقفصة فنزل على قفصة وملكها وصلب صاحبها ابن زيري وعاد الى مراكش * وفي سنة تسع وسبعين جاز الجواز الثاني الى الاندلس ونزل على شنتين غربي الاندلس فحاصرها حصارا قويا واستشهد هناك فحمل الى تينمال ودفن هنالك بجنب قبر ابيه * وتوفي سنة ثمانين وخمسمائة وعمره سبع واربعون سنة واقامته في الملك احدى وعشرون سنة واشهر وقام بالامر بعده ولده يعقوب *

الخبر عن خلافة امير المومنين يعقوب

هو المنصور بالله بن امير المومنين يوسف بن عبد المومن بن علي كان يعقوب هذا اجل ملوك الموحدين ذا راي وحزم ودين محبا للعلماء ويحضر جنائزهم ويزور الصالحين ويتبرك بهم عالما بالحديث واللغة مشاركا في علوم كثيرة مواظبا على الجهاد وهو اول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين وعلامته « الحمد لله وحده » وكانت ايامه زينة الدهر والامن في جميع عمله حتى ان الظعينة تخرج من برقة الى ءاخر المغرب ولا يتعرض لها احد وبنى المساجد في سائر عمله والمارستانات للمرضى واجرى لهم الارزاق * وخالفت عليه مدينة قفصة فوصل اليها سنة ثلث وثمانين وفتحها * وغزا عرب افريقية فهزمهم واستباح اموالهم ونقلهم الى المغرب ورجع الى مراكش دار ملكه * وفي سنة خمس وثمانين جاز الى الاندلس فنازل اشترين واشبونة فنكا فيهما وسبى من النساء والذرية ثلثة عشر لفا ورجع الى العدوة ونزل مدينة فاس فاتته الاخبار ان الميورقي قام بافريقية فرحل من فاس ودخل افريقية ونزل على تونس فوجد الاحوال ساكنة والميورقي فر امامه الى الصحراء حين سمع بقدوم امير المومنين يعقوب المنصور * قلت ذكر ابن الشماع رحمه الله الميورقي ولم يستوفه من حقه وها انا اذكره هنا لاتمام الفائدة : هو علي بن اسحاق بن جوية الصنهاجي صاحب ميورقة ومنورقة ويابسة ثلث جزر في البحر

توفي ابوه اسحاق سنة ثمانين وخمسمائة وخلف اولادا ، فعلي هذا ويحيى اخوه خرجا الى افريقية وصنعا العجآئب بها واخوهما محمد خدم دولة الموحدين واخوهم عبد الله وهو اصغرهم ملك ميورقة وعصى الناصر بن المنصور فتحرك اليه لما دخل افريقية سنة اثنتين وستمائة * وحاصر الناصر ميورقة فمات عبد الله بن اسحاق في تلك الحروب فحمل راسه الى مراكش وعلقت جثته على سور ميورقة ولم تزل ميورقة في يد المسلمين الى سنة سبع وعشرين وستمائة اخذها عدو الدين كما اخذ غيرها اعادها الله للاسلام بمنه وكرمه * واما علي فانه عاث بافريقية عند اشتغال امير المومنين يعقوب المنصور ببلاد الاندلس فلما سمع به تحرك اليه في هذه السنة ففر امامه ولما رجع امير المومنين الى المغرب رجع الميورقي الى افريقية وملك المهدية وتونس وعسف عماله على تونس والزم اهلها مائة الف دينار ولم يزل متماديا على حاله في الفساد حتى تحرك اليه الناصر بن المنصور وكانت له وقعات وحروب وسياتي بقية خبره عند ذكر الناصر * وكان الميورقي شجاعا مقداما وتوفي سنة ثلث وثلثين وستمائة في زمن بني حفص ذكره غير ابن الشماع * ولما فر الميورقي الى الصحراء رجع امير المومنين يعقوب المنصور الى المغرب بعد ما سكن احوال افريقية ودخل تلمسان واصابه مرض ورحل عنها ودخل فاسا فاقام بها حتى عوفي ورجع الى مراكش فاقام بها الى سنة احدى وتسعين وخمسمائة فيها اتصلت به الاخبار ان الفنش عاث في بلاد المسلمين ولم يصده احد واغتنم الفرصة في غيبته ومرضه اي غيبة الخليفة المنصور وفعل بالمسلمين الاوابد واستحوذ على اكثر معاقلهم فانتدب المنصور جيوشه من الموحدين والاعزاز والمطوعة والمرتزقة وقصد الجواز الى الاندلس فارسل اليه النصراني كتابا يقول فيه — ميس ملك النصرانية الى امير الحنفية اما بعد فان كنت عجزت عن الحركة علينا وتثاقلت عن الوصول الينا فابعث الي مراكب من عندك اجوز فيها بجيشي اليك فان هزمتني فهدية جاءت الى بين يديك وانت امير

المومنين وان كانت لي عليك كنت انا صاحب المتين والسلام ـ فلما قراه اخذته الغيرة الاسلامية ورمى بالكتاب الى ولده ولي عهده * فاجاب على ظهر الكتاب بتوقيع يده « ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » فسر المنصور بهذا الجواب ودخل الاندلس سنة احدى وتسعين وخمسمائة * وكانت له على الروم نصرة عظيمة قتل فيها منهم ما لا يحصى وكان الفنش لعنه الله انضم اليه من جميع الاجناس حتى قيل كان معه ثلثمائة الف ما بين راجل وفارس فهزمهم الله ونصر المسلمين ودخلوا حصن الارك الذي سميت به الواقعة واخذوا منه ما لا يعلم قدره الا الله ومن الاسارى اربعة وعشرين الفا فمن عليهم امير المومنين يعقوب المنصور واطلقهم * واستشهد من المسلمين من كتبت له السعادة والذي سبقت له الحسنى وزيادة * ومات فيها الشيخ يحيى بن ابي حفص جد الحفاصة وكان من اكبر قواده وزعمائه وكانت تحته اخت الخليفة المنصور بالله وكانت هذه الغزوة العظمى تاسع شعبان من السنة المذكورة وهي اعظم غزوة على ايدي الموحدين . وقسم الغنائم وكتب بالفتح الى جميع البلاد واقام باشبيلية الى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة خرج الى غزوته الثانية وفتح قلعة رياح ووادي الحجارة ومعاقل كثيرة * وحاصر طليطلة واحرق رباطاتها ونصب عليها المجانيق ثم ارتحل منها الى سلمنكة فدخلها بالسيف وقتل رجالها ونساءها ورجع الى حضرة ملكه مراكش واخذ البيعة لولده محمد الملقب بالناصر واجلسه في حياته مجلس الخلافة * ولما استوثق الامر لولده دخل المنصور الى قصره فلزمه وبدا فيه المرض الذي مات به في الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة بقصبة مراكش * وقيل انه تقشف وزهد في الدنيا وارتحل الى المشرق ومات هنالك راحلا للشام مقرر هذا الخبر عند عامتهم والله اعلم * وكان رحمه الله اجل ملوك الموحدين وابعدهم صيتا واحسنهم في جميع الامور له الهمة العالية

والسيرة الحسنة والدين المتين والراي الصائب * ويحكى انه بعث لبعض عماله لينظر له رجلا لتاديب اولاده فبعث العامل له برجلين وكتب معهما كتابا يقول فيه — قد بعثت اليك رجلين احدهما بحر في علمه والاخر بر في دينه — فلما امتحنهما لم يرضياه فوقع على ظهر كتاب العامل — ظهر الفساد في البر والبحر — رحمه الله وعفا عنه بمنه وكرمه والبقاء لله لا رب غيره ولا معبود سواه *

الخبر عن خلافة امير المومنين محمد الناصر

هو ابن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي بويع في حياة والده وجددت له البيعة يوم الجمعة صبيحة الليلة التي توفي فيها والده وتم له الامر وتعاطى تدبير الامور بيده وخرج الى مدينة فاس وبنى اسوارها وقصبتها . وجاءته الاخبار ان الميورقي غلب على اكثر بلاد افريقية واخذ المهدية وضيق على اهل تونس والزمهم مائة الف دينار وقد مر انفا فرحل من مراكش سنة ثمان وتسعين ولما وصل الى جزائر بني مزغنة امر بانشاء اساطيل واخذ في تجهيز العساكر الى ميورقة ففتحها وقتل صاحبها عبد الله بن اسحاق وفر اخوه يحيى ودخل الصحراء * ووصل الناصر الى افريقية فاطاعه كل من عصى عليه ما عدا المهدية لان العامل بها من قبل الميورقي وكان شهما شاحب دهاء فحاصره بها ونصب عليها المجانيق فلما راى العامل ان لا طاقة له بقتال الناصر ركن الى الصلح فصالحه وعفا عنه وكان فتحها سنة احدى وستمائة * وفي سنة اثنتين وستمائة اراد الناصر الرجوع الى المغرب فخلف على افريقية الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن ابي بكر بن ابي حفص ومن يومئذ استقرت قدم بني حفص بافريقية وجعل الشيخ ابو محمد عبد الواحد تونس دار الامارة الى يومنا هذا جعلها الله مدينة اسلام الى يوم الدين امين * ومن هنا نشرع في ذكر بني حفص لان هذه الحوادث التي ذكرناها انما هي تمهيد لما سياتي من اخبار الحضرة العلية وليعلم الناظر في هذا المجموع ضخامة البلاد

لافريقية ولكن نأتي ببقية اخبار الخلفآء لاتمام الفآئدة ونرجع للذي قصدناه عآئدين ولا بد للذي من الصلة والعآئد * ولما تمكن الشيخ عبد الواحد من البلاد رحل الناصر الى المغرب فوصل الى مراكش سنة خمس وستمائة * وفي سنة ست جآءته الاخبار من الاندلس ان الفنش ملك بيونة وتغلب عليها فكتب الناصر الى سآئر عمله واستفز الناس للجهاد وخرج من مراكش سنة سبع وستمائة فوصل اشبيلية واهتزت بلاد الاندلس لخبره . فدخل الرعب في قلب عدو الله فطلب الصلح وبعث ارساله يطلب من امير المومنين ان يصل بين يديه ويحكمه في نفسه وماله * فاذن له في الوصول الى حضرته وكتب الى جميع عماله ان متى اجتاز به الفنش يضيفه ثلثا ويمسك من عسكره الف فارس فما وصل مدينة قرمونة الا ومعه الف فارس فمسكت هنالك فقال لعاملها - كيف يكون مسيري وحدي - فقال - تسير في ذمام امير المومنين - فسار في خدمه ومعه زوجته وقدم بين يديه هديته واحضر معه الكتاب الذي كان بعثه النبي صلى الله عليه وسلم لبني الاصفر وبقي محفوظا عندهم الى تلك المدة واظنه الى الان موجودا * ولقد رءاه بعض ارسال بني حفص في ايام دولتهم واخبر بانه قراه وهو باق عندهم ويعترفون ببركته * ولما وصل الفنش الى الناصر اكرمه واعطاه صلحا تاما وكتب له بذلك - ما دامت دولة الموحدين - وصرفه الى بلاده . وارتحل الناصر الى قشتيلية فحصرها ستة اشهر ودخل الشتآء وقلت الميرة وغلت الاسعار فانتهز عدو الله الفرصة وجمع من كل النصرانية جيشا وكبس به عسكر المسلمين على حين غفلة ففر عسكر الاندلس اولا وعادت الكسرة على المسلمين فهزموا واتبعهم عدو الله ونادى ان لا اسارى الا القتل فلم ينج من المسلمين الا القليل وكاد الناصر ان يقع بايديهم لولا لطف الله به * ومن هذه الكسرة لم ترفع للمسلمين بالاندلس راية الى زمان يعقوب المريني وهذه الواقعة يسميها اهل السير بالعقاب * ولما رجع الناصر الى العدوة ودخل مراكش

اخذ البيعة لولده يوسف وتلقب بالمنتصر وانعكف الناصر على الذاته الى ان توفي سنة عشر وستمائة ومن هنا اخذت دولة الموحدين في الانحلال وقام بالامر بعده ولده يوسف *

الخبر عن خلافة امير المومنين يوسف المنتصر

هو ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي قام بالامر بعد ابيه فقرب الاراذل وابعد مشائخ الموحدين فكانت لا تنفذ اوامره واخذت دولة الموحدين في الادبار وظهرت دولة بني مرين في ايامه سنة ثلث عشرة وستمائة وبعث المنتصر جيشا لقتالهم فكان الظهور لبني مرين واستباحوا عسكر الموحدين * وكان يميل الى الراحة فكانت لا تنفذ اوامره عند عماله وكان مغرى بنتاج البقر فدخل ذات يوم بين البقر فقصدت اليه بقرة شرودة فضربته في بطنه فمات من ساعته وكانت ايام ملكه عشر سنين واربعة اشهر وذلك سنة عشرين وستمائة والملك لله وحده * ولما مات اتفق اشياخ الموحدين على مبايعة ابي محمد عبد الواحد *

الخبر عن خلافة امير المومنين ابي محمد عبد الواحد

هو ابن يوسف بن عبد المومن بن علي بويع ثالث عشر ذي الحجة سنة عشرين وستمائة وهو في سن الشيخوخة وكان صالحا متورعا فاستقام له الامر شهرين ثم اضطربت احواله وقام عليه ابو محمد العادل وكان في مرسية فاخذ البيعة لنفسه وكتب الى اخيه ابي العلى وكان باشبيلية يدعوه الى بيعته فاجابه وبعث الى اشياخ الموحدين الذين بمراكش والعدوة فاستمالهم بعد ما وعدهم بجزيل العطآء فاتفقوا على مبايعته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد فطالبوه بخلع نفسه وتهددوه بالقتل فاجابهم فادخلوا عليه القاضي والشهود فاشهدهم على خلعه وانه بايع لابي محمد العادل * وبعد ايام دخلوا عليه فخنقوه وانتهبوا قصره وكان اول مخلوع من بني عبد المومن وانفتح باب الفتن بين الموحدين وصاروا كالاتراك بالعراق * وكانت

ايام خلافته ثمانية اشهر وتسعة ايام * وقام بالامر بعده ابو محمد عبد الله ولقبه العادل باحكام الله *

الخبر عن خلافة امير المومنين عبد الله

هو ابن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي بويع بمرسية في صفر سنة احدى وعشرين وستمائة وتم له الامر في شعبان بعد خلع عبد الواحد ورجع من الاندلس الى حضرة مراكش وفوض امر الاندلس الى اخيه ابي العلاء الملقب فيما بعد بالمامون فاقام على طاعة اخيه الى سنة اربع وعشرين وستمائة فنكث بيعة العادل ودعا الناس لمبايعته فاجابوه وتلقب بالمامون وكتب الى اشياخ الموحدين بمراكش واستمالهم فاجابوه فدخلوا على العادل وخنقوه بعمامته حتى مات في شوال سنة اربع وعشرين وستمائة وكانت خلافته ثلث سنين وشهرين وكتبوا بيعتهم الى المامون ابي العلاء ادريس وبعثوا بها على البريد ثم ندموا وخافوا منه لما يعرفون من شهامته فرجعوا وبايعوا يحيى بن الناصر *

الخبر عن خلافة امير المومنين يحيى

هو ابن محمد الناصر بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن ابن علي لقبه المعتصم بالله بويع في الثاني والعشرين من شوال سنة اربع وعشرين وستمائة وامتنع من مبايعته كثير من الناس لمبايعتهم المامون ووقع لذلك فتن في البلاد واضطربت الاحوال وكثرت المحن وغلت الاسعار وكثر الخوف واتصل الخبر ان المامون بويع له بالاندلس وانه جاز البحر الى مدينة سبتة * فلما علم يحيى بذلك وراى اختلاف الموحدين عليه بمراكش فر الى جبل درن ثم رجع الى مراكش فاقام سبعة ايام ثم هرب ثانيا وكانت بينه وبين المامون حروب انهزم فيها يحيى ولم يزل شريدا الى ان مات سنة ثلث وثلثين في ايام الرشيد وسياتي خبره وجدد الموحدون البيعة للمامون آخر جمادى الاخيرة سنة ست وعشرين وستمائة *

الخبر عن خلافة امير المومنين المامون

هو ابو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي كان فصيح اللسان ضابطا للحديث الشريف حسن الصوت والتلاوة عالما بالعربية واللغة والاداب وايام الناس سالكا في امور الدنيا والدين وكان حازما شجاعا وهو اول من ادخل النصارى الى مراكش استنصر بهم ودخل معه اثنا عشر الف نصراني * ولما حل بمراكش صعد المنبر وخطب الناس وسب مهديهم وقبح مذهبه ومذهب من تبعه ومحا اسمه من الدراهم ومن الخطبة وقال لا تدعوه بالمهدي واشياء يطول شرحها وكتب بذلك الى الافاق وقتل اشياخ الموحدين لاجل نكثهم البيعة ولم يبق منهم احد وكان جملة القتلى اربعة الاف وستمائة. وكتب لعماله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقام عليه اخوه بالاندلس وكثرت عليه المحن وتوالت عليه الهموم فمات رحمه الله * وكانت ايام خلافته ثلث سنين وستة اشهر وفي ايامه استولت الروم على جزيرة ميورقة وبويع ولده عبد الواحد وتلقب بالرشيد *

الخبر عن خلافة امير المومنين الرشيد

هو عبد الواحد بن ادريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي بويع اول المحرم سنة ثلثين وستمائة وعمره اربع عشرة سنة فاقام بمراكش الى سنة ثلث وثلثين فقتل جملة من اشياخ الخلط فقاموا عليه وحاربوه فانتصر عليهم بعد ما نهبوا مراكش وهرب ورجع الى حضرته ولم يزل في شتات الى ان وافاه حمامه غريقا في صهريج يوم الخميس تاسع جمادى الاخيرة سنة اربعين وستمائة وايام خلافته خمسة اعوام وخمسة اشهر وايام وكان في زمانه وباء وغلاء مفرط بحيث انه بلغ قفيز القمح ثمانين دينارا * وفي ايامه استبد ابو زكرياء يحيى بالامارة في مدينة تونس ولم يتسم باامير المومنين وتغلبت بنو مرين على اكثر بلاد المغرب وقام بالامر بعده ابو الحسن السعيد *

الخـــبر عن خلافة امير الومنين المعتضد

هـو ابو الحسن علي بن ادريس المامون بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المومن بن علي تسمى بالمعتضد بالله ولقب بالسعيد بويع يوم وفـاة اخيـه الرشيد بمراكش عاشر جمادى الاخيرة سنة اربعين وستمائـة * وفي ايامه كثر جمع بني مرين وارسل اليهم الجيوش فكانت الدائرة لبني مرين وخرج سنة ثلث واربعين بنفسه في جمع عظيم واخذ البيعة على الامير ابي يحيى بن عبد الحق المريني وجآءه الخبر في هذه السنة بان المنتصر تسمى بامير المـومنين احتقارا لدولته فازمع للخـروج بنفسه والتـقى ببني مرين وكانت بينهما وقعات وحارب ابن زيان القآئم بتلمسان وفر امامه الى بعض القلاع فتبعه السعيد وحاصره بها ثلثة ايام وخرج السعيد في الهاجرة يتجسس عن احوال القلعة ويكيف الحيلة في اخذها فكمن له ثلثة نفر على حين غفلة فقتله احدهم وقتل وزيره معه ونهب ابن زيـان جميع ما كان في محلته وحملت جثته فدفنت خارج تلمسان وكانت وفاته يـوم الثلثا ءاخر صفر سنة ست واربعين وستمائة وبويع بمراكش المرتضى *

الخـــبر عن خلافة امير المومنين المرتضى

هـو ابو حفص عمر بن الامير اسحاق بن امير المومنين يوسف بن عبد المومن بن علي بويع بعد موت السعيد عقد له البـيعة برباط الفتح وارتحل الى مراكش واخـذ البيعة عن اهلهـا واستـقام له الامر من مدينة سلا الى مدينة السوس وكان يدعي الزهد والورع ويحب السماع وكانت ايامه ايام هنآء ورخآء مفرط ما سمع بمثله * وخـــرج سنة ثلث وخمسين في ثمانين الفـا الى قتال بني مرين فلما قرب من مدينة فـاس وكان خوف بني مرين خامر قلوبهم انطلق فرس لبعض العسكر فجرى صاحبه في اثره فظنوا ان العدو قد دهمهم فانهـزم العسكر لا يلوي احد عن احد واتصل الخبر بالامير يحيى بن عبد الحق فخرج واحتوى على جميع محلته وسار المرتضى الى مراكش في نفر يسير فاقام بها الى ان دخـل عليه

ابو دبوس فقتله اواخر المحرم سنة خمس وستين وستمائة فكانت ايام خلافته تسع عشرة سنة الّا اياما وتولى بعده الواثق ابو دبوس *

الخــــبر من خلافة امير المومنين ابي دبوس

هـــو ادريس بن الرشيد ابي حفص بن امير المومنين عبد المومن بن علي كان شجاعا مقداما وسبب تملكه مراكش كان المرتضى نقم عليه اشياء فخاف منه وهرب الى امير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني منتصرا به فالقاه بمدينة فاس فاكرم مثواه واعانه بالمال والرجال واتفق معه ان يعطي لبني عبد الحق النصف فيما يغلب عليه من البلاد فلما تمكن من مراكش ودخلها على حين غفلة وفر امامه المرتضى واستقل بالامر كتب اليه الامير يعقوب يهنيه ويطلب منه الشرط الذي بينهما فقال للرسول — قل لابي عبد الرحمن يغتنم الفرصة ويقنع بما في يديه والّا اتيته بجنود لا قبل له بها — فـــلما وصل الخبر الى يعقوب المريني شن عن بلاده الغارات وجهز له الجيوش * وفي سنة سبع وستين خرج امير المسلمين يعقوب المريني بنفسه فالتقى معه ابو دبوس ببلاد دكالة فكانت بينهما حروب قتل فيها ابو دبوس وجيئ براسه الى يعقوب بن عبد الحق فبعثه الى مدينة فاس وطيف به هنالك وانتهب محلته * وكان قتله ءاخر ذي الحجة سنة سبع وستين وستمائة وبه انقرضت دولة بني عبد المومن * وكان ابتداء امرهم من المهدي بن تومرت سنة خمس عشرة وخمسمائة وانقرضت بابي دبوس سنة سبع وستين وستمائة * وملوك بني عبد المومن اربع عشرة خليفة — وانتقلت بلاد المغرب الى حكم بني مرين — والاندلس الى الثوار من الطوائف — وافريقية الى بني حفص — والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين :

الفـــــــــصل الثـــاني

فيمن تولى من بني حفص في البلاد الافريقية

وهـــا انا اذكر بعض سيرتهم والعمدة في ذلك على ما نقله ابن الشماع

ولاكن ناتي به مختصرا ليلا تذهب ديباجته ويظن المتامل اني فرت عليه ونزلت ساحته وربما ناتي بما ليس فيه واذكره وانبه عليه ان شاء الله تعالى وبه المستعان وعليه التكلان . فاقول وبالله التوفيق : —
اول من تملك من بني حفص المولى ابو محمد عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علية بن احمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن واقن بن محمد بن نجبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه كذا قيد نسبه ابن الشماع * قلت هذا النسب غارق في انساب البربر والعرب كانت تانف من التزويج منهم وخصوصا قريشا والله اعلم بحقيقة ذلك . ولاجل هذا النسب الشريف خطب لهم بامير المومنين والناس مصدقون في انسابهم والشيخ ابو حفص من قبيلة هنتاتة من قبآئل المصامدة وهنتاتة اكثرها جمعا وهم القآئمون بدعوة المهدي بن تومرت والسابقون اليها وابو حفص احد العشرة الذين بايعوا المهدي وقد سبق خبره * ولما دخل الناصر بن المنصور افريقية عند تغلب بن غانية عليها وهزمه الناصر وطرده واسترجع المهدية ورجع الى تونس واقام بها حولا واراد الرجوع الى المغرب اراد ان يولي بافريقية من يقوم مقامه فوقع اختياره على المولى عبد الواحد فولاه عليها بعد تمنع وشروط شرطها عليه ووفى له الناصر بها فرفعت رايته بين الموحدين ورحل الناصر الى المغرب وفارقه المولى عبد الواحد من باجة ورجع الى حضرة تونس فقعد مقعد الامارة بقصبتها وذلك يوم السبت عاشر شوال سنة ثلث وستمائة وكان رحمه الله تعالى عالما فاضلا ذكيا فطنا شجاعا محسنا وهو الذي اخترع زمام الصرف بتونس للوفود وكان يجلس يوم السبت للنظر في مسآئل الناس ومدحه بعض الفضلاء بقصيدة تدل على فضله ومنها :

وماذا على المداح ان يمدحوا به ... وفيك خصال ليس تحصر بالعد
نهارك في تدبير ما يصلح الورى ... وليلك مقسوم على الذكر والورد

ودخل عليه الامام ابو محمد عبد السلام البرجيني من تلامذة الامام المازري وكان تحت جبوة منه فقال له المولى عبد الواحد ـ كيف حالك يا فقيه ـ فقال ـ في عبادة ـ فقال له المولى عبد الواحد ـ تعوضها ان شآء الله بالشكر ـ قال ابن نخيل كاتب المولى عبد الواحد ـ لم نفهم ما اراد فسالت المولى عن ذلك فقال ـ اراد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انتظار الفرج بالصبر عبادة ـ وهذا يدل على ذكآئه رحمة الله عليه وتوفي يوم الخميس اول المحرم عام ثمانية عشر وستمائة وايام دولته اربع عشرة سنة وثلثة اشهر * ودفن بالقصبة وقبره يزار ويتبرك به وبالقرب من تربته مغارة كان يتعبد فيها * فسلت وتربته الى يومنا هذا مشهورة داخل القصبة ولما توفي رحمه الله قدم ولده المولى ابو زيد ثم طلع الى المغرب هو واخوته ثم وصل الى تونس ابو محمد عبد الله بن المولى عبد الواحد من قبل العادل بن المنصور ومعه اخوه ابو زكريآء يحيى سنة ثمان عشرة * وقدم المولى ابو زكريآء على مدينة قابس من قبل اخيه ابي محمد عبد الله ثم وقع بينهما اختلاف فخرج المولى عبد الله الى قتال اخيه ابي زكريآء فخالف عليه الموحدون وابوا قتال اخيه فرجع لتونس واستقر بها ثم بعد ذلك تحرك ابو زكريآء الى تونس فملكها ووجه اخاه في البحر الى مدينة اشبيلية من بلاد الاندلس واستقر قدم المولى ابي زكريآء في الامارة *

الخبر عن خلافة امير المومنين يحيى

هو المولى ابو زكريآء يحيى بن المولى ابي محمد عبد الواحد بن ابي بكر بن المولى ابي حفص عمر الهنتاتي ولد بمراكش سنة تسع وتسعين وخمسمائة وبويع بالقيروان في رجب سنة خمس وعشرين وستمائة وجددت له البيعة يوم وصوله لتونس في الرابع والعشرين من رجب المذكور * وفي سنة اربع وثلثين بويع البيعة الثانية وذكر اسمه في الخطبة ولم يتسم بامير المومنين واقتصر على الامير وعرض له بعض الشعراء بقوله من قصيدة يحرضه فيها وهو قوله :

لاصل بالامير المومنين فانت بها احق العالمين

فزجره ولم يقبل وذلك في ايام الرشيد بن المامون بن يعقوب المنصور عند اضطراب المغرب فاستبد ابو زكرياء بافريقية * وفي سنة خمس وثلثين وستمائة وصلت اليه بيعة زيان بن مرد يشن صاحب شاطبة ورسوله ابو عبد الله محمد الابار وانشده قصيدته السينية الفريدة التي منها *

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

وفي سنة تسع وثلثين تحرك الى مدينة تلمسان ففتحها وكان معه من الجيش اربع وستون الف فارس * وفي سنة اربعين وصلت اليه بيعة سبتة وبيعة المرية * وفي سنة ثلث واربعين وصلت اليه بيعة اشبيلية والمرية وغرناطة ووصل وفدهم لتونس وقرئت بيعتهم على الناس وكان رحمة الله عليه من الصالحين والعلمآء العاملين ختم على الشيخ الرعيني السوسي كتاب المستصفا للغزالي وغيره من الكتب المفيدة وناظر في النحو على ابن عصفور وكان فقيها اديبا وكان معدودا في العلمآء والشعراء وكان مختصرا في لباسه ومركوبه وكان يلبس جبة الصوف وحرام الصوف * ونقل من ابن القصار ان المولى ابا زكرياء استدعى بعض وزرائه من باب الصرف بعد انفصال مجلسه والعادة عنده ان من استدعاه من ذلك المكان انما يستدعيه للعقوبة قال الوزير فلما استدعيت ادخل بي بابا بابا الى ان انتهيت الى باب قبة الخليفة فوجدته جالسا على كرسي من خشب وبيده ابرة وهو يرقع ثوبه فسلمت عليه فامرني بالجلوس واذا بخادم قد اتى بمآئدة مغطاة فلما رفع عن المآئدة فاذا بها طعام واحد ورغيف خبز غير نقي فاكل واكلت معه فلما فرغ قال لي انصرف بسلام فخرجت ووقعت عندي حيرة فاخبرت بذلك بعض اصدقآء لي فقال وما صنعت قلت لا شي الا اني لما دخلت عليه نظرني شزرا فقال لي دخلت عليه في ثيابك هذه قلت نعم قال لي من هنا اتى عليك تراه اخبرك ان كسوته المرقعة واكله الخشن من الطعام فان انت انتهيت عن فعلك ولباسك

الثياب الرفيعة والاّ لا تلومن الاّ نفسك * قلت رحم الله هذه الروح الزكية . وهو الذي بنى الجامع بالقصبة وبنى صومعته العجيبة وهي باقية الى يومنا هذا ولها شكل عجيب واسمه منقوش عليها وكانت قبل اليوم بارزة ينظر اليها المآر بها ويقرا ما هو مكتوب عليها وقد حيل بينها ببناء ستر اكثرها ولم يبق منها الاّ مقدار نصفها وانستر رونقها على الناظر وكان بناؤها سنة تسع وعشرين وستمائة وبنى مصلى العيدين * قلت هو الذي يقال له جامع السلطان من ناحية المركاض وكذلك بنى المدرسة التي بطرف سوق الشماعين * قلت سوق الشماعين يعمل فيه السباط في يومنا هذا وبنى سوق العطارين وحصن مدينة تونس وجمعت دولته من روساء العلماء والشعراء واهل الصلاح ما لم يجتمع لغيره وجمع بعدله وسياسته اموالا لا تحصى الاّ بالبيت والبيت عبارة عن الف الف وخلف سبعة عشر بيتا من المال ومن الكتب ستة وثلثين الف مجلد وفي سنة سبع واربعين تحرك الى الغرب فمات هناك ودفن بجامع بونة ونقل بعد الى قسطينة وكانت وفاته ءاخر جمادى الاخيرة وهو ابن تسع واربعين سنة ودولته اثنتان وعشرون سنة وترك من الاولاد الذكور اربعة وهم محمد المستنصر وابو اسحاق وابو بكر وابو حفص عمر * ويقال ان في هذه السنة توفي الملك الصالح ابن ايوب صاحب مصر وكان دينا عفيفا والملك المنصور بن رسول صاحب اليمن والامبرطور صاحب صقلية عظيم النصرانية والفنش الاحول عظيم النصرانية بالاندلس فكانوا يرون ان حذاق ملوك الدنيا ماتوا في سنة واحدة فسبحان من لا يزول ملكه *

الخبر عن خلافة الامير المولى ابي عبد الله محمد

هو ابن المولى ابي زكرياء بن المولى ابي محمد عبد الواحد بن ابي بكر بن المولى ابي حفص عمر بويع صبيحة الليلة التي توفي فيها والده يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الاخيرة سنة سبع واربعين وستمائة وعمره اثنتان وعشرون سنة امه ام ولد اسمها عطف وهي التي امرت ببناء

جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية * قـــلت المدرسة التوفيقية اندرست آثارها وكانت قبالة زاوية الشيخ الزليجي * وفي سنة ثمان واربعين نصبت المقصورة بجامع الموحدين وفيها بنيت السقاية التي شرقي جامع الزيتونة وفيها جعلت الشكلة لليهود وبولغ في مذلتهم * وفي سنة احدى وخمسين بنيت قبة الجلوس وبنيت الممشى الى راس الطابية * وفي سنة ثنتين وخمسين وصلت بيعة بني مرين من مدينة فاس ودعي له على منابرها * وفي سنة سبع وخمسين وصلت بيعة مكة بانشاء عبد الحق ابن سبعين وقرئت على الناس فعند ذلك تسمى باامير المومنين ولقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالامير فقط ونصب للقضاء في الاحكام الشرعية ابا عبد الله محمد بن ابراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز من اهل العلم والورع وكان المستنصر يقول - ما يسالني الله عن امور الامة بعد ان قدمت عليهم ابن الخباز * وفي عام ستة وستين اكمل المستنصر بناء الحناية التي كان يجري عليها الماء الى مدينة قرطاجنة في الزمن الاول فاصلح ما فسد منها واحياها واجرى عليها الماء من عيون زغوان وجعل قطعة من الماء الى سقاية جامع الزيتونة وباقي الماء الى جنة ابي فهر * قلت هي التي يعبر عنها في زماننا بالبطوم ولم يبق من ذلك الا الفسقية وبقيت خرائب والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين * وفي هذه السنة تحرك الى بني رياح ومسك جماعة من روسائهم وضربت اعناقهم وبعث الى تونس برءوسهم على الرماح * وفي سنة ثمان وستين وستمائة في ذي القعدة نازل الافرنسيس مدينة تونس بجموع وافرة فرسانا ورجالا وكانت بينهم وبين المسلمين حروب مات فيها خلق كثير من الفريقين ومدة اقامتهم اربعة اشهر وعشرة ايام * وفي عاشر المحرم سنة تسع وستين مات طاغيتهم قيل ان السلطان بعث اليه بسيف مسموم وقيل مات حتف انفه * وارســــل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان على الانصراف من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين

على ان يدفع لهم الف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة والهدنة خمسة عشر عاما فتم الصلح * وكان رحمه الله لم يخرج الى قتالهم وانما يمدهم بالجيوش وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل انه ذكر يوما بحضرة المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذي اسره هؤلاء واطلقوه يشير الى الاتراك الذين كانوا بين يديه وكان استخدم منهم جملة فبلغت هذه المقالة الفرنسيس فحقد لها وعزم على غزو تونس * ولما علم المستنصر بذلك طلب منه المهادنة فامتنع واغلظ للرسول وعزم على اخذ تونس فجعل الله هلاكه بها ومن غريب الاتفاق لما نزل تونس قال احد ادبائها الشعراء :

يا فرنسيس هذه اخت مصر فتهيا لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

فصدقت الاقدار قوله ومات بارض الحلقة وقبر بها وهذه الابيات يشير فيها بالتهيء الى ما سبق له بارض مصر سنة سبع واربعين وستمائة نزل على مدينة دمياط وملكها ومدة اقامته بها تسعة اشهر وذلك في زمن السلطان الكامل ابن ايوب فامكنه الله منه فاخذه وجماعة من قواميسه وحمل على جمل ووجهه الى خلف وطيف به وسجن في دار ابن لقمان ووكل به طواشي اسمه صبيح ففدا نفسه بقناطير من الذهب وحلف ان لا يطأ ارض المسلمين فلما رجع الى بلاده عزم على العودة الى الديار المصرية ونكث العهود بنفسه الخبيثة فلما علم به صاحب مصر كتب له رقعة من انشاء كمال الدين بن مطروح وبعثها مع رسوله وفيها قصيدة بليغة فلما ورد الرسول على الفرنسيس استجلسه فابى ان يجلس وانشده وهو قائم بين يديه *

قل للفرنسيس اذا جئته مقال صدق من مقول فصيح
اتيت مصر تبتغي ملكها تظن ان الدين باطل ريح

منها :

وقل لهم ان ازمعوا عودة لاخذ ثار او لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها … والقيد باق والطواشي صبيح

وهي طويلة ذكرها المقريزي وذكر ابن الشماع عدة ابيات منها والقصة في غير ما موضع مشهورة * فلما سمع المقالة ذلت نفسه على العودة الى مصر واراد ان ياخذ ثارة من تونس فدمره الله تعالى وكان نزوله على تونس سببا لاتلاف الاموال التي تركها المولى ابو زكرياء والتي جمعها ولده المستنصر ففرقت على الاجناد والوفود والاعراب وتوفي المستنصر بالله في الحادي عشر من ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة وعمره خمسون سنة فكانت خلافته ثمانية وعشرين عاما وخمسة اشهر واحد عشر يوما رحمة الله عليه وتولى بعده ولده المولى ابو زكرياء يحيى ولقب بالواثق وخلع فيما بعد *

الخبر عن خلافة الامير المولى ابي زكرياء يحيى الواثق

هو ابن المستنصر بالله امير المومنين ابن المولى امير المومنين ابي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر بن عمر بويع صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده * ولما ولي سرح المسجونين وامر برفع المظالم واحراق ازمة المودات وبالنظر في بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد واحسن الى الجند وكان غير ناهض باعباء الملك وغلب على امره ابن الغافقي وكان ابن الغافقي كثير الاعجاب مفرطا في التعسف والكبر مشتغلا بالبناء وءالات الملاهي واقتناء الاثاث ولا يحسن شيئا من سياسة الملك والرعية فادى ذلك الى فساد الملك فخرج عليه عمه ابو اسحاق ابراهيم وكان مقيما بالاندلس لما فر في زمن اخيه المستنصر خيفة على نفسه واقام بها زمانا وكان اخوه المستنصر يهادي صاحب الاندلس لامساك اخيه عنده فلما مات اخوه وتولى ولده ابو زكرياء ولم يكن له ولا لمن بين يديه معرفة بالامور جاز المولى ابو اسحاق الى المغرب وقصد افريقية فملكها واتى الى تونس في غرة ربيع الثاني وضايق على المولى ابي زكرياء فخلع نفسه لعمه وسلم له الامر فكانت مدة خلافته سنتين وثلثة اشهر وعشرين يوما وخرج من القصبة وسكن بدار الغوري بسوق الكتبيين الى ان مات

في صفر سنة تسع وسبعين بعد ما اعتقل ومات مسجونا رحمة الله عليه *

الخـــبر عن خلافة امير المومنين ابي اسحاق ابراهيم

هـــو ابن المولى ابي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن ابي حفص عمر بويع بتونس غرة ربيع الاخير سنة ثمان وسبعين وستمائة وكان ملكا شجاعا وفيه غلظة ويغيب عن مجلسه لانسه ودانت له افريقية * وفي سنة ثمانين وستمائة بعث ولده المولى عبد الواحد لجباية الوطن واخذ مال هوارة فلما بلغ القيروان بلغه ان مرغم بن صابر الرياحي معه قائم يدعي انه الفضل بن الواثق فكتب الى ابيه بذلك * وفي سنة احدى وثمانين عظم امر الدعي وملك قابس واحتوى على اكثر البلاد فاخرج الخليفة اليه جيشا من تونس امر عليه ولده ابا زكرياء فنزل القيروان ونزل الدعي قمودة فانسل غالب العسكر الى الدعي ولم يبق مع المولى زكرياء الا قليل فرجع الى تونس واخبر اباه فخرج ابوه الخليفة بنفسه في شوال من السنة المذكورة بجيش عظيم واخرج من الدروع والسيوف ما حمل على تسعين بغلا ونزل بالمحمدية فلم يغن شيء من ذلك وفر عنه اكثر عسكره الى الدعي ونهب جميع ما كان معه هنالك فرجع الى تونس واخرج نساءه واولاده ورحل الى المغرب * ولما وصل بجاية لقيه ولده ابو فارس وكان عاملا بها فخلع الخليفة نفسه لولده ابي فارس وتلقب بالمعتمد وتجهز للقاء الدعي وترك والده ببجاية والتقى المعتمد والدعي بوطاة قلعة سنان فخانت انصار المعتمد فاخذ وقتل ونهبت امواله * ولـــما سمع ابوه الخبر خرج هاربا فادركه اهل بجاية فاخذوه واتوا به الى الدعي فقتله في تاسع عشر ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين وستمائة فكانت دولته ثلثة اعوام وستة اشهر وستة وعشرين يوما ولجا ولده المولى ابو زكرياء الى بلاد المغرب والدعي هذا هو احمد بن مرزوق بن ابي عمارة المسيلي مولده بها ونشا ببجاية وكان محترفا بحرفة الخياطة خامل الذكر الا انه كان يتطور ويخالط السحرة ويزعم انه يحيل المعادن الى

الذهب بالصناعة وتغلب في البلاد الى ان وصل الى طرابلس وصحب نصيرا مولى الواثق ابن المستنصر فلما رءاه تبين له في شبه من مولاه فاخذ نصير يبكي ويقبل قدميه فقال له الدعي ما خبرك فقص عليه خبر مولاه فقال له صدقني وانا ءاخذ بثار مولاك فاقبل نصير على امرآء العرب واخبرهم بانه ابن مولاه فصدقوه واتوه ببيعتهم وزعم انه الفضل بن الواثق ابن المستنصر فكان من امره ان خطب له على منابر افريقية وكان سفاكا للدمآء خبيثا فاجرا كذابا ولم تكن له منقبة غير انه رفع النزول عن اهل تونس وبنى جامعا خارج باب البحر للخطبة * ولما تمادى في جوره وكذبه مقته الناس ومقته جنده وظهر المولى ابو حفص بن المولى ابي زكريآء وكان مختفيا في البادية والتف عليه الناس فجآء لتونس وحاصر الدعي وانكشف سره فايقن بالهلاك وفر بنفسه الى دار فران اندلسي قرب حمام زرقون فدلت عليه امراة فاحيط به وضرب اسواطا فاعترف بتدليسه ونسبه وشهد عليه الناس بحضور القاضي ثم طيف به على حمار ثم قطع راسه فكانت مدته بتونس سنة ونصفا غير ثلثة ايام وذلك اواخر ربيع الاخير سنة ثلث وثمانين وستمائة *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي حفص عمر

هو ابن المولى ابي زكريآء يحيى بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر بويع يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الاخير من السنة المذكورة وكان ملكا عاقلا كريما لم تحدث منه عقوبة لاحد وكان له اعتقاد في الصالحين وخصوصا في الشيخ الولي الصالح ابي محمد المرجاني ويعظم العلمآء والصلحآء ويبرهم ولم يزل على اكمل الحالات الى ءاخر عمره وايامه ايام عدل وامن ورخآء * ولما اصابه المرض الذي توفي منه عهد الى ولده عبد الله فلم ترضه اشياخ الموحدين لصغر سنه فاستشار ولي الله الشيخ المرجاني فاشار عليه بتولية ابي عبد الله محمد ابي عصيدة فقبل اشارة الشيخ وانفذ بعهده اليه وتوفي ءاخر ذي الحجة سنة اربع

وتسعين وستمائة فكانت خلافته احد عشر عاما وثمانية اشهر وله من العمر اثنتان وخمسون سنة وقام بالامر بعده المولى ابو عصيدة *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي عبد الله محمد ابي عصيدة

هو ابن المولى ابي زكرياء يحيى بن المستنصر بالله بن المولى ابي زكرياء بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر بويع ءاخر ذي الحجة سنة اربع وتسعين وستمائة وسبب تسميته بابي عصيدة لما قتل والده واخوته هربت احدى جواريه وقد اشتملت منه على حمل واتت رباط الشيخ المرجاني فوضعته هنالك وعق عنه الشيخ واطعم الفقراء عصيدة الحنطة وسماه محمدا وكناه بابي عصيدة فبقيت له ذمة مع الشيخ كانت ايامه ايام هدنة وعافية وسلم لا حرب غرست فيها الغراسات وبنيت الابراج وامتدت الامال كل ذلك ببركة الشيخ المرجاني وتلقب بالمستنصر بالله وكانت خلافته اربع عشرة سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ولازمه مرض الاستسقاء فمات منه في عاشر ربيع الاخير سنة تسع وسبعمائة ولم يخلف ابناء فاوصى الى ابي يحيى ابي بكر *

الخبر عن خلافة امير المومنين ابي يحيى ابي بكر الشهيد

هو ابن الامير عبد الرحمن بن الامير ابي بكر بن المولى ابي زكرياء يحيى ابن الخليفة المستنصر بالله بن المولى ابي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر بويع يوم وفاة المولى ابي عصيدة لانه كان تحت كفه فاقام ثمانية ايام وتحرك اليه المولى ابو البقاء خالد من بلد قسمطينة فخرج المولى ابو بكر بمحلته والتقى مع ابي البقاء خالد فانهزم جيشه ورجع هو هاربا الى القصبة ووقف بالسجنة وظن ان الاجناد تلحقه فلم يجتمع له أحد فوقف ساعة وانصرف فالحق وقبض عليه فقتل ولذلك سمي شهيدا فكانت مدته ستة عشر يوما *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي البقاء خالد

هو ابن المولى ابي زكرياء يحيى بن المولى ابي اسحاق ابراهيم

ابن المولى ابي زكرياء يحيى بن المستنصر بالله بن المولى ابي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر كان عاملا في بلد العناب وقسمطينة بعد وفاة والده ابي زكرياء وكان يضع تاج الملك على راسه ويركب بغلة عالية * ولما حل بتونس انعكف على لذاته ولهوه وترك سياسة الملك فقام عليه ابو يحيى زكرياء ابن اللحياني وقفل من المشرق * ولما حل بطرابلس ورأى اضطراب افريقية طلب الملك فبويع بطرابلس وانضم اليه اولاد ابي الليل فبعثهم في مقدمته مع شيخ دولته محمد المزدوري فوصل لتونس اول جمادى الاولى سنة احدى عشرة وسبعمائة فاجتمع القاضي ابن عبد الرفيع بالسلطان ابي البقاء خالد وحرضه على الدفاع عن سلطنته فكره اللقاء واعتذر بالمرض واشهد على نفسه بالانخلاع عن الامر فدخل ابو عبد الله المزدوري القصبة واخذ البيعة عن المولى خالد ومن معه من الاجناد وقتل بعد ذلك وبويع المولى ابو يحيى ابن اللحياني وكانت ولايته عامين وستة اشهر *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي يحيى ابن اللحياني

هو زكرياء ابن الامير ابي العباس احمد بن الشيخ ابي عبد الله محمد اللحياني ابن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر اخذ له البيعة شيخ دولته المزدوري واقبل هو بعد ذلك ثاني رجب من السنة المذكورة يعني سنة احدى عشرة ونزل المحمدية وجددت له البيعة هناك ودخل لراس الطابية وعرض الجند واسقط من لم يكن ثابتا وكانت له مشاركة في العلم والادب وقد طعن في السن وكبر وساس الامور وجربها وتحرك عليه المولى ابو يحيى ابو بكر من الثغور الغربية فعلم ان ليس له طاقة على لقائه واضطربت عليه البلاد فجمع الاموال والذخائر وباع كل ما في القصر والكتب التي جمعها ابو زكرياء بيعت في الوراقين وجمع نحو عشرين قنطارا من الذهب سوى الفضة والدر وغير ذلك وخرج الى قابس ثم الى طرابلس وكانت مدته الى ان بويع ولده ابو ضربة

ستة اعوام وثلثة اشهر ونصف وقام بعده المولى ابو ضربة وكان للامير ابو عبد الله محمد ابن اللحياني عرف بابي ضربة مسجونا عند قاضي الوقت لجناية فاطلق وتهيا للقاء المولى ابي بكر وكان حمزة بن عمر بن ابي الليل من بطانة ابن اللحياني واخوه مع ابي بكر فدس اليه ان يجفل بالعسكر فانخذل عسكر السلطان ابي بكر ورجع الى قسطينة ودخل ابو ضربة لتونس سنة سبع عشرة وسبعمائة في منتصف شعبان وبويع بالحضرة وتلقب بالمستنصر ولم تطل ايامه واعاد عليه الكرة المولى ابو بكر فهرب ابو ضربة الى المهدية وتحصن بها وبلغ خبره الى ابيه بطرابلس فبعث اساطيل الى المهدية فحمل ماله واهله وسافر الى مصر وذلك في ايام الملك محمد بن قلاوون فاكرمه وكانت مدة ابي ضربة ثمانية اشهر وثلثة ايام واستولى على تونس المولى ابو يحيى ابو بكر *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي يحيى ابي بكر

هو ابن المولى ابي زكرياء بن المولى ابي اسحاق ابراهيم بن المولى ابي زكرياء بن المولى ابي عبد الله محمد المستنصر بن المولى ابي زكرياء بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر بويع في الثامن عشر من ربيع الاول سنة عشر وسبعمائة وكان رحمه الله شجاعا جميل الصورة كامل القامة محبوبا عند الخاص والعام ولا يولي قاضيا حتى يشهد فيه بالخير وكان قاضيه ابن عبد السلام وقد تعرض له في بعض احكامه القائد ابن الحكيم فاغلق القاضي بابه وامتنع من الحكم فانتبه له السلطان وقال له نطالبك بين يدي الله ان توجه لاحد على ولدي حق وتركته وكان يحب الشرفاء ويكرمهم وكان جده ابو اسحاق انبتهم في زمام الموحدين * ولما تولى المولى ابو بكر حوزهم المرباع وملكهم اياها فاقتسموها بينهم وكانت له وقائع مع بني عبد المومن وسافر من تونس عدة مرات وهزم العرب وفك رقاب اشياخهم ودانت له البلاد وتلقب بالمتوكل على الله * وفي ايامه فتح قائده ابن الحكيم المهدية وكانت في طاعة اللحياني وولده

من بعده فتحت سنة تسع وثلثين * وفي سنة ثلث واربعين نزل العرب على تونس ولم يتخلف منهم احد واقاموا سبعة ايام ثم ارتحلوا وخرج السلطان في اثرهم وهزمهم هزيمة شنيعة على رقادة ورجع الى حضرته وحجب له ابن تافراجين وقبض على قائده محمد بن الحكيم وعذبه بالسياط واخذ جميع امواله * وقيل ان الذهب الذي اخذ منه وزنه خمسون قنطارا سوى الفضة والجوهر والياقوت ومائة وستين حبة من الربع وقتله بعد ذلك وكان بتونس في مدته ازيد من سبعمائة حانوت للعطارة وكان يصنع بتونس كل يوم اربعة ءالاف قفيز من القمح الفي تبل والفي تطحن والف تغربل والفي تعجن وزهت البلاد في ايامه وطالت ايامه الى سنة سبع واربعين فلدخل عليه هلال شهر رجب على عادة قضاة الحضرة وهو في رياضه بابي فهر فلما قراه قال — لا اله الّا الله دخل رجب — وكررها مرارا ثم قام وتطهر واخلص التوبة واخبر من معه انه يموت في رجب ثم ركب واخترق الاسواق ودخل القصبة ولم تظهر به زيادة ثم حك بكتفه فخرجت له حبة صغيرة اخذته منها الحمى ثم توفي ثاني يوم الشهر وكان عين ولده ابا العباس للخلافة وكان ببلاد الجريد وبقية اولاده في الاعمال ولم يبق بين يديه الّا ولده ابو حفص عمر فجلس بعده للخلافة *

الخبر عن خلافة امير المومنين المولى ابي حفص عمر

هو ابن المولى ابي يحيى ابي بكر بن المولى ابي زكرياء بن المولى ابي اسحاق ابراهيم بن المولى ابي زكرياء بن المولى ابي عبد الله محمد المستنصر بن المولى ابي زكرياء بن المولى عبد الواحد بن ابي بكر بن الشيخ ابي حفص عمر الهنتاتي بويع يوم موت والده ثاني رجب ولم يلتفت الى عهد ابيه لاخيه ابي العباس وذلك باشارة ابن تافراجين فلما بلغ الخبر لابي العباس حشد العرب وزحف الى الحضرة وخرج المولى عمر بعسكره الى لقائه مع اجناده والموحدين فلما التقى الجمعان نكص ابن تافراجين ورجع الى تونس واخذ ذخائره وفر الى المغرب وكر السلطان عمر الى

تونس وبعد هرب الى باجة ودخل ابو العباس البلد واقام بها سبعة ايام وبعد سبعة ايام رجع المولى عمر من باجة ودخل الحضرة عند الفجر فخرج ابو العباس هاربا على وجهه لا يدري اين يذهب وقامت العامة على من بها من العرب فلم يفلت إلّا القليل منهم وابو حفص عمر زاد خطبة سابعة في جامع سيدي يحيى السليماني وكان يقال من علامة خراب تونس سبع خطب تكون بها * قلت اليوم بها ثلث عشرة خطبة والعلم عند الله * واقام المولى عمر الى ان تحرك عليه ابو الحسن المريني فهرب من تونس فادركه طلب المريني عند قابس فقتل هنالك وكانت ايامه بتونس عشرة اشهر وثلثة عشر يوما ومات سنة ثمان واربعين وسبعمائة وانتقل الامر الى بني مرين *

الخبر عن خلافة الامير ابي الحسن المريني

هو علي بن الامير ابي سعيد عثمان بن الامير ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ونذكر نبذة من نسبهم لزيادة الفائدة . بنو مرين فخذ من زناتة والنسابون مختلفون في نسبهم ولكن يجتمع نسبهم في قيس غيلان وتناكحوا في البربر * وكانت قبائل البربر يجاورون العرب في مساكنهم وتفرقوا في زمن داوود عليه السلام لما قتل ملكهم جالوت فتفرقوا ايدي سبا واتوا المغرب * فمنهم من سكن الجبال . ومنهم من سكن المهاد . ومنهم من تم على حاله ولازم البراري على عادة العرب * وبنو مرين كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب افريقية وينتقلون من مكان الى مكان وجل اموالهم الابل والخيل وطعامهم اللحم والتمر ودخلوا بلاد المغرب سنة عشر وستمائة مثل ما دخلت لمتونة فوجدوا البلاد خالية وملوك الموحدين اختلفت ءاراؤهم فشنوا الغارات وقطعوا الطريق فبعث اليهم المنتصر من بني عبد المومن جيشا فهزموه واخذوا ما فيه واستفحل امرهم وهابهم الناس ولا زال امر بني مرين ينمو الى ان ملكوا بلاد المغرب والاندلس وكان ملكهم بمدينة تلمسان واول من تملك منهم الامير ابو محمد عبد الحق بن خالد بن يحيى بن ابي

بكر بن جانة بن محمد الزناتي المريني ويحيى بن خالد شهد غزوة الارك مع يعقوب المنصور واستشهد هنالك وعبد الحق كان من اهل الصلاح والخير يسرد الصوم كثير الذكر والتسبيح ولا ياكل الا الحلال من لحوم ابله وغنمه وقدمته مرين على تدبيرها وساعده القدر وتوارث الملك من بعده بنوه الاربع — ابو سعيد عثمان — وابو معروف محمد بن عبد الحق — وابو بكر بن عبد الحق — ويعقوب بن عبد الحق * ويعقوب هذا دخل الاندلس نحو عشر مرات ونكا المشركين وفعل بهم العجآئب وجاهد في الله حق جهاده وله في ذلك اخبار عجيبة اختصرناها خوف الاطالة وكانوا سلاطين المغرب وتسموا بامراء المسلمين كما كانت لمتونة وقرضوا دولة بني عبد المومن من المغرب وخطبوا لبني حفص في اول الامر ثم استقلوا بالملك الى ان اخذ الملك منهم الشرفآء وملكوا مدينة فاس ومراكش ولم يبق منهم احد في يومنا هذا * ولنرجع الى خبر ابي الحسن وتملكه البلاد الافريقية والسبب فيه ان ابن تافراجين لما فر الى المغرب وفد على ابي الحسن المريني واستحثه على ملك افريقية فتحرك من المغرب واجتمعت عليه الاعراب واخذ بجاية وقسطينة وانزل عماله فيهما وملك افريقية ومحا رسوم الموحدين ودخل تونس بجيوش لا تحصى وشرع في بنآء مدينة فوق سيجوم سماها المنصورة لسكنى جيشه فان المدينة لم تسعهم * وقيل بايعه بتونس خمسون سلطانا في يوم واحد من بني عبد الواحد والاندلس وغيرهما * ولما تملك البلاد منع العرب من اعطياتهم ومنعهم الاقطاعات فغضبوا عليه وشنوا الغارات في جميع البلاد فخرج اليهم والتقى معهم قرب القيروان فانخذل عسكره وفر هو الى القيروان هاربا فاخذوا محلته بما فيها وحاصروه بالقيروان ومعه ابن تافراجين وذلك سنة تسع واربعين وكانت العرب تميل الى ابن تافراجين فطلبوه من السلطان ليتفقوا معه على الصلح فلما خرج اليهم قلدوه حجابة سلطانهم المسمى بابي دبوس واسمه احمد بن عثمان بن ابي دبوس من بني عبد المومن كان مستترا في بلد توزر فدلهم

عليه ابن عرفة فنصبوه للخلافة وتوجه ابو دبوس وابن تافراجين لتونس وحاصروا قصبتها ورموا عليها بالمجانيق من ربض العلم سعد وكان بالقصبة ولاد السلطان وماله ورجاله * وفي اثناء ذلك داخل السلطان ابو الحسن بعض العرب من اولاد مهلهل ان يفرجوا عنه من الحصار على مال اشترطوه عليه فوفى لهم به واسروا به الى سوسة وركب منها في البحر وقدم الى تونس * ولمـــــا سمع ابن تافراجين ركب البحر وفر الى الاسكندرية في ربيع سنة تسع واربعين فلما فقده اصحابه تشتت جمعهم ورحلوا عن تونس فخرج اولياء السلطان من القصبة وملكوا تونس واقبل السلطان ابو الحسن في ربيع الاخير من السنة المذكورة وانتقضت عليه افريقية واشتد الغلاء حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير * قـــلت لا حول ولا قوة الا بالله كيف عد اهل تونس هذا القدر عندهم غلاء ولو شاهدوا ما عايناه لعدوه من الخصب لانا شاهدناه اضعاف ذلك * وكثر الوباء حتى انتهى عدد الاموات الف شخص كل يوم وفيه مات القاضي ابن عبد السلام والفقيه العابد سيدي يحيى السليماني وتحرك المولى ابو العباس لاخذ تونس * وفي اثناء ذلك بلغ السلطان ابا الحسن المريني ان ابنه ابا عنان استقل بملك المغرب لانه سمع بوفاته بالقيروان وقت حصاره بها وشهد له بذلك جماعة فاقام نفسه في سلطنة المغرب * ولما سمع به حيا بعث لجميع عماله ان يصدوا اباه عند توجهه وخرج ابو الحسن من تونس وركب البحر وتوجه للمغرب وخلف بتونس ولده الفضل الى ان ازعجه منها ابو العباس الحفصي فالحق بالمغرب وخبره اكثر من هذا تركناه للاختصار * وكانت مدة السلطان ابي الحسن بافريقية الى ان خرج عنها ولده الفضل ءاخر ذي القعدة سنة خمسين وسبعمائة عامين وستة اشهر وخمسة عشر يوما ورجع ملك افريقية الى بني حفص وملكها المولى ابو العباس *

الخـــبر عن خلافة الامير المولى ابي العباس الفضل

هـــو ابن المولى ابي يحيى ابي بكر بن المولى ابي زكرياء بن ابراهيم

ابن ابي زكرياء يحيى بن محمد المستنصر بن ابي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر الهنتاتي بويع اول ذي الحجة سنة خمسين وسبعمائة * ولما ملك تونس ركن الى الراحة واللهو واحتوت العرب على دولته وكان صاحبه احمد بن عتوا قد شاركته العرب في الديوان ورحبة الطعام والماشية واخذوا البرطيل على تولية الشهود وزوج ابو العباس الفضل اخته لابي الليل بن حمزة رجآء ان يطول ملكه ولم يسبقه احد لذلك ويابى الله الّا ما يريد * ورجع الحاجب ابن تافراجين من المشرق هو والشيخ عمر بن حمزة فاتفق ابن حمزة مع اخوته على ادخال ابن تافراجين لتونس * وبعثوا الى ابي العباس الفضل فقال لا سبيل الى ادخاله فبعثوا اليه صل الينا نتحدث معك فخرج مع جماعة له فقبضوا عليه وعلى اصحابه الذين معه وجردوا واخذت دوابهم ودخل ابن تافراجين لتونس واخرج المولى ابا اسحاق ابراهيم واجلسه مجلس الخلافة وقتل المولى ابو العباس ءاخر جمادى الاولى سنة احدى وخمسين وسبعمائة فكانت مدته خمسة اشهر واربعة عشر يوما *

الخبر عن خلافة الامير ابي اسحاق ابراهيم المستنصر

هو ابن المولى ابي يحيى ابي بكر بن عبد الرحمن بن ابي يحيى زكرياء بن محمد المستنصر بن ابي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر بن ابي حفص عمر جلس مجلس الخلافة بعد اخيه * واستوزر ابن تافراجين فقام بتدبير دولته وعلت همة ابن تافراجين الى ان سلم عليه بسلام الملوك واستخلص قواعد البلد من ايدي العرب وهي بلاد قرطاجنة والقيروان وسوسة وباجة وتبرسق والاربس وجعلها بايدي خدامه واستبد بالجبايي الداخلة والخارجة وشرع في بنآء السور الذي يحيط بارباض تونس وحبس عليه نصف خراج الارض ونصف كرآء المعاصر التي بداخله لاصلاح ما يختل منه * وفي سنة خمس وخمسين اخذ السلطان ابو عنان المريني بجاية من ايدي الموحدين * وفي سنة ست وخمسين

اخذت النصارى طرابلس وحلوا ما فيها وسكنوها خمسة اشهر * وفي سنة ثمان وخمسين اخذ السلطان ابو عنان قسمطينة وفي آخر شعبان وصل اسطول ابي عنان لتونس فطاردهم ابن تافراجين وهزمهم ثم وصل الخبر بان محلة ابي عنان واصلة ففر ابن تافراجين الى المهدية فدخل اهل الاسطول وملكوا تونس وكتبت البيعة لابي عنان وهو بقسمطينة وخطب له بافريقية ما عدا المهدية وسوسة وتوزر وبقي الامر على هذا شهرين * ولما اراد ابو عنان التوجه لتونس خالف عليه جيشه فرجع الى المغرب فقامت نفرة في عسكره الذي بتونس فالجوا الى اجفانهم وتركوا ما كان معهم ورجع ابن تافراجين من المهدية وجددت البيعة لابي اسحاق فدخل الحضرة في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة * وفي سنة ستين اخذت النصارى الحمامات * وفي شوال سنة احدى وستين توجه السلطان ابو اسحاق ابراهيم وفك بجاية من ايدي المرينيين * وفي سنة ست وستين قرئ صداق المولى ابي اسحاق على ابنة ابن تافراجين بخط ابن مرزوق قراه علامة الوجود الشيخ ابن عرفة * وعدد الصداق اثنا عشر الف دينار وثلاثون خادما وتوفي ابن تافراجين عقب ذلك * وفي رجب سنة سبع وستين جدد الكتابة التي بالازورد في قبة جامع الزيتونة * وفي سنة سبعين وسبعمائة توفي المولى ابو اسحاق في الثاني عشر لرجب فجاة فكانت مدته ثمانية عشر عاما واحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما ونصب ولده من بعده وهو صبي لم يناهز الحلم *

الخبر عن خلافة الامير ابي البقاء خالد بن المستنصر

هو ابن المولى ابي اسحاق ابراهيم بن ابي يحيى ابي بكر بن ابي زكرياء يحيى ابن المولى ابراهيم بن ابي زكرياء يحيى بن المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر جلس بعد موت ابيه وحجب له احمد البالقي * فلم يترك احد للامير خالد شيئا فانتهب اموال الناس واهان الاشراف فعظم على الناس ذلك واختل

الامر فالتحق منصور بن حمزة بالمولى ابي العباس وحثه على ملك افريقية وكان بقسمطينة فنهض ابو العباس الى تونس وتلقته وجوه افريقية بالطاعة وانتهى الى الحضرة وحاصرها اياما ففر الامير خالد واصحابه من باب الجزيرة وانطلق الجند في اتباعهم فقبض على الامير خالد واعتقل ثم وجه به وباخيه في البحر فعصفت بهما الريح فغرقا وكانت مدته بتونس سنة وتسعة اشهر *

الخبر عن خلافة الامير ابي العباس احمد بن المستنصر

هو ابن الامير ابي عبد الله محمد بن ابي يحيى ابي بكر بن ابي زكرياء يحيى بن المولى ابراهيم بن المولى يحيى بن المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر بن ابي حفص عمر بويع بتونس ثاني عشر ربيع الاخير سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة * وكان رحمه الله شجاعا دينا عاقلا صفوحا جال في بلاد المغرب ووصل مع السلطان ابي سالم المريني لتلمسان وزار الشيخ ابا مدين وعاهد الله عنده ان لا يكافي من عمل معه سوءا إلّا بخير * ولما ملك افريقية رفع انواع الفساد وكفح العرب على التغلب وانتزع ما بايديهم من الامصار وانمي اليه ان محمد ابن تافراجين داخل العرب في الفساد فقبض عليه واعتقله بقسمطينة الى ان مات بها ثم لم يزل يحاول امر العرب الى ان قطع دابرهم وافتتح بلاد قفصة واخذ شيوخها بني العابد واستولى على اموالهم وفتح توزر واحتوى على ذخائر شيخها ابن يملول * ومن حسنات المولى ابي العباس احمد اقامة القراءة في الاسبوع بالمقصورة غربي جامع الزيتونة واوقف على ذلك وقفا مويدا والسقاية التي ببطحاء الشيخ سيدي محرز نفع الله به داخل باب قرطاجنة واوقف عليها اوقافا جليلة وانشاءه البرج الذي هو شرقي قرطاجنة للاحتراس ورفع التصيف عن قراها عند خروج السلطان لذلك المكان وبناءه دلوه الكبير بزنقة ابن عبد السلام قبالة باب البحور جوفي الجامع الاعظم ليصوم به رمضان كل سنة واخباره اكثر من هذا ذكرها ابن الشماع واطال في مدحه وحق له

ذلك * قلت هذا الملك هو ممدوح العلامة بدر الدين ابن الدماميني رحم الله تعالى الجميع مدحه بقصيدة بديعية اتى فيها بجميع انواع البديع ولا بدع ان طلع بدر التمام من ذلك الجناب الرفيع وبعث بها من ثغر الاسكندرية الى الحضرة العلية ولكن ما استوفى له حق من حقوق السالكين لهذه الطريقة واجازه بجائزة اذا ذكرت بين اهلها قالوا هذه مجاز لا حقيقة * وذكر الزركشي مولاهم في شرحه لهذه القصيدة ونشر در معانيها وان كانت هي الدرة الفريدة ان الممدوح ارسل لمادحها عدد ابياتها دنانير فاحتقرها ابن الدماميني فقال له الرسول ان مولانا جعل هذا القدر جائزة لك في كل سنة * وهذا من ظرف الرسول انظر ايها المتامل الى كساد سوق الادب ونفاذه في الصدر الاول في ايام بني العباس حيث اثابوا عن المدح بالف درهم على البيت الواحد ومروان بن ابي حفصة ممن اخذ هذا القدر في ايام الرشيد وهلم جرا الامر من بعده ولكن بعض الشر اهون من بعض والآن نحن اليوم في زمان لو مدح اهله بنظم الدر لم يجزه احد بالخزف * وهذه القصيدة مدح بها لما افتتح مدينة قابس وذلك انها خرجت في الزمن السابق عن ملوك صنهاجة واستقل بها بنو جامع من الهلاليين الى ان اخذها الموحدون من بني عبد المومن ثم ثار بها قراقش الارمني الملقب بشرف الدولة مملوك الملك المظفر صاحب مصر وكان بينه وبين الميورقي صاحب المهدية مهادنة واستخلصها ملوك بني حفص في اول الدولة ثم عصت على امير المومنين ابي العباس احمد فافتتحها بعد حصار وجهود واشار الدماميني الى فتحها بقوله في قصيدتـــه :

ومن نوره ابدا السناء لقابس فلاح لها نور على الحق يسفر

وفي ايامه اقبل عبد الله الترجمان وكان قسيسا من اقسة النصارى فاسلم على يديه وهو صاحب كتاب تحفة الاريب في الرد على اهل الصليب ذكره في هذا الكتاب واثنى عليه خيرا * وفي ايامه جاءت الجنويون

والفرانسيس في ثمانين قطعة ونازلوا المهدية واقاموا عليها نحو شهرين ، وبعث اليها ابو العباس جيشا فكانت بينهما وقعات وارتحلوا منها خائبين وتوفي رحمه الله ثالث شعبان سنة ست وتسعين وسبعمائة وسنه سبع وستون سنة ومدة ولايته بتونس اربع وعشرون سنة واربعة اشهر رحمة الله عليه * وهو الذي شيد رسوم بني حفص بعد اندراسها واقام منار بني حفص في الخلافة ودعم اساسها وكملت في ايام ولده السعيد ابي فارس ودرس عمر الاعراب وعمر المدارس *

الخبر عن خلافة الامير ابي فارس عبد العزيز

هو ابن المولى ابي العباس احمد بن ابي عبد الله محمد بن ابي يحيى ابي بكر بن ابي زكرياء يحيى بن ابراهيم بن ابي زكرياء بن المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر الهنتاتي رحمه الله بويع رابع شعبان بعد وفاة والده واقام بالامر اتم قيام ورتب الاحوال واعطى الاموال واصلح البلاد وقمع اهل الفساد وكان شجاعا حازما تقيا معتقدا في الصالحين موقرا للعلماء كثير الصدقات فطنا ذكيا فصيحا محبا للخير واهله * فمن فضائله عموم صلاته لاهل الحرمين وعلماء المشرق يبعثه لهم بذلك صحبة الركب الحجازي على الدوام ووظف لاهل الاندلس في كل عام من الطعام وغيره اعانة لهم على جهاد عدو الدين * ومن حسناته خزانة الكتب المشتملة على امهات الدواوين وجعل لها مقصورة بمجنبة الهلال من الجامع الاعظم واوقفها على طلبة العلم ينتفعون بالنظر والكتب بشرط ان لا يخرج منها شيء من محله وجعل لها قومة يقومون بها في نفعها ومناولتها للطلبة وردها لمكانها ووقت لها وقتا محدودا في كل يوم وكان ملازما لقراءة العلم بين يديه سفرا وحضرا * وقال في تحفة الاريب وابطل امكاسا كانت بتونس منها سوق الرهادنة وكان مجباه ثلثة ءالاف دينار * ومجبا رحبة الطعام خمسة ءالاف دينار * ورحبة الماشية عشرة ءالاف * وفندق الزيتون خمسة ءالاف * وفندق الخضرة

ثلاثة آلاف * والعطارين مائة وخمسين دينارا * وفندق الادام خمسين دينارا * وفندق الفحم الف دينار * وفندق الملح الف وخمسمائة * ومجبا الاعمدة الف دينار * ودار الشغل ثلثة آلاف دينار * وسوق القشاشين مائتي دينار * والصفارين مائتي دينار * وابطل القيان ونفى المخنثين من البلد * واقام العدل في جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصف المظلوم من الظالم * وجاءت الوفود من المشرق والمغرب * وغزا صقلية وغنم فيها مغنما كثيرا * وغزا طرابلس وقابس والحامة وقفصة وتوزر ونفطة وبسكرة وقسمطينة وبجاية والصحراء * وكانت العرب غالبة على من قبله فاهانهم والزمهم الزكاة والعشر * وقال صاحب القرطاس في اخبار ملوك فاس انه ارسل هدية الى ابي يعقوب المريني وهو بفاس والناصر بن قلاوون بعث لابي فارس بهدية حافلة في تلك السنة * هذا لعظيم ذكره في ذلك الوقت * وفي ايامه عظم شان المولد الشريف * قلت رحم الله هذه الروح الزكية لمثل هذا يقال امير المومنين * لا لمن استغلبت على دولته البغاة من المفسدين * ورايت ابن حجة الحموي ذكر في كتاب قهوة الانشاء له رسالة طنانة من انشائه جوابا عن مكاتبة للسلطان المويد واثنى عليه في تلك الرسالة بما يستحقه * وقال ابن الشماع وافتتح مدينة تلمسان ووصل الى قريب مدينة فاس * وقال الشيخ الرصاع رايته في حدود الثلثين والثمانمائة ببلد تلمسان * وكان قاضي عسكره ابو عبد الله محمد الشماع ومفتي عسكره ابو عبد الله محمد الحسن * وقرا البيعة القاضي المذكور بجامع تلمسان * وحضر لقراءتها علماء الوقت منهم ابن مرزوق وابو القاسم العقباني وابن الامام وابن النجار وجماعة من العلماء * ونقلت من خط السيد بركات الشريف رحمة الله عليه قال غزا ابو فارس مدينة فاس لما شكا اهلها اليه بظلم احمد المريني فغزاه فخرجت اخت المريني الى ابي فارس فقالت له انك ميت وانهم ميتون فعفا عنه واعاده الى بلده وامره بالعدل * قال ابن الشماع وفي سنة خمس وثلثين وثمانمائة نزلت النصارى بجزيرة جربة وكان السلطان

ببلد الجريد فتلافاها الى ان رحلوا عنها خائبين * ومن حسناته قطعه القبالة التي كانت خارج باب البحر وبنى مكانها زاوية للصلاة وللعلم * قال الترجمان وكان فندقا للمعاصي والخمر يجباه عشرة آلاف دينار * وكان ولده ابو عبد الله محمد ولي عهده موصوفا بالخير والعفاف والديانة وهو الذي انشا الزاوية التي بسجوم وجعل فيها جامعا للخطبة ورباطا لطلبة العلم وسماطا للمقيمين والواردين * وتوفي سنة ثلث وثلثين ودفن بتربة بقرب من دار الولي الشيخ سيدي محرز نفع الله به وهو ابو الخلفاء من بعد ابيه * وتوفي المرحوم ابو فارس عام سبع وثلثين وثمانمائة فجاة بعد ما تطهر ولبس ثيابه * ودفن حيث دفن ولده فكانت مدة خلافته احدا واربعين عاما واربعة اشهر وسبعة ايام * قلت ما اطلت الكلام في هذا المحل الّا لكون هذا الامام هو واسطة بني ابي حفص * واذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر في خلافتهم النقص * والله تعالى يكافيه ويجازيه باعماله الفاخرة * وكما رفع ذكره وقدره في الدنيا يرفعه في درجات عليين في الاخرة * انه سميع مجيب *

الخبر عن خلافة الامير ابي عبد الله المنتصر

هو محمد ابن المولى ابي عبد الله محمد بن امير المومنين ابي فارس عبد العزيز وتمام نسبه معروف بويع يوم عيد الاضحى صبيحة الليلة التي توفي جده فيها ودخل الحضرة يوم عاشوراء سنة ثمان وثلثين وثمانمائة وكان شجاعا كريما عفيفا * ولما ولي اخرج مالا تصدق به على اهل المدارس وذوي الحاجات والارامل والايتام ووجه بمال الى جزيرة الاندلس تصدق به على المجاهدين * وامر ببناء زاوية الشيخ سيدي احمد بن عروس وبنى سقاية الماء بداخل باب ابي سعدون واوقف عليها ما يكفيها * وشرع في بناء مدرسة ضخمة بالقرب من سوق الفلقة بتونس المحروسة لقراءة العلم * وسافر بمحلة كبيرة فاجفل الاعراب بين يديه فوصل لبلد قفصة فابتداه مرضه الذي مات به فرجع لتونس ولازمه المرض الى ان توفي

ليلة الجمعة الثانية والعشرين من صفرسنة تسع وثلثين وثمانمائة فكانت مدته عاما واحدا وشهرين واحد عشر يوما ودفن بتربة ءابائه رحم الله الجميع *

.. الخبر عن خلافة الامير ابي عمرو عثمان

هو ابن المولى ابي عبد الله محمد ابن المولى ابي فارس عبد العزيز بويع صبيحة اليوم الذي توفي اخوه فيه ولم يتخلف عنه احد * وكان رحمه الله من اجل ملوك بني ابي حفص وهو ختامهم طالت مدته وفعل خيرات يكتب ثوابها في صحيفته * فمــــن مآثره رحمة الله عليه بناء مدرسة في غاية الحسن بزنقة الشيخ الولي الصالح العابد سيدي محرز بن خلف وجعل فيها مسجدا للصلاة ودرسا لقراءة العلم ومأوى لسكنى الطلبة وجعـل فيها سماطا مستمرا يتصدق به كل يوم على المحتاجين وجعل فيها ماء للسبيل واوقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها والقومة * قلـت اما المدرسة فبقيتها موجودة واما خيراتها فلم يبق منها شيء وبنى زاوية بعين الزيت وجعل فيها جامعا للصلاة ودرسا لقراءة العلم ورباطا للقاطنين وسماطا قويا على ممر الايام للمقيمين بها والوافدين واوقف عليها وقفا كافيا ولم يبق منه شيء ايضا * ومن حسناته اخراجه لخزانة الكتب بالمقصورة الشرقية من الجامع الاعظم مشتملة على امهات الدواوين وجعل لها قومة واوقف عليها وقفا كافيا موبدا * قلت والكتب ايضا لم يبق منها شيء وبعض الوقف باق لكن لغير مستحقيه واما الكتب فقد تلاشت لما ملك عدو الدين البلاد وسياتي خبرها ان شاء الله تعالى * وبنى ثلثة مكاتب لقراءة القرءان واحد قبلي الجامع الاعظم واثنان بربض باب المنارة والميضاة للوضوء بدرب ابن عبد السلام في غاية الاتقان جوفي الجامع الاعظم بتونس واوقف عليها وقفا كافيا * قلت وهي الى يومنا هذا بها بقية وان طال الامر تلاشت ايضا * ومنها تكملته للمدرسة التي ابتدا بناءها شقيقه رحمهما الله تعالى التي بسوق الفلقة على اكمل بناء واتقنه واوقف عليها وقفا كافيا فعمرت عمارة قوية * قلـت اما المدرسة فموجودة واما الوقف

فقد اندرس وادركنا قبل اليوم بها طلبة مقيمين ولهم ما يسد رمقهم من العيش ثم تلاشى الامر وتداركها في حدود التسعين والالف من زعم انه يستغنم ثوابها واراد ان يحيي رسومها بعد خرابها فاصلح ما فسد منها واوقف عليها وقفا لمدرس بها وعدة طلبة فاحتوى عليها من ينتمي الى الفقر فعطل مجاريها وتحصل من الوزر ما يقصم منه الظهر وءاثارها موجودة ومحاسنها ظاهرة وصاحب التدريس اليوم بها شيخنا ابو عبد الله عرفة فسح الله في مدته * وكان المولى ابو عمرو عثمان يكرم اهل البيت النبوي ويحسن اليهم ويكرم الضيف ويلازم السفر في كل عام لقمع اهل الفساد والنفاق من الاعراب * وهنا انتهى ابن الشماع وزاد الزركشي نبذة ولبابات بها مختصرة كما اختصرنا ابن الشماع * وذلك لوجوه منها الاختصار ومنها خيفة ان تذهب ديباجة كتابه * ومنهـا اخذنا منه الزبدة وتركنا الزباد والله المستعان * قال الزركشي وخرج بمحلة عظيمة في اثر العرب ومسك اكابرهم مثل نصر الذوادي ومحمد بن سعيد واسماعيل بن صرار ومهلهل اربعة من الاشياخ بعد ان احتال عليهم حتى دخلوا المحلة فاعطى الف دينار لكل شيخ وباتوا عند القواد فاصبحوا مصفدين وكفاه الله شرهم * قلت هولاء العرب اذاهم بالطبع مثل العقرب ولو قطع ذنبها لا يبطل لدغها والى زماننا نحن منهم على وجل نسال الله ان يحسم هذه المادة بمنه * واشار الشيخ الرصاع في فهرسته الى هذه الواقعة قال تجمعت اولاد ابي الليل من شيوخ افريقية وحاصروا الحضرة واعلنوا بالنفاق فخرج اليهم سلطان الوقت ابو عمرو عثمان فنصره الله تعالى عليهم * وكان الامام العلامة سيدي ابو القاسم البرزلي يدعو عليهم بدعوات مبتكرة غير مستعملة فاستجاب الله دعاءه فاخذوا واخذت اموالهم وديارهم ونصر الله عليهم الملك وذلك ببركة دعاء الشيخ * اه * وقـــــال الزركشي وفي سنة اربع وخمسين وقيل اثنين وخمسين كان عرس ولي العهد الامير الاجل ابي عبد الله محمد المسعود وكان عرسا حفيلا ما رئي بتونس مثله * قلـــت هذا المولى الاجل لم يات في بني ابي حفص مثله من عفاف وديانة وبر وامانة وهو ابو الخلفاء الاخرين

لم يل احد إلّا من ولده * ومـــات في حياة والده وهو ممدوح الشيخ ابن الخلوف وكفاه تلك الحلل التي طرزها بمدحه في حياته وهي باقية تنشر بعد موته وله مآثر عديدة منها الختمة التي كتبها بيده في عدة اسفار واوقف عليها ربعا للاستغلال يقيم القاري بها ويقرا فيها كل يوم بعد صلاة الظهر نصف حزب او ربعه بحسب الايام وجعلها على التوابيت بازاء الربعة التي بها البخاري من حبس والده بالجامع الاعظم بتونس * وله اخبار شهيرة بافعال البر اضربنا عنها خوف الاطالة * وفي ســنة ثلث وسبعين عظم الوباء بتونس قيل انه بلغ عدد الموتى به الى اربعة عشر الفا في كل يوم وحصر في الزمام اربعمائة الف عدا من لم يدخل في الزمام نحو المائة الف * وفي سنة خمس وسبعين كملت السانية المسماة بالمنصورة قرب برج الصخراء جوفي جبل الفتح وفيه سانح مسجد الصخراء وقطعة من الجبل حتى وصلت جارته للبحر * وفي جمادى سنة خمس وتسعين توفي ولي العهد المولى ابو عبد الله محمد المسعود ودفن بمقبرة اجداده جوار ولي الله الشيخ سيدي محرز وكان هذا المرحوم انجب بني ابي حفص غفر الله له * ومن حسنات ابي عمرو عثمان الختمة الكبيرة المرسلة له هدية من البلاد الاندلسية لم ير الراؤون احسن منها خطا وتزويقا بالذهب وغير ذلك مما يوله العقل واوقف على قارئين يقرؤون بها قبل صلاة الصبح وقبل صلاة الظهر وقبل صلاة العصر الف دينار سنوية وجعل لها غلافا مرصعا وهي الموضوعة قبالة التوابيت * وبالجملة هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الافريقية وطالت ايامه في الملك عن من كان قبله الى ان وافاه حمامه وبلغ اجله منتهاه * وتوفي رحمة الله عليه ءاخر شهر رمضان سنة ثلث وتسعين وثمانمائة وقام بالامر حفيده *

الخبر عن خلافة الامير ابي زكرياء يحيى

ـــــو ابن المولى عبد الله محمد المسعود ابن المولى ابي عمرو عثمان بويع يوم وفاة جده وخرج الى المحلة على حسب العادة فهربت جماعة من الجند

واخبروا ان المحلة اخذتها الاعراب وان السلطان مات ومن بعد جيئ براسه فوضع على رمح وطيف به واستبد بالملك ابن عمه ابو محمد عبد المومن ابن الامير ابي اسحاق ابراهيم ابن امير المومنين ابي عمرو عثمان وبويع في رجب من السنة المذكورة * وفي ذي الحجة منها جيئ بجثة الامير يحيى ودفنت عند سيدي احمد السقا وكل ذلك مفتعل * ثم بعد ذلك افتضح الامر وظهر ان السلطان بالحياة وبعد خبر يطول دخل السلطان ابو زكرياء يحيى وفر عبد المومن واستقل ابو زكرياء بملكه وبعد ايام جيئ براس عبد المومن وطيف به كما طيف براس الخليفة يحيى وكفى الله المومنين القتال ورجع الى حضرته بتونس وبويع بيعة ثانية ووقع الحلم منه على الناس وجاءته بيعة بلد العناب وقابس وصفاقس ودانت له البلاد وتم في ملكه الى سنة تسع وتسعين وكان فيه وباء عظيم مات به خلق كثيرون ومات به السلطان ابو زكرياء في التاسع من شعبان فكانت مدة ملكه ست سنين الا شهرا وعشرة ايام *

الخبر عن خلافة الامير المولى ابي عبد الله محمد

هو ابن المولى ابي محمد الحسن ابن الامير ابي عبد الله محمد المسعود ابن امير المومنين ابي عمرو عثمان بويع يوم وفاة ابن عمه ابي زكرياء يحيى وجلس بالقبة وبايعه الخاص والعام وكان فطنا ذكيا فصيحا محبا للخير واهله معتقدا في الصالحين وهو الذي بنى المقصورة بطرف صحن الجامع الاعظم بتونس من الجهة الشرقية مما يلي الجوفي شارفة على سوق العطارين وسوق الطيبيين وجعل فيها كتبا مفيدة وجعل لها قومة يقومون بها ووقت للانتفاع بها وقتا محدودا عند اذان الظهر وبعد صلاة العصر واوقف عليها وقفا كافيا وجعل سقاية باسفل منها مما يلي الشرقي حيث كانت سقاية المولى المستنصر بالله وجعل النظر لامام الجامع الاعظم وكان الامام اذ ذاك العالم العلامة ابو البركات ابن عصفور سامح الله الجميع واثابهم على حسن الصنيع * وفي ايامه توفي الشيخ ابو القاسم الجليزي

اول صفر سنة اثنين وتسعمائة ودفن بزاويته داخل باب خالد من تونس وحضر السلطان جنازته * وفي سنة اربع وتسعمائة في جمادى توفي الولي سيدي منصور بن جردان وخرجت روحه وراسه في حجر امام الجامع ابن عصفور بالمنصورة الشرقية من الجامع وكان عمر الشيخ ابن جردان خمسة وثمانين عاما وحمله الامام الى موضع سكناه بزنقة ابن عبد السلام فغسله وكفنه وخرجت جنازته من هنالك ودفن بزاويته بحوانيت الفار نفعنا الله ببركاته * وفي ايام السلطان محمد كانت وقائع بينه وبين العرب وهزموه على القيروان ورجع لتونس في ثمانمائة من الخيل * وفي ايامه خرجت بلاد كثيرة عن حكمه وهو الذي ملك الجزائر للقائد عروج التركي وكان بها برج للنصارى ضيق عليها فملكها عروج واخذ البرج * وبعد السنة الرابعة التي كانت فيها الواقعة على اهل تونس كما سياتي وتمكن الانبراطور من تونس ارسل اليها عمارة لاخذها وكان بها حسن اغة نائبا من خير الدين باشا وبها شيخ شريف واراد حسن اغة ان يهرب فمنعه الشريف واتى امر الله فكسرت العمارة بالريح فصارت لهم غنيمة وهو سبب قوة الجزائر كذا نقلت من خط السيد الشريف بركات رحمه الله ومن خطه ايضا ان السلطان محمدا بعث محمدا الغربي رسولا الى سلطان مصر وهو الملك الغوري وذلك في اول دولة السلطان محمد وارسل له الغوري هدية وفيها الزرافة قال وكان الغربي شاخ بباب السويقة فخافه محمد فقتله غدرا * وقال اخذت طرابلس من يد محمد سنة اربع عشرة وتسعمائة قام بها ابن قراب وملكها للنصارى وبعث لهم جيشا مقدمه القائد محمد ابو حداد وكان من اكبر قواده فبارزه قبطان النصارى فاخذه ابو حداد بالجملة وساقه اسيرا وابو حداد هذا كان قائد توزر * والسلطان محمد هذا كان ختام بني ابي حفص ومن بعده اسم لا رسم وتوفي رحمه الله يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الاخير سنة اثنين وثلثين وتسعمائة وتولى بعده ولده الحسن *

الخبر عن خلافة الامير ابي محمد الحسن

هو ابن محمد بن الحسن بن المسعود ابن المولى ابي عمرو عثمان بويع يوم وفاة والده يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وثلثين وتسعمائة * ولما تولى رفع المكوسات كلها واجرى على الناس العادة العثمانية وسار سيرة حسنة في اول الامر * وهنا انتهى النقل الذي قيده الزركشي ولم اطلع على ما سواه الا ما تلقيته من اهل المحاضرة ولهذا نأتي به جملا لا تفصيلا ولم اقيد نفسي لتاريخ الوقائع لقلة الضبط ولم اجد من له اهتمام بهذا الامر فاقول وبالله المستعان - سمعت من يذكر من اهل تونس ان السلطان الحسن ساءت سيرته في الناس واضطربت عليه البلاد وخرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليبي * وقام عليه بالقيروان الشيخ عرفة وكان من مرابطي القيروان من ذرية الشيخ سيدي نعمون وهو جد الشابيين قام على السلطان الحسن وبايع لرجل من لمتونة اسمه يحيى اوقفه في السلطنة وادعى انه حفصي جاء من المغرب وتم له الامر وهو في الحقيقة اسم لا رسم والشيخ عرفة ينفذ الامور * وفر بعد ذلك يحيى من القيروان ودخل تونس في ايام السلطان احمد وهو متنكر فظفر به في المركاض فقطع راسه وطيف به * ولما مات الشيخ عرفة صاحب القيروان قام بالامر بعده ابن اخيه واسمه محمد بن ابي الطيب ولم يزل يحارب السلطان احمد الى ان اخذ القيروان من يده درغوث باشا بارسال اهل القيروان الى درغوث وهو بمدينة طرابلس * فسلموا له البلاد لما جاءهم وانحرفوا عن ابن ابي الطيب وذلك لقبح سيرته في الناس وكان يحارب السلطان احمد مدة حياته وبينهما عدة وقائع * ولما اخذها درغوث في مدة السلطان احمد الحفصي اخذ ابن ابي الطيب وعلق وفرت اشياعهم من القيروان وسكنوا البادية وهم الذين يقال لهم الشابيون * لان اصلهم من الشابة والصبية وهي بلدة قبالة المهدية عند مكان يقال له قبودية * والعرب الذين يقال لهم دريد هم

تلاميذ للشابية وهم طوائف كثيرة لا يستحقون الى تعريف في زماننا * والشيخ عبد الصمد الذي ادركناه ممن خرج من القيروان عند انزعاجهم وهو اذ ذاك دون الاربعين يوما ولم اطلع على اسم ابيه والغالب على ظني انه ابن محمد بن ابي الطيب واستحكم في دريد فيما بعد وشاخ عليهم وله اخبار ليس هذا موضعها وقام بعده ولده علي وكنيته ابو زغاية ثم ابنه ابو زيان * وفي ايام ابي زيان خرجت اكثر رعاياه عن طاعته ودخلوا في طاعة الترك وعند خروجهم من القيروان دخلها الاتراك واقاموا بها * وكان دخولهم على يد رجل من خدام الشابيين يقال له الغالي وهو الذي تسبب في مجيء الترك لاجل واقعة يطول شرحها * اه * ولنرجع الى خبر السلطان الحسن * وفي ايامه كانت قسنطينة في ايدي الترك وانما كان ولده احمد نائبا ببلد العناب * وفي ايامه تغلبت الاعراب على جل البلاد * وكانت الشوكة في اولاد سعيد لانهم استقلوا بالبلاد بعد اولاد مدافع والشرخ لما انقرضوا فعاث اولاد سعيد في البلاد وهادنهم السلطان الحسن بستين الف دينار على الوطن * وفي ايامه جاءت عمارة من بر الترك لاخذ تونس ارسلها ابراهيم باشا وكان وزيرا للسلطان سليمان بن السلطان سليم فاتح مصر . وكان ابراهيم باشا ضرب الدينار باسمه وهو اول وزير تولى الوزارة من اولاد السراية واهلكه الادلال والاعجاب بنفسه ومات سنة احدى واربعين وتسعمائة وكان مخادعا لسلطانه فارسل خير الدين الى تونس من غير اذن سلطانه فنازل تونس واخذها وفر عنها الحسن ودخل خير الدين الى تونس واستقل بقصبتها ولم اقف على صحة خبر كم كانت مدته الا انه كان قبل الاربعين والتسعمائة والصحيح عندي والله اعلم انها كانت سنة خمس وثلثين او ست وثلثين * وقام اهل باب السويقة على خير الدين وكانت بينهم مقتلة عظيمة مات فيها خلق كثير من الفريقين * وكانت من باب القصبة الى باب البنات على حومة العلوج وفشا القتل في الناس وانجز القتال * وبعث خير الدين بالامان

وانعكف الفريقان . وخير الدين هذا هو الذي نفى العالم مغوشا لخوفه منه لما ملك تونس ومغوش هذا كان في دولة الحسن وجيها فخرج الى المشرق وحج ودخل الى الديار الرومية والتقى مع العلامة الشيخ المفتي بتلك البلاد علامة وقته ابي السعود افندي رحمه الله * وظهرت فضائل العالم مغوش هنالك وطارح علماء القسطنطينية واعترفوا له بالفضل وترقى في ذلك العصر الى ان ام بالملك السلطان سليمان خان وكل ذلك من بركة العلم وبركة الشيخ سيدي منصور بن جردان نفع الله به * ولـــــما تمكن خير الدين بتونس جاءت عمارة من بلاد النصارى استنجد بها الحسن من قبل الانبراطور فيها مائة الف مقاتل * قـــــلت الانبراطور في ذلك الزمان هو صاحب اسبانية دمره الله وانما تسمى بهذا الاسم لما تحكم على اكثر بلاد الاندلس فشمخ بانفه وتسمى بالانبراطور ولم يكن هذا الاسم لاحد من اجداده والانبراطور من اسماء ملوك الالمان لان ملكهم قديم والانبراطور عندهم كالخليفة عند المسلمين وانما نبهت على هذا لئلا يظن انه الانبراطور المعهود * ولـــــما نزلت النصارى قابلتهم الاتراك ومن انحاز اليهم من المسلمين وعددهم ثمانية عشر الفا والتقى الجمعان بحربة الكلخ شرقي تونس وخير الدين معهم وانتشب القتال بينهم وكانت مقتلة عظيمة * وظهرت شجاعة خير الدين في ذلك النهار وكادت ان تكون له على النصارى الا والخبر اتاه ان القصبة اخذت وان الاعلاج الذين بها فتحوا الباب ففر خير الدين من وقته ومن معه الى المغرب * واعترضته العرب عند تبرسق فكانت بينهم حروب شديدة وتخلص منهم الى ان وصل بلد العناب وركب البحر في عشرين غرابا وسياتي بقية خبره ان شاء الله تعالى * ولـــــما دخل الحسن الى قصبته واطمانت الناس وقعد كل صانع في صناعته واهل الربع فتحوا ربعهم واطمانوا في اماكنهم دهمهم عدو الدين فهجمت النصارى عليهم على حين غفلة في قائلة والاسواق مفتوحة فاخذوا ما فيها من الامتعة وقتلوا اهلها وسبوا خلقا كثيرا وفر الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب

وراحوا الى ناحية زغوان * فبعث عظيم النصارى الى العرب وجعل لهم جعلا على كل مسلم اتوا به اليه فخرجت العربان في طلبهم واخرجوهم من كل شعب وواد واتوا بهم الى النصارى فكان طلب العرب لهم اصعب من طلب النصارى واخذوا ما شرطوا لهم والبعض فدى نفسه من العرب وبلغت فدية الرجل الف دينار واكثر واقل ومن لم يفد نفسه من كافر العرب تملكه الكافر الآخر وكان هذا الخطب جسيما * وهذه الواقعة هي المعبر عنها بخطرة الاربعاء وكان السلطان الحسن اباح البلد للنصارى ثلثة ايام * والى هذه الواقعة اشار العالم ابن سلامة في قصيدته التي يتشوق فيها الى تونس ويندب اطلالها * ويذكر ايامها الرافلة في حلل الدعة كيف تغيرت وتبدلت احوالها * ولله سر في تقلبات الزمان * كل يوم هو في شان * وقيل في هذه الواقعة اسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث * وسمعت من شيوخ البلد من يقول عدد كل ثلث ستون الفا والله اعلم بحقيقة ذلك وكانت هذه الواقعة سنة احدى واربعين وتسعمائة * واما خير الدين فانه فر من بلد العناب في عشرين غرابا ورجع الى بر الترك فعثر على سفينة وفيها رسول من عند ابراهيم باشا فاخذه خير الدين ورجع به الى السلطان سليمان وكان مع الرسول دلائل الخديعة التي لابراهيم باشا فعفا عن خير الدين وقتل ابراهيم باشا بيده * ولما تفرغ الانبراطور من تونس بعد نهبها طالبته نفسه باخذ الجزائر فبعث اليها عمارة فكان من امرها ما تقدم ذكره ومن ذلك الوقت لم يضع تاجا على راسه ولا احد من ذريته الى يومنا هذا وذلك انه لما سمع بفساد عمارته على الجزائر رمى بتاجه الى الارض واقسم لا يضعه على راسه إلّا بعد اخذه الجزائر ولم جرا الامر في عقبه زادهم الله خيبة * وعند استقرار الحسن بتونس تراجع بعض اهل البلد بعد التشتت والنهب وحب الوطن الى اهله من الايمان * واستقضى السلطان الحسن بعد هذه الواقعة الشيخ سالم الهواري وكانت فيه رحمة للناس في تامينهم على املاكهم وسار فيهم سيرة مشكورة

اثابه الله على صنعه * والشيخ سالم عند اهل تونس يقولون كانت له صبوة ايام صباه واقلع من ذلك واقول وانا استغفر الله معاذ الله ان يكون من اهل ما ينسبونه اليه فان اهل الحضرة من العلمآء في ذلك العصر كانوا اهل دين وعفاف فكيف يقدمون من كانت فيه تلك الخصال الغير المرضية اللهم الّا ان يكون بدت منه ايام الشباب واقلع بعد او هذا من اقوال المبغضين والعلمآء لحومهم مسمومة والله اعلم بذلك * وبعد سنة الاربعاء جمع الحسن عربانا وجمع جموعا وخرج الى القيروان لقصد افتكاكها من يد الشبيبين فلما قرب منها ونزل باطن القرن خرجت اليه اهل القيروان فكبسوه ليلا فانهزم هو ومن معه واخذت امواله ورجع مكسورا . فاقسم لا يرجع عنها بحال وعزم على اخذها بالنصارى كما اخذ تونس فخرج بنفسه الى بلاد النصارى لياتي بعمارة مثل الاولى ويابى الله الّا ما يريد . وكان غرض الحسن اباحة القيروان كما اباح تونس فقابله الله على صنعه وخبث نيته . وكان ابنه احمد عاملا في بلد العناب فلما شعر بفعل ابيه وما عزم عليه خاف من اتلاف الحضرة فتلافاها واقبل الى تونس خفية وتكلم مع بطانته وجماعة من اهل اريانة وعمدته الشيخ عمر الجبالي الذي شاخ بباب الجزيرة واولاده من بعده شاخوا بالربض المذكور وكان الشيخ عمر ممن قوي قلبه يوم دخوله القصبة فدخلها على حين غفلة * ولما وصل قبالة القصبة عند المكان الذي فيه سكنى المرحوم محمد باشا وبه يعرف في عصرنا هذا جبنت نفس احمد عن الاقدام الى باب القصبة فوكزه الشيخ عمر بين كتفيه وقال له تقدم فتقويت نفسه ودخل القصبة فلم يتعرض له احد واتصل الخبر بالناس فهرعوا اليه وبايعوه * فقال لهم - انما فعلت هذا لاني انفت لما حل بكم في السابق وخفت عليكم مما ياتي - فشكروه ودعوا له وسار في الناس سيرة حسنة نفرت بها نفوس اهل البلد عن ابيه الحسن وبعث من يتعصب للحسن الى النصارى الذين بحلق الوادي واعلموهم بالخبر فبعثوا فرقاطة في اثر الحسن اخبرته بما وقع

من اخذ ولده احمد القصبة واستقلاله بالامر فعظم ذلك عليه وبذل اموالا كثيرة واتى بعمارة عظيمة وجمع كثير * ولما وصل الحسن بالنصارى هبطوا الى البر فسمع السلطان احمد واهل البلد ووقعت هوجة عظيمة وخاف اهل المدينة ان يصابوا مثل المرة الاولى فنفروا خفافا وثقالا بنية الجهاد * والمدافعة عن الاموال والاولاد * ونادى منادي احمد — من اتى باسير او راس قتيل فله مائة دينار — وجلس عند باب القصبة وجعل الدنانير في قراطيس من الكاغد وحرض الناس على الجهاد فخرج اهل الربضين بلا سلطان معهم والتقوا بالنصارى والحسن وكانت المصاف من خربة الكلخ الى سانية العناب * وكان يومئذ الشيخ سيدي علي المحجوب ممن حضر الواقعة فوقف عند كدية الفيران واخذ قبضة من تراب وسكها في يده وقرا حزب البحر للشيخ الشاذلي نفع الله به الجميع وعند تمام قراءته رمى بها نحو الكفرة وقال — شاهت الوجوه ثلثا — واصطف الفريقان ولم يكن بينهما قتال والناس ينظر بعضهم بعضا الا وعلم اخضر طلع من المدينة واقبل من بين شط البحيرة وبين نوايل سيدي سفيان ومعه مائتا رجل لا غير واميرهم المعلم عمر فلما رءاه الناس تقوت نفوسهم فتقدم الشيخ عمر ومن معه وتقدم الناس والتقى الجمعان واشتد القتال ساعة من النهار * فانزل الله النصر على المسلمين . وصدقوا في قتالهم لاعداء الدين فانهزم حزب الشيطان — وكان حقا علينا نصر المومنين — وثبت اهل دين الاسلام وخذل الله الكافرين . فقتلوا قتلا ذريعا لم يقتل بتونس مثله * وسمعت من اهل الحضرة من يقول كان السلطان احمد ذلك اليوم يعطي كل من اتاه براس من الكفرة مائة دينار وكثرت الرؤوس حتى صار يعطي العشرة الدنانير واقل واكثر الى ان اعطى دينارا * وحضر ذلك اليوم الشيخ سيدي عبد الله بن داود نفع الله به فجاهد في الله حق جهاده حتى يبست يده على قائم سيفه والدم منعقد عليها جزاه الله خيرا * وفر الحسن الى شكلة ودخل في الماء راجلا بلا فرس وهابه الناس لكونه مرلي اوبر فدخل ابو الهول فاخرجه وهو

ملوث بالغرم فكسي برنسا وجيء به الى ولده احمد فوبخه على فعله حتى قال له ــ خالفت سماك الحسن ــ وسجنه . وكانت واقعة مذكورة عند اهل تونس بردت بها حراة كبودهم مما وقع لهم قبل ذلك . واستغاث العوام بالسلطان احمد وقالوا لا يكون ملكان في مدينة وكثر هرج الناس فاستشار احمد اصحابه في سجنه او قتله فاشار عليه ابن ابي حمزة بسمل عينيه فسملت عيناه * ولما نفذ امر الله فيه اخذ نفسه بزيارة الصالحين ويطلب في ذلك الاذن من ولده فياذن له ولا زال يتنقل من ولي الى ءاخر حتى استاذنه في زيارة الشيخ سيدي ابي القاسم الجليزي فقال له ولده احمد ــ لعلك تريد ان تلحق بصهرك ابي سلامة القليعي ــ فقال له الحسن ــ وما عسى ان يكون مني وانا على هذه الحالة ــ فاذن له فكان الامر كما قال احمد . فانه لما خرج الى مقام الشيخ الجليزي نفع الله به اتاه القليعي بالليل وهرب به الى القيروان * واقام بزاوية الشيخ الجديدي برهة من الزمان وكانت عجائز القيروان يجالسنه ويبتن معه وانا ادركت بعض من ادرك بعض العجائز اللاتي جالسنه وحادثنه * وسمعت من الحاكي انه قال دخل عليه اولاد الشيخ عرفة صاحب القيروان في بعض الايام وانوه يربط وهو عود الملهاة وقالوا له ــ نريد ان تسمعنا من غنائك بالعود ــ والزموه ذلك استخفافا به فاخذه وجسه بيده وقد كبر عليه اقدامهم بما لا يليق بمثله فانشدهم البيت الشهير بين الناس :

وكنا اسودا والرجال تهابنا   اتانا زمان فيه نخشى الارانبا

والقى العود من يده وجهش بالبكاء في وجوههم فخرجوا من بين يديه لا يدري احد اين يضع قدمه فسبحان المعز وسبحان المذل * وكان في خبري انه مات بالقيروان لانه مقبور هناك حتى وقفت على ورقة بخط الشيخ بركات الشريف يذكر فيها ان السلطان الحسن هرب الى بلاد النصارى وهو اعمى واتى بعمارة لاخذ المهدية فمات في البحر فانزل الى البر ورفعوه الى القيروان فدفن بها والله اعلم بحقائق الامور . ويمكن ان يكون فر من القيروان

بعد ما اقام بها وهذا هو الاصح لان اقامته بالقيروان معروفة بين الناس *

الخبر عن خلافة الامير المولى ابي العباس احمد

هو ابن المولى ابي محمد الحسن ابن المولى ابي عبد الله محمد ابن المولى ابي محمد الحسن بن ابي عبد الله المسعود ابن الامام ابي عمرو عثمان وبقية النسب معروفة تغلب على ملك ابيه في حياته كما تقدم ذكره * وقـــــيل ان السلطان الحسن لما فعل بتونس ما ذكرناه واستحكم اعداء الدين بحلق الوادي وصارت لهم صولة وشاركوه في احكامه واستوزر الحسن محمد بن عبد الملك السليطين وكانت مدته نحو الاربعين يوما كان المشارك له في الحكم النصراني جوان بن جاكمو * وكان من اهل العقد والحل مع نصارى حلق الوادي وكان معه ثلثمائة رجل من النصارى وهو كبيرهم وكانوا يلبسون المبطن والبرنيطة وسكناهم في الربض الذي خلف القصبة * واول من اسكن النصارى بذلك الربض السلطان عثمان لانهم اخواله * واشتدت شوكتهم في ايام ابن عبد الملك . وجوان هذا هو الذي قتل عبد الكريم بن هلال ضربه على راسه بفاس في علو الخليفة الحسن واشرف من العلو على اصحابه فقال لهم اقتلوا بقية بني هلال فقتلوا يومئذ ثلثة عشر رجلا . ووجدت قبورهم مبنية وسببه ان جدهم علي تعلم النجامة على رجل رباه فاخبره بان بنيه يموتون في يوم واحد ولا يجدون مدفنا فجعل لاكثر من ثلثة عشر قبرا فلما قتلوا الحدوا بها . ومشى محمد بن حذيفة اليماني الى ابيهم ابراهيم بن هلال في ذلك اليوم واوعده هو وبقية بنيه ان لم يتوبوا قتلوا بالحديد وهربوا بعد ذلك الى قسطينة وهي اذ ذاك بيد الترك فاكرموهم ورجعوا بعد ذلك على يد القائد ابراهيم الشيخ * وقد التقى مع علي بن حذيفة بن هلال وقال له تتوب قال نعم . وبنو هلال من خدام ابي فارس وهم اهل رياسة * ولمـــــا تزايد تسلط النصارى استبدوا بالاحكام حتى ان ابن عبد الملك لما مات قام ولده مقامه وجوان المذكور ناظر عليه لا يخالفه احد من ذلك وذهب الى الشيخ صالح فمدده بالمال ورافقه

في ذهابه محمد العصادي وابو حمزة والبرادعي وعصام بن جميع وجماعة واخذ البلد كما ذكرنا قبل والله اعلم • واول من راسل ملوك الترك السلطان احمد بن الحسن بعث اولا محمد القصبي في ايام حسن بن خير الدين وجاء معه الى الجزائر لاحضانه اليه . وبعث بعده محمد الريش وبعد ذلك بعث ابا الطيب تاج الخصار للباشا علي وهو بمدينة طرابلس ووذى معه الباشا علي الى الجزائر ووقعت الفتنة بينهما اي بين الباشا علي وابي الطيب وبعثه مرة اخرى الى القسطنطينية وهي الاخيرة * ولما تمكن من الملك لم يجد في خزائن اجداده شيئا لانها اتلفها ابوه في ايامه وعاثت اولاد سعيد في البلاد كعادتهم الخبيثة وشنوا الغارة الى ان وصلوا للجبل الاخضر وساقوا بعض مواشي السلطان فخرج اليهم بنفسه فادركهم في سيجوم وطعن بعضهم • وكان شجاعا مقداما وفيه فروسية حتى قيل انه لم يضع رجله في ركاب عند ركوبه * ولما استوسق له الامر اركب ثلثة ءالاف فارس وسماهم زمازمية وكانوا قبله يسمون موحدية واخرج فتوى من علماء الحضرة بقتال اولاد سعيد فبدد شملهم واهانهم * قلت تقدم في خبر جده عثمان ان الشيخ ابا القاسم البرزلي رحمه الله كان يدعو على اولاد سعيد عند خروج السلطان الى قتالهم كما ذكره الشيخ الرصاع * وسمعت من يقول انه افتى بقتلهم ايضا وبقتال غيرهم من المحاربين من عرب افريقية ولا فرق الّا ان هذه الطائفة الملعونة اشد نفاقا من غيرهم * وابن ناجي افتى بتحريم مبايعتهم ءالات الحرب حتى الانمقة والرواحي التي يلبسها الافريقيون من العرب لا فرق بين هولاء وهولاء الّا ان السعيديين اقوى ضررا من غيرهم لانهم على ممر الايام لا ينسون فسادهم ولا ينتهون من فعلهم الخبيث • وكان المولى ابو عمرو عثمان ممن اذلهم ومزق جمعهم وافلهم واخذ عليهم ان لا يصلوا الى نواحي الوطن وسكناهم من وادران الى القبلة لا يتعدونه • وانما حدث منهم هذا الحادث في ايام السلطان الحسن الى ايام السلطان احمد هذا زاد طغيانهم

فسلطه الله عليهم * وكان السلطان المذكور محبا في العدل واقامة الشرع لا يتعدا احكامه في رعيته ومن طلب معه الشرع اجابه اليه والمتعصبون عليه ينسبونه الى غير هذا والله اعلم * وسمعت من اهل الحضرة من يقول كان يزور الشيخ سيدي ابي القاسم الجليزي وله اعتقاد فيه * وكان المذكور يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم في نومه كل ليلة جمعة فلما جيء بالسلطان احمد ميتا ودفن بزاوية الشيخ الجليزي المذكور قصر من زيارته فامتنع من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فلا زال يبتهل بالدعاء الى الله ويستغيث الى ان يسر الله عليه فرءا فيما يرى النائم النبي صلى الله عليه وسلم فقال – يا رسول الله ما حجبك عني – فقال له صلى الله عليه وسلم – لم لا تزور الشيخ الجليزي – فقال – يا رسول الله لاجل الظالم الذي دفن بازائه – فقال له صلى الله عليه وسلم – انه كان يذب عن شريعتي فزرهما معا فلو لم تكن له الا هذه المنقبة لكفته سامحه الله تعالى * وكانت بينه وبين درغوث باشا صحبة اكيدة ، ولما كان درغوث باشا محاربا لجربة ارسل له السلطان احمد المونة وذلك ان جربة عصت عليه لظلم منه وملكها النصارى ستة اشهر وافتكت على يد الباشا علي ارسله درغوث ، والباشا علي هذا هو الذي مشى اليه ابو الطيب الحصار وعدل معه الى الجزائر * وفي ايام السلطان احمد كانت دولة الجناويين لانه اتخذ سودانا وجعلهم جيشا له لما كان يتوقع من تمليك البلاد لقوم لغتهم غير العربية فجعل اقوانا من السودان ورفع منزلتهم تفاولا بذلك لكي يكونوا هم الموعود بهم لما اخبره منجموه ومن يدعي الجفر وكان للسلطان احمد اهتمام بهذا العلم * وكذلك ما اخبر به من اهل هذه الصناعة ان الحكم ينتقل منه الى رجل اسمه علي من غير جنس العرب وذهاب ملكه على يديه فاقام مملوكا له من الاعلاج وسماه علي واجلسه في مجلسه وفوض له الامر * والقدر يجري بخلاف ذلك * وكانت له فتكات في العرب اذانهم وبدد جمعهم غير ما مرة * وفي اثال حلق الوادي له عدة وقائع

منها انه عزم على السفر الى افريقية على عادته وسار كانه غاز ومعه الف فارس واردف خلف كل فارس رجلا وسار الى ان بلغ ماطر ورجع من هنالك على غير طريقه الاولى الى ان اتى الى ناحية المعلقة فكمن هنالك * وبعث خيل الدالة وامرهم بالغارة على حلق الوادي والنصارى مطمئنون من جانبه لان جواسيسهم وهم المهجرصون اخبرتهم بان السلطان خرج عن البلد فلما انذروا بخيل الدالة خرجوا من البرج في طلب الخيل وانهزموا امامهم فاتبعوهم الى ان وصلوا الى قرب المحصرة * فلما علم احد بعدهم جال نحو البرج ودهم الذي به على حين غفلة ووقف على بابه واندهلت النصارى من غلق الباب وامتنع هو من اخذه ورجع ولو اراد اخذه لتمكن منه لما هو سابق في الغيب لان القوم كانوا يرون ان البرج المذكور يحول بينهم وبين عدوهم المتوقعون له * ولما رجع السلطان من خلفه حال بين الاعلاج الذين خرجوا ثائرين وبين البرج فقتل منهم خلقا عظيما * وكان اهل حلق الوادي ياخذون من اهل تونس الرمية من الصوف والجير لبناء برجهم فان اعطوهم ذلك وقعت الهدنة وان لم يعطوا يضيقون عليهم برا وبحرا وتصبح بطائحهم في البحيرة ويرمون بالمدافع وفي البر يغيرون هم ومن معهم من المهجرصين فيقاسي من ذلك اهل تونس اكبر التعب * وان عزم اهل تونس او السلطان على غزوهم انذرهم المهجرصون وهذا دابهم معهم * وكان اهل تونس في شدة مع العدو في كل حين ولهذا كانوا يدربون اولادهم بلعب الحجر دائما ليتطروا بملاقاة العدو ولم يزالوا يقاسون من الكفرة الشدائد الى ان من الله عليهم بهذه السلطنة الخاقانية ابقاها الله لمجاهدة الكفرة حسمت عن اهل تونس تلك الارجاس والله رءوف بالناس وسياتي بعد ان شاء الله تعالى * واخبار السلطان احمد يطول شرحها وفيما ذكرناه كفاية ودامت ايامه وانتشرت بالعدل احكامه الى ان نفذ فيه امر الله لا راد لقضائه * وقيل ان ابا الطيب كان يتوقع منه القبض عليه * وهذا هو الموجب لانحرافه

عليه وانه دخل عليه في بعض الايام فوجده في شغل من الفكرة فحدثه بما يسليه فقال له السلطان - يا ابا الطيب لو جاءني علي من المغرب في مدد يسير ما كنت الشاة وهذا دائه واني لفي حيرة من ذلك - فحدثه ابو الطيب بما شرح صدره واذهب عنه فكره فكان هذا هو الباعث لابي الطيب الى ان كاتب الباشا علي وهو بمدينة الجزائر وحرضه على القدوم لتونس وكانت بين السلطان احمد والباشا علي ضغائن في النفوس من وقت استخدامه بمدينة طرابلس * ولهذا السبب ارسل اليه ابا الطيب فيما تقدم لاتصلاح الحال * ولما بلغت مكاتبة ابي الطيب لعلي باشا تقوى عزمه وخرج بمحلة عظيمة . واجتمع اليه من عمراوة وقوفة وسويد نحو من سبعة ءالاف واقبل بهم * ولما سمع احمد بمجيء اهل الجزائر خرج ليصدهم عن الوطن والتقى معهم على بلد باجة * وكان مع السلطان احمد خيله الزمازمية . واخذ معه من الرجالة الفا وستمائة والتقى بهم فلم يغنوا عنه شيئا . واخذت محلته وانهزم احمد بمن معه . وجاءت الترك الى وادي مجردة فوجدوه زائدا فمنعهم من العبور فارسل الباشا علي الى بنزرت فجاءته الالواح والقناطر وجعلها جسرا على الوادي وقطع العسكر والتقى مع السلطان احمد مرة ثانية قرب سيدي علي الحطاب فكسر ثانيا وقيل وقع الحرب ثالث كرة عند سيدي عبد الوهاب ولم تكن للسلطان احمد قوة فدخل الى الحضرة وقد ايس من الملك وراى المؤانسة لعدوه من عسكره وفر عنه غالب الناس وخرج في بعض الليالي الى ربض باب السويقة وقصد دار الشيخ سيدي علي المني نفع الله به وهو اذ ذاك بقيد الحياة * فلما جلس في صدر البيت ولم يكن الشيخ حاضرا الا والشيخ قد اقبل ووضع يديه على عارضتي الباب وقال يا احمد فاجابه بنعم فاستفتح الشيخ وقال - قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء - الى تمام الاية فعلم السلطان ان الامر مدبر فخرج وهو ايس من الملك فرجع الى قصبته وجمع ذخائره وامواله وبعض اهله ومن تبعه

وخرج تحت الليل فتبعه العرب والبعض من اهل البلد فدافع عن نفسه ونهب الكثير من ماله وسار على طريق رادس ولم يبق معه إلّا نفر قليل وعرج في طريقه الى ناحية البريجة وقطع في حلق الوادي ولم يكن البحر غامرا تلك الجهة كما هو في زماننا وانما طغى المآء بعد . ولما وصل الى الحصار قرع الباب ففطن به العسس فاخبروا كبيرهم فاشرف عليه من فوق فعرفه احد بنفسه ففتح له الباب فدخل واطمانت نفسه * ولما خرج من المدينة لم يكن لاهل المدينة قبل بمدافعة الاتراك ففتحوا الابواب ودخل الباشا علي * ودخل العسكر معه واصبح جالسا في القصبة وذلك في سنة سبع وسبعين وقيل ثمان وسبعين وتسعمائة ونادى المنادي في الناس بالامان وطلع اليه اهل البلد واخذ منهم البيعة لسلطانه ومن غد اجتمعت جماعة من جند السلطان احمد من الزمازمية الذين رجعوا عنه ومن بقي منهم واتفقوا على الرحيل من البلد فقال قائلهم — لابد لنا من الوقوف بين ايدي الترك — فساروا باجمعهم الى باب القصبة وتكلموا معهم وقالوا — انا كنا خدمنا سلطاننا مدة اقامته ودافعنا عنه بقدر طاقتنا واما اليوم فان شئتم ابقيتمونا في اماكننا وان شئتم صرفتمونا وارض الله واسعة — فتشاوروا في امرهم وابقوهم على حالهم وقالوا لهم — انتم نصحتم سلطانكم وليس لكم ذنب وحيث اديتم حق ملككم وقاتلتم في طاعته انتم اليوم معدودون من جماعتنا — فمن ذلك اليوم عرفوا بجماعة الترك الى يومنا هذا وعليهم ابو الطيب قوانين البلاد وتصرفاتها واخذ يتصرف في الاعمال لان القوم ليس لهم خبرة باحوالها ظنا منه انه يستبد بالحكم معهم لكونه هو السبب في اتيانهم وممن اعانهم فعاجلوه وقتل صبرا ونهبت امواله وان الله لا يهدي كيد الخائنين وعوقب بنقيض مقصوده كما هي عادة الله في من ساءت نيته * ولما تمهدت البلاد رجع الباشا علي الى الجزائر وخلف في البلاد نوبة من اتراك وزواوة لصيانتها وخلف قائد رمضان حاكما في البلد وعدد الاتراك الذين خلفهم ثمانمائة والزواوة كذلك * وكان في عسكر السلطان احمد اربعمائة من

للاتراك ولما اراد ان يدافع اهل الجزائر كما ذكرنا قال للاتراك الذين في خدمة هولاء اهل الجزائر من جنسكم وانا لا اريد ان تقع بينكم عداوة فقالوا له انما خدمناك لندافع عنك بانفسنا فابى عليهم وبعثهم الى سوسة الى ان وقع عليه ما وقع واخذت الترك البلاد فتراجعوا بعد ذلك ومكثت في ايدي اهل الجزائر ثلث سنين والعرب من برها واهل حلق الوادي من بحرها الى ان جاءتها العمارة من الانبراطور باذن السلطان احمد وذلك في سنة ثمانين وتسعمائة ، وانفق عليها اموالا كثيرة * ولما وصلت العمارة الى حلق الوادي اخرج الجنرال كتابا من عند سلطانه يذكر شروطا اشترطها على السلطان احمد فامتنع منها وقال — مالكم عندي الا المال لا غير واما البلاد فليس لكم فيها شيء — فقال الجنرال — ان تف بها فخيروالا نقدم غيرك يف لنا بها — وقدموا اخاه محمدا فقبل الشرط ونزل بهم الى البر واما السلطان احمد فسفر الى جزيرة صقلية وسكن مدينة بلرمو وبقي بها الى ان مات رحمه الله وجيء به الى تونس فدفن بزاوية الشيخ الجليزي بعد ما مكث ثلثة ايام ملقى في الجلاز لم يوذن بادخاله البلد ظنا من القوم انه حي وادخل بعد ذلك ودفن والملك لله وحده * -

الخبر عن خلافة الامير المولى محمد بن المولى الحسن

امه ام ولد وهو خاتمة بني ابي حفص وبانقراضه انقرضت ايامهم قدم الى الحضرة بعمارة النصارى فلما علمت اهل تونس بمجيئه هربوا من البلد خيفة من هول الاربعاء وهي الواقعة التي جرت عليهم ايام الحسن وهرب اكثر اهل تونس الى ناحية جبل الرصاص واختفوا هنالك في الدواميس وهذه الواقعة يعبر عنها بخطرة الدواميس * وكان فيها الخطب جليلا وكانت في زمن الخريف وغالب اهل البلاد عرائس فانهتك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه وصنعوا نواويل في الغابات وسكنوا بها وتسولوا بين خيام البادية ونالوا من الخوف والجوع ما لم ينله احد وتولى الحرس على النساء والذراري القائد عبد الله والقائد علي بن ابي زيد ، وبعث اليهم

الشيخ الجديدي بحوصهم من قلة الطمانينة ، وبعث السلطان محمد بعد ذلك للناس وامنهم وامرهم بالرجوع الى البلد ثم رجعوا فمن وجد داره اخذها ومن وجدها بيد النصارى وكل امره الى الله ، وقسمت المدينة قسمين كفر وايمان * وفي تلك الايام اهين المسجد الاعظم ونهبت خزائن الكتب التي به ودرست بارجل الكفرة معالم المدارس وتفرقت ما جمع فيها من دواوين العلوم وتبددت في الشوارع حتى قيل ان المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن انما يمر على الكتب المطروحة هناك وضربت النواقيس في الحضرة * وسمعت بعض اهل البلاد يقول ان النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الاعظم ونبشوا قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم يجدوا به الا الرمل وفعلوا ما لا تفعله الاعداء بالاعداء ، وساكنوا المسلمين وصارت الدار بالدار ، وسكن القبطان مع السلطان محمد بالقصبة ويجلسان معا في سقيفتها للحكم واستمال القبطان قلوب الناس وساسهم بعدله ومكره ومنع من التعدي عليهم ، وانحاز اهل باب السويقة على ناحية ومنعوا انفسهم من الاهانة ، واهل باب الجزيرة واهل المدينة اهينوا لانهم تحت الرعية فجرى عليهم حكم النصارى * وفي تلك المدة عمر البستيون خارج باب البحر من تونس وفصلت اسواقه وحوانيته وعمر بالكفرة ونال اهل تونس من اهل البستيون ما لم ينالوه من غيرهم حتى كانوا يفتنون الرجل عن دينه ، وشاركت النصارى المسلمين في مساكنهم ومعاملتهم واقاموا معهم تحت القهر والاهانة وفي تلك الايام وقعت خطرة الشكارى بين مسلم ونصراني كل منهما اراد شراءها فمد النصراني يده في المسلم فصاح المسلم واستغاث فقامت الناس لنصرة المسلم وقتلوا النصراني وكانت الواقعة بباب البنات فتسامع ابناء جنسه ففزعوا وخرجوا من باب السويقة ووقعت بينهم مقتلة دام فيها الحرب من الصبح الى غروب الشمس وبقيت جنائز الفريقين ملقاة وخرج السلطان وحز بين الفريقين وجرت النصارى موتاهم على العجل ، وسبب هذه الخطرة على يد ابن الصفار كانت داره بالعزافين ، وقد ادركت ابنه يسكن هنالك وسمعت من

ولده يقول كان ابي هو السبب في تلك الواقعة والله اعلم بحقيقة ذلك ، وانرجع الى خبر الترك فانهم لما دهمهم العدو وعلموا ان ليس لهم طاقة بمقاومتهم سلموا البلد وهربوا الى ناحية جزيرة شريك ونزلوا على الحمامات فغلقوا دونهم اهل الحمامات باب البلد فطلبوا منهم القوت فمنعوهم وعلقوا سلوقية ميتة على برج عندهم وبه يسمى برج السلوقية الى اليوم وقالوا لهم هذا ما لكم عندنا . فباتوا هنالك وجعلوا امرهم الى اين يكون ذهابهم فاتفقت اراؤهم على القيروان وبها الباشا حيدر . وكان نما اليهم الخبر بما وقع بتونس فاضطرب القيروان تلك الايام * ولما اراد الترك ان يتوجهوا الى القيروان لحقت بهم النصارى على بلد الحمامات فلم يكن لهم ملجا يلجاون اليه فقال كبيرهم نجعل البحر خلفنا ونستقبل العدو والنصر بيد الله تعالى . وسمعت من يقول ان اميرهم كان خير الدين وليس كذلك لان خير الدين هو الذي اخذ تونس من يد الحسن في حدود الاربعين وهذه الكائنة في سنة ثمانين إلّا ان يكون الحسن بن خير الدين والله اعلم * ولما وصل العدو الى الترك صدقوا في القتال وصبروا صبر الاحرار فهربت الكفرة وركبت الترك ادبارهم الى ان اخرجوهم من الخنقة التي بقرب الحمامات وقتلوا منهم ما شآء الله وقطعوا رؤوس القتلى وبعثوا منها احمالا للقيروان لتسكين الاحوال فيها . ووجدت صناديق للنصارى مملوة بالريش بقصد من قتل منهم مسلما رشقوا ريشة في راس قاتله للمباهاة فخذلهم الله تعالى * ومن الغد رجعوا الى الحمامات فحاصروها واخذوها عنوة وقتلوا من قدروا عليه من الرجال وفر الباقون وسبيت اولادهم وحريمهم ونهبت اموالهم وفعلوا بهم الفاقرة . واتى الشيخ الجديدي فافتك منهم النسآء والاولاد وتراجع اليها من هرب . والتحق الترك باخوانهم بالقيروان واقاموا هناك عشرة اشهر مدة سلطنة محمد وتحكم النصارى بتونس . واشتد الامر على الذين بالقيروان وضاقت بهم البلاد * وكان بها الباشا حيدر وهو الذي ضرب الحيدري المشهور بالقيروان . واراد الفرار عنها لشدة الامر وكان يتردد الى

الشيخ سيدي احمد الزنان نفع الله به فكان الشيخ يربصه ويعده بالخير فيقف عند اشارة الشيخ الى ان قدر الله بارتفاع المحن * وازالة البوس والحزن * واظهار شعائر الاسلام بالدرجة العلية * ونشر الاعلام الخاقانية وتطهير الديار التونسية * من الكفر والارجاس * فسلم الله هذه المملكة بالخاقان سليم بن سليمان والله رؤوف بالناس * وكاتب اهل القيروان اخوتهم بطرابلس والجزائر فاتوا بنية الجهاد من الجزائر ومن طرابلس ومن القيروان ونزلوا بساحة تونس في يوم واحد وناوشوا القتال لاهل تونس وضايقوها من البر واقاموا عليها مدة فلم يفعلوا شيئا * ولما طالت اقامتهم ولم يحصلوا على شيء عزموا على الرحيل الى بلادهم . فظهرت لهم مراكب في البحر فظنوا انها عمارة اتت لنصرة النصارى فقويت نفوسهم على الرحيل بالليل * وكان من قدر الله ان العمارة المذكورة من قبل السلطان سليم ابقى الله البركة في ذريته الى يوم الدين والقبطان بها علي باشا وسردارها سنان باشا فلما وصلوا الى ناحية المرسى من حلق الوادي وعلم المسلمون الذين هناك بانها عمارة الاسلام طلع اليهم بعض المسلمين فسالوه عن احوال البلاد فاخبرهم بخبر الحال النازلة على البلد فكتبوا كتابا وبعثوه الى امراء تلك المحال يخبرونهم بمجيء العمارة السلطانية ويامرونهم بالاقامة في اماكنهم فلما اتاهم الخبر ايقنوا بالنصر وتقوى عزمهم الى ان فتح الله عليهم * وسمعت من اهل الحضرة من يقول سبب مجيء العمارة الى هذه الديار ان السلطان سليم راى في منامه الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف يستنجده على بلاده وقال له - انا محرز بن خلف - فلما اصبح سال عن الشيخ وعن بلده فقيل له تونس * وقيل ان العمارة كانت معينة الى الاندلس نجدة لغرناطة لان اهل غرناطة بعثوا يستنجدونه فعزم على ارسال هذه العمارة اليهم فبلغه خبر غرناطة وانها اخذت في تلك الايام واحتوى عليها اعداء الدين ففتر عزم السلطان عن الاندلس وبعث بها الى تونس . ولعل الاتفاق وقع من الطرفين والله اعلم وكان عدد المراكب ثمانية عشر معونة ومن الغلائط وغيرها من السفن

الفا وخمسمائة قطعة حرس الله هذه السلطنة العثمانية من عاهات الزمان * وجعلها تذب على الدين المحمدي وهي بشعائرها مشيدة الاركان . ولم يزالوا مطبقين على تونس من برها وبحرها الى ان تمكنت ايديهم بسبرها وفحرها ونزعوا ملكها من ايدي الكفرة بعد ما كانوا استولوا عليها وسلبوا ملك بني ابي حفص بعد ما كانوا ملوك البلاد الافريقية وغيرها والله يرث الارض ومن عليها * وكان ابتداء ملكهم كما قدمنا ذكره سنة ثلث وستمائة وانقرض بانقراضهم سنة احدى وثمانين وتسعمائة فكانت مدة ملكهم ثلثمائة وثماني وسبعين سنة * وملك الله هذا الاقليم الافريقي كما ملك غيره لال عثمان . وطهره بتوليتهم عليه من اهل الشرك والطغيان * وحسبنا بلغنا ما اردناه من الاخبار السابقة نضيف بحول الله وقوته ما تيسر لنا من الاخبار اللاحقة ان شاء الله تعالى لا قوة إلّا به ولا اتكال إلّا عليه *

البــــاب السابع

في الدولة العثمانية والسلطنة الخاقانية

ادام الله ظلال امنها في الخافقين . وجعلها دائمة اليمن.

والبركة قاهرة لاعداء الدين . وخادمة للحرمين الشريفين

اول من ملك منهم البلاد جدهم عثمان واليه انتسابهم وهو عثمان بن ارطغرل بن سليمان شاه وكان سليمان هذا في بلاد ماهان قرب بلخ وهو من جنس التركمان الرحالة النزالة من طائفة التتار ويتصل نسبهم الى يافث ابن نوح عليه الصلاة والسلام * ولما ظهر جنكزخان واخرب بلاد بلخ واخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه تفرقت اهل تلك المملكة وخرج سليمان شاه المذكور من بلاد ماهان بخمسين الف بيت من التركمان وقصد ارض الروم وعبر من الفرات فغرق بفرسه فمات وتفرقت جماعته في اطراف تلك البلاد وبقيتهم موجودة هناك الى الان على عادتهم في النزول والارتحال وخلف سليمان اربعة من البنين فعاد منهم الى بلاد العجم اثنان

وتوجه الثاني الى بلاد الروم وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي صاحب بلاد قرمان وملكه اذ ذاك بقونية فاكرمهما واذن لهما بالاقامة بارضه فاستاذناه في الجهاد فاذن لهما واجتمع اليهما جماعة من التراكمة فواصلوا الجهاد في ارض الكفرة ولهم وقائع مشهورة عند اهل السير ومات ارطغرل وخلف عدة اولاد اشدهم باسا عثمان فواصل الجهاد على عادة ابيه فراى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فاكرمه واعزه وامده واعانه وجعل له المرتبات السلطانية . وارسل اليه نوبة خاقانية ودق بين يديه الطبل والزمر وسماه خان تعظيما له وتفخيما * ولما دقت الطبول بين يديه قام هو على قدميه اجلالا لمخدومه فمن هناك صارت عادة لال عثمان القيام عند دق النوبة قانونا جاريا الى الان وجرى عليه اسم السلطنة سنة تسع وتسعين وستمائة . وافتتح تلك السنة قره حصار وخطب له فيها وتمادى في فتح تلك الحصون وساعدته المقادير لما سيكون الى ان توفي رحمه الله سنة خمس وسبعمائة وتولى بعده ولده السلطان اورخان بن عثمان وهو الذي افتتح مدينة برسا في حياة والده وجعلها دار الملك . وفاق والده في الجهاد وفتح بلادا كثيرة . واجتمع لحربه جملة ملوك نصارى من بلاد الروملي وقصدوا لقاءه في بر الاناطولي فسير اليهم ولده سليمان بك فجاز اليهم الى بر الروملي ودهمهم على حين غفلة فمزقهم الله وفرق جمعهم وفتح عدة اماكن وعاد الى والده منصورا . وعاش اورخان الى سنة سبع واربعين وسبعمائة فمات رحمه الله . وتولى بعده ولده السلطان مراد بن اورخان بن عثمان سنة سبع واربعين وجلس على تخت الممالك سنة وفاة ابيه . وهو الذي فتح ادرنا واتخذ المماليك وسماهم يكشريه معناه العسكر الجديد والبسهم اللبد الابيض المثني الى خلف . وكانت له صولة عظيمة . واجتمعت ملوك الشرك الى قتاله فهزمهم وقتل زعيمهم الاكبر . واظهر بعض ملوكهم الطاعة واقبل لتقبيل يده فطعنه بخنجر كانت معه فمات رحمه الله ومن ثم صارت عادة عند ءال عثمان لا يدخل احد بسلاح على السلطان وان يفتش لباسه وان يدخل

بين رجلين يكتنفانه * وتوفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وتولى بعده بايزيد خان . وكنيته يلدرم معناه الصاعقة وعمره اذ ذاك اثنتان واربعون سنة واقام ستة عشر سنة سلطانا . واستولى على قلاع كثيرة وغصب ملوك الطوائف الذين بازائه . واخذ ابن كرمان وحبسه ففر من حبسه وفر منه ايضا ابن منتشا في صورة قلندري حلق لحيته وحواجبه وابن اسفندار وغيره من الملوك ولحقوا بتيمور ملك التتار واستغاثوا به وحرضوه على اخذ بلاد الروم . وتيمور هذا من اشر ملوك الدنيا اهلك ثلثي العالم وملكه وكان مبتدا امره من وراء خراسان . وملك ما وراء النهر والسند والهند والصين والعراق . وجاز الى الديار الشامية والحلبية ولم ينج منه الا مصر والمغرب وسفك من الدمآء ما لا يعلمه الا الله واخباره كثيرة ليس هذا محلها وقتل من العلمآء الوفا لا تحصى . وسئل بعض الفضلاء عن تيمور اي سنة ظهر فيها فقال — في سنة « عذاب » * ولمـــا وصل الى بلاد الروم خرج بايزيد الى قتاله فخذله من كان في عسكره من التتار وغيرهم . ورجعوا مع تيمور باستمالته اليهم وبقي بايزيد في جمع قليل وقاتل بنفسه الى ان هجم على تيمور فالقي عليه بساطا فاثقله واخذ اسيرا ومات عند تيمور في القيد سنة سبع وتسعين وسبعمائة وتسلطن بعده بنوه عيسى وموسى وقاسم وسليمان ومحمد . ووقع بينهم القتال والتحاسد نحو اثنتي عشرة سنة . واستقل بالملك السلطان محمد بن بايزيد في سنة خمس وثمانمائة وعمره اذ ذاك ثماني عشرة سنة . وكان مطاعا مقداما واسع العطآء عين صدقات للحرمين الشريفين ومهد البلاد وفتح عدة فتوحات . وتوفي بعد سبع عشرة سنة من سلطنته سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة وتولى السلطان مراد الثاني في التاريخ المذكور اي اثنين وعشرين وثمانماية فاقام الشرع في ايامه ولازم الجهاد على عادة اجداده وفتح بلادا كثيرة الى ان كبر ولده محمد فتخلى له من الملك واجلسه في حياته على سرير ملكه وتقاعد بوصاه الى ان وافاه حمامه ثم استقل بالامر السلطان محمد خان في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة

وعمره اذ ذاك عشرون سنة . وهو من اعظم سلاطين ءال عثمان في الجهاد متوكلا على الله . واكبر فتوحاته قسطنطينية العظمى وجعلها دارا للملك . وبنى بها المدارس وقرب العلماء واجرى عليهم النفقات . واستجلب العلماء العظام من اقطار البلاد وتزخرفت بايامه الدنيا وتشرفت العلماء في ايامه . وفعل خيرات لا تحصى . وتوفي سنة ست وثمانين وثمانمائة رحمة الله عليه .

وجلس بعده في الملك السلطان بايزيد ابن السلطان محمد في ربيع الاول من السنة المذكورة وعمره اذ ذاك ثلثون سنة . وقام بالامر اثنتين وثلثين سنة وفتح عدة قلاع وانتشلها من ايدي الكفرة ونازعه اخوه في الملك ووقع بينهما الحرب فانهزم اخوه هاربا الى مصر في ايام قيت باي فاكرمه . وعاد الى قتال اخيه مرة اخرى فهزم وهرب الى بلاد النصارى فدس عليه اخوه من قتله هناك بموسى مسمومة حلق راسه بها ه وفي ايامه ظهر اسماعيل شاه ببلاد العجم . واظهر مذهب الرافضة واستولى على تلك البلاد فغزاه بايزيد وكان رحمه الله محبا للجهاد مداوما على افعال البر . وكانت بيضة الاسلام في ايامه محفوظة يحب الاولياء والصالحين وبنى المدارس والتكيات وديار المرضى وعرضت الى بابه اعيان الناس . ومدحه شهاب الدين ابن الخليفة شاعر مكة بقصيدة وارسلها اليه فاثابه بالف دينار وجعل له كل سنة ستمائة دينار . وهي باقية في عقبه تصل الى اولاده في كل سنة الى يومنا هذا . وكانت له عدة اولاد فرقهم في حياته على المناصب الى ان ماتوا في حياته . ولازمه مرض النقرس وهو من امراض ءال عثمان فعجز عن السفر ومال العسكر في حياته الى ولده سليم وتقاتل معه وءاخر الحال خلع نفسه وقدم ابنه للملك وخرج الى ادرنة فمات سنة سبع عشرة وتسعمائة

والسلطان سليم جلس على تخت الملك في السنة المذكورة وعمره اذ ذاك ست واربعون سنة وايام ملكه تسع سنين . وكان ملكا جبارا سفاكا للدماء قوي البطش غزا بلاد العجم وافتك مصر من الشراكسة . واخذ مدينة حلب والشام . وهو اول من خطب له بخادم الحرمين الشريفين . وتوفي

في ثامن شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله تعالى عليه . وتسلم بالامر بعده ولده السلطان سليمان في التاريخ ودامت ايامه في الملك سبعا واربعين سنة * وفي ايامه فتحت عدة بلاد وغزا بنفسه بلاد الانكروس وغزا جزيرة رودس واخذها من اهلها وكانت ليس لها مثيل في الحصانة واسلموها له بعد حصار شديد وضايق عليها وءاخر الحال طلبوا منه الامان على اموالهم وانفسهم فاعطاهم امانا فخرجوا الى بلاد المغرب وعمروا جزيرة مالطة دمرها الله . وكانت افعالهم برودس كافعالهم الان عسى الله ان يبدد شملهم من قريب . وفتح رودس اول شهر صفر سنة تسع وعشرين وتسعمائة وجعل بعض الافاضل فيها تاريخا وهو « يفرح المومنون بنصر الله » . ولما تمكنوا من مالطة وزاد ضررهم ارسل اليهم في ءاخر ايامه عمارة لاخذها فما امهله اجله . ومن فتوحاته جزيرة استنكوى وبيدرم وقلعة ايدوس . وسافر بنفسه الى بلاد العجم وحرب امامه الشاه واخرب بلاد تبريز واخذ بغداد . وفتح عراق العرب وطلب الشاه منه الامان والهدنة فاعطاه ذلك ورجع الى مقر سلطانه . والطف تاريخ قيل في هذه السفرة « فتحنا العراق » . وله رحمه الله ثلث عشرة غزوة على اهل الشقاق والنفاق ومات رحمه الله في غزوته الاخيرة بقلعة سكتوار وكتم الوزير موته وارسل الى ولده السلطان سليم فاقبل بسرعة وعند ذلك اظهر الوزير موت السلطان سليمان . ووضع في تابوت ورجعوا به الى القسطنطينية . وكانت مدة سلطنته ثمان واربعين سنة سقى الله ثراه من صوب الرحمة . وكفاه من الفخر ان علامة الوجود في ذلك العصر وهو المولى ابو السعود رحمه الله رثاه بقصيدة طنانة تدل على فخرهما العاشد والمشهود . وهي من غرر المرثيات وبراعة استهلالها حيث قال :

اصوت صاعقة ام نفخة الصور فالارض قد ملئت من نقر ناقور

وهي طويلة اضربنا عنها وليس هذا محلها تركناها خشية الاطالة . وجلس بعده على تخت الملك ابنه السلطان الاعظم السلطان سليم الثاني

وبويع يوم الاثنين لتسع مضين من ربيع الآخر سنة اربع وسبعين وتسعمائة . ومولده سنة تسع وعشرين وتسعمائة . ومدة سلطنته تسع سنين وهو المبارك النقيبة على الديار التونسية سلمها الله بسليمها من اوباش النصرانية وقامت الخطباء باسمه المبارك على منابرها ولاحظت اعين السعادة منازل الحضرة واضيف فخر الدولة العثمانية الى مفاخرها . ولما تمكن من ملكه تبع طريقة اسلافه في الجهاد . فمن اكبر غزواته فتح جزيرة قبرس بالسين المهملة . وفتح بلاد اليمن بعد ما عصى اهلها . وقد كان فتحها والده السلطان سليمان فلما مات قام بها مطهر ابن شرف الدين يحيى الزيدي واستفحل امره بتلك البلاد فبعث اليه عسكرا صحبة الوزير المبارك سنان باشا فافتك البلاد . وبلغ منها ما اراد . وهذا الباشا السعيد لم يكن له نظير في دولة آل عثمان ولا جاء مثله من ذلك العصر الى هذا الزمان فكم خلف رحمه الله من المآثر والخيرات حيث حل وكابه وكم بنى من مساجد وتكيات . يحل بها المسافر وينال من خيراتها ويحمد ذهابه وايابه فانه كان ميمون النقيبة حيثما سار ولا استقرت قدمه باقليم الا بنى فيه اماكن للخير والصدقة والناس كثيرون ممن شاهدوا تلك الآثار حتى انهم يقولون ان جباية تلك البلاد لا تفي بما صنع من خيراته . وكان محبا لفعل الخير والزيادة الى ان مات زاد الله في حسناته * وقد سمعت من يقول انه كان يعلم سر الحجر المكرم ودليل هذا كثرة ما خلف من اماكن محبسة على الفقراء والى يومنا هذا يدعى له وعليه يترحم . وعلى يديه كان افتتاح هذه البلاد والله رءوف بالعباد * وذلك ان سلاطين تونس من بني ابي حفص كما بيناه في اول الكتاب كان منهم من بلغ درجة الملك ومنهم من قاربها ومنهم من نال الاسم من السلطنة فقط ومنهم من تغلبت عليه العرب واقاموه في الملك وشرطوا عليه شروطا وافى لهم بذلك وتمادت ايامهم في اقبال وادبار الى ان اتاهم ما اتى على غيرهم فصاروا عبرة لغيرهم لما خلت منهم الديار * ولما اراد الله تعالى انقراضهم وضعفوا تفرقت

ءاراوهم واختلفوا الى زمن مشينهم لا حسنهم ، واظهر من مساويه ما غطى به حسنات احسنهم * وفي ايامه تملك النصارى حلق الوادي وبنوا فيه حصارهم المشهور وشيدوا فيه بناءً لم يشيده شداد . في ارم ذات العماد ، وابتداوا بناءه سنة سبع وثلثين وتسعمائة . وهدموا اكثر اقواس الحناية التي كانت لقرطاجنة واخذوا حجارها لبنيانه وجعلوا الوزية على اهل البلاد من الجير والجبس . وحصنوه حصانة لم يكن لها نظير واداروا به خندقا وادخلوا له ماءَ البحر الى ان دار به دور السوار وملاوه بآلات الحرب والرجال وما يحتاجون اليه بحيث صار غصة في الحلق ، وصارت النصارى تكمن باخربتها ومراكبها ويقطعون في البحر على المسافرين وياخذون كل سفينة غصبا وعم اذاهم المسلمين وملكهم اذ ذاك باشبيلية اعادها الله للاسلام . وكان استنجده الحسن في السابق كما ذكرنا وتبع اباه ابنه احمد واراد ان يعد من نجباءِ الابناءِ واللعين النصراني ساعده على ضررهم ويضمر في الباطن بمكرة على غدرهم فاستصفى اموالهم واموال اهل البلد في واقعة الاربعاءِ وكمل على بقيتهم في خطرة الدواميس ولم يبق لاحد ما سعى * ولما تمكن عسكره بتونس في ايام السلطان محمد تمكن بالبلد اي تمكن وصار قبطان النصارى يحكم معه في حضرته وهو له قرين وعلم بذلك صاحب بلاد اسبانية ان تونس في قبضته وصار يفتخر بها بين زعمائه في قومه وقعدته حتى اذا راى من قواميسه الميل عنه يقول لهم — داري عندي — يريد تونس . واراد ان يتولى عليها من اولها الى ءاخرها ويفعل بها من اقامة شعائر الكفر كما فعل بغيرها ولما اراد ان يجعلها مائدة قيض الله سليما سلبها منه * ولمـــا نمت اخبار تونس وما حل بها الى ملك بني عثمان وهو السلطان سليم جعل الله النصر والتمكين في عقبه الى يوم الدين تاقت همته الى نزع الديار التونسية من ايدي الكفرة . ويبدل عوضهم اناسا بررة . وقد تقدم ان الشيخ سيدي محرز بن خلف نفع الله به تعرض له في منامه واشار عليه باخذ تونس في اليقظة ولم تكن الرويا

اضغاث احلام * وقــــسبيل ان الباعث له على هذه العمارة وقد قدمنا خبرها اهل غرناطة فانهم استنجدوه لنصرتهم فلما عزم برايه بلغه استيلاء اللعين على حوطتهم فثنى عزمه الى هذه الديار وعلى كل وجه بارادة الله جرت الاقدار . فنتدب لهذا الامر سنان باشا رحمة الله عليه وجعله سر دار العسكر واضاف اليه من يكون له النظر على المراكب البحرية ومن كانت له بالبحر خبرة ودرية وهو قبطان البحر قلج علي باشا اعلى الله منزلته في درجات الجنان وانعم السلطان عليهما بتشاريفه المعتادة وخلع عليهما وحكمهما فيما يحتاجان اليه من ءالات السفر وزيادة وشحنت المراكب بما يحتاج اليه من الذخائر والاموال وءالات الحرب وبرز العسكر من القسطنطينية غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة وكان يوم خروج العسكر يوما مشهودا وشحنت الاغربة بالرجال وعددها مائتا غراب وثمان عشرة معونة وغيرها من السفن الكبار والصغار فالجملة الف وخمسمائة قطعة . وقد سبق التعريف بها وسارت العمارة فوق الماء مثل الطيور اولي اجنحة مثنى وثلث ورباع . وان كان البر يضيق بها فلها في البحر اتساع . وطفت على متن البحر كالطوفان . وان بردت اكباد اهلها بالامن وجسومهم بماء البحر فان مدافعهم لاعدائهم سخنت وملئت بالنيران . واجتمعت في مينا نوارين . ومن هنالك توجهوا للمغرب على ربهم متوكلين . واجتازوا بقلعة في بر الكفر تسمى تيجة وهبطوا للبر فدهمهم العدو واقتتلوا ففر العدو منهم بعد ساعة من نهار وراح هنالك بعض البيات شهيدا . وظهرت علامة النصر واخذوا في طريقهم عدة قلاع وغنموا شيئا كثيرا وفي طريقهم اخذوا مركبا مشحونا بالقمح وفي الثاني عشر من الشهر وصلوا قليبية فنزلوا هنالك واستراحوا . وفي الرابع والعشرين من الشهر بلغوا حلق الوادي ونزلت العساكر بعيدا من رمية المدافع ونزلوا اطلاق الوزير سنان باشا * وكان من قدر الله تعالى قبل وصول العمارة العثمانية بيوم وصل الى تونس الباشا حيدر من القيروان * وقد تقدم خبره ولم يكن لي علم به انه كان متوليا على منصب تونس من

قبل حتى وجدت في تاريخ انه كان صاحب البلاد واظنه خرج منها حين دهمه العدو وكذلك مصطفى باشا صاحب مدينة طرابلس فحصروا الى تونس ونزلا معا بازاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها * وفي آخر اليوم ظهرت مراكب في البحر فظنوا انها نجدة للعدو فعولوا على الرحيل ليلا ولما كانوا على اهبة ذلك جاءتهم الاخبار من عند الوزير سنان باشا مع رجل من اهل المرسى كان طلع للعمارة واستخبره الوزير عن احوال البلاد فاخبره بخبر الحال فبعثه اليهم رسولا يخبرهم بقدوم العسكر العثماني . فلما صح عندهم الخبر قويت نفوسهم وسار حيدر باشا ومصطفى باشا في تلك الليلة في بعض الخواص الى حضرة الوزير سنان باشا وسلما عليه وطلبا منه ان يتوجه معهما بنفسه فامر طائفة من امرائه وعين لهم الفا من العسكر واعطاهم مدافع وزرابز وما يحتاجون اليه وامرهم بالمسير الى تونس صحبة البكلربكية مصطفى وحيدر وارسل معهم ابراهيم بك من سناجق مصر المحروسة ومحمود بك بصنجق قبرس وباكير بك صاحب قره حصار وصحبتهم الفان من العسكر مع اتمام حبيب بك وتوجهوا في الحال الى تونس واحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم وناوشوها بالقتال من كل جهاتها . فلما راى السلطان محمد الحفصي ومن معه من النصارى كثرة العساكر علموا ان لا طاقة لهم بالقتال هذا مع ان قلعة تونس كان اكثرها خرابا لتواتر المحن وقلة الاهتمام وكذلك المدينة لم تكن معمورة باهلها بل غالبها خراب ايضا فضلا عن سعة الشوارع التي بها . فعجزوا عن تحصين البلد وقلعتها فخرجوا الى مكان يقال له ـ قوملودكز ـ معناه بحر الرمل وعملوا به حصارا من الخشب وحشوه بالرمل والتراب والتجاوا اليه * فلست هكذا وجدت اسم هذا المكان مقيدا ولا اعلم في تونس مكانا يعرف بهذا الاسم الا ما يذكر اهل تونس عن المكان الذي يعرف بالبستيون خارج باب البحر من شرقي المدينة . ولعل الاخبار تصدق عن ذلك المكان والخبر - وابر عنه الا ان صاحب التقييد الذي نقلت عنه هذه الحكاية كان

بعيد الدار من الديار التونسية وانما بلغه الخبر بلسان المخبر وعنه قيد ما سمع منه * ولما تحصنوا بهذا المكان وكان فيه نحو سبعة ءالاف مقاتل ما بين كافر ومرتد وشحنوا هذه البقعة بآلات الحرب والمدافع الكبار ومن الطعام شيء كثير ظنوا انه يمنعهم من قضاء الله . فعند ذلك خلت المدينة وقصبتها ولم يبق بهما من يصونهما فدخلهما العسكر العثماني من كل جهة وملكوا المدينة وقلعتها وحصنوهما بالاخشاب والالواح والتراب واحكموا ذلك . هذا والحرب بينهم على ساق . واهل الملة المحمدية مقابلة لاهل الشقاق . وبعثوا يخبرون الوزير المعظم سنان باشا بما وقع لهم ويطلبون منه المدد بالاعانة ومن ينصرهم فلما بلغ الوزير ما هم عليه عول على من يقوم مقامه ويستوفيه فبعث لنصرتهم القبطان قلج علي باشا رحم الله الجميع فتوجه بجمع من العساكر المنصورة من طائفة السليمانية ليكونوا اعانة لمن تقدم قبلهم من عسكرهم . فلما وصل الباشا قلج علي الى تونس وشهد تحصن البستيون وكثرة النصارى والاعراب المرتدين الذين به ر ءاه حصنا منيعا فبعث الى الوزير يطلب منه عدة مدافع اخرى وزيادة عسكر فبعث له الف ينشري وبعث معهم علي ءاغا سلحدار الباب العالي وثمانية مدافع وستة زرابز والحقهم بالقبطان قلج علي باشا . فلما وصلوا اليه اجتمع امرهم ان يدوروا بالبرج من كل جهاته وكانت الكفرة ومن معهم من المرتدين كثيرين ما بين فارس وراجل وجاءت لنصرتهم طوائف من العربان وخرجوا من قلعتهم مرارا ودهموا المسلمين واقتتلوا مرارا ومات من الفريقين خلق كثير . فريق في الجنة وفريق في السعير . واشتد الامر على المسلمين والمدد متصل باعداء الدين . وبلغ الخبر الى الوزير سنان . فجاء رحمه الله بنفسه الى اصلاح هذا الشان . هذا والحرب متصل بين اهل حلق الوادي وبين رجال من العسكر العثماني قوبي الهمم غلاظ شداد . ولما نظر الوزير الى حصانة القلعة التي هي البستيون اشار برايه السعيد على ما اقتضاه نظره السديد بالتدبير . وامر بتوزيع طوائف العسكر من

كل جهاته . وعين لكل موضع من يلايم به من رجاله وكماته . واشار على القبطان والمكلربكية بما رءاه من الصواب . وهون على الجميع حسن العاقبة ووعدهم بنصر الله واحسن اليهم بالخطاب . فاشتدت نفوسهم بكلامه ورويته . واتمنوا برايه ومشورته . وشاد من يومه الى محل اوتاقه من حلق الوادي وقصد لاهم فالاهم وان كان كل موضع حصل فيه فصل الجهاد . وياتي تمام الخبر في محله ان شاء الله تعالى . وما استطردت الى هنا الا لارتباط الحديث لان اول الحرب وقع في هذا المقام عدة ايام . ولما تيسر ابتداء الفتح بحلق الوادي كان في البستيون التمام . ولنرجع الى خبر حلق الوادي ومآثره . ونسوق الكلام ان شاء الله من اوله الى ءاخره . تقدم ان العمارة المنصورة بلغت الى مستقرها من حلق الوادي يوم اربعة وعشرين في ربيع الاول ونزلوا للبر على بعد من رمية المدافع ونصبوا اوتاقاتهم . وارتجت الارض باصوات مدافعهم . ورنين مكاحلهم ونزلوا المدافع الكبار التي اتوا بها لهذا القصد . ورموا بها من البعد . الى ان علا الدخان وصار النهار يحاكي الليل . وبرز الامر من الوزير ان يتقدم العسكر على عادته . وان ياخذ كل انسان اهبته لما يعلم من صناعته . فمنهم متفرس متمرس بالحرب والجلاد . ومنهم من عادته نقل التراب والرمل وقلع الاصلاد . وصاروا يتقدمون قليلا قليلا ويسوقون التراب ويستترون به ويحفرون خنادق في الارض وينزلونها . ويجعلون متاريس ويستترون من خلفها . وهذا دأب العسكر العثماني في كل مكان . ولم يزالوا على هذا الاسلوب الى ان احاطوا بالبرج من كل جهاته ورموه بالمدافع والمنجنيقات والبندقيات ورموا عليه اصنافا من ءالات الحرب . وكان هذا الحصن لم ير مثله في الشرق ولا في الغرب . وكان للنصارى به اهتمام وحصنوه بما قدروا عليه من المبتدا الى التمام . وادارو به خندقا واجروا الماء فيه . والماء من البحر الى البحيرة والسفن تجري فيه . وهو ممنع من كل جهاته . واسواره مشيدة مشحونة بحماته . وقد كنت مذ زمان وقفت على رسالة بعثها بعض من شاهد الوقعة لبعض الرؤساء بالديار العثمانية واخبر فيها

بما شاهد من شدة الحرب ومنعة الحصار وكثرة رجاله وذخائره وسعته وطوله بما يعجز عنه الوصف ومن شاهد بقية ءاثاره حكم بصحة ما ومضى ولكن طال عني وبعد زمانها ولم يحضرني إلّا القليل من اخبارها ساذكرها في اوانها * ومـــــن جملة ما قال فيها ان سعة السور يسير عليه سبعة من الخيالة من غير ازدحام . وان البنآء الذي به ما سامه طائر عقل ولا عنه حام . وعدد الدور التي حوله لسكنى المحجرسين ازيد من مائتي دار والبحر من جميع جهاته . والخندق به دائر ودور المحجرسين من ناحية المغرب وءاثارها باقية . وكل ما ادعموه من البنآء اهدمه الله على ايدي المسلمين وبددت صنائع المشركين فهل ترى لهم من باقية . وكان عمق الخندق ستين ذراعا وقعره متصل بالبحر وفي حافته قبة منيعة اعدوها للتحصن فيهما ونقبوا تحت الارض نقبا طويلا يتصلون منه الى تلك القبة . وكانت قريبة من ناحية الوزير ففطن بمن كان فيها فسار الوزير اليهم برجاله وقاتلهم قتالا شديدا وملك القبة وقتل من كان بها . واعجزهم امر الخندق فما وجدوا له حيلة إلّا ان يملا بالتراب فبعث الوزير بامره السعيد الى العسكر ان يجتهدوا في نقله فامتثلوا الى ان نقلوه في ثيابهم * والرسالة التي تقدم ذكرها يقول فيها ومما رمي به في الخندق من الصوف مقداره بالعدد سبعون الف شليف . والشليف عبارة عن حمل الجمل ووضع في كل شليف قنطاران من الرصاص ليثقل به ويغوص في المآء * قـــــــلت الله أكبر هكذا تكون همم الملوك فاذا كان من الصوف والرصاص هذا المقدار وهذا العدد ولو تاملت قيمته لكانت مئين من الالوف فكيف غير ذلك من الاجفان وءالات الحرب وبارود ومصروف من الاموال على الرجال هكذا تكون والله ملوك الزمان . ولولا ان السلطان سليم رحمه الله من البشر الذين بعد النبوءة لقلنا انه سليمان ولكن هو ابن سليمان . واخبرت من اهل تونس ان الصوف الذي القوه في الخندق جيء به من نجع دريد اكثره ومن غيره اقله * واظن ان الشيخ عبد الصمد ممن حضر الخطرة

كما ان جد احمد بن نوير الحمودي حضرها هو وجملة من العرب الذين بارض طرابلس جآءوا صحبة المحلة التي بها مصطفى باشا * ولـــما القوا في الخندق الصوف القوا من فوقه الحطب والتراب والاخشاب واهتم العسكر بنقل التراب كل الاهتمام واقدموا بنيتهم غاية الاقدام الى ان ملاوه من اوله الى ءاخره وصارت فوقه كيمان كالجبال ، وحملت الرجال من التراب ما لا تحمله الجمال ، وكانت لتلك العساكر نية صالحة ، باعوا انفسهم واشتروا الجنة فكانت تجارتهم رابحة . وســــمعت من نقل عمن شاهد تلك المواطن انه مر برجل من العسكر وهو حامل على ظهره حملا من الحطب لكي يلقيه في الخندق وبه عدة جراحات وهو على ءاخر رمق قال فاردت ان اخفف عنه فابى ولم يزل سائرا به الى ان القاه في محله . ومات لوقته بحضور اجله . رحمه الله وعامله بنيته عن عمله * ولـــما امتلا الخندق بالتراب بنوا المتاريس فوقه وصار المكان اعلا من حيطان الحصار واتفق هذا الواقع لاربع عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني من السنة المذكورة هذا والحرب نارها متقد في كل الجهات . وافرغ الله الصبر على عصابة المجاهدين والخزي على الطغاة . ونصب الوزير مدافعه فوق الحصار ورمى من كان به من الكفرة من افواهها بالنار . فالقتهم النار الى النار . ووصل في اثنآء ذلك رمضان باشا المتولي على مدينة الجزائر في التاريخ ومعه ثلاثة ءالاف مقاتل واجتمع بحضرة الوزير سنان باشا وطلب منه خدمة يؤديها فارسله ومن معه الى اعانة الذين بتونس . فتوجه اليها وحط عليها مع من هنالك من العساكر والبايات . والامراء والغزاة . واستمر الوزير في تحريض المسلمين على الاقدام الى البرج الذي بحلق الوادي وتشديد الحرب عليه من كل جهاته الى ان وهنت نفوس اهل العناد . ومن قدر الله سبحانه ان محمد عرب كان بعسكر من ناحية رادس فعزم اهل الحصار ان يدهموه ليلا على حين غفلة وتكون وصمة على المسلمين فخرجوا عليه عند الفجر فوجدوه متيقظا على اهبة فاوقع بهم فانهزموا بين يديه فتبعهم

يقتل فيهم الى ان ادخلهم الى حصنهم . ووافق الحال ان الوزير عين من العسكر من يقدم بنفسه الى البرج ويبيع نفسه في مرضات الله وجعل لهم عطايا سنية الاول فالاول من الف دينار واقل وعين لذلك من جميع الاجناس . ووافق دخول المنهزمين من ناحية رادس وهم ذاهلون ولم يستطع احد اغلاق الباب والمسلمون على اهبة فحملوا حملة رجل واحد من كل الجهات واعلنوا بكلمة التوحيد وارتفعت الاصوات فتزلزلت الجبال بحملتهم . ودخلوا القلعة والقصر المشيد بنيتهم . واخذوه عنوة بالسيف . وقتلوا من فيه من المقاتلين بغير تشبيه ولا تكييف . وكان هذا الفتح القريب والنصر الغريب . الذي سر به البعيد والقريب . لست مضين من جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ولله الحمد والمنة * وغنموا ما كان فيه من الذخائر التي لم يوجد مثلها في مكان ومن العدد والسلاح وءالات الحروب ما لا يوصف . واخبر الوزير ان الذهب الذي انتهبته العساكر ليس له حصر فامر الوزير بتفتيش الاخبية والرجال فوجدوا شيئا كثيرا . واخبرني بعض الناس قال اخبرني جدي وكان ممن حضر الفتح واصابته جراحات يوم الدخول للحصار قال بينما انا راقد اذا بعض اصدقاءي وضع تحت فراشي من الدنانير التي انتهبت فلما دخلوا الى الخبا الذي انا فيه ووجدوني في حالة المرض انصرفوا عني وسلم ما كان تحت الفراش وكان ازيد من ثلثة ءالاف دينار . واسر قبطان النصارى صاحب البرج والحاكم عليه . ومر السيف على من وجدوه من النصارى المهجرسين والمرتدين من ساكني البرج وما يليه . وشاع في الخافقين خبر هذا الفتح المبين . وقضي الامر وقيل بعدا للقوم الظالمين * وكان هذا الحصار من اعظم ما شيد بنيانه فوق الارض . فاتاه جيش السلطان سليم وقال امره السعيد نريد ان ينقض . وكذا وقع الهدم على ذلك البناء العالي الى ان صار هبا . وحط من اعلاه الى اسفله وتفرق من كان فيه بايدي سبا . وراى الوزير ان ابقاءه على حالته الاولى لم يامن عليه من الافات * وكان

اتقانه بالفعل الماضي فوقع عليه الامر بجزم الفتح فحظي أن لا يتم له الرفع فيما هو ءات . ولم يبق من اثره إلّا ما هو معلوم عندنا اليوم . وهو المكان الذي كان مسكنا لقبطانهم وباقيه مسكنا للبوم * ومن عجيب الاتفاق انه رسمت معالمه في سنة سبع وثلثين وتسعمائة ومكثوا في تحصينه مدة ثلث واربعين سنة لم يبطل لهم يوم بلا تحصين * ولما اراد الله سبحانه وتعالى نزعه من ايديهم اخذ في ثلثة واربعين يوما عدد ما ملكوه من السنين . فكان كل يوم من ايام الفتح يقابل مما ملكوه بسنة . وان كان طغيانهم تزايد في تلك المدة وانتبهوا لاخذ البلاد فانه كان سنة . والله تعالى يديم عز هذه السلطنة العثمانية ليدوم بها عز المسلمين . ويجعل سيفها قاطعا بحده في الحد وفي رقاب المشركين والمنافقين . وارسل الوزير البشائر الى الباب العالي . وكتب بما يسر الملك والامراء والموالي . ولولا تدارك الله هذه البلاد بنصرة هذا الملك العظيم . لكان الكفر استحوذ على اكثرها حتى لا يكون بها سليم * وقيل ان ملك النصارى لما سمع بمجيء العسكر العثماني اطمعته نفسه ان يمد اهل الحصار بمدد من عنده . ويرسل عمارة مشحونة بذخيرته وجنده . وظن ان باب الاستدراك واسع . ولم يعلم بان الخرق اتسع على الراقع . فبعث رجالا من حكمائه يتطلعون احوال القوم . فذهبوا ورجعوا في زمن قريب كانه يوم او بعض يوم . فسالهم عما شاهدوا من احوال العسكر وابصروه . فلم يكتموه بنصيحتهم واخبروه . وقالوا راينا ما اذهلنا . وحير افكارنا وشغلنا . وذلك انا وجدنا كل صاحب صناعة مشتغلا بشغله . وكل من هو في مكان للجهاد ملازما لفرضه ونفله . والقوم بين طباخ وجزار . واسواق ملئانة بالباعة من كل صنف والمشتري بين دلال وسمسار . وحداد ونجار وبيطار . واكثرهم مشتغل بجمع الدرهم والدينار . ومنهم من يتداول الحرب ويعتمد عليه . ومنهم من همته شان نفسه ولا يلتفت اليه . وليس لاحد علم بما صنع الاخر . وعسكر المقاتلة ليس له اول من ءاخر . ولو تبعث اليهم بجميع النصرانية . لم يغن شك

شيئا ولم تبق منهم بقية . فبطل عزمه وزعمه . وعلم ان الهم دهمه واهمه . فاستوحش لما اخذله الله بعد التانس . واذهب الله رجسه الذي كان بتونس * ولـــــما اتم سنان باشا ما فتح الله عليه بحلق الواد . ثنى عزمه المبارك الى البلد التي لم يخلق مثلها في البلاد . فرجع بعسكره المنصور الى تونس واجتمع بالغزاة المحاصرين قلعة البستيون وهم في اشد القتال ففرح البكلربكية والامراء بقدومه واشتد ازرهم به واطمانوا وتقدم معهم وجاوا على من بالقلعة حملة الاسود الضارية . وتعلقوا باطراف الحصار من كل ناحية . وعملت السيوف والمدافع بين الفريقين . ومات خلق كثير من الملتين . وتواطا المسلمون على الاقدام الى ان دخلوا عليهم بالسيف وقتلوا منهم زهاء ثلثة ءالاف . ورمى بانفسهم من اعلا الحصار الى اسفله زهاء خمسة ءالاف وبعدوا رمية سهم ثم ارادوا ان يتترسوا بالتراب لان العسكر كان مشغولا بالنهب فتداركهم الوزير قبل ان يستحكم امرهم فتقاتلوا قتالا شديدا . وعلم اهل الكفر ان لا مانع لهم من الموت الا الموت فاقدم كل على صاحبه وتضاربوا بالخناجر وعانق بعضهم بعضا الى ان بدد الله شملهم وقتلوا عن ءاخرهم الا من نجا منهم الى شكلي ولم ينج من قضاء الله . وملكت المسلمون البستيون واخذوا ما كان فيه من امتعة واسباب ولبوسات وءالات حرب ومدافع وبارود كثير وبشماط اعدوه لحصارهم واخشاب والواح استعدوها لاتقان حالهم * وكان البستيون اقوى ضررا على اهل تونس من غيره لانهم ارادوا ان يبنوا فيه حصارا ومدينة وقد ابتداوها وفصلوا شوارعها واسواقها وكادت ان تستكمل لولا لطف الله باهل تونس ولو تاخر العسكر العثمـاني قليلا لكان تم لهم ما ارادوه ولكن قدر الله اعجلهم عن اتمام البناء واتقانه . ولو تكمل بنيانه لكان اصعب من غيره ولـو لم يهتم السلطـان سليم بهذا الفتح لاستاصلوا افريقية بالجملة ويتفرعون من تونس الى طرابلس ولم يكن لهم مدافع هذا مع شدة نفاق العربان الذين بافريقية لانهم او اكثرهم لا يراعون الا ولا ذمة والكفر اقرب اليهم من الايمـان فجزى الله

خير هذا السلطان علينا وعلى جميع المسلمين ، وجعل السلطنة والنصر في عقبه الى يوم الدين ، ولمـا اخذ البستيون وجدوا الجامع الذي خارج باب البحر ملآن بالسلاسل والاغلال وربما اهل البستيون كانوا يفتنون الناس عن اديانهم وما عسى غير ذلك ، وكان اخذه بعد حلق الوادي بسبعة ايام وقيل خمسة عشر يوما وقيل غير ذلك والله اعلم ، واسروا قبطانه فاراد ان يفدي نفسه بالمال فضربوا عنقه لانهم وجدوه بني في رودس وايضا في جربة لما اخذها درغوث باشا وهذه النالثة في البستيون فاراح الله منه الاسلام ، ثم ان الطآئفة المعونة لما تحصنت بشكلي طلبت امانا من الوزير فامنهم ؛ وقد راى في ذلك مصلحة فجاء اليه زهاء مائتي منهم واخبروه بامور مهمة منها ان عندهم مائتين وخمسة من رجالهم اهل صناعات غريبة. منها عمل الطوب الذي يعجز عنه وتذويب الحديد والنحاس وعمل المدافع الكبار وغير ذلك من الصناعات فاعطاهم الامان واخذ اولئك المعلمين وشرط عليهم تفريغ المدافع وسبك النحاس وتكون في ارجلهم القيود ويتكفل بعضهم ببعض فرضوا بذلك واعطاهم على هذا الشرط الامان وكساهم وجعل لهم العلوفات واستخدمهم للباب العالي ومن ذلك الزمان كثرت صناعة المدافع بتلك الديار ، وكان هذا الفتح الاخير المبارك يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة وقتل في القلاع الثلاث عشرة آلاف مقاتل ، ومن المسلمين ذلك القدر ختم الله لهم بالشهادة ، وبواهم دار الرضى لما ختم لهم بالحسنى وزيادة ، ومات من اعيان العساكر المنصورة امراء اعلام ، فمن مشاهيرهم صفر بك صنجق الاسكندرية ، وبايزيد بك صنجق قرحالة ، واحمد بك صنجق اولونة ، ومصطفى بك صنجق اسيس ، ومن امراء الاكراد خضر بك وفرهاد زعيم الينشرية ورأس زمرة البناءين ، وكثير من الزعماء واهل التمارات وغيرهم عدد كثير ، واخذ الوزير من الاماكن الثلاثة مائتي مدفع وخمسة مدافع كبار غير الصغار وزرابز وترك لحفظ تونس خمسة وثلثين مدفعا وارسل للباب العالي مائة وسبعين مدفعا من الكبار العظيمة للاعانة هناك ، وارسل بصورة الفتح الى

للابواب الشريفة خلد الله سلطنتها . وانفذ في الخافقين كلمتها . ورفع درجتها
ءامين . ولا يظن الواقف على هذا المجموع اذا سمع لفظة حصار حلق
الوادي انه كجملة الحصارات الموجودة كلا بل هذا اعظم حصارات المغرب .
وناهيك ان النصارى تكاثروا في بنيانه واتقانه طول المدة التي ذكرناها .
وهدموا لاجل ذلك الحناية التي يعجز العالم عن هدمها فما عسى مبناها . واخذوا
حجارتها المنحوتة من عهد ابن النمرود . وافرغوا عليها من ءالات البنآء حتى
قيل انها من صنع داوود . وانما اطلق لفظ حصار على هذا المكان مجازا . وانما
هو مدينة على الحقيقة والبحر بينه وبين من يصل اليه حجازا . وشكل هذه
المدينة مربع . واربع حصارات في تراكنها الاربع . والبحر من قبلتها
والبحيرة من ناحية الجنوب ويلتقي البحر والبحيرة من ناحية الغرب ولهم هناك
مجمع البحرين قبة وهي المعبر عنها بالبريجة في يومنا هذا . وادخلوا خليجا
من البحر ءاخذا من القبلة الى الجنوب ءاخذا في طريق الناحية الشرقية .
وخليجا آخر مارا من الجهة الغربية ويدوران بالمدينة دور السوار بالمعصم
وتدخل غلائطهم من البحر الى الخليج الاخذ من ناحية الغرب وتكون
مرساها عند باب مدينتهم . والباب تحت الحصار الذي على ربع المدينة ما
بين المشرق والجنوب والخليج المار من شرقيها فيه مرسى الغلائط الكبار .
وغربي المدينة على صورة الربض الدور التي كانت سكنى المهجرسين ومن
سواهم من الكفرة ازيد من مائتي دار ولهم حاجز بينهم وبين من يصل اليهم
مثل السور . وبنآء المدينة بوجهين داخل وخارج كل وجه حجارته من
اعظم شيء يكون وما بين الوجهين حجر دقيق مفرغ عليه الجير والرمل كافراغ
الرصاص بحيث لا تعمل فيه المعاويل ولا الفيسان بل ولا البارود الذي هو
بلا ريب . ويشهد لما قلته ان في اماكن من هذه القلعة عدة مواضع كانوا
جعلوا فيها الغاما فلم تغن شيئا . وءاثار هذه الالغام باقية . وءاثار الحيطان
على حالها راقية . وفي وسط الحصار كنيستهم باقية ءاثارها ايضا ولهم عدة
مواجل لاجتماع الماء الذي ينزل من المطر وهي مثل الدواميس مقبو عليها

من اعظم ما يكون وهي باقية الى اليوم . وبكل ربع من الارباع منها حصار مستقل بنفسه مبني على اقبية يحير العقل في وصفها وصورة الاعلى كالاسفل في الاتقان . وهذا قليل من كثير . وانما شاهدناه من بعد التدمير . ولم يبق منها الّا الربع الذي بين القبلة والمغرب وهو الحصار الموجود في زماننا هذا ومفتح الباب الان الى ناحية الغرب . وهو باق على حالته الاولى ولم يتغير منه الّا شيء يسير * ولما نزلت بساحته العمارة العثمانية صباحا وانذروا باخذ ما احكموه « فساء صباح المنذرين » . ولما اخذهم الله اصبحوا لا ترى الّا مساكنهم كذلك نجزي القوم الظالمين . ونزول العمارة من ناحية المشرق وامتدت الى ناحية الجنوب ومن هنالك وقع الردم الذي القوه في الخندق كما ذكرنا سابقا وجعل فوقه المتاريس الى ان صارت مدافع المسلمين اعلى من فوق رؤوس اهل الشقاق . والوضع الذي اخذ منه التراب والتوه في المتاريس انحصر فيه الماء واختلط بماء البحيرة حتى صار كانه منها يسمونه الغديرة الكحلاء لكثرة مائها وعمقها . وصار السمك فيها كثير . والمكان الذي كان مينا المراكب من كل الجهات صار ملاحة يسعى الملح منه الطائفة المرتبون الان لحفظ الحصار . وءاثار تلك المصانع مشهورة وانما وقع الهدم على الدور التي كانت من خارج المدينة وعلى الاماكن المرتفعة منها . واما الجدران فهي الى الان يشهد لها من نظر اليها بانها كانت غاية لا تدرك وانها كانت حصينة منيعة ان ماك او يملك وطولها ... (نقص) ... واما المكان الذي يعرف بالبستيون فمعروف لكن ليس فيه ءاثار بناء الّا ما وجد فيه في حدود الخمسين بعد الالف في ايام حاكم تونس وهو مراد داي لما امر بنقل الازبال التي اجتمعت هناك والزم اهل المدينة ان ينقلوها ويضعوا في المكان المنخفض ما كان في المرتفع فوجدوا من كور المدافع شيئا مستكثرا يستدل به على ما وقع هناك من شدة الحرب وناهيك بمكان اجتمعت على اخذه اربعة عمال واربعة باشوات حيدر باشا ومصطفى باشا صاحب طرابلس واحمد باشا صاحب الجزائر وكان منفصلا عنها في التاريخ ورمضان باشا كان

متوليا عليها . والمدد الذي امدهم الوزير به وهو ابراهيم بك من صناجق مصر ومحمود بك صنجق قبرس وباكير بك صنجق قره حصار كل هولاء ما منهم الا ومعه عسكر الفا نفر من عسكر السلطان والف رجل من الطبجية لخدمة المدافع والف ينشري وهلي عاغة ساحدار الباب العالي وجاعته والطاقة الكبرى وقلج علي قبطان البحر حضر مع هولاء المذكورين وعدة مدافع وزرانز امدهم الوزير بها ومشاهدة الوزير لهم المرة بعد المرة . وبعد هذا لم يحتووا عليه الا بعد فراغهم من حلق الوادي . وان كان هذا الخبر قد سبق ذكره الا اني اعدته هنا لزيادة التعريف بما وقع من البلاء في وقعة البستيون ولئلا يظن الظان ان هذا المكان ليس بشي . واما جزيرة شكلي ادركنا بها ءاثار البناء وقد سبق التعريف بها في اول الكتاب . وهذه الاماكن المذكورة اعجزت سلاطين بني ابي حفص ولم تكن لهم قوة عن حسم هذه الطامة واهل تونس معهم في جهد جهيد . ونار حرب كانما قيل لها هل امتلات فتقول هل من مزيد . الى ان من الله تعالى على هذه المملكة بمن نظر حالها . وذلك بعد ما استولت عليها ايدي الكفرة عتالها . وهو سلطان البرين والبحرين . وخادم الحرمين الشريفين . وقامع الطغاة والمفسدين . السلطان ابن نسل سلطان السلطان سليم بن سليمان . خلد الله سلطنته . وابدها في ذريته . وجازاه في دار الكرامة بما فتح بسيفه وحسن نيته . ورحم الله وزراءه الذين اخلصوا له بالطاعة . ولم يشق احد منهم العصا ولا خرج من الجماعة . خصوصه من كان هذا الفتح على يديه . الوزير الاعظم سنان باشا عاماه الله بما جرت من الصالحات على يديه * ولما تم له هذا الفتح . الذي حصل له به الربح والنجح . بعث بالخبر الى الابواب العالية . وبشر بان الكافرين ليس لهم باقية . وانعم على من كان في ركابه من الزعماء والاكابر . وبذل احسانه لمن كان معه من العساكر . وانعم على كل صاحب مرتبة بما يستحقه . وورد ذلك على الباب العالي فبلغ لكل احد حقه . ومهد البلاد وامن العباد . وقمع وخاف اهل الفساد . وترك في تونس من العسكر العثماني دارا من ديار

الينشرية وهي الواحدة بعد المائة على ما هو المتعارف بينهم . والجاري على عادة القوانين العثمانية ومن سلك طريقتهم . ورجع الى تلك الديار . وخلف من ذكره ما سارت به الركبان وطارت به الاخبار . واخذ قبطان النصارى وقيده رجله في مركبه وحمل السلطان محمد ءاخر بني ابي حفص وهو ءاخر العهد وبه انقطعت دولة بني ابي حفص من هذه الديار . ولم يبق من نسبهم الّا ارامل وعجائز وثيبات وابكار . وانشد لسان الحال *

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

ولمـــــا تمكن قدم العسكر العثماني في تونس كما ذكرنا ورتب الوزير سنان باشا قوانين صارت من بعده ثابتة الرسوم . واظهر ناموس الملك وقدر فيها المرتب المعلوم . رجـــع الى دار سلطانه بالديار الرومية . وخلف هذا العسكر المعبر عنه بالينشرية . فضبطوا ملك تونس ودعمت قواعدهم . واستمرت بايديهم خلفا عن سلف والرجال مساعدهم . واصلحوا ما فسد من بنيانها فاعتنوا . وسكنوها وجعلوا دار الخلافة بها . وهي المعبر عنها بدار الباشا . وكذلك الديوان كان برسم بها وجعلوا قوانين يتميزون بها وحذوا في اول امرهم في الاحكام حذو ديوان الجزائر . والمتصرف في احكام البلد باشا الوقت ونظر العسكر الى ءاغاهم . ودونت الدواوين وخرجت الولايات والجبايات . ونشرت في الاقليم الافريقي باسم السلطنة العثمانية الرايات . وترنم الخطباء على المنابر باسم السلطان العثماني وضرب اسمه على الدرهم والدينار . واضيفت الى مملكة الشرقية هذه الديار . واستمرت عليها الولاة العثمانية . وجاءتها من القسطنطينية زعماء الرؤساء وتحكمت فيها الباشوية . وجعلوا اصطلاحها على عادة اهل الجزائر التحكم في الديوان والعسكر جماعة البلوكباشية . ولكن ساروا في احكامهم بعنفة على من دونهم في العسكر ووقع منهم الجور حتى ان الواحد من البلوكباشية اذا كان عنده صبيان وهم المعبر عنهم بالعزوبة تكون له حرمة وافرة وربما مد يده في اليولداش وما عسى من دونه * فسيمت نفوس العسكر واضمروا لهم الشر وتعاقدوا بينهم على

الفتك بهم في يوم معلوم وهو يوم جمعة * وكان وكيل الخرج في الديوان واحد منهم أسمه طبال رجب وله عقب الى اليوم فساعدهم على ما ارادوه ووعدهم انه لا يحضر ذلك اليوم لتكون البيت التي فيها السلاح مغلوقة بحيث لا يجدون سلاحا يذبون به عن انفسهم . فلما كان اليوم الذي تواعدوا فيه واجتمع اهل الديوان دخل عليهم العسكر على حين غفلة ووضعوا السيف في من وجدوه هناك ولم ينج الّا من لم يحضر ذلك اليوم وتتبعوهم في منازلهم وقتلوا منهم من ظفروا به ولم ينج الّا من فر بنفسه وكانت هذه الواقعة ءاخر ذي الحجة سنة تسع وتسعين وتسعمائة * وكانت اشارة الشيخ الشاش قد تقدمت بما صار لهم لانهم كانوا طالبوه بمال ليستعينوا به على مرتباتهم لان الشيخ كان ينفق انفاق من لا يخشى الفقر من كثرة احسانه للفقراء واحياء الزوايا التي في المدينة والخارجة عنها واطعام الطعام وفك الاسارى وافعال البر حتى قيل انه كان يصرف في انفاقه من كون الله فسولت لهم انفسهم بمطالبته فطالبوه وارادوا اكراهه فبعث جماعة من الفقراء الى المجازر التي بتونس وامرهم بمشتري رءوس الكباش فاجتمع له منها شيء كثير وفي اثناء ذلك حل بهم ما حل فكانوا يرون هذه الوقيعة من كرامات الشيخ نفع الله به ءامين * ولما فعلوا فعلتهم تحزبوا احزابا وصار كل حزب منهم له رءيس فاجتمعت عدة رؤساء وصار كل رءيس يدعا باسم الداي وهذه اللفظة معناها خال باللسان العربي وهي عندهم تكبرة بمن ينادى بها وصارت جماعتهم تقرب من ثلثمائة رجل * واذا حل بهم امر تجمعوا في القصبة وتشاوروا بينهم الى ان يتفقوا على راي واحد ولكن لا يتم لهم راي من كثرة داياتهم * وكان اكبرهم اذ ذاك ابراهيم داي اشتهر بينهم بشجاعته وكثرة جماعته الّا انه لم ينفرد بينهم بالحكم فمكث على حالته ثلث سنين وطلب منهم دستورا لزيارة الحرمين فاذنوا له وفارقهم ولم يعد اليهم وعاد الى بلاد الروم فاستوطنها وعاش الى بعد الستين والالف * ولما خرج من بين اظهرهم قام مقامه موسى داي واراد ان ينفرد بكلمته في الحكم فلم يتم له مراده فلما راى الاضطراب في العسكر

والهرج بينهم ذلت نفسه فمكث نحو سنة وطلب منهم المسير الى الحج كما طلب ابراهيم داي فاذنوا له . فلما خرج من بين اظهرهم بعثوا له ان لا يعود اليهم فما رجع بعد ذلك . ثم تتابعت فيهم الوساة وصار كل واحد منهم يريد الاستقلال فقام من بينهم اثنان احدهما قارة صفر والاخر عثمان وكان عثمان اذل من في الدايات جمعا وذكرا الّا ان الوقت ساعده والقدر موافق له فوقع بينه وبين صفر داي مشاجرة فذهب كل واحد منهما الى منزله ولبس لامة حربه واقبل الى القصبة . فسبق اليها عثمان فدخلها وجلس في سقيفتها واجتمع اليه بعض جماعته فلما راى صفر داي مقبلا الى القصبة بعث له من رده وامره بالخروج من البلاد فخرج على وجهه ولم ينتطح بينهما عنزان فخرج صفر داي وسافر الى ناحية الجزائر ولم يزل هناك الى ايام يوسف داي فاعاده الى البلاد ولم يكن له اسم بعد وعاش الى قريب من الخمسين والالف ومات بتونس بعد ما تزوج بها وكان له ولد * وادركت صفرا هذا ورايته . واما عثمان فانه لما نفى صفرا هابه من سواه واخذ في تفتيت اكابرهم وخافه اكثرهم فهربوا من بين يديه وسكن غالبهم في اطراف البلاد خيفة منه . وهو اول داي انفرد بالكلمة في سنة سبع والف . فباشر الولاية بجاش متين وصولة زائدة وكانت فيه شجاعة قوية بحيث يباشر الامور بنفسه . وربما سمع ببعض الجنات في الغابة للمفسدين من الاتراك ينتهبون الغلة فيخرج بجماعته في طلبهم حتى يظفر بهم . وكان اهل البساتين قبل ولايته اذا طابت غلاتهم طلبوا من اهل الديوان من يحرسهم ممن يجتري عليهم من العسكر لنهب غلاتهم فيعينون لكل مكان سانجيا يحرسهم ويجعلون له جعلا على ذلك . فابطل عثمان عادتهم وصار يحرسهم بعنايته فخافه الناس وجعل تلك العادة ياخذها الساقجي من الباعة الذين يلوجون في الاسواق فلسان على كل واحد . وانحسمت الاشرار من التعسف في الجنات والبساتين . وقام بالدولة احسن قيام لا ترد كلمته . واذا تكلم لا يراجعه احد . وارادوا ان يغتالوه مرارا فلم يتم لهم ذلك لانه ياتي اليه من

يعلمه فيتمكن منهم ويقتلهم اشر قتلة * ولما تم له الامر نفى اهل جربة القاطنين بتونس لانهم كانوا تحت حكم اهل طرابلس فاجلاهم من تونس * وكثرت في ايامه غنائم البحر حتى كانت لا توصف وفي ايامه كبر صيت محمد باي بن حسين باشا وكان قبطان البحر بغلائطه وجر دة غنائم مشهورة . وكان عثمان داي اذا جاءت غنائمه طلع الى حلق الوادي ويبعث الغنيمة هناك فيقع للتجار ربح قوي * وفي ايامه جاء دال قبطان من بر النصارى وحصر ما بحلق الوادي من المراكب ومنعها من الخروج فخادعه عثمان داي الى ان غدر به واسره وسجنه في القصبة وبها مات * وفي ايامه كان الفناء الاعظم وذلك في سنة ثلاث عشرة واربع عشرة بعد الالف وهو مشهور بين اهل الحضرة بحيث اجتمعت ثلث مسائل الوباء والغلاء وتغيير السكة في زمان واحد فكان اهل تونس يرون هذه الامور من اعظم شيء حل بهم بحيث بلغ قفيز الحنطة ثلثين دينارا . وادركنا من كان يستعظم هذا الامر ولو ادرك ما رايناه في عصرنا لاستصغر ذلك لانا شاهدنا الغلاء المفرط الذي لم يسمع بمثله في افريقية قط بحيث بلغ القفيز من الحنطة اضعاف ذلك وبيع الصاع من الحنطة بنصف ريال فيكون ثمن القفيز قريبا من المائة ريال وذلك في محاصرة القصبة والمدينة في الكائنة العظمى التي حرقت فيها ابواب المدينة وسياتي لها ذكر بعد . واجتمعت مسائل غير هذه * وفي ايام عثمان داي كثرت غنائم البحر كما قدمنا لان النصارى كانوا في غفلة عن الاستعداد لتشحين المراكب الكبار . وانما كان يسافر الغزاة في القراقط وما ظهرت المراكب مثل الشيطيات والبطاشات وغيرها من السفن الكبار الا في زمن عثمان داي . وكذلك في بلد الجزائر وتمادى الحال الى اليوم وسافر عثمان بنفسه المحلة مرتين محلة الجريد وهي التي اخذ فيها بلد سدادة ومحلة الصيف . ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العدل بها ويسمونها قوانين عثمان داي وقد تغيرت الان تلك القوانين * وفي سنة سبع عشرة قتل عثمان داي محمد باي بن الباشا حسين لانه اراد الوثوب على عثمان

ففطن به . وكان اتفق مع جماعة مستفيضة واطلع على امرهم ساقسلي* رجب فاخبر عثمان داي بذلك وقيل كذب عليهم وفي سبب قتله اختلاف وانذر محمد باي فتفرقت جماعته وهرب بنفسه الى ناحية افريقية فخانته تلك العرب وقبضوا عليه واتوا به فسمع عثمان داي فبعث من قتله قبل ان يدخل تونس خيفة من الفتنة * وكان عمر محمد باي اذ ذاك ثماني وعشرين سنة وذكره طبق بلاد النصارى وفعل يوم الناقرة ورزق سعادة في البحر لم يسمع بمثلها وكان نسيج وحده رحمه الله وعفى عنه * وفي هذه السنة والتي تليها جاءت الاندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقا كثيرا فاوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة اماكن . ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلي ونيانوا وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبربة وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من اعظم بلدانهم واحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك بحيث تكون عدتها ازيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد * ولمـــا استقام لعثمان داي ما اراده عاجله حمامه واتى عليه ما اتى على غيره ولحق بربه في سنة تسع عشرة بعد الالف ولم عقب الى يومنا هذا * وقـــام بالامر بعده يوسف داي وهو اول داي استقام امره بلا تعب وكان عثمان داي رشحه في حياته وزوجه بابنته ولم يدخل بها وكان في مرضه سألوه من يلي بعده فقال لهم — صاحب الامر عجم داي — (وكان غائبا في بلد باجة لان فيه شهامة) — وان اردتم هناء انفسكم فقدموا يوسف الان لان فيه لينا . وكان قصده توليته لانه صهره فلما مات عثمان بعثوا الى عجم رسولا واصبحوا منتظرين في امرهم وتجمعوا عند دار عثمان داي * فبينما هم كذلك اذ دخل علي ثابت وكان من اصحاب يوسف فلما راى جمعهم اقبل بجسارته وقبل يد يوسف داي

وبارك له فلم يبق من الجماعة احد إلّا وفعل مثله فبايعه كبار العسكر وطافوا به الى النصبة واجلسوه على عادتهم وجاءه الناس وبايعوه على طبقاتهم وتم له الامر . ومن غد اقبل عثيم من باجة فاغي الامر قد فاته فلم يسعه إلّا المبايعة فكان يوسف داي يكرمه فيما بعد . واخذ علي ثابت في تدبير المملكة وصرف نية يوسف داي عن التزويج بابنة عثمان داي فتخلى عنها ودبر عليه بتزويج حظايا من بنات الاعلاج لانه خاف من مصاهرته لاولاد عثمان داي والزمانى جدهم ليستبد هو بالامر وحده فكان كذلك فاستقام امره وساعده جده الى ان بلغ رتبة لم يبلغها احد قبله وسياتي له خبر . وفي ايام يوسف داي تحضرت البلاد وكثرت عمارتها وكان مغرما بتجهيز المراكب في البحر للغزو وبلغت عدتها خمسة عشر مركبا من الكبار . وفي ايامه كثرت الروساء في البحر وكانت لمراكبه سمعة وهيبة . ومن اعظم روساء عصره قبطان صمصوم وقبطان وردية كانا نصرانيين فسافرا في ايامه وهما على دينهما واسلما بعد وكان لهما صيت في البحر . وساعدته الايام بالغنائم من البحر والهنا في البر فبنيت في ايامه عدة اماكن في المدينة منها سوق الترك امر بتحضيره على ما هو عليه اليوم وكان على غير هذه الحالة فجاء من احسن الاسواق التي بتونس وبنى الجامع المشهور به وجعل امامه من الطائفة الحنفية وجعل له ارتبا المؤذنين والقراء والخدمة فجاء من احسن ما يكون وبنى بازائه مدرسة تعرف به ايضا وفيها عدة بيوت للطالبين بها وتدرس على مذهب الامام ابي حنيفة وجعل مرتبا للطالبين بها والخدمة وارتب عليهم ارتبة من الخبز لكل من المؤذنين والامام والطلبة وقد تلاشى اكثر ذلك . وبنى الميضاة التي تحت القهوة ينتفع بها كثير من الناس وكذلك القهوة التي فوق الميضاة وجاءت من احسن ما يكون وجاءها وقفا . وبنى السوق الذي بالخرابة ماوى التجار وهو من اعجب الاسواق وكذلك الحمام القريب من السوق المذكور وبنى عدة فنادق لسكنى الطائفة اللوند . وكذلك السوق الذي يباع فيه الرقيق من السودان

وغيرهم ويقال له البركة وهي من اجل الاسواق * وكذلك فتح باب البنات بعد ما كان مسدودا وبوبه وجعل فيه عدة حوانيت فجاء من احفل الاسواق وبنى قريبا منه سوقا يباع فيه الغزل وكانا قبل اليوم في غاية العمارة وقد تلاشى امرهما ولم تبق الا رسومهما وعمرت تلك الناحية بعد ما كانت خرابا من مكان يعرف بزنقة جودة الى باب البنات وكان المار من هنالك في النهار يخاف على نفسه فعمرت تلك الناحية وهي اليوم من اجل حارات تونس . وله غير ما ذكر من الخيرات التي بقيت بعده تذكر . ومن اكبر حسناته ان جلب الماء العذب على الحنايا المشهورة بزغوان وفرق ماءها في المدينة في عدة اماكن منها القبة المرخمة التي تحت الصومعة الملاصقة للجامع الاعظم ومنها في راس سوق الترك وفي اماكن اخرى وانتفع الناس بهذا الماء زمانا وقد تعطل في زماننا هذا لقلة من ينظر في شأنه واهمال الحكام له ولا حول ولا قوة الا بالله * ومن خيراته بناؤه القنطرة العجيبة التي على وادي مجردة من ناحية بلد طبربة وجاءت من اجل المناظر وهي اليوم من اعجب المتنزهات التي لها ذكر بين الناس . وكان عليها برج في حياته ثم زاد فيه من بعده مولاه الفتى نصر آغة ثم تولع به والد المرحوم احمد شلبي وصفحه ثم صار من بعده الى حفيده ابي الحسن علي باي فزاده ضخامة الى ان صار يضرب به المثل وجاء بسعادته في اجمل شكل وبنى الباي الثالث زيادة اصلاح . وبنى في عدة اماكن غير ما ذكر المكاتب [illegible] في الاماكن المتفشة وجلب اليها المعلمين من اماكن بعيدة [illegible] وكانت له صدقات عديدة منها [illegible] في ليلة المولد الشريف خمسة ريالات لكل مكتب حتى ان المكتب ولو تعطل في مدة السنة يجيء في هذه الليلة لاخذ ما هو معلوم اثابه الله على صنعه * ومن زان ايام دولته . وسلك في فعل المعروف طريقته . وكان يصدر عن رايه في قوته وقعدته . المرحوم برحمة الله الحاج علي ثابت وهو رحمه الله تعالى حسنة من حسنات يوسف داي . وكان صاحب احسان للفقراء والمساكين

وله ذكر عند اهل تونس لايحتاج الى تعريف * ومــــن بعض حسناته تصحيحه للمسجد الذي بازاء داره داخل باب الجزيرة وجعل له اوقافا وكذلك تشييده للجامع خارج الباب المذكور والميضات التي بسوق الترك وجاءت من اجل ما يكون وينتفع بها الغريب وجعل لها اوقافا لمن يقوم بها وكانت في غاية الحسن الّا ان بعض حفدته استولى عليها وامرها مصير الى التلاشي وله اخبار تحتاج الى ديوان ومات رحمه الله في سنة احدى واربعين والف وهو ممن كان يعين يوسف داي على فعل البر ولو تتبعنا حسنات يوسف داي لطال بنا التتبع لها * وفي ايامه في سنة اثنتين وعشرين والف كانت محلة الجزائر الاولى ولم يقع بينهما قتال * وفي ايامه كان الفناء الاعظم الذي يقول له اهل تونس وباء سيدي ابي الغيث لانه فيه توفي الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به وكان في سنة ثلثين واحدى وثلثين والف ومات فيه خلق كثير . وفي ايامه سنة اربع وثلثين اخذت غرابان من اغربة مالطة وجيء بهما الى تونس وزينت البلاد لاخذهما * وفي سنة سبع وثلثين كانت الواقعة العظمى بين عسكر الجزائر وعسكر تونس ومات فيها خلق كثير وكانت في شهر رمضان من السنة المذكورة واستجلبهم الشيخ ثابت بن شنوف واطمعهم في البلاد ولما التقى الجمعان كانت الدائرة في اول يوم على اهل الجزائر حتى طلبوا الامان ثم ان الاعراب خانت وكان اعظمهم اولاد سعيد فانكسرت محلة تونس ونهبت وعاثت الاعراب في الوطن ومشت جماعة من مشيخة البلاد مثل الشيخ تاج العارفين العثماني والشيخ ابراهيم الغرياني والشيخ مصطفى شيخ الاندلس وغيرهم وتم الصلح بين الفريقين * وفي سنة ثمان وثلثين كانت محلة الكاف لقيام بني شنوف وكابد هذه الاهوال مراد باي وكان صاحب دهاء . وفيها اخذت النصارى غلاطين لاهل تونس . وفي سنة احدى واربعين توفي الحاج علي ثابت وفيها جاء منصب الباشا الك لمراد باي . وفي التي تليها اخذت جماعة من اولاد سعيد وركبوا على الخوازيق في المراكض وفيها ظهرت نجابة محمد باي . وفي ايام يوسف داي فتحت

الحمامة بعد نفاق سبع سنين ولم يزل رحمه الله الى ان سار الى رحمة الله مشكور السعي عند الناس وكان مغرما بالصيد يخرج الى البادية ويقيم عندهم اياما ويصطادون معه ولم يكن له منازع في البلد ومات عن سن عالية ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من رجب الفرد سنة سبع واربعين والف ودفن في مسجده المعروف به وبنى عليه ولده تربة بديعة الشكل رحم الله تعالى هذه الروح الطيبة وجازاها بما هو اهله * ومنهم أصطا مراد بن عبد الله من الاعلاج بويع صبيحة اليوم الذي مات فيه يوسف داي واتفق على تقدمه جماعة واكبرهم مامي من اكبر مماليك يوسف وكان يرى نفسه انه احق بالامر من غيره الّا انه خاف من العسكر انهم لا يقدمونه وراى انه يقدم اصطا مراد فان رضوا به دبر في خلعه واستبد هو بالامر . فعاجله اصطا مراد لما تم له الامر ونفاه الى زغوان وقتل هناك ولما تم له امره باشر الولاية بجاش متين . واول ما امر به قطع الخمارات التي بين الازقة وكانت كثيرة وابطل برج البستيون وابطل بيع القمح الذي كان يباع به وابطل ايضا بادنة السميد والدقيق ونظر في معايش المسلمين احسن نظر * وكان الرغيف الذي يباع بناصري زنته ستا وثلثين وقية وبيع اللحم في زمانه بناصري الرطل في فصل الشتاء وكان الناس في ارغد عيش وامر بنقل الازبال التي خارج باب البحر وكانت كيمان كالجبال وخدم فيها الربضين والمدينة نوبا بينهم وكان يحضر بنفسه وجماعته كل يوم . وفي اول سنة من ايامه جاءت غلايط الجزاير الى تونس وكان عددها ثمانية وسافرت مع غلايط تونس وهي ثمانية ايضا انتصارا للسلطان في حرب أولونه فحصرتها عمارة البندقية في مكان استحال الخروج منه فكان من رايهم انهم نزلوا الى البر باجمعهم ومن معهم من اسارى النصارى واحرقوا الغلائط كلها وتوجهوا برا الى قسطنطينية فانعم عليهم السلطان بغلايط من عنده ورجعوا الى بلادهم وكانت هذه الواقعة سنة ثمان واربعين * وفيها جاء الخبر بان السلطان اخذ بغداد فزينت المدينة سبعة أيام وكانت هذه الزينة من

احسن ما شوهد في تونس من الدعة والسناء . وفيها جاء الخبر بوفاة السلطان مراد وتولية اخيه السلطان ابراهيم . وكانت ايام اصطا مراد هذا من احسن الايام . وقد اتفقت جماعة على القيام عليه فتفطن بهم وقتل منهم جمعا كثيرا وفر من فر منهم . وكانت له صولة عظيمة وهيبة وهو اول من جعل القواد يلازمون بابه كل عشية بقصد الانصاف لمن يشتكي منهم ولم تكن هذه العادة لمن تقدمه * وفي ايامه بني البرج الذي بغار الملح على يد المعلم موسى وامر ان تبنى هنالك مدينة واستنفر الناس الى السكنى فيها وسلفهم دراهم للتعمير والاعانة فاستوطنها جمع من الاندلس وغيرهم وهو السبب فيه حتى صار من اجل المراسي التي ببلاد الاسلام وكان قبل ذلك مكمنا للنصارى فانحسم ضررهم وهذا بعض من حسناته . وبيع قفيز القمح في ايامه باربعة دنانير نواصر وطر الزيت بدينارين ومنع خروج القمح لبر النصارى ودخلت هيبته في قلوب العسكر والعامة من الناس حتى ان الذمي كان لا يجار عليه ولا يظلم بشيء . وكانت كلمته لا ترد ولا يراجعه احد ولو كان ولده . وهو احد من راس في والبحر لانه كان خدم فيه قبطانا ورزق فيه السعادة التي لم يرزقها احد من قبل * وكانت ايامه في البحر من اجل الايام ولما تولى الحكم بتونس كانت ايامه عند العامة كذلك الى ان توفاه الله وقدم عليه بعمله وكانت وفاته سنة خمسين والف رحمه الله تعالى * وقـــــــــام بالامر بعده احمد خوجه ويقال له اوزون خوجه باتفاق من العسكر ولم يختلف منه اثنان لانه كان في اول امره وهو خوجه بالديوان يعامل الناس بالرفق واللين وخصوصا الايتام من ابناء العسكر يهش لهم ويحنن عليهم فمالت اليه القلوب وقدموه عن رضى منهم فباشر الولاية بجبروت وشهامة وكان جبارا للمال * وفي اول ولايته جاءت اغربة مالطة ودخلت الى حلق الوادي واخذت منه عدة مراكب احدها مركب بو شاشية وحرقوا مراكب اخر وفعلوا فعلا عظيما ولم يمنعهم البرج الذي هنالك فعند ذلك امر ببناء برج اخر لحماية المرسى

ويومئذ ايضا كان الغلاء المفرط الذي لم يسمع بمثله وفعل فيه بسرا ظيما المرحومان محمد باشا واحمد شلبي لانهما جعلا صدقات من الارغفة للضعفاء تفرق عليهم كل يوم ويقع تزاحم بين الناس في مكان التفريق وربما مات بعض من الازدحام بقربة من زاوية الشيخ الجليزي وانقطعت الاسعار من القمح والشعير ولكن كانت مدة يسيرة . ثم تدارك الله سبحانه عباده وتراجع الحال واتت السنة في غاية الخصب وارتحم الناس * وفي اول دولته وقعت المحاسبة بين المرحوم محمد باشا وسليمان باي وظهر قبل سليمان مال اخذ عوضه محمد باشا فلباطه والزندالة والسانية التي براس الطابية فوهب كل هذا لاحد خوجه وهذا يدل على سخاء الباشا المذكور . وفي سنة ثلث وخمسين كان الفناء الاعظم ودام سبع سنين * وفي سنة خمس وخمسين كان ابتداء العمارة لكندية وجاءت الاوامر السلطانية لقصد العسكر والمراكب اعانة للسلطان فندب احد خوجه الناس وجعل على اهل المدينة والربضين اموالا لتجهيز المسافرين وعين جمعا من الرعية للسفر ولكل واحد جعلا من ذلك المال مقداره ثلثون كرونة لكل رجل وعين جملة من المساحي والفيسان والقفاف وبعثهم في المراكب وكذلك في السنة التي بعدها ثم قطعت بعد ذلك . وفي ايامه ابتدا المرحوم محمد باشا بتزميل الزمول وقويت شوكته على العربان ومشى فيهم الهوان . ومات سليمان باي في ايامه وانفرد الباشا بتدبير وطنه ولم يكن له منازع وحصلت بينه وبين احد خوجه مشاحنة لدخول بعض الماكرين بينهما فسلمه الله من شره وتحكم فيه ومات على يديه في اشد اهانة وكان اسمه حيدة عاشور فانتقم الله منه واستقامت احوال احد خوجه وكان طائعا في عسكره بحيث انه استنفر العسكر الى غار الملح لاجل واقعة يطول شرحها فلم تكن الا ساعة من النهار حتى خرج العسكر عن آخره ولم يبق بالمدينة احد وهذا من نفاذ امره . وكانت قريبة من موته فلم يعش بعدها الا اياما يسيرة وبداه مرضه الذي مات فيه وكانت وفاته سنة سبع وخمسين والف * وتولى بعده الحاج محمد

لاز في صبيحة اليوم الذي مات فيه احمد خوجة وبويع في جمع من اكابر العسكر في سقيفة احمد خوجة وطلعوا به الى القصبة وجلس على بابها وجددت بيعته هنالك وكان مسكنه داخل القصبة فكان يجلس عند الباب لتعاطي الاحكام في كل عشية الى ان انتقل الى داره المجاورة لتربة الشيخ ابن خريسان . وفي اول ولايته كانت الوليمة الكبرى التي لم يسمع بمثلها في اقليم المغرب وهي الوليمة التي صنعها المرحوم محمد باشا لولده المرحوم مراد باي بالحرة الجليلة ابنة يوسف داي رحم الله الجميع واظهر في العروسية من ابهة الملك ما لم يكن لغيره في الديار التونسية ومكث اربعين يوما في الاحتفال لها وانفقت فيها اموال تجل عن الحصر وشاهد الناس ما اذهلهم مما لم يسمع بمثله وفي جملة الايام الاسمطة ممدودة بالاطعمة الفاخرة مما يكل عنه الوصف واكل منها اهل البلد قاطبة ولم يرد احد عنها وجاءت الناس من اقطار الارض والمغنيون من سائر البلاد ولم تخل ليلة من الليالي من الفرح ويسرج من القناديل ما لا قدر له ويوقد من الشموع كل ليلة ما يشهد له العقل انه لا يكون إلاَّ بديار الملوك الضخمة وكانت تلك الايام تعد من الاعمار وجاءت الوفود من كل بلد للتهنئة وانشدت الاشعار واجيزت اربابها ووصل من الاحسان والبر لمن يستحقه وتحقق عند اهل تونس انهم ما سمعوا بمثلها حتى في زمن بني ابي حفص وهي اول وليمة صنعها سامحه الله تعالى وغفر له بمنه وكرمه * وفي ايام الحاج محمد لاز تقوى امر بلقاسم المنستيري في الامارة ومنته نفسه بالغرور وذلك بمعاونة كشك مراد مملوك الحاج محمد لاز وكان لاز المذكور يصدر عن راي مملوكه * وفي ايامه صودر القائد عبد الله ابو خوران واستصفت امواله واهين بعد ما كان قائد القواد على يد المرحوم محمد باشا * وفي ايامه صادر الباشا المذكور بلقاسم القفصي واخذ جملة امواله واعتقل في زاوية الشيخ سيدي ابي الحسن الحلفاوي ثم رضي عنه فيما بعد ورد عليه ما اخذه منه وبعده استصفى اموال بني صندل ونكبهم على يد كاتبه احمد المناري وتقوى شان علي هوى

الترجمان بمساعدة الباشا له حتى اعجبته نفسه ومنته بالمحال فنكب على يد الباشا واراد ان يفتك به فعاجل نفسه بان اكل السم ومات وهذا من حسن نية الباشا بحيث لم يفته من اعدائه احد . وفي اول ولاية الحاج محمد لاز كانت الطامة الكبرى وكادت ان تكون فتنة لولا ان تداركها الله براي الباشا المذكور وهي التي بعث فيها عدة نواصر من مرتبات العسكر على يد القائد داود اليهودي الذي كان صرافا فكادت ان تكون فتنة بين العسكر فهدن الله الفتنة برايه السديد ورد لكل واحد ما نقص من مرتبه ودفع المال من عنده وحمل من داره الى الديوان اكياسا على اعناق الرجال وكان شيئا مستكثرا وسلم الناس من الفتنة وهذه النازلة تعد من مآثره الحسنة الجميلة . ودامت ايام الحاج محمد لاز الى ان توفاه الله لثلث وعشرين خلون من شوال المبارك سنة ثلث وستين والف بعد مرض طويل ودفن بتربته عند باب القصبة * وقـــــــام بالامر بعده الحاج مصطفى لاز بويع في صبيحة اليوم الذى دفن فيه الداي المذكور وذلك بمشورة الباشا وهو اذ ذاك باي المحال فبعثوا يشاورونه في من يتولى دايا فاشار بتولية الحاج مصطفى لاز فعندما جاء امره السعيد بايعه العسكر . وعند جلوسه بباب القصبة دخل الباي المذكور من غد وكان قد رجع من سفره فاشتد به عضد الحاج مصطفى لاز . وكانت جماعة غيره اعناقهم ممتدة للولاية فطاح ما بايديهم ويئسوا . ولمـــا استقر في الحكم وتمهد امره زوجه الباشا بجارية من جواريه وجهزها بجهاز معتبر كاحدى بناته ووهب له دارا من اجل الدور وفعل معه من الجميل ما لا حد له . وفي اول ولايته نكب بلقاسم المستيري على يد الباشا لانه كان حاقدا عليه لامور بدت منه وكذلك نكب الشيخ مصطفى الاندلسي واستصفيت امواله وهرب الى وطن الجزائر ومات هناك وكذلك نكب الشيخ صالح وفعل به ما فعل بغيره . وفي ايـــام الحاج مصطفى جاءت مراكب الانكليز الى غار الملح واحرقت مركبا كان خارج المرسى ورمت على الحصار بالمدافع واستنفر العسكر الى غار الملح

وكانت واقعة مشهورة وذلك في سنة خمس وستين والف * وفي السنة التي تليها كانت الوليمة الثانية من الولائم المشهورة التي صنعها لولده محمد باشا الحفصي على ابنة عبد الرحمن باشا وكانت ايضا تعد من عجائب الدهر * وفي ايام الحاج مصطفى بعث محمد باشا هديته المشهورة مع ابن قلمان ولم تدخل في الديار الرومية هدية افخر منها من بلاد المغرب وطلب منصب البشاوية فاجيب الى ما سال وجاءته الاوامر العثمانية سنة ثمان وستين وخوطب فيها الباشا ابن الباشا . وفي ايام الحاج مصطفى لاز كانت الزينة المشهورة التي ضرب بها المثل لما كان بها من الدعة والترف وجاءت من احسن ما يكون وهي بشارة باخذ السلطان اوليما من بلاد النمسة . وكانت ايام الحاج مصطفى ايام هناء وراحة لان غالب تدبير الامور كان يصدر عن راي الباشا رحمه الله والا فالحاج مصطفى كان لين العريكة ويكره سفك الدماء الا ما كان من واجبات الشرع واكثر الاحكام يقلد فيها الشرع * وفي ايامه كانت الوليمة العظمى التي اجتمع فيها ثلثة باشاوات وهي وليمة احمد باي بابنة عثمان باشا صاحب طرابلس واحتفل فيها المرحوم محمد باشا غاية الاحتفال وكانت سنة تسع وستين . وطالت ايامه الى ان توفاه الله ليلة الجمعة التاسعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس وسبعين . وقـــــــــــام بالامر بعده الحاج مصطفى قره كوز جلس عند باب القصبة في صبيحة اليوم الذي مات فيه الحاج مصطفى لاز من غير اتفاق من العسكر وانما قدم نفسه بنفسه واستولى على الامر بشهامته وكان مهابا وفيه اقدام فهابه الناس . ويوم ولايته ظهرت عليه سكينة وابتدا امره بتنفيذ اهل الجرائم ومعاقبهم بالشنق والخنق على ادنى شيء وخصوصا من اتهم بالسرقة فكان لاينظر في امره بشيء ولا يعرف له الا لفظة حبل فشنق خلقا كثيرا وفر من المدينة كل من كان يتهم بشيء وتفرقوا في البلاد ولم يعد اكثرهم الا بعد موته . وكان فيه بعض هرج وتعطل غالب الاحكام في ايامه وصار غالب اهل الديوان وغالب الحكام لا يتصرفون

بشيء خيفة من باسه وشره وربما تعطلت بعض احكام الشرع وهو الذي
عزل الشيخ مصطفى بن عبد الكريم من منصب الفتيا وقدم عوضه الشيخ ابا
المحاسن يوسف شهر درغوث فباشر الفتيا بعفاف وصلابة في الدين والحق
الى ان توفاه الله شهيدا كما سياتي وهو يعد من حسنات قره كوز * وفي
ايامه كانت وليمة محمد باي ابن المرحوم مراد باي بابنة احمد شلبي ابن
يوسف داي واحتفل الباشا كعادته في غيرها من الولائم . ولم يزل قره كوز
في تشديده على الجناة والاقدام على سفك الدماء حتى ان اكثر المعاملات
كادت تبطل وانحسم الشر عن الناس وخافه البعيد والقريب وانقطعت
السرقة من البلد إلّا ما قل ونزلت العافية حتى في البادية ولكن لم تطل
ايامه . وكان في سن الشيخوخة وقيض الله له قرناء منهم احمد صنابلي والحاج
حسين شاقال فذهبا به كل مذهب وعاجلاه بان اطعماه سما فتغيرت امزاجه
وتضاعف ما كان فيه من طبع السوداء حتى صارت تحدث له حالات
متناقضة ولم يفعلا به ما فعلا إلّا ليتم لاحدهما الامر بالولاية . ولما ازدادت فيه
السوداء اتفق جماعة من الاكابر ووافقهم بعض روساء الوقت فخلعوه وقدموا
عوضه الحاج محمد حاج اغلي . وفي شهر رمضان علق الحاج علي الثلاري
وكان ترجمانا . وفي عشية منه ايضا علق خمسة انفس على دعوى من غير
اثبات . وفي ءاخر دولته توفي المرحوم برحمة الله محمد باشا وبموته انفتق
الرتق وصار كل احد بقدر اجتهاده وانفتح باب الخلع على الدايات فخلعوه
اواخر ذي القعدة سنة سبع وسبعين والف واخرجوه من القصبة الى داره بحومة
كتاب الوزير فلم تطل ايامه ومات في العشر الاول من ذي الحجة من
السنة المذكورة . ويوم خلعه نفي من المدينة حسين شاقال واحمد صنابلي
ولم يتم لهما ما املاه ولله سر في تقلبات الزمان * فتولى الامر الحاج محمد
حاج اغلي المتقدم الذكر جلس على باب القصبة يوم خلع قره كوز وابى ان
يدخل دار الامارة حتى اخرج قره كوز منها فعند ذلك دخلها وهي دار معدة
لمن يتولى هذا المنصب . والحاج اغلي هذا ممن ترأس في المراكب وكان

يعد من القبابطين المشهورين وكانت فيه سكينة زائدة فلاجل ذلك قدموه ظنا منهم انه يحسن السيرة في البلاد فظهر منه خلاف ذلك فقل تدبيره وصار لا يامر بشيء الّا فيما قل وربما يامر بالشيء وينهى عنه كانه ما امر به وتلاعبت الايدي في الاحكام ولم يرد احد عن مراده . ونفى جماعة من الاكابر وسال منهم بعد ذلك وقيل انه لم يامر في امرهم بشيء وصارت الاحكام تصدر من غيره ويوهمون انها صادرة عنه . وصار الكاتبان اللذان بالديوان هما صاحبا الحل والعقد وهما شعبان خوجة والحاج محمد بيشارة لا ترد لهما كلمة . وفي ولايته امر بخدمة الزبلة التي عند سيدي عبد الله الشريف نفع الله به وخدم فيها الربضين والمدينة عدة ايام وكان يحضر بجماعته هنالك ودام على حالته الى اول سنة ثمانين وقيل احدى وثمانين فخلعوه كغيره واخرج الى داره بمقربة من دار الديوان وبعد ايام حجر عليه ولزم بيته الى ان توفاه الله وقيل انه خولط في عقله فلهذا خلعوه . ومنهـــــم الحاج شعبان خوجة المذكور جلس مجلس الدايات في القصبة في السنة المذكورة . وفي تلك الايام كانت الوليمة التي صنعها مراد باي لاخيه حسن باي ولولده علي باي وجاءت من اجل ما يكون ومشى على طريقة والده واربى عنه واظهر من الاحتفال ما لا يوصف . وفي ايام الحاج شعبان كانت الزينة العظمى لاخذ كندية في ذي القعدة من سنة احدى وثمانين . واول امره باشر الولاية بتعفف ونظر في معايش الناس وربما باشر بنفسه ميزان الخبز في الاسواق وكان مهابا وسكناه بالقصبة فاخذ له المرحوم مراد باي دارا ووزن ثمنها وزاد الحاج شعبان في بنائها على ما كانت عليه فجاءت من اجل الدور وسكن بها . ثم خالطه بعض اهل الفساد واغروه بمعاداة البايات وزينوا له كل قبيح واضمر ان يفتك بهم وفشا الخبر بين الناس وبلغ الى ارباب المملكة فمكروا به قبل ان يمكر بهم . والذي اغراه على ذلك ابن القائد جعفر ومحمد بن احمد خوجة على ما قيل . فلما رجع مراد باي من محلته محلة الشتاء سنة اثنين وثمانين ابى ان يدخل الى المدينة

واضمر الشر لشعبان خوجة فلما فطن لذلك خاف على نفسه وكان مراد باي كاتب اكابر الدولة واخبرهم بما نوى الحاج شعبان فمالت قلوب الناس عنه وتحقق ما اضمره بما صنع قبل من امور فيها بعض هضم في جانب البايات فلما احس بالشر بعث بجماعة من اصحابه الى الباي يستعطفونه وحلف لهم بايمان وكان الباي مراد لم يظهر ما في ضميره إلّا بعد ما استحوذ على القائد احمد بن جعفر وعلى محمد بن احمد خوجة واراد ان يجعلهما فتنة فلما وصلت الجماعة الى مراد باي تكلم معهم في خلعه فخلعوه بالمحلة اواخر ذي الحجة من السنة المذكورة وقدموا عوضه الحاج محمد منتشالي ويوم دخولهم المدينة دخلوا لقصبتها واخرجوه منها الى بستانه براس الطابية وبعد ايام بعثوا به الى زغوان فاقام بها يسيرا ومات يوم الثلثآء لسبع عشرة مضت من ذي القعدة سنة ثلث وثمانين والف وجيء به الى تونس ودفن بازاء داره وقبره معروف هناك * ومنهم الحاج محمد منتشالي بويع في المحلة كما سبق وجددت بيعته يوم دخوله القصبة واستوطنها وكانت فيه بلادة لم يجرب الامور وغالب الاحكام في ايامه تصدر عن البايات وهو مساعد لهم لا يخرج عن امرهم بشيء وقنع بالمنصب واسمه فقام على سيرته اقل من سنة واتفقت جماعة من اهل الفساد وزين لهم الشيطان ما نووه فدخلوا القصبة على حين غفلة وحاصروا منتشالي وبعثوا الى الباشا صاحب المنصب اذ ذاك وكان متفقا معهم فخلعوا منتشالي وقدموا الحاج علي لاز واخرجوا منتشالي وبعثوا به الى زغوان الى ان مات هنالك وجيء به الى تونس ودفن بتربته قبالة داره وقبره معروف هنالك * ومنهم الحاج علي لاز بويع في النصف من ذي القعدة سنة ثلث وثمانين يوم الثلثاء ووافق ذلك اول يوم من الحسوم فتطير الناس من ذلك وساعده قوم غير راضيين وزينوا له حالات عقلية ويوم ولايته فر محمد باي الحفصي ولحق باخيه مراد باي ودخلت محلة الشتاء ولم يدخل مراد باي ولا اخوه الحفصي وكان اجتماع الحفصي باخيه مراد باي فوق القيروان ثم انهما توجها الى ناحية

الزواريين . ولما استقروا مشت بينهم الرسل وكل منهم حاقد على صاحبه وضامر له السوء وحدثت في المدينة احوال تؤذن بالفساد وتحزبت جماعة الحاج علي لاز وزاد ضررهم . ولما علموا ان مراد باي اخذ حذره منهم عزلوه واقاموا عوضه محمد ءاغا والبسوه قفطانا وركب في المدينة ونادى المنادي بولايته ولكنه يستجلب الناس والرعايا وينفق الاموال وهو لا خبرة له بالامور . وبعد ان كان ذلك كذلك بعث مراد باي بعدة اوامر يحذر الناس ويندبهم الى الرجوع عما فعلوا فلم يزدهم الا عتوا ثم بعث اليهم اعقادا من الخيل وغاروا على ما حول البلد فخرجت اليهم جماعة علي لاز وخيله فالتقى الفريقان ووقعت بينهم الحرب في عدة ايام . وءاخر الحال جاءتهم جماعة من اولاد سعيد والمثاليث وغيرهم من الاعراب فخرجوا بمحلة ظاهر البلد وكانوا قبل ذلك جعلوا سؤالا وحكم فيه القاضي وافتى فيه بعض الفقهاء بما وافق اغراضهم فعند ذلك نهبت ديار البايات وغالب ءاثاثهم وكان الخطب جليلا . ولما خرجوا واقاموا بظاهر البلد وجاءتهم البايات وظهرت طلائع خيلهم بادروا الى لقائهم وخرج من المدينة كل من يقول بقولهم والتقى بعضهم ببعض فلم تكن الا ساعة من نهار حتى انهزم محمد ءاغا ودخل المدينة مكشوف الراس وخلف عسكره فتحكمت فيهم ايدي اصحاب مراد باي فقتلوا منهم خلقا كثيرا ولم ينج الا من بعد اجله وهذه الوقعة تعرف بخطرة الملاسين وكانت بعقبة الجزار ونهبت الاعراب ما حول المدينة وتحصن الحاج علي لاز وجماعته بالقصبة ومن غد اصبح بابها مغلقا وباتت المدينة في سوء حال . وبعث الباي الى باقي العسكر بالامان وامرهم بتولية الحاج مامي جمل فبعثوا له وبايعوه في الديوان وبعثوا الى الحاج علي لاز واصحابه فخرجوا بالامان ومشوا الى زاوية الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم تغن عنهم وحوصروا بها ومات هنالك اكثرهم وبعث بالحاج علي لاز الى الحمامات فقتل بها ونهبت عدة اماكن بالمدينة وتتبع الباي ءاثار المفسدين فقتلهم وكانت وقعة لم يسمع بمثلها بحيث مكث القتل اكثر من شهر . وكتب

الباي اوامر وبعث بها وفودا الى الباب العالي مخبرا بما وقع وجاءه الجواب بما في مراده وزيادة والقصة اطول مما ذكرنا وكانت هذه الوقعة منتصف صفر سنة اربع وثمانين * ومنهـــــــم الحاج مامي جمل بويع منتصف صفر كما تقدم وسار على سيرة منشالي في مساعدة الزمان إلّا انه كان فيه مرج وغفلة وكان يظهر التدين والعفاف ويميل الى الفقراء وذلك منه لامر ما وفيه امساك ويشتكي من الفقر وما ازدان أول دولته إلّا براي البايات ثم تغير حاله فيما بعد . وفي ايامه نافق ابو القاسم الشوك بوسلات فقاتله مراد باي وحاصره وفزع له من سائر البلدان والتم عليه جميع العمالة فطالب له الجبل وقطع راس الشوك وجاعته وجيء براسه الى تونس والقصة طويلة . وفي ايامه اخذت غلياطة محمد باي اخذها عدو الدين . وفي ايامه مات المرحوم مراد باي في جمادى الاولى سنة ست وثمانين . وفي ايامه وقع الخلاف بين محمد باي واخيه علي باي وقدم عمهما محمد الحفصي . وفي شهر رمضان من السنة المذكورة سافر محمد الحفصي الى بر الترك . وفي ايام الحاج مامي قويت الوحشة والفتنة بين الاخوين واكثرها بمساعدته وغلبه على امره جماعة من اصحابه فكانوا يهونوا عليه الصعب ولم يزل امره في تشتيت الى ان خلع بالحاج محمد بيشارة اواخر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين والف وخرج من القصبة ودخل الزاوية القشاشية الى ان كان من امره ما سنذكره بعد . وفي ايامه كان الوباء العظيم وابتدا في سنة ست وثمانين وارتفع سنة سبع وثمانين ومات فيه يوسف باشا وقبره بمقربة من الشيخ سيدي محرز نفع الله ببركاته وقبر معه ولداه وبنيت عليهم قبة حسنة . وفي سنة سبع وثمانين المذكورة خرج علي باي الى ناحية المغرب . وفيها كانت وقعة وسلات مع محمد باي ومات فيها خلق كثير وسياتي طرف من ذلك . وفيها جاء محمد الحفصي من بر الترك ولم يقبل . واضطربت ءاراء الحاج مامي حتى خلع آخر ذي الحجة كما تقدم واقيم بدله الحاج محمد بيشارة * ومنهـــــــم الحاج محمد بيشارة بويع في المحلة على يد الاجد

علي باي ءاخر ذي الحجة المذكور وجيء به الى تونس فجددت بيعته واخرج الحاج مامي ولم يتعرض له بمكروه واستنفر عسكرا لاعانة علي باي وبعث بالمدافع الى الكاف وسكن بالقصبة ايام ولايته وكان فيه طيش في احكامه وهو من كتبة الديوان في السابق وكان يظن ان فيه سياسة فلما تولى لم يظهر عليه شيء منها وكاتبه علي باي في مسائل تصلح به فلم يتبل منه . واخذ العسكر في ايامه مرتبا واحدا وبعث الى الحاج مامي مرتبه وهو مقيم بالزاوية . وخلع في منتصف صفر من سنته واعيد الحاج مامي الى الولاية وذلك حين احتوى محمد باي على المحلة عند الكاف ورحل علي باي الى الجريد كما سياتي خبره فبعث محمد باي الى تونس وامر باعادة الحاج مامي فخرج من الزاوية وطلع الى القصبة واخرج بيشارة ونفاه الى راس الجبل وبعد ايام امر بقتله ولم يف له بما فعل معه ومن يوم رجوعه لم يهنا له شيء . وبعث بجمع من اصحابه الى الكاف لكشف الخبر والزم اهل البلد بالعسس ليلا وجعل العسكر على الابواب نوبا ومشى طارق الفتن في غالب الاقليم وبدا نفاق القيروان ومكثت تونس في جهد من العسس نحوا من اربعين يوما . ومن اغرب بلادته وهرجه ان الجماعة الذين ارسلهم للكاف لما رجعوا وجدوا رجلين في الطريق مسلوبين فسالوهما ــ من فعل بكما هذا ــ فقالا ــ اصحاب من جماعة مصطفى سبنيول وهو بمكان كذا ــ . وكان مصطفى المذكور طرق ذلك الجانب فلما سمعت الجماعة من الرجلين ذلك مالوا من ذلك الطريق واتوا على غيره خيفة من السبنيول المذكور ولما اخبروا الحاج مامي بذلك لم يصدقهم فقالوا له هذان الرجلان المسلوبان فسالهما فاخبراه بالصدق فامر بضربهما فضربا اعاذنا الله من قلة التوفيق . ولم يزل يترقب الاحوال الى ان فشا بين الناس ان علي باي رجع من الجريد والتقى مع اخيه في الفحص وهي الكائنة العظمى وهرب ابو رخيص وابن عثمان وجماعة كانوا في تونس في صندل من البحيرة . وبعد ايام جاء الخبر مع بلوكباشي وحسين بن مامي قراش فعند ذلك هرب الحاج مامي الى

الزاوية كعادته وبقيت المدينة بلا حاكم فاضطر العسكر الى داي فوقع اختيارهم على اوزون احمد فهرب ايضا ومن غد اخرجوه غصبا وقدموه دايا بعد ما شرط عليهم شروطا رضي العسكر بها فبايعوه نصف النهار وبات حاكما ومن غد خرج الى الناس ولم يبت الّا وقد تبين خلعه فكان الواجب ان لا يعد من الدايات * ومنهـــم اوزون احمد بويع في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين واقام يومين ولم يبرز حكما وكان بعث فيه علي باي ان يولوه فهرب الى الزاوية كما سبق خبره واعيد الجواب الى الباي فعند ذلك بايع بالمحلة محمد رايس طاباق وبعث به الى تونس ولم يعلم احد بذلك فلما سمع اوزون احمد بعث بجماعة من العلماء الى الجبل الاخضر لان مصطفى سبنيول كان هناك محاصرا للمدينة ومنع منها الداخل والخارج والزم الباعة ان يجلبوا بضاعتهم للجبل الاخضر وامر الجزارين ببيع اللحم هناك وانقطعت المادة من اهل تونس فوصـل الداي محمد طاباق ولم يكن لاهل المدينة علم فلما وصل الفقهاء برسالة اوزون احمد وبالشروط التي اشترطها وجدوا الناس قد بايعوا طاباق فطاح ما بايديهم وبايعوا مع الناس ورجعوا فاخبروا اوزون احمد فهرب الى الزاوية الى ان كان من امره ما سياتي ان شاء الله . ومـن اعجب الاشياء ان المورخين يعدون اهل المناصب من الخلفاء والسلاطين وان السادس منهم يقتل او يخلع واثبتوا كثيرا من اخبارهم وجاءت على اتفاقهم في الاكثر الّا ان هذه الدولة خالفت جميع الدول لان الستة الدايات الذين كانوا مستقلين لم يجر على احد منهم الخلع وهم عثمان ويوسف ومراد واحمد ومحمد ومصطفى كل هولاء كانوا مستقلين وماتوا في ولايتهم ومن بعدهم ثمانية على نسق واحد وقع الخلع عليهم قاره كوز والحاج علي والحاج شعبان ومنشالي والحاج علي لاز والحاج مامي وبيشارة واوزون احمد هولاء المخلوعون ويمكن ان يقال الاولون ثمانية ايضا لان ابراهيم داي الاول وهو الذي تسمى بهذا الاسم ومن بعده موسى داي لم يقع الخلع عليهما لانهما سلما باختيارهما * فهـــذا من اعجب

كالاتفاقات ولله الامر وهو العليم الحكيم * ومـــــن الدايات العظام واهل الرتب الفخام الذي جاء في ءاخرهم وهو كاولهم الامجد الانجد محمد داي عرف طاباق معدود من الروساء الذين بلغوا درجة القبطنة ونال سعادة وافرة وعلا اسمه وجرت له امور اضربنا عنها الى ان بلغ هــذا المنصب على يد المكرم علي باي بويع له بالمحلة بالفحص ءاخر ربيع الانور سنة ثمان وثمانين والف واقبل الى تونس فنزل بالجبل الاخضر وبعث الى تونس جماعة من اصحابه فقبضوا على الحاج مامي جمل وجماعته وسيروهم اليه وكان ذلك ءاخر العهد بهم * ويوم الخميس ءاخر الشهر خرج الديوان الى لقائه ودخل المدينة ويوم دخوله كان بعض الناس يغضي من جنابه وبعضهم راى عليه مخايل الولاية ولما نزل عند باب القصبة جاءه الناس فبايعوه هنالك وتكلم بكلام يدل على لينه ولم يعلموا ما وراء ذلك ودخل القصبة ومن الغد امر باخراج من بها ما عدا جماعته وبعد ذلك باشر الامور بشهامة وحدة ونفى جمعا من الاكابر وشتت كثيرا من المخالفين وقام بنصرة الباي احسن قيام * وفي ايامه ابتدا الغلاء واجتهد في ضبط السعر غاية الاجتهاد * وبعد ايام بعث الباي احد المماليك واقامه خليفة للباشا * وفي شعبان من السنة المذكورة جاء خليفة الباشا من بر الترك ودخل المدينة بزي الباشوات واجتهد في امور المملكة وغير السكة لانها كانت غير مرضية فجاءت على وفق المراد وفرح الناس بها * وفي ايامه تقوي الخلاف في القيروان والمنستير وصفاقس وبعث ارسالا للقيروان والمنستير فلم تقبل منه * وفي ذي القعدة من السنة زادت الاراجيف في البلاد وطالت غيبة الباي وخبره عن الناس * وفي ذي الحجة كانت الواقعة العظيمة التي احرقت فيها ابواب المدينة وتعطلت المساجد من صلاة العيد والجمعة وكان الخطب جليلا ودخلت جيوش محمد باي المدينة وعاثوا كيف شاءوا ولم ينازعهم احد وانخذل اكثر العسكر واستنفرهم مرارا فلم ياتوا اليه ومكث ثلثة ايام يتدارك الامر وغلق باب القصبة هو ومن انضاف اليه وانحصروا هنالك وكان قد هيا

ذخيرة تقوم به و بايع العسكر في مدة الحصار ساقسلي حسن ورموا على القصبة بالبندقيات ودام الحصار والحرب ليلا ونهارا ورمي على الحصار بالمدافع عدة ايام وحفر تحته لغم واطلقت فيه النار وجعلت المتاريس في عدة اماكن ونار الحرب مشتعلة في كل جانب وانقطعت الاسعار من المدينة حتى بلغ صاع القمح نصف ريال عبارة عن ستة ريالات الويبة فكان مبلغ القفيز ستة وتسعين ريالا وهذا شي لم يسمع بمثله في تونس * والزم اهل المدينة والربضين بالعسس في داخل المدينة وخارجها وعظم البلاء واشتد الخوف وانقطع المار من عدة اماكن من الطرق ودهم الناس ما لا قبل لهم به ولم تزل الحرب في المدينة والابواب مهدمة والناس في جهد اربعة وعشرين يوما * وفي تلك الايام قبض على جماعة من اهل البلد والزموا باداء المال وقبض على العالمين المفتيين الشيخ محمد فتاتة والشيخ يوسف درغوث فاعتقلا فاما الشيخ محمد ففر ليلا واما الشيخ يوسف فقتل * وءاخر الامر استنفر محمد باي العسكر فخرجوا معه إلّا قليلا منهم فكان من امرهم ما سنذكره بعد وفتحت القصبة رابع المحرم او سادسه سنة تسع وثمانين وعصى اهل باب السويقة ووقع منهم حرب لاهل المدينة وبني باب السويقة حاجزا بين الفريقين فهدموه وجاهروا بالعصيان وجاءت الاخبار بهزم العسكر الذي خرج ثم تناقصت وهرب اهل النوبة التي بحلق الوادي حتى لم يبق به إلّا رجلان وبعث عوضهم رجال اخر فاظهروا الخلاف وكانت الاراء مختلفة في كل مكان الى ان جاءت رءوس القتلى وحطت عند باب القصبة ومات خلق كثير من اكابرهم ساقسلي الذي تولى دولاتلي وكان في ايام الحصار الحاكم في القصبة طاباق وفي المدينة ساقسلي المذكور * وفي تلك الايام ارجف بموت علي باي من مرض كان اصابه وعافاه الله منه ثم اخذت الفتنة في الانحطاط وتمادى الغلاء الى ان مَنّ الله بمراكب جاءت من بر الترك بالقمح فحط السعر قليلا كل هذا وطاباق مكابد هذه الاهوال ومتحمل لصعاب الامور صابر لها وزاد للجماعة التي كانت محصورة معه خمسة نواصر ترقيا لكل واحد في مرتبه

وهذا لم يسبقه اليه غيره وعفا عن الذين لم يدخلوا معه القصبة وعلم عليهم وكان الذي حمله على الصبر معاضدة الباي له الى ان تم له ما تم فعند ذلك هابه الناس قاطبة وخافوا بأسه واظهر شهامة على من خالفه واشتدت شوكته * وفي آخر شعبان اقبل محمد باشا الحفصي من الديار الرومية في زي عجيب ودخل المدينة بشعار السلطنة بما لم يدخل به احد قبله ومعه من الاعلاج والطبول والانفرة وآلات الباشوات ما لا يوصف فكانت النوبة تعزف عند العصر فيلتذ بسماعها خلق كثير ويقع لذلك ازدحام كبير واحضر معه امر السلطان نصره الله للمكرم علي باي برفع ركابه وتعظيمه واجلاله . وفي ثالث شوال من سنة تسع وثمانين والف كانت الزينة العظمى وبقيت هذه الزينة سبعة ايام بلياليها وفي الثامن منها وقعت الوحشة بين الباشا والداي فخرج الباشا مغاضبا وسكن في برج كرنبالية * وفي تلك الايام نزل الباي على المنستير وحاصرها اياما ورحل عنها . وفيها جاء الخبر ان محمد باي ركب البحر * وفي ربيع سنة تسعين رجع الباشا الى سانيته براس الطابية ولم يقع بينه وبين الداي اتفاق * وفيها خرج الباي الى محلة الصيف واقام هنالك وخرجت له محلة الشتاء قبل اوانها فارسلها للجريد لعصيان البرج الذي في توزر واخذ في سنة احدي وتسعين والف . وفيها استنفر الداي العسكر للكاف ومنعهم مرتباتهم . وفي ربيع الثاني من هذه السنة بعث الداي العسكر نجدة لاهل سليمان . وفي جمادى الاولى جاءت الرسل من الجزائر لاجل الصلح وقابلهم الداي بعنف . وفيها صادر اهل المرتبات ومنعهم لقلة استماعهم امره وفي رجب خرج الباشا الى القيروان وكان من خبره ما سيأتي ذكره . وفي شوال خدمت صفاقس . وفيه جاءت رسل اهل الجزائر ونزلت محلتهم في الحدادة . وفي الحادي والعشرين من شوال جاء الخبر بخدمة الكاف وفرح الداي بذلك . وفي ذي القعدة جاء الخبر برضاء الباشا مع الداي . وفيه خدمت اولاد سعيد علي باي وتعطلت مرتبات العسكر في

هذه المدة الى ان دخلت سنة اثنتين وتسعين والف . وفي اول ربيع الثاني منها قام العسكر على ساق وطلبوا مرتباتهم فالان لهم الداي القول فابوا فغلق باب القصبة واحس بالشر ومكث ثلثا وكانت هرجة عظيمة لولا ان تداركها الله بالباي فقمع اشرارهم وهدن الفتنة ووعدهم باخذ مرتباتهم * وفي سابع ربيع الثاني كلف اهل المدينة والربضين باداء الرمية فامتنعوا ثم اذعنوا وتمشي الاداء في الوطن كله * وفي جمادى الاولى كان الختان في برج باردو لحفيد الباي وكانت تلك الايام تعد من الاعسار * وفيه قويت الوحشة بين الداي والباشا * وفي ثاني جمادي الثانية سافر الباشا الى الديار الرومية وبقيت البلاد بلا باشا والمرتبات والجبايي تحط في الديوان * وفي هذه الايام وقع الرخاء العظيم وكثرت الغلال والخيرات بحيث وصل قفيز القمح الى اربعة ريالات واقل من ذلك والله تعالى يلهم هذا الداي للسداد والصلاح . ويصلح حال من تسبب في اقامته بهذا المنصب ويبلغه النجاح . كيف لا وهو حسنة من حسنات الامير علي باي نسال الله تعالى ان يوفقه لما يحبه ويرضاه *

وحيث اتيت بجملة من اخبار الدايات وجب ان ناتي بنبذة من اخبار البايات وان كانت هذه التي جمعتها لم تدون قبل وانما تلقيتها ممن كان قبلي واخبرني ومنه اعتمد في نقلها على سبيل الاختصار وذلك ان في مدة بني ابي حفص سلاطينهم كانوا يخرجون بمحالهم لجباية خراجهم وفي ايام الدولة العثمانية تقسمت البلاد بين القواد وصار اعظمهم يخرج بالمحلة وكانت الاعراب في قوة واستحوذوا على جل البلاد كعرب افريقية اولاد ابي الليل واولاد بو سالم واولاد حمزة وغيرهم واولاد شنوف بوطن الكاف واولاد سعيد واولاد مدافع واهل الجبال غالبهم عصاة وكان صاحب المحلة يعاملهم بالمخادعة والرفق والقواد يتعاقبون في التزامات المحال فكانت احوالهم مضطربة وكثرت الحكام بالمدينة فكانوا في جهد مع الرعية والعرب اشد شوكة في اول الامر فكان يعسر الخلاص معهم وخصوصا اهل

جبال عمدون وجبل وسلات وجبل مطماطة * واول من سما واظهر ناموسا لهذه الطريقة وتسمى بين هذه الرعاية بهذا الاسم على الحقيقة القائد رمضان من الاعلاج واصله من اهل الجزائر وخدم المنصب هناك وانتقل الى الديار التونسية وتحصل على هذه الرتبة وكانت فيه سياسة وتدبير فاقتنى المماليك وسامت همته وتخرج من مماليكه عدة رجال اخذوا المناصب في حياته وتسموا بهذا الاسم قبل مماته فمنهم مراد باي ورمضان باي وحسين باي هولاء مشاهير مواليه وكان اعظمهم همة وابعدهم صيتا مراد باي وكان فيه حذق زائد عالم بتدبير الرعية وجباية خراجها استولى في حياة استاذه على الولاية الضخمة واستخلفه في حياته وكان يتفرس فيه النجابة عن غيره حتى عن اخيه رجب * وكان مراد ايضا يتفرس في مماليك استاذه حتى اني سمعت ممن سمعه يقول عن مملوكي استاذه حسين ورمضان اما حسين فلا يموت حتى يفتقر ويعمى وكذلك كان يطلق على رمضان اسم الفقر فنجحت فراسته وكان يفتخر بنفسه ويقول انا ملازم لخدمة استاذي وعندي كذا وكذا مال وعندي شيء معتبر ولم يزل يترقى الى ان صار بعد استاذه في هذه الرتبة * ولما مات استاذه في ايام يوسف داي اراد اخوه رجب باي ان ينفرد وحده فسعى عند يوسف داي فقال له من اصبح عند بابه الصغير ابن صندل فهو باي المحال لما يعلم من ذكاء ابن صندل وكان اذ ذاك قد هرب الى الزاوية فاصبح عند باب مراد فخدمه فاحتوى على المنصب وزاحمه رجب باي واستخدم اولا خاخم فلم يقم باعباء المنصب كقيام ابن صندل فاذا خرج مراد بمحلة جباها على وفق المراد دون غيره وربما اشتركا * وفي ايام محلة الجزائر كان كل واحد بمحلة وهرب غالب مماليك استاذه اليه فكان يستخلف حسينا * ولما وقع عليهم في محلة الجزائر وعاد من سنته الى محلة الكاف ساس امورها على وفق مراده وكثرة الرؤساء مضرة لافتراق الكلمة ولم يزل يعلو وغيره يسفل الى ان متته نفسه باعلى المراتب فبعث الى الباب العالي وجاءه التقليد

من السلطنة وذلك في سنة احدى واربعين والف * وكانت فيه سياسة لم تكن لغيره الى ان تم له ما اراد بحسن تدبيره وتنزل به عظام الامور فلا يتضعضع لها وكان مغرى بقتال اولاد سعيد وتمزيق شملهم وكانت له القدرة عليهم الّا انه لم ينفرد بتدبير البلاد لمشاركة الغير له فيها * وفي ءاخر غزواته التي جلاهم فيها وقطعهم واخرجهم من البلاد الى وطن طرابلس ولم يستقروا به وهي ءاخر محاله جاءه خبر المنصب وهو على مدينة صفاقس وتسمى باسم الباشا وتخلف لولده على المحال وباشر هو منصب الباشوات ولكن لم تصف له الايام ومات من سنته ودفن في تربة بازاء الشيخ سيدي احمد بن عروس نفعنا الله به ثم نقله بعد ذلك بزمان طويل ولده الاسعد محمد باشا وجعله في تربتهم بالجامع الذي اخترعه وسمي به وجاء من اعظم المساجد وسياتي ذكره بعد ان شاء الله تعالى رحم الله الجميع وتجاوز عن سيئاتهم انه سميع مجيب *

* محمد بـــــــــاي *

من احيى رسوم البايات في الديار التونسية وشيد معالمها في البلاد الافريقية واظهر من ابهة الامارة ما لم يظهره غيره وفعل ما لم يفعله ملوك بني ابي حفص في زمانهم ولا غيرهم الامير الاجد ابو عبد الله محمد باي ابن المرحوم برحمة الله الامير ابي الظفر مراد باشا رحم الله الجميع استقل بالامر بعد وفاة والده وكان والده تخلى له عنها في حياته لما ترقى الى الباشوية فلما مات ابوه انفرد بالامر وباشر الولاية بجنان قوي وقابل الرعية برفق واحسان وقرب القاصي وقهر العاصي وهو اذ ذاك في عنفوان شبابه ، وكان رحمه الله معتدل القامة تام الخلقة ازهر اللون بديع الشكل لايمتلي منه الناظر لحسن اعتداله ولم يكن في زمانه احد من امثاله فيه حدة ولين وثقل وزين مثله كاتبه ووزيره الصغير بن صندل وكان كاتب ابيه من قبل وخليفته في السفر رمضان باي وحسين باي وجعفر باي ومصطفى باي استخلفه في ءاخر الامر وكل من المذكورين له عيث وسمعة

وتقدم بين الامراء ورفعة وهولاء هم المشهورون من مماليكه وخدمة ركابه ، ممن لا بد لكل واحد منهم ان يمتثل لامره ويقف ببابه ، وتخرجت من مواليهم عدة رجال ، ممن باشر الامارة وجباية الاموال ، وغيرهم جم غفير لو تتبعنا اسماءهم لضاق بنا القرطاس ، وكفاه شهرة ما لهجت به البلاد ورونه من اخبارة الناس ، وكانت له اخلاق رضية ، ونفس أبية ، وفيه ذكاء مفرط ورأي مصيب ، اذا اضمر شيئا لا يبدي سره لاحد ولايظهر عداوته اذا اراد المعاداة محبا لاظهار الفضائل بذالا للاموال وربما يعطي عطاء من لا يخشى الفقر وعم احسانه البعيد والقريب ، وشهد له بذلك العدو والحبيب ، وكان بمجلسه مجمع العلماء والفضلاء ويكرم اهل العلم والصلاح ويصحب الغرباء ويود الفقراء ويستحسن ان ترى ثروته على احبابه ويعجل بالاحسان لاهل حضرته واصحابه وبمجلسه العلماء والادباء وتقع بين يديه المباحثة وله مشاركة بفهمه الذكي ، وجعل لاهل مجلسه المرتبات السنية بحيث يعم الجميع بالانعام وجعل لهم دفترا فيه اسماؤهم ويعطوا على قدر مراتبهم وتجري عليهم عاداتهم من البر والغنم والبقر والتمر والتفاصيل والدراهم وغير ذلك مما هو من عاداتهم ، وكفاه فخرا ان العلامة ابا عبد الله محمد بن مصطفى الازهري نزيل تونس كان يقول — لو سئلت عن ثلث لاجبت بلا ولو قطع راسي — وقد تقدم ذكر السؤالين والثالث الموعود به — ولو قيل لي هل رايت اكرم من محمد باشا لقلت لا — فكفاه مدحا شهادة هذا العلامة ، التي بقيت في وجنات الطروس كالشامة ، فان قال قائل — ما صدرت هذه المقالة من الشيخ الا لما غمره به من الاحسان ، ولهذا وجب عليه ان يمتدحه باللسان والجنان ، لقوله صلى الله عليه وسلم — جبلت القلوب على حب من احسن اليها — وهذا الشيخ من كثرة ما احسن اليه اطلق لسانه بالمدح وخلف هذه المقالة تروى عنه ، قلنا له — سلمنا لك هذه ولا نسلم لك غيرها مما هو مشهور ، واذا جاء الحق ذهب الباطل والزور ، هذه خيراته باقية من بعده ، وصنائع بر تفرقت بين الناس وحسنات اكتسبها بجهده ، والناس مطبقون

على مدحه وقوة سعده . ولا يخلو ارباب الصدور في كل وقت من اصدقاء واعداء . وهذه المحاسن شهد بها الصديق والعدو . والفضل ما شهدت به الاعداء . وسيتلى عليك بعد هذا ان شاء الله . ولو تتبعنا محاسنه لاحتجنا الى تاليف مستقل . ولكن ناتي في آخر الفصل بما هو مشهور ويضرب به المثل . ونرجع الى الاول فنقول لما استقل بالامر بعد والده كان المشارك له في المنصب رجب باي ثم سليمان باي وكانا لم يبلغا شأواه . ولم يجريا جراه . الى ان لحقا بالله وانفرد بنفسه . وفي ايام مشاركتهما له في الولاية عاثت الاعراب في غالب الاقاليم . وخصوصا منهم زريعة الخبث والاصل اللئيم . اولاد سعيد لا اسعدهم الله لان طبعهم الفساد في البلاد . ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . لان امرهم كان متشتتا مدة من السنين . الى ان ظهرت على اهل تونس الواقعة المشهورة بين العسكرين سنة سبع وثلثين . وقد مر ذكرها فتنامت قيامتهم على ساق . وتمادوا في النفاق والشقاق . وغالب اوقاتهم جار على منهاج الضر . وبقيت نفوسهم الخبيثة في الكر والفر . وكان المرحوم مراد باشا مقاوما لهم وحريصا على تبديد شملهم فعاجله حمامه . ولم يبلغ منهم مرامه . وكانوا يلتجئون الى بلد الحامة ويتحصنون بها لانها ساعدتهم في نفاقهم نحو سبعة اعوام فكانوا بها يتحصنون واليها يلتجئون وعرب افريقية كذلك الا انهم اقل ضررا من غيرهم واولاد شنوف متغلبون على وطن الكاف الى ان مَنَّ الله تعالى بهذا الامير . فقطع دابرهم والحق منهم الغني بالفقير . فخرج بمحلته الشتائية سنة احدى واربعين والف . وشد ازر بلاد القيروان بعد ما كاد ان يقع بها من اولاد سعيد الخسف . واستوثق امرها وولى عليها مملوكه القائد علي الحنفشي وكانت فيه فروسية . ودخل بمحلته الى بلد الجريد وخلص جباه وظهرت همته ورئاسته وبشر اموره على وفق مراده . وتقدم انه كان معه مشاركا في وظائفه رجب باي الا انه لم تكن له فطنة . وانما بلغ باسم اخيه من قبله . وتقدم ان اهل تونس يذكرون ان ثلثة من الرجال كانوا نجباء . وكل واحد منهم له

اخ ومات الثلثة قبل اخوتهم فلم يقم منهم احد مقام اخيه احدهم رجب باي المذكور لان اخاه رمضان باي كان في غاية الذكاء فلم يقم رجب مقامه وانما نال ما ناله بسابقية اخيه ولما مات خلف ولده سليمان فدخل بمخالبه بين معترك الفرسان فلم يتم له مراد . وانفرد المرحوم محمد باشا بامور المملكة واخذ في تمهيد البلاد . وقمع اهل الفساد . وافرق بين اولاد شنوف وسلط بعضهم على بعض . الى ان محا رسمهم من الارض . والتفت الى الحامة فخرج اليها بمحلته سنة اربع واربعين والف وارسل المؤونة في البحر والعسكر في البر وحشد اليها من جميع البلاد . وكانت على نفاقها سبع سنين وهي ملجا كما قدمنا لاولاد سعيد . وكان نزوله عليها يوم . . . . من السنة المذكورة فنصب عليها المدافع والمنجنيقات وحفر المتاريس وامر بقطع النخل فقطعوا منه شيئا كثيرا وحاصرها من كل جهاتها وداوم عليها الحصار وكان تقدم منه انذارلهم مع المرابطين وامنهم فلم يغن شيئا فعند ذلك اقسم انه لا يرتحل عنهم او يحكم الله بينه وبينهم فناوشهم القتال وجعل العساكر نوبا في مقابلتهم وداوم بهم الحصار وضايق عليهم ومات من الفريقين خلق كثير . وجاء اليها المدد من اخوانهم المتمردين فلم يجد نفعا لكبير منهم ولا صغير . ومع ذلك كان يبالغ في الارسال اليهم بالاعذار والانذار ليقيم الحجة عليهم فلم يزدهم الّا طغيانا . كأنّ لكل متمرد منهم شيطانا . وكانت الحامة هذه في غاية من الحصانة . ولاهلها خبرة بالحروب ومكانة . وهي في مكان منيع والنخل محدق بها . ولها خندق دائر من كل جهاتها . ولما نفذ القضاء دارت عليها الدوائر وكان المتعصبون يقولون لو مكث عليها مدة اعوام . لن يتيسر له بها مرام . والاقدار مخالفة للظنون .. وما قدر الله به يكون . فداوم عليها الحصار . والقتال لا يفتر بينهما في الليل والنهار . وهم كل يوم في مدد مَزيد . وتمرد من غواية شيطان مريد . والامير يستخدم في الرجال . ويجود بالمال . الى ان يسر الله عليه بفتحها . وانقادت له بعد جمحها . فقتلت رجالها . وسبيت

نساوها ونهبت اموالها ، وبيعت اولادهم بيع الرقيق ، وصبغت صخورها بدماء اهلها صبغ العقيق ، وخرب المساكن ، واجلا منهـا الساكن ، وكانت وقعة مشهورة ، واخبارها بين الناس مذكورة ، ولمـا تم لـه ما اراد منها ، امن الذين هربوا عنهـا ، وامرهم بالسكنى خارج البلد ، وضرب اهلها بسيف العفو بعد سيف الحد ، واذعنوا لاداء الخراج ، ودخلـوا في طاعته فاجراهم على احسن منهاج ، وكان هذا الفتح اواخر ذي الحجة سنة خمس واربعين والف • ولما سمعت بهذا الفتح جيرانها من البلاد العاصية ، جاءته الوفود مستامنين من البلاد القاصية ، وشاع ذكره بين البلاد ، وعم اسمه الحاضر والباد ، وصارت لـه سمعة عند اهـل الفلق ، وطـار خبر اخذ الحـامة في لافاق ، لانهـا مكثت نحو سبع سنين متمادية في ضلالها ، واستصعبت من غيره الى ان اخذها وكان من فحول رجالها ، وكان جبل وسلات قد شمخ بانفه في هذه المدة ، فلما بلغه ما حل بالحامة لانت صخوره بعد الشدة ، ولمـا تم هـذا الفتح رجع الى حضرته العلية ، وقد سار الرعب في قلوب الرعية ، وعلم ان طالعه اخذ في الصعود ، وطالع اعدائه في السعد الذابح وهو في سعد السعود ، ثم تهيا لاولاد شنوف وقاومهم بالكفاح الى ان انزلهم من صياصيهم ، وقتل جل رجالهم وجلا باقيهم وجز نواصيهم ، وما زال يتبع فلهم واحدا بعد واحد الى ان افناهم ولم تبق منهم بقية ، ومن نجا بنفسه ضاقت عليه لارض وطلب منه التقية ، وكانوا قبل ولايته متغلبين على الكاف ورعيته وهم اهل الفتنة بين العسكرين وقـد مر بعض اخبارهم ، وكان من تقدمه من البايات عاجزا عن ان يحل بدارهم ، الى ان يسر الله لهذا لامير ما لم يتيسر لغيره ، وفتح لـه كل صعب ورزقه من خيره ، واحتوى على ما كان بيد اولاد شنوف ، واجلاهم من مساكنهم وديارهم وانزل من تبقى منهم منزلة الخوف ، ولم يبق شيئا من عالرهم ، وكانت لهم سمعة في البلاد بين عرب افريقية ، وتحكموا في وطن الكاف مـدة من لاعوام وجبوا الجبايات من الرعية ، الى ان فلهم ، ودخلـوا تحت امره

واذلهم . فدانت له منذ ذلك جميع العربان . وحلت بهم الفاقرة ونزل بهم الهوان . ثم التفت الى اولاد نعيس . الذين لم يكن لهم رئيس الّا ابليس . فاخذهم ببكرهم ولحق اولهم بآخرهم . الى ان قطع دابرهم . فكر عليهم بغزوات متواترة . الى ان جعلهم في الحضيض الاوهد رفع الله بما فعله بهم درجاته في الاخرة . فمارسهم المرة بعد المرة . واثنى عليهم بصحائله الكرة بعد الكرة . الى ان اذاقهم الذل والهوان . وفك ما بايديهم من جباية الاوطان . وحل بهم الصغار . والزمهم اداء الدرهم والدينار . وصاروا يفزعون من انتسابهم الى النسبة السعيدية . وان سئل منهم احد عن نسبته فر الى النسبة اليهودية . وتشتتوا بعد اجتماعهم . وركنوا لاداء الخراج بعد امتناعهم . وتفرقوا ايدي سبا في الخافقين . وقضي الامر وقيل بعدا للقوم الظالمين . وامن الله البلاد والعباد . وقمع بهذا الامير اهل البغي والفساد . وامنت السبل في ايامه من الافات العادية . وصارت الظعينة في ايامه رائحة غادية . ولو لم يكن له من المزايا الّا قطع هذه الطائفة الرذيلة في ايامه لكانت له من اعظم الفضائل . ولو توسل بها في الدار الاخرة لكانت من اكبر الوسائل . ولم تقم لهم قائمة مدة حياته . الى ان بعثوا من قبور الذل ولكن بعد مماته . عسى الله ان يقطع دابرهم . ويهلك اولهم وءاخرهم * ومن وقائع الباشا المذكور ادخاله عرب ورغمة في عمالته . وكانوا قبل ذلك يعدون انفسهم من اجواد العرب فادخلهم في طاعته . ونظمهم في سلك اهل جبايته . ولهم خبز يطول . ويعجز له الوصول * ومن غزواته المشهورة ووقائعه المذكورة اخذه لجبل مطماطة وكان مستمرا على النفاق . فخرج اليه بمحلته سنة سبع واربعين والف واقام فيه الحرب على ساق . فلازمه بالحصار . وضيق على اهله من جميع الاقطار . الى ان سلموا له باداء الخراج عن رءوسهم . ورضوا منه بالامان على اهاليهم ونفوسهم . وكانوا قبل ذلك يعدون انفسهم انهم اهل حرب ومنعة . واستعصموا بجبلهم الذي له بين الجبال رفعة . واداء البربر الذين كانوا من اهل جالوت . فسلط الله على ءاخرهم هذا الامير

كما سلط على اولهم طالوث ، وبنى في جبلهم حصارا ، وجعل فيه انصارا ، والزمهم من الخراج ما طابت به نفسه مدد السنين ، وعطف بعنانه وقابل قوما ءاخرين ، ومن وقائعه المشهورة التي اذاقت اهل عمدون المرار ، وفعل بهم ما فعل بغيرهم والزمهم البوار ، بعد ما كانوا متحصنين بجبلهم ويصعب الوصول اليهم ، ولا تسمح نفوسهم بشيء من الاداء إلّا ما هان عليهم ، لان جبلهم في غاية الحصانة ، ولهم به قوة ومكانة ، فنزل اليهم بخيله ورجله ، وضايق بهم الى ان دانوا له وداس جبلهم برجله ، وسبى منهم النساء والاولاد ، بعد ما قاتلهم وقتل منهم واباد ، ودخل جبلهم عنوة ، وقطع منهم الشدة والنخوة ، وعفا عن بقيتهم بعد ما ذهل كل خليل عن خليله ، واجراهم كاخوانهم بجرى الاداء وسبيله ، وذلك في ايامه العربان والزم الصغار لمن كان له منهم شان ، مثل اولاد ابي الليل الذين كانوا في زمن بني ابي حفص اهل حل وعقد ، فاهانهم الى ان سمحوا باداء الماشية والنقد ، وكذلك اولاد حمزة واولاد صولة ، وغيرهم ممن كانت له شوكة وصولة ، ولازم مدة حياته في تتبع ءاثارهم ، الى ان محا ذكرهم واخلى ديارهم ، وهولاء ممن كان يشق العصا في السابق ، فلازمهم الاداء الى ان اتصل الاول باللاحق ، وهذه الطوائف ممن افتى ابن ناجي بتحريم مبايعتهم ءالات الحرب ، وكذلك البرزلي قال عرب افريقية اهل حرب ، وكذلك الشيخ اللقاني ضرب بهم المثل قال المحاربة من عرب افريقية وبالجملة فان ضررهم كثير ، وهم من الذين لا يراعون إلّاً ولا ذمة ولا ينبئك مثل خبير ؛ فحسم الله هذه الطوائف المجنية في ايامه ، الى ان صار المسافر يتوجه حيث شاء ببضاعته يهز باكمامه ، وامنت السبل والطرقات ؛ وانقطع المتمرد والطغاة ؛ ودانت عرب افريقية ولزمهم الدين ، واستمرت عليهم الجباية في كل حين وحان الحين ؛ ولما مهد رسوم عرب اوطانه ، وجعل كل واحد منهم مشتغلا بشانه ، التفت الى عظماء مشائخ العربان ، مثل علي بن عبد الصمد وولده من بعده ابي زيان ، فشاركهم في

حربنهم ، واجلاهم عن معاقلهم واوطانهم ، وشتتهم في القفار ، واخلى منهم الديار . واضاف دريد الى رعيته ، واحسن للمحسن منهم والزم الجاني بخطيئته . وركب منهم عدة من الفرسان وجعلهم من جملة رجاله * ولما صمم على ممارسة قبائل العرب شرع في تزميل فرسانهم ، فجمع منهم عددا وجعل كل زمالة في فج من فجوج اوطانهم . ولكل زمالة رئيس من رجاله كالقائد حسن المنتسب لحسين باي وهو اشجع رجاله وعقبه موجود وهم جماعة من اولاده واحفاده كلهم معدودون من فرسان العرب وسياتي ذكرهم والقائد علي الحناشي مقدم زمانه ايضا والقائد احمد الرقيعي هولاء مشاهيرهم وغير من ذكر كثيرون وركب عدة رجال من عسكر زواوة يقال لهم الصبايحية وجعلهم بركابه حيث سار يسيرون ، وجعل صبايحية اخر وقرر سكناهم ببلد القيروان وجماعة منهم ببلد الكاف وجماعة ببلد باجة لتامين الوطن فامنت الطرقات في جميع بلاده * ومن اشهر سعادته ممارسته لطاغية العرب في وقته الشيخ خالد بن نصر الحناشي ، وكان خالد المذكور اشهرهم سمعة بين قبائل العرب وله منعة وعدة وقائع مع عسكر الجزائر عمر عمرا طويلا ومارس الحروب وكان يتشامخ بانفته على العمالة التونسية ويمتد في وطنها لانه مجاور لها ويتعرض الى محلتهم فيستكفون شره ويهادونه بالهدايا الى ان قيض الله له هذا البطل الهمام فتمادى على ممارسته الى ان هزمه سنة اربع وخمسين والف بمكان يعرف بصراط ، وهي واقعة مشهورة وكان تعرض على الوادي وحال بين الماء والمحلة فزاحمته فرسان الرجال ، وكان ازعمهم في ذلك اليوم القائد حسن وظهرت منه شجاعة قوية ضربت بها الامثال ، وهو اول من باشره بالحرب فرحل عن الماء عنوة بعد قتال شديد وانهزم هزيمة شنعاء ولم تقم له بعد ذلك قائمة مدة حياته واخذ يلاطفه ويهاديه ويهادنه ولم يكن له ذكر بعد ذلك ، ولم يمت الباشا حتى خدم ركابه اولاد خالد المذكور ووقفوا ببابه واحتاجوا اليه * ولما سارت هذه السمعة بين القبائل من العرب خافوا من سطوته

فاذعنوا بالطاعة وجاءته الوفود من كل مكان وهادوه على قدر مراتبهم واتوه من جميع الجهات بالتهنئة ودانت رعاياه وبلغ مناه واقبل اليه شعراء العرب وشعراء الحواضر وانشدوه اشعارهم واجازهم الجوائز السنية وانتشر ذكره في الافاق الى ان طبق الوجود ولم يبق حي من العرب الّا وعنده خبر من سعادته فتكمش كل متمرد بعد ذلك وود كل شيخ من العرب ان يكون مملوكا . وكذلك شيخ مشائخ العرب الذين في ناحية الغرب الشيخ ابن علي دخل في سلك الجماعة . ولم تسعه الّا الطاعة . وكان من المتمردين على عسكر الجزائر وهزمهم مرارا عديدة * فمن سعادة الباشا المرحوم انه كان يتصرف من اذنه مدة حياته . واوصى باولاده اليه بعد مماته . فكان لا يتشيخ احد منهم الّا بعد مشورته . واذا اصابهم ضيم دخلوا في حمايته * ولما دانت له جملة هذه الجبابرة وصفا له زمانه حمل رعيته على احسن طريق . وانقطعت قلوبهم مع بعد اوطانهم من خوفه الى ان صار كل مسافر لا يحتاج في سفره الى رفيق . وربما سافر عدة ايام وليس معه الّا زاده وبضاعته ولم يلف من يتعرض له في الطريق . واحتدث المسافرون في جميع الافاق . ولم تكن مدة حياته قبيلة من العرب تميل الى النفاق * ولما ساعده القدر على مراده حط بكلكله على من اراد ان يكون من اضداده . وذلك ان جماعة من اكابر الحاضرة والقواد كانوا يريدون التنقص من ابهته . ويتطاولون الى رتبته . والقدر يقول له انت امير دولتنا . تصرف بما اردت انك باعيننا . فرد عزمه الى اهل البلد وبدا باكبر قوادهم القائد عبد الله بن خوران وهو اذ ذاك قائد القواد فصادره واستصفى ذخائره واموالهُ بعد ما كان منحرفا عليه . فدخل في طاعته وجثى بين يديه . وممن كان يانف من مقامه . ويابى ان يكون من خدامه . الشيخ مصطفى شيخ الاندلس مكث عدة سنين في انحرافه وخلافه فاذاقه هوانا . والبسه من ثياب الذل الوانا . واستصفى جميع ما كان له ومات طريدا في غير وطنه * وكذلك شيخ عرب طرود الشيخ صالح اخذه مثل ما اخذ غيره . ودمر ذكره واستصفى خيره . وتم له الامر وما بقي له

منازع في دولته . وهلك عدة روساء ممن كانوا في خدمته . مثل الصنادلة الذين هم كتابه وابي القاسم القفصي وعلي هوا كل هولاء من المخولين في نعمه لما كثروا بها اخذهم اخذة رابية واسترجع منهم ما كانوا اقتنوه من امواله ولم يبق في المملكة إلّا من كان مطاعا له ويتصرف بامره ويقف عند حده ونال سعادة لم ينلها احد ممن تقدمه من الماضين . وجلس في رتبة تضاهي رتبة بني ابي حفص وكان يعد من السلاطين . وتصرفت المملكة من نهيه وامره . ونال ما لم ينله احد في دهره * ولما صفا له الوقت من اقرانه . وخلف كل احد مشتغلا بشانه . نادى لاهل زمانه هل من مبارز فلما لم يجبه احد جل الدهر على كاهله وتصرف كيف شاء . والله سبحانه وتعالى يوتي ملكه من يشاء . وكانت مجالسه السعيدة اذا خرجت كعادتها لم يكن لاهلها تعب وكانهم يتنزهون في العمالة والاموال تجبى بلا تعب واكثر مغيبها خمسون يوما * وهو اول من اتخذ قاضيا لمحلته كعادة بني ابي حفص واتخذ الكروصة لرفاهية السفر وغالب احكامه لا تخرج من احكام الشرع إلّا ما تدعو اليه الضرورة من قمع فساد او سد ذريعة ممـــا يستحكم بالقوانين . وتخرجت من مواليه عدة زعماء لا يحصى عددهم كل واحد منهم يعد من الملوك وجاءته التشاريف الملوكية . والاوامر الخاقانية وطارصيته في البلاد الرومية . وبعث الهدايا الجليلة الى الاعتاب السلطانية . وهاجر الى حضرته العلماء والادباء وجاءه كل طالب برحتي من البلاد الحجازية . وانتشر ذكره في جميع الافاق . وهادوه من مصر ومن الشام ومن العراق * ولمـــا تم له ما احب من دهره تاقت نفسه الى الرتب الملكية . واراد ان ينتظم في سلك الفرائد السلطانية . فطلب من الباب العالي منصب الباشوية . فبعث هدية حافلة لم يدخل من الغرب مثلها للديار الرومية . وعرضت على الحضرة العثمانية . فسيرت له الخلع الخاقانية . وكانت هديته في سنة ثمان وستين والف صحبة ابن كلمان فكانت يضرب بها المثل وبلغه التقليد في اواسط رجب من السنة نفسها ودخل الى الحضرة

بشعار السلطنة * وكان يوم دخوله يوما مشهودا تباشرت به اهل البلاد وباشر الولاية على اكمل حال ولم تقع في ايامه مظلمة مثل ما كانت في زمان غيره ، وشمل الناس بعدله وخيره ، ومدحته شعراء وقته ، واثاب كلا منهم من قدر مرتبته ، ومشت المرتبات على احسن حال وكان الناس في ايامه في هناء لم يروا مثله ، وايامه عدت من حسنات الدهر تقبل الله منه سعيه وفعله ، واستمر في منصب الباشوية الى سنة ثلث وسبعين والف ثم بعث الى الباب العالي واستعفى من المنصب وحله فقبل منه وعفا عنه وكان خليفته بالباب في رتبة عالية وله الشفاعات عند اهل الدولة وكل ذلك بهمة استاذه ، وبعد انفصاله من الباشوية طلب الراحة لنفسه وكان سابقا تخلى عن جميع بلاده لاولاده وقسم بينهم المناصب فقدم ولده الاكبر مراد باي على المحال وخراجها وجعل بيد اخيه الذي يليه وهو ابو عبد الله محمد باي صنجق القيروان وصنجق سوسة والمنستير وصفاقس وجملة رعاياهم ، والمذكور هو باشا زماننا ، وسياتي له خبر بعد هذا وقدم ولده حسنا على صنجق افريقية وكلهم تسموا في حياته وتلقبوا بالقاب البايات وكل واحد منهم له صيت وسمعة ولم يخرج من الدنيا حتى راى ما سره من بنيه وبني بنيه وتلقب بنو بنيه بالبايات في حياته ولا زال متماديا في افعال البر والاحسان والاخذ بقلوب اهل العلم والصلاح ومن اصابته نائبة من اهل البلاد يلجا اليه فياخذ بخواطرهم ويتجاوز عن هفواتهم الى ان لحق بالله تعالى وكانت وفاته رزءا على اهل تونس سامحه الله بمنه وكرمه ، ولنذكر نبذة من مآثره التي بقيت بعده على سبيل الاختصار ولو تتبعناها كلها لاحتاجت الى مجموع مستقل فمنــــــــها تشييده منارة الجامع الاعظم ببناء ضخم وجعل في اعلاها درابزتقي المؤذنين الحر في الصيف والبرد في الشتاء وجعل رخامة تقابل الناظر اليها ، ومزبورا اسمه عليها ، وتاريخ البناء بابيات من انشاء الاديب الشريف السوسي * ومنــــــها الحنايا المجلوب عليها الماء من مسافة بعيدة من عابار قصة

ضاهى بها الحناية القديمة في ضخامة البناء وانفق عليها اموالا لا تدخل تحت حصر وتم بناءها في عدة سنين وادخل ماءها الى المدينة وفرقه في ازقتها واوقف عليها اوقافا للقيام باصلاح ما يتعطل منها فانتفع بها الناس الّا انها في هذا الوقت تعطل بعضها من شدة الفتن * ومن حسناته انشاء المارستان بحومة العزافين وفيه عدة بيوت في اسفله واعلاه للمرضى وجعل له اوقافا للقيام بلوازم الذين يحلون به منهم وخدمة يخدمونهم وطبيبا ينظر في علاجهم وما يحتاجون اليه من اشربة وادوية ومن طعام وكسوة وفراش وغير ذلك وجعل له ناظرا ينظر في اوقافه وهو اليوم جار على احسن اسلوب تقبل الله منه * ومن حسناته بناء الجامع الذي بازاء تربة مقام الشيخ سيدي احمد بن عروس نفع الله به وكان موضعه دورا فاشتراها من اربابها بثمن طابت نفوسهم به ومبلغه شيء كثير وبناءه في غاية الحسن والضخامة بحيث لم ير في المغرب اسر منه وضخامته تنبي عن ضخامة بانيه واوقف عليه اوقافا جليلة لامامه وللموذنين والقراء وما يحتاج اليه وجعل فيه مدرسا للعلوم الشريفة وجعل امامه من السادة الحنفية تقبل الله سعيه . وجعل فيه تربة بديعة وهي لم تكمل الى اليوم ونقل اليها جثة والده وقبر هو بها ومن مات من اهل بيته وبقيت فيه اماكن لم تكمل الى زماننا هذا قابله الله باحسانه * ومن محبته في الفعل الجميل ما سارت به الركبان افتكاكه المراكب التي اخذت للجزائريين من ايدي النصارى المرة بعد المرة بمال جزيل وانعم على الماسورين وكساهم واحسن اليهم وصرفهم الى بلادهم وعدة اسارى ممن سواهم بعث بطلبهم من بلاد الكفر وخلصهم * وكذلك احسانه الذي كان لاهل القيروان في كل سنة يفرق بين ضعفائهم واهل البيوتات منهم * ومن سخائه وعلو همته انه سمحت نفسه في يوم واحد بما قيمته مائة الف دينار وهي الواقعة التي جرت بينه وبين سليمان باي عند محاسبته اياه واخذ منه العلياطة والزندالة والسانية التي كانت لبني ابي

حفص في راس الطابية فسمي بالجميع لاحمد خوجه الذي كان سردار العسكر في ذلك الوقت * ومن المآثر التي بقيت من بعده ما احياه من منازل باردو وشيد بها القباب الرفيعة وزاد على ما كانت عليه في ايام الحفصيين فمن شاهدها حكم بعلو شانه على من تقدمه وكان موكبه بها كمواكب السلاطين ويحضر موكبه في سفره وحضره جماعة من المغنيين والملهيين والعلماء والمتكلمين والشعراء والادباء ويجلسون في مجلسه على طبقاتهم ولهم جوائز سنية ومرتبات سنوية تزيد على الخمسين الفا دون ما يتبعها من هدايا وملبوس وهذا غير ما يصرفه في عساكره واصلاح شانه وما يحتاج اليه اهل بيته وغلمانه وحشمه واتباعه ومرتبات اجناده وهذا شيء لم يسمع به لاحد في اقليم المغرب * وبعث بصدقاته الى الحرمين الشريفين وجاءته جماعة منهما فاحسن اليهم وكان فضلاء الحضرة يحضرون محله وقت اقامته بتونس وجعل لاهل القيروان صدقة سنية وكان يميل ببره ورأفته عليهم ومن اهل سوسة من كان يفد اليه في غالب السنة ، ونال وجاهة عنده مفتياها الشيخ ابو العباس احمد عرف العبلي والشيخ ابو عبد الله محمد عرف العروي وهو شاعره ومادحه له فيه وفي ولده القصائد الطنانة ، وكان اديب وقته وشاعره من غير مدافع ، وكان يجله ويحسن اليه ويانس به ، وللشيخ المذكور ولد نجيب قدمه والده في حياته للفتيا وكان يروي مسند البخاري بحضرة والده في مجلس الباشا في السنة التي مات فيها وقد ابتدا به مرضه فكان يحضر لاستماع للتبرك بالحديث الشريف وبه ضعف وهذا من حسن فيه بحيث ختم عمره بهذا الختم الشريف ختم الله له بخير الاعمال * وربما ناتي له بمحاسن اخر في غير هذا الموضع عند ذكرنا محاسن تونس وخاتمة هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * ومات رحمه الله في شوال سنة ستة وسبعين والف وحمل على الاعناق وكان له مشهد عظيم ودفن في تربة والده في جامعه الذي بناه وكانت وفاته رزءا في المدينة سامحه الله وعفا عنه * ومنهم الامير الفخم ، وصاحب الفخر الاعم ، قامع المتمردين من اهل الفساد ، المرحوم

برجمة الملك الجواد . ابو النصر مراد باي الكرد بتدبير الاوطان بعد وفاة والده المرحوم وكان تخلى له عنها في حياته ولما توفي والده تم له الامر * وكان صدرا من الصدور تام القامة بديع الشكل اشهل العينين واسع الصدر بعيدا ما بين المنكبين علامات الملك ظاهرة على شمائله من رءاه ادركته دهشة منفردا بتدبيره لا يتكل على احد قد تربى في نخوة الملك من والده وله سطوة وصولة قامعا للاعراب لم تقم لاحد منهم قائمة في ايامه متفقدا لاحوال رعيته قاهرا من عاداه مهد البلاد كتمهيد والده واجرى الامور على عادته يحب الصيد والقنص ومكابدة صهوات الخيل وهي عنده من اغنم الفرص ولم تجر في ايامه حادثة تتكدر منها النفوس الّا الواقعة المشهورة التي يعبر عنها بواقعة الملاسين والتي قبلها الواقعة في تغيير دولة شعبان خوجه لما اراده الله تعالى من تغيير النعم . وبهذه الواقعة انفتحت ابواب الفتن . وابتدا اهل تونس الشدة والباساء وصودروا بالمحن . ونذكر بعضها على وجه الاختصار . وذلك ان الباي المذكور لم يكن له اهتمام الّا بامور الرعايا التي في الاوطان . ومدبر المدينة واهلها على مثل ما سبق هو الدولاتلي والمتولي في هذه المدة الحاج شعبان داي وقد تقدم ذكره فاغراه بعض الاعداء من اتباع الباي ومن كان تحت نظره * وقد سولت له نفسه ان يقوم مقامه فاتفق مع جماعة وحسنوا للداي المذكور ما لم يكن حسنا ولا راد لامر الله وانتشت ءاراوهم الفاسدة على الفتك به وذلك موجبه الحسد لما خوله الله من خيره واطلع على ما اضمره من الشر وكتب اليه بعض اصدقائه بالخبر فلما ثبت عنده ما اضمره رجع بمحلته كعادته وكتم سره ولم يظهره الّا لمن يثق به من بطانته * ولما قرب من المدينة بمرحلة خرجت وجوه الناس كعادتهم الى لقائه وخرج ابن احمد خوجه واحمد بن القائد جعفر وهو احد مماليكه وثبت عنده انهما اصل الفتنة وهما اللذان اغريا الداي فلما سلما عليه قبض عليهما ورجع بهما الى محلته فلما شعر الداي بذلك علم انه المطلوب فبعث جماعة من اكابر دولته يعتذر الى الباي وانه

ما اراد شيئا وانها اخبار كاذبة وحلف بايمان ولا امر تقرر بخلاف قوله فلما وصلوا الى المحلة التقى بهم واطلعوه ما ارسلوا به له فاخبرهم بدلائل قاطعة فاتفق معهم على خلعه فخلعوه بين يديه وقدموا هنالك من اراد وهو الحاج محمد منتشالي وبايعوه بين يديه ورجعوا به الى تونس وعند وصولهم القصبة دخلوا على الداي الحاج شعبان وخلعوه واخرجوه وجلس منتشالي مكانه وكفاه الله شر ما ارادوه ودخل الى حضرة تونس مويدا مجبورا فخافته نفوس اعدائه وتصرف في البلد بنفاذ الكلمة وتيسر له ما لم يتيسر لآبائه * وبعث بابن احمد خوجه الى بلد تستور وحبسه هناك ففر من محبسه وابن القائد جعفر ارسله الى بلد الجريد فكان ذلك ءاخر العهد به * وهذه الواقعة سنة ثلث وثمانين والف ولما اطمان بحضرته احسن الى وجوه اهل الدولة وفرق فيهم اموالا واستجلبهم وطيب خواطرهم واطمانت نفوسهم والتجا اليه محسنهم وخافه مسيئهم وتصرف كيف شاء ونفذت الامور على ما اراد * وخرج في السنة المذكورة كعادته الى بلد الجريد لجباية الخراج فجاءته الاخبار ان اهل طرابلس وعسكرها عصوا عن باشاهم وحاصروه في قلعتها الى ان مات بها وانه اوصى باولاده الى الباي المذكور فسار الى طرابلس ليكشف الخبر فخرج اليه عسكر من طرابلس فاعذر اليهم وحذرهم وانذرهم فابوا إلّا قتاله فقاتلهم وقتل اكثرهم واسر باقيهم فعفا عنهم وجاءته مشائخ البلاد والمرابطين وطلبوا منه ان يرجع عنهم ولا يتعرض لاحد بمكروه فقبل منهم ورجع الى بلاده * وانتشر الخبر فخافته نفوس اعدائه . واضمر له اهل الشر في قلوبهم داء فعجل لهم بدوائه . وذلك ان جماعة من العسكر زرع الله في قلوبهم الحسد على ما رزق من النعم . وارادوا المكر به كما فعل الذين من قبلهم فقوبلوا بالنقم . فاتفقوا في غيبته هذه ودخلوا القصبة البلد على حين غفلة وخلعوا الداي الذي بها واجلسوا عوضه دايا ءاخر وهو الحاج علي لاز وقدمر ذكره وتعاقدوا بينهم على المكر بالبايات جميعا ويوم فعلهم كان يوم الثلاثاء وهو يوم دم واول يوم من الحسوم فايقنت اهل العقول

باراقة دمهم . وحكمت بحبسهم * ولما فعلوا ما فعلوا خرج المكرم محمد باي ولحق باخيه واتزر بعضهما ببعض ورجعا الى بلد الزوارين من ناحية الكاف وبعث الحاج علي لاز بجهادهما فلم يفده شيئا فعند ذلك امر ان تنهب ديار البايات فاخذوا من متاعهم ما قدروا عليه وصارت هرجة في المدينة وخرج الى الباي جماعات ممن ينتمي اليه وكره الناس هذه النازلة لما وقع بسببها من الفساد في المدينة واستعظموا الامر * ولما فعلوا هذه الفعلة قدموا على انفسهم محمد داشة وجعلوه مقام الباي وركب في الاسواق وطيف به وجلس في بعض منازلهم واخذ يستعد لحربهم وبعث الى طائفة من العربان واستنصر بهم وخرج بمحلة ونزل بالملاسين وبه سميت واقعة الملاسين وهو المكان الذي في طريق سيجوم فبعث اليهم الباي يحذرهم على فعلهم فلم يرجعوا عنه لانهم جماعة من اشرار العسكر ورؤساؤهم لم تكن لهم عقول للتمييز وغلبت اشرارهم اخيارهم فبعث الباي اليهم بعثا بعد بعث فكانوا يخرجون كل يوم الى خارج البلد ويستنفرون معهم من هو على رايهم وجاءتهم مشائخ العربان وسخروا بهم وهونوا عليهم الامر واخذوا منهم دراهم وثيابا على الرحيل فلم يجدوا من يحملهم فلم تكن الّا ايام يسيرة حتى اقبل الباي اليهم باجناده وزمولة ونزل بمقربة من سيدي علي الحطاب وتاهب لقتالهم فلما سمعوا به استنفروا بقية العسكر وخرجوا الى المكان المذكور واخرجوا مدافع كانت معدة لهم وتقدموا الى مكان يعرف بعقبة الجزار فطلعت عليهم الخيل من ناحية الباي وكان الباي في مراده ابقاء الحرب الى غد فلما التقى الجمعان وتناوشوا القتال لم تكن الّا ساعة من نهار حتى ولوا على اعقابهم منهزمين واخذت مدافعهم وامتعتهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ومن نجا منهم دخل المدينة والتجا الى القصبة بقية الجماعة واغلقوا عليهم الابواب وتحصنوا بها * وهذه الواقعة كانت يوم الجمعة في النصف من صفر سنة خمس وثمانين والف ومن غد اصبحت القصبة مغلقة الابواب واهل البلد في حيرة لم تكن في حساب وصالت الاعراب في اطراف البلاد وكان

الخطب جليلا . ويوم الاحد قدموا دايا ءاخر وهو الحاج مامي جمل وبعثوا اكابر العسكر الى الباي يعتذرون اليه فقبل منهم وامرهم باخراج المفسدين من بينهم فبعثوا الى الجماعة المتحصنين بالقصبة فخادعوهم الى ان اخرجوهم ومشوا الى زاوية الشيخ سيدي محرز فلم يغن عنهم فاخرجوا منها وقتلوا . وتتبع الباي كل من ركن اليهم ولافعالهم وقتل اكثرهم وما نجا الا اقلهم واسترجع ما نهب من امواله الا ما قل * وهذه الطائفة فعلت الاوابد وافسدت وخربت ولم يكن فيها صاحب عقل وكادت ان تخرب البلاد لولا ان تداركها الله بهذا النصر . وكانت هذه الواقعة عبرة لاهل العصر . وتدارك الباي المذكور احوال البلاد فصرف عنها العرب الذين اتوا معه فردهم الى اوطانهم وامن الناس على ما بايديهم وكفى الله المومنين القتال واقام بمنزله في باردو واخذ يتتبع اهل الجنايات الى ان افنى بعضهم واجلا بعضهم وكتب اوامر وبعثها مع جماعة من كبار العسكر الى الباب العالي وجاءه الجواب على مقتضى مراده . ومن هنا زادت صولته وعلت همته وسافر في سنته الى افريقية كعادته والامور الاحكامية تنفذ في الحضرة باوامره ومشورته وزادت همته على من تقدمه من ابيه وجده . ونال ما لم ينله احد في اقليم المغرب بحزمه وجده * وفي هذه السنة اخذ اهل وسلات في النفاق . واعلنوا بالنفاق . وكان قد لجا اليهم ابو القاسم الشوك لانه خاف من سطوة مراد باي لانه تحقق عنده انه كان ممن وانس عليه . وساعد بعض اعدائه سرا وكاتبه ومال اليه . فخاف على حشاشة نفسه . واعتصم بالجبل مع ابناء جنسه . لان هذه الواقعة المذكورة كشفت احوال كثير من المفسدين . واظهرت خفياتهم الباطنة ففعل بهم ما فعل بقوم ءاخرين . وكانت لها سمعة بين اهل البلاد الغربية . واتصل ذكرها بالبلاد الشرقية . وكنت مدحته على ذلك بقصيدة دالية فجاءت بسعادته على وفق المراد . وقرئت بحضرته على المسامع الشريفة وحليتها باسم مراد . وهي ازيد من مائة بيت استوفيت فيها الواقعة من اولها الى ءاخرها . واظهرت اسمه واسم اخيه ووالديه وجعلتها

واسطني جواهرها * واول القصيدة من محاسن ما يذكر بين الناس ، وها انا اذكر شيئا منها كما اذكر اسم الممدوح ولا باس ، اولها —

زمان الصبا هل له أن يعـاد   وان كان ماضيه لا يستفـاد
وهل للشبيبة من رجعـة   تقابلني بعد ذاك البعـاد

وما زلت مستمرا في تغزلها ، وشكاية الدهر وما فعلت الايام بامثلهما ، وتخلصت الى الممدوح بقولي —

ولله من عصبة رفقتـي   بعدم ركاب وعدم المزاد
يسائلني بعضهم في المسير   الى اين قلت لقسم يـراد
ونطقته بعض ما في الضمير   وشاورت كلا على الانفراد
فقالوا نوم لبعض الملوك   فقلت اصبتم فهذا مـراد
بتونس انسها قـدره   فصارت كما قيل ذات العماد
أمير جيوش مجال الهنـا   ورب الثنا لجميع البـلاد
له همة بلغت للسهـا   وصورته عن ظهور الجيـاد
اذا ما علا اظهر الصافنات   يزحزح في الارض صم الجماد

ومنهـا

ايا ملكا فاز بين الملـوك   وللضد والمال جعا ابـاد
فلو عاش كسرى لهذا الزمان   اطاع والقى اليك القيـاد

ومنها في ذكر ولديه النجيبين

وللفرقدين به نسبـة   فلا تنس ذكر الكرام الجياد
محمد تحمد اوقاتـه   علي اخوه علي النجـاد
هما كاليدين وكالمقلتين   وكالنيرين لنفع العبـاد

ولولا خوف الاطالة لاتيت بها من اخرها * ومدحت بقصيدة لامية الامير الاسعد ابا عبد الله محمد الحفصي واتيت بما يليق بكل واحد منهم فحصلت الجائزة من الاخوين ، جازاها الله بثواب الدارين ، ولكل واحد مآثر وحسنات تتلى ، وكلهم مستحق المدح والمدح لهم اولى ، والله تعالى.

هو المسئول ان يذهب عن جميعهم الضير ويقيهم الآفات . ويلهمهم الرشد في الماضي والحال وما هو آت * ولنرجع الى بقية اخبار المرحوم مراد باي فلما تحقق عنده نفاق الجبل . اخذ في استعمال المكر به والحيل . وكاتب الشوك يخوفه ويحذره وهو متماد على نفاقه الى سنة خمس وثمانين والف خرج اليه بمحلتين عظيمتين واستنفر جمعا عظيما من اهل البلاد وخرج اخوه معه بمحلة من صبايحيته ونازل الجبل وادارها به من كل فج وبعثوا الى اهله جماعة من الشرفاء والمشائخ فلم يتفق لهم طاعة فعند ذلك امر بقطع اشجارهم وضايق بهم الحصار الى ان دهمهم وحل بدارهم ودخل الجبل عنوة . وقطع منهم الخوخة . وفر الشوك امامه بعد قتال شديد . وقتل نفسه بيده وجيء براسه وما ربك بظلام للعبيد . وكان هذا الفتح في شهر صفر من السنة المذكورة . ورجع بعساكره ومحلته المنصورة . ويوم دخوله الى الحضرة عد من حسنات الايام . وعام سعيد على اهل تونس يفتخرون به على الاعوام . ودخلت المحال على كرتين . وقسمها بين ابنيه الاثنين . دخل ولده الاكبر المولى محمد باي بالمحلة في اول يوم ومن غد دخل اخوه المولى علي باي . وهي اول محلة دخل بها . وظهرت عليه ذلك اليوم مخائل الامارة والبها . ووقع للناس الفرجة في يومين . وعوذت الناس الاميرين الاثنين بثاني اثنين . ونشرت على رؤوسهما الاعلام الخاقانية . وضربت الطبول العثمانية . وكانت هذه الايام من تمام السعادة . وبها ختمت حياته الى ان ختم الله له بالسعادة . وهذه آخر سفراته . وآخر ايام حياته . ولم تطل له الايام من بعد . وتفقدته من بين اقرانه والايام مولعة بالفقد * وتوفي بمنزله السعيد بباردو في العشر الاواخر من جمادى الاولى سنة ست وثمانين والف . وحمل على الاعناق وادخل الحضرة ودفن في تربة ابيه وجده بجامعهم المشهور . وانفرد بعقله بعد ما كانت عامرة به المنازل والقصور . وكانت جنازته حافلة وغلقت الاسواق وبكت عليه الناس . وبموته انفتح الخرق وجار على اهل البلد الشر والباس . عسى الله ان يرد كل خائف الى مامنه . ويلهم ولديه المتولي منهما اصلاح

وظنه انه مجيب الدعاء * ومن محاسنه رحمه الله تعالى انشاؤه مسجدا ببلد باجة من احسن المساجد وجعل امامه من الطائفة الحنفية واوقف وليه ما يحتاج اليه ، وكذلك مدرسته بديعة الشكل عند باب الربع بمدينة تونس واشتهرت باسمه يقال لها المرادية وبعضهم يقول لها مدرسة التوبة لانها كانت مسكنا للاجناد قبل بنائها ويقع فيها الفجور فغير رسمها الاول وجعلها لتلاوة كتاب الله والعلم وبها امام ومدرس وعدة بيوت للقاطنين بها ولهم مرتبات واوقف عليها عدة حوانيت بازائها ، واوقافا اخر بحيث تكمل جراية اهلها ، وسئلت عن تاريخها فجاء بالجمل ، مدرسة علم اثابه الله على ما فعل * ومن فخامة قدره ، ما ساد بين الخافقين بذكره ، الوليمة العظمى التي صنع لولده الانجد مولى الفخر الجلي والقدر العلي ، ابي الحسن المولى علي ، ولاخيه حسن باي اي اخي مراد باي كانت من عجائب الدهر ، وتذكرة لاهل العصر ، صاهى بها الولائم السابقة لابيه ، واربى في التجمل كعادة اسلافه وزاد فيه ، وكانت سنة ثمانين والف واتفق الناس انهم لم يروا مثلها إلّا فيما سبق لابيه وعليه الاجماع حصل ، وعلموا ان هذا الفرع من ذلك الاصل ، ختم الله لنا ولهم بالسعادة ، واثابهم الحسنى على صنيعهم الجميل وزيادة ، انه ولي ذلك والقادر عليه * ومن البايات الذين حصلت لهم الرئاسة وحصل الاجماع على تقديمهم الى ان دخلتهم المنافسة فقاسى كل واحد منهما ما قاسى وهما الاميران الاجلان الاخوان الشقيقان اللذان رضعا لبن السيادة من ثدي واحد ، ولم يكن للذي عقل ان يفضل واحدا على واحد ، إلّا ان لله في خلقه اسرار ، ويعلم ما جرحتم بالليل والنهار ، ولولا قدر الله الذي سبق في علمه ، لم يكن لواحد منهما ان يتزحزح عن رتبته ورسمه ، ولنات بنبذة مما وقع بينهما الى ان من الله تعالى على اهل الحاضرة بمن صلح بينهما وذلك يوم وفاة المرحوم مراد باي كان ولده الانجد ابو عبد الله محمد وهو اكبر ولده في المحلة كعادته لان والده كان ينوبه في حياته وشقيقه ابو الحسن علي حاضر لوفاة والده فلما سار الى رحمة الله اتفق اهل الحل والعقد على توليته

الاثنين لانهما كالنيرين ولا فرق بينهما ولا فضل لاحدهما في السياسة والتدبير . الا كما يقال في المثل فضل الكبير على الصغير . فسيروا له صحبة اخيه جماعة من اغوات العسكر وصحبتهم خلع سلطانية واوامر شريفة بولايتهما جميعا وقرئت بالمحلة على العسكر والبسا التشاريف وضربت الطبول ونشرت على رؤوسهما الاعلام الملوكية وتباشرت الناس بهذه الولاية المتجددة فقام المكرم محمد باي بالامر احسن قيام . واستوفى خلاص رعيته على التمام . ونفذت الاوامر على وفق مراد الاخوين . واستوفيا ما كان على الرعية من الدين . ورجعا الى حضرتهما في شهر رجب من السنة . فلما قربا من المدينة خرج اليهما الناس على العادة للتسليم عليهما واجتمع بهما من لا يخشى الله والقى لهما كلاما باطلا انفعلا منه وكادت ان تكون فتنة لولا لطف الله ومن غد دخلا في موكبهما على العادة فلما حلا بدار عزهما دخل المكرهون بينهما بالنميمة واظهروا لكل واحد منهما النصيحة واغروا بعضهما على بعض وكان بنيان الفتهما على اساس فارادوا ان ينقض ففتح بينهما باب الفتن * وجرت بينهما مخاصمات في السر والعلن * وكل منهم يدعي انه المبغي عليه . واراد كل واحد منهما ان يعلم ما له وما عليه . وطلب المكرم محمد باي ان ينفرد بالامر على ما كان في زمن ابيه عليه . وطلب اخوه المكرم علي باي ان يكون مشاركا له فيما لديه . وابى كل منهما ان يسلم الامر لغيره فجرت بينهما مشاجرة وتخاصم * وءال امرهما الى التحاكم . وحضرا بالديوان المنصور وتنازعا بين يدي اكابر العسكر وتكايد بعضهما بعضا . واتفقا ان يسلما الامر الى عمهما الاكبر فرضيت جماعة اهل الديوان بذلك وقدموا عمهما . وجعلوا بيده التصرف في الحضرة والممالك فخلعت عليه خلع الولاية وركب بشعار السلطنة ونادى المنادي في البلد واعلم الناس بولايته فجلس بمجلس حكمه . وخرجت الاوامر باسمه . وهو الامجد الانجد المولى ابو عبد الله محمد الحنفي ابن المرحوم المولى ابي عبد الله محمد باي ابن المولى المرحوم برحمة المالك الجواد مولانا ابي الطيب مراد باشا غفر الله للجميع .

ولما تم له الامر اخذ في اصلاح شانه وانعم بالهبات والصلات على جميع من يستحق احسانه فانفت نفس المكرم محمد باي من تقديم عمه وكتم سره ولم يظهر لاحد خبره فعزم على الفرار من الحضرة ووافقه ابن عمه وبعض جماعته وغلمانه وخرج الى ظاهر البلد كعادته واخذ متوجها الى بلد الكاف اواخر شعبان سنة ست وثمانين فجد في سيره الى ان بلغ الكاف . فكثرت في المدينة الارجاف . وانقسم الناس واختلفت ءاراءهم واهواؤهم وتزايدت الاقاويل . واختلف القال والقيل . ولما حل بالكاف اجتمع اليه خلق كثير من كل الجهات فانعم عليهم واحسن اليهم واستخرج من ذخائر والده وانعم على وفده وتجهز لمحاربة عمه . وكان من قدر الله انه قبل خروجه من الحضرة اقبل الركب الحجازي وشيخ الركب محرز بن هندة وكان من رجال الدولة في زمن الائمة فلما حدثت هذه الحوادث خاف المولى الحفصي ان يتفاقم الامر فحسم المادة بان خلع نفسه ورد الامر الى حفيده وبعث الشيخ المذكور الى بلد الكاف لاصلاح ذات البين فلما وصل الكاف حكم العداوة اكثر مما كانت عليه وفي غيبته كثرت الاراجيف . وبقيت اهل الاهواء في كر وفر وعظم على الناس الفتن وتسامعت اهل الحضرة ان الباي غزا من الكاف على باجة واخذ منها ما يستعد به ثم غزا الى ناحية القيروان واخذ شيخ الزمالة احمد الرقيعي وفتك به وانه معول على المجيء الى تونس لمحاربة اخيه وعمه . فلما سمع عمه بذلك خرج من المدينة وخرج معه ابن اخيه المولى علي باي ليجمعا امرهما ووقعت هرجة في البلاد وفي اثناء ذلك رجع محرز بن هندة من الكاف فالتقى بهما وهون الامر عليهما وذلك بخلاف ما في ضميره فرجعا الى البلد وحلف لهما العسكر ان لا يفصلوا احدا على احد ولكن من موانسة من اكابرهم . ورجع محرز المذكور برسالة غير الاولى فزاد بمكيدته في تاكيد الشر وترادفت الاخبار وتواتر ان الباي اقسم لا يدخل البلد وعمه فيها او يفتك به وذلك في شهر رمضان المعظم من السنة فلما صح الخبر عند عمه كره اراقة الدماء بين الفريقين فعزم على الخروج من البلد

وهيا مركبا حمل فيه ما يحتاج اليه وسلم ملكه ومتاعه وخرج بمن يليه وركب البحر من ناحية رادس ويوم خروجه تفتتت الاكباد ، وتقطعت قلوب احبابه من اهل البلاد ، وكان الهول عظيما ، والامر جسيما ، ولا حول ولا قوة الّا بالله كيف تفرق الشمل بعد التئامه ، والعقد بعد نظامه ، وهذا هو السبب في رحلته الى الديار الرومية ، والقدر يحمله الى ان بلغ الى الرتبة الملوكية ، ورجع بشعار الباشوية الى الديار التونسية ، وقد مر له خبر قبل هذا في غير هذا المحل ولما سمع حفيده بخروجه من الحضرة اقبل الى البلاد ، بمن صحبه من رؤساء وقواد ، فخرج غالب الناس الى لقائه ، وخرج اخوه مع من خرج فغض منه واظهر له التنكر والحقد في باطنه اكثر وحل في منزله بباردو وجاءه الناس وهنوه ، ثم وقع بينه وبين اخيه اتفاق على ما رجوه ، ولم يتم ذلك والزمه الاقامة ببعض قصورهم خارج البلد وان لا يدخل الحضرة في غيبته وتهيا الى المحلة في شوال سنة ست وثمانين وخرج تحت الصنجق وسافر الى بلد الجريد على العادة ، وفي غيبته تقوى الطاعون بتونس ومات من اهل بيته جملة من اقاربه واخوه لم يحضر جنازة احد منهم وماتت زوجه ولم يحضر جنازتها ، والاخبار واردة بما تغيرت منه النفوس وفي اثناء ذلك مات عمهما حسن باي ابن المرحوم محمد باشا فحضر المكرم علي باي في ذلك اليوم جنازته ، وبعد ايام ظهر الخبر وذاع بين الناس ان المولى علي باي توجه الى ناحية الغرب لسبب تحقق عنده وخافه والله اعلم وسياتي بعد ، واما المكرم محمد باي فاستخلص عادته من الجريد ورجع من هناك الى افريقية ورجعت المحلة الى تونس وزادت الاراجيف من اهل البلد واضطرمت نار الفتن ، وخرجت المحلة الصيفية من سنة سبع وثمانين لاستخلاص الوطن الافريقي ، وفي تلك الايام وردت اخبار من الديار الرومية بان عمهما وصل اليها ووردت اخبار اخر اضربنا عنها فرجع المكرم محمد باي الى الحضرة واتفق مع اكابر الدولة بانهم لا يقبلون احدا من عمه واخيه ، ومال العسكر الى قوله وعقدوا محضرا بجامع الزيتونة واتفقوا على

كلمة واحدة ، وفي اثناء ذلك جاء الخبر بان المحلة التي للصبايحية وكانت قريبة من عمدون اخذها تابع المكرم علي باي ، وهو القائد مصطفى سبنيول في عدد من الاعراب فخرج محمد باي من فوره من المسجد ، وجد في سيره ومن عند بعث برغوس اعراب لتمكين الاحوال ولكن الاراجيف كل يوم تزداد ، ولما فرغ من امور افريقية توجه من هناك الى ناحية القيروان لانه بلغه نفاق وسلات فسار اليد بخيله ورجله وحاصره من كل جهاته ، وبعث الى اهل الجبل جماعة من المرابطين فرضوا بالطاعة واداء المال فلم يقبل منهم الا ان ينزلوا من حكمه فخافوا من ذلك ورضوا بالموت في منازلهم ثم بعث الى الحضرة فامدوه بعسكر ثان وذلك في شوال من سنة سبع وثمانين ورجع هو في اثناء ذلك الى الحضرة واستحكم من العسكر بما اراد ، وغالب العسكر ممتثل لامره ونهيه منقاد اليه احسن قياد ، ما منهم الا من يفديه بنفسه ، ورجع من فوره الى محلته وتتابعت رسله الى اهل الجبل ولم يتم له ما اراد فعزم ان يستاصله من اوله الى آخره فهيا له جموعه بعد ما ترادفت عليه من كل الجهات ، ودخل الى الجبل من طرق شتى ودهم اهله بما لا قبل لهم به ولولا ما سبق في علم الله لجعله دكا فلما توسط جل العسكر في الجبل ووقع الحرب بين الفريقين وكادت ان تكون الدائرة على اهل الجبل فكان من قضاء الله ان المكرم علي باي كان في الجبل بطائفة من جماعته ، وكان قائده القائد مصطفى بكمين خارج الجبل فلما علم توسط العسكر في الجبل بادر هو الى المحلة وكان بقي بها جماعة ليحرسوا الامتعة التي بها والدواب فاغار عليها من خارج الجبل واخذ عدة من الخيل والجمال ، وكاد ان ياتي على آخرها فحاربه من بها من العسكر ورموا عليه بالمدافع وظهرت له في ذلك اليوم شجاعة واقدام لم ير لاحد مثله حدث به من شاهده ، فلما سمع من في الجبل من العسكر حس المدافع علموا بواقعة حدثت بعدهم فوجلت قلوبهم ودخلهم الرعب فولوا منهزمين لا ياوي صديق على صديقه ولا ينظر شقيق الى شقيقه فركب اهل الجبل ادبارهم وقتلوا منهم مقتلة لم

يسمع بمثلها ولم ينج منهم الّا من وثق باجله ومات غالب الرؤساء من مقدمي العسكر وخليفة الباي القائد محمد بن علي وجماعة من فضلائها وكاد الباي ان يقع في المكروه لولا لطف الله به ونجا بنفسه وخلف المدافع التي دخل بها للجبل في مواضعها ورجع الى الاخبية بمن نجا معه ومن غد رجع الى المدافع واتى بها ورجع راحلا الى القيروان . وكانت هذه الواقعة تعد من الوقائع . وبها اتسع الخرق على الراقع . وكانت في ذي القعدة من سنة سبع وثمانين والف ووردت الاخبار الى الحضرة ولكن لم تشتهر والناس بين مصدق ومكذب . ثم بعث الى العسكر يستنجدهم فامدوه بعسكر ثالث ولكن لم يخرج الّا والفشل دب في اكثرهم وخامرهم الرعب ولم تطمع نفوسهم بالنجاة الى القيروان فلما وصلوا الى من تبقى من اخوانهم من العسكر انتخب منهم جماعة مستفيضة وبعث الى الجريد محلة مشحونة وسردارها محمد رايس عرف طابلق وقد مر ذكره عند ذكر الدايات كما سبق وقائده القائد مراد وبقي هو بمحلته وجاءه الخبر بان اخاه رحل من الجبل وانه في جمع قليل فطمعت نفسه بلقائه فلحقه وظن ان ما اصابه انما كان باهل الجبل فجد السير في طلبه الى ان لحقه بمكان يعرف بسبيبة وكان يوم عيد الاضحى والكرم علي باي مقيم فلم يشعر الّا والخيل اقبلت وخبرته باخيه قادم عليه فاستدرك امره وهيأ جمعه ودهمه اخوه بمن معه . وكان غالب من معه ادركهم التعب لعنف سيره والتقوا ابلا كثيرة فاخذوا منها وبدا النهب من العرب كعادتهم . فلما امعنوا في النهب دهمهم علي باي بمن معه وحملوا حملة منكرة وممن كان في نجدته ذلك اليوم صهره وظهيره شيخ العرب الشيخ سلطان بن منصر بن خالد وجماعة من الصبايحية فقابلوهم بنفوس ابية والله يويد بنصره من يشاء فلم تكن الّا ساعة من نهار حتى هزموهم . وكان عسكر المحلة ادركه التعب فما وصلوا وبهم قوة فلما راوا المنهزمين نصبوا اخبيتهم وتحصنوا بها وبعث اليهم علي باي يامرهم ان يدافعوا عن انفسهم خيفة منه عليهم وقتل من الترك ووقر الباي بمن قدر

نعم . ورجــع الى الكاف وغنم اصحاب الاجد علي باي ما خلفه اخوه وعجز عن حمله وكان شيئا مستكثرا لانه رفع في وجهته هذه من الذخائر ما لا يوصف فملئت ايدي العربان من المال والامتعة . ولمـا انفصل الحرب بعث الى اكابر المحلة وامنهم وسكن قلوبهم ثم بعث جماعة من اصحابه ممن يثق بهم الى المحلة المتوجهة للجريد فاستوثقوا بها وجبيت المجابي باسمه . ولمـا تيسر له هذا الفتح بعث بالخبر الى تونس فكان وصول الخبر اليها يوم ثالث العيد فزاد الهول على اهل الدولة واختلفت ءاراؤهم ولم يفتح لهم باب الى ان هيأوا جماعة من اكابر العسكر وبعثوهم الى المحلة وبعثوا جماعة من العلماء والمفتيين فكان من أمرهم ما سبق ذكره من خلع الداي الحاج مامي جمل وتولية الحاج محمد بيشارة . واحتوى المكرم علي باي على منصبه وتصرفت الامور عن اذنه وهذه ءاخر محلة خرجت في تصرف الامير محمد واول محلة دخلت في طاعة الامير علي ولم يزل المكرم محمد باي بعد هذه الواقعة متخبطا في الغمرات . طالبا اخـذ الثارات . واخوه مقابل له في ذلك . متعرض له حيث توجه من المسالك . وكل منهما له وقائع تذكر . وصولات وسطوات لا تنكر وتشكر . الى ان اصلح الله ذات البين . وجمع كلمة الاخوين . بعد ما كان بينهما حرب ولا حرب الاخوين . عسى الله ان يقيهما الحوادث . ولا يدخل بينهما ثالث . ان شاء الله تعالى * ومـن البايات الذين شاد ذكرهم في الامصار . وانتشرت اعلامهم في هذه الديار . الامير الشهير الاسد الضرغام . والبطل الهمام . صاحب القدر العلي . ابو الحسن المولى علي . باي البلاد التونسية . المتصرف في المملكة الافريقية . احسن الله اليه . واجرى الصالحات على يديه . وهو الذي سار ذكره في الافاق . وترنم الحداة باسمه وحلا ذكره بين الرفاق . وحل في رتبة المعالي في سماء العز واشرق سناه شروق النيرين . وارتفع محله الى ان صار قطب المملكة التونسية وعلا على محل السهى والفرقدين . وبلغ من السعادة ما لم يبلغه ابوه وجده . وبذل مهجته في طلب العلياء وركب الاهوال وساعده جده . وخـاطر بنفسه في

ركوب الاخطار . ولم يكل عزمه في طلب السرى وجد السير وركب الليل وامتطى النهار . وكافح الابطال . وباشر النزال . ودخل وسط الحرب . وقابل الطعن والضرب . وهان عليه ركوب الاهوال . وانفق الطارف والتليد والاموال . ولم يشح بروحه وان كان غيره بها لم يسمح . وساس الامور الى ان دان له من جمح ومن لم يجمح . ولم يزل ممتطيا ظهور الصافنات في طلب الثارات الى ان بلغ المراد . وجاءته السعادة منقادة لما يامرها به وامتثلت لابن مراد . وتصرف في المملكة تصرف الملوك . وخضعت لدولته الايام قائلة لله ابوك . تقف الامراء اجلالا لمهابته . وتخضع له الاسود خوفا من سطوته وشهامته . كم اثار من حروب و باشرها الى ان خضعت له الرقاب . وقارع الابطال وقرع بابا لم يفتح لغيره وفتح له الباب . سرى في طلب العز كالهلال فعاد كبدر التمام . واحتجب في سماء الهيجاء بين نجوم الاسنة وبروق البارق وظهر من تحت سحاب القتام . ونازعته نفسه في الرتبة الملوكية فقال انا لها . واقتحم عظام الامور الى ان بلغها ونالها . فكم له من واقعات ضربت بها الامثال . وكم له من فتكات في اعدائه عجزت عن مثلها الابطال . كيف لا يحق له ان ينال مرامه وهو جالس في مكانه . وكيف يحق لمن لا يخاطر بروحه مخاطرته ان يعد من اقرانه . ورث السيادة عن ءابائه وشيدها على ما كانت عليه . وان جمحت من غيره فقد جاءته منقادة بين يديه . وفي المثل - بالسعود لا بالجدود - وهذا جمع بين الاثنين . وساعده الزمان مساعدة العبيد مواليها واقتضى ما كان له على الايام من الدين . وفضله وقدره اكثر من ان يذكر . ومحاسن ايامه معلومة بين الناس فلا يحق لها ان تنكر . وانما مد القلم لسانه لانه وجد في هذا الميدان مجالا . وان كان يعد من الخرساء فقد انطلق وتمثل فقال —

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فان وجدت لسانا قائلا فقل

وهذا الامير مالك عناننا . وحاكم اوطاننا . ومتصرف في زماننا . جمل الله بمحاسنه الايام . وجعل عليه كل نار حرب اضرمها اعداؤه بردا وسلاما .

ونأتي بشيء من اخباره ونذكر شيئا من ءاثاره . كان الله له وهو من الذين رضعوا لبان السيادة . وكان ابوه لا يفارقه حيث سار وهكذا جرت العادة . فكان يتخلق باخلاق ابيه . الى ان اخذ الماء من مجاريه . وفيه سكينة ووقار . وتجنب عن العار . وبطش وشدة ولين وحدة وعقل رصين . وجانب معين . وثبات جنان . وكثرة احسان . وكان والده يتفرس فيه الرئاسة وكذا كان . ولما قدر الله على والده الموت المحتوم كان حاضرا عنده وبلغني انه دعا له بالخير ومات وهو راض عنه فتقبل الله دعاءه فلم يزل في حفظ الله الى ان بلغ مرامه . وكان من قدر الله على ما سبق في علمه ان يئول الامر اليه * وارادوا خروجه عنه فجاءه الامر الى يديه . وما احسن قول ابي دلامة . لما مدح المهدي واخذ الكرامة —

اتته الولاية منقادة | اليه تجرر اذيالها
فلم تك تصلح الا له | ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها احد غيره | لزلزلت الارض زلزالها

ولما قدر الله باثارة الفتن كما سبق الخبر عنها في اول الفصل وخروج الامر من يده والزامه الاقامة في منزله بمنزل عمر وكان الطاعون في تلك الايام ومات من اهل بيته جماعة وهو كالمحجور عليه وتواترت عليه الاخبار بما تشمئز منه النفوس وكاتب بعض اصدقائه وكاتبوه فكتم سره وعزم على الخروج من العمالة والقضاء يقول له انا رادوك ان شاء الله على اكمل حالة . وسافر في عدد يسير . ورافقه من ختم الله له بالخير على هذا الامر العسير . المرحوم برحمة الملك الاوحد . الشلبي ابن يوسف داي ابو العباس احمد . سقى الله ثراه من صوب الرحمة وساروا على غير الجادة ووقعت لهم في طريقهم امور اضربنا عنها لان الخبر المأثور عنهم فيه الصحيح والسقيم . ولما خلصهم الله من العدو الذي تعرض لهم ركبوا في البحر من مكان يعرف بمرسى الخرز ومن العجب ان كيف حمل البحر المالح هذا العذب الفرات . وكيف علا فوقه الدر الفاخر ان هذه لاحدى المغربات . وسارت بهم المركب وتلا

القائل لمم الله بجراها ، الى ان بلغوا مامنهم من بلد العناب فكان هنالك مرساها ، فتسامع به اهل البلد وحشر الناس ضحى الى رويته وكان ذلك اليوم من اعجوبة الدهر عندهم ولقيه اهل البلد واكرموا مثواه وقابلوه بما يستحقه ، ومن هناك اخذ في تمهيد امره وبعث خاله الى مدينة الجزائر لقصد نصرته فكانت تربته وقبره والتحق به من كان ينتسب اليه من رجال والده واتته جماعة من اولاد سعيد وجم غفير من دريد وتلاحقت به الناس وتجمعت عليه الجموع وفرق الاموال في جميع الاجناس ووافته باي الجزائر ووعده ان ينصره ولم يوف له ـ وما النصر الا من عند الله ينصر من يشاء ـ ان ينصركم الله فلا غالب لكم ـ وجاءت محلة الجزائر الى قريب من العمالة ورجعت واكثر المرجفون في المدينة بالاخبار التي ليس تحتها طائل ، بحيث يقربونه مرة ويبعدونه اخرى وقد بعدت عنهم المراحل ، وعاضده في غيبته هذه لما اراد الله به مصاهرته لاكبر مشائخ العرب الشيخ سلطان ابن منصر فتشرف الشيخ بمصاهرته هذا البطل ، وسعد حيث دخل في سلك دولته الى ان ضربت بسعادته المثل ، والتحق به قائده القائد مصطفى سبنيول وهو من رجال دولته ، وفي ايام ابيه كان مقدما على جماعة الصبايحية وتخرج بتربيته ، وكذلك انتظم اليه الشيخ محمد ابن القائد حسن واولاده وهو من رجال العرب ودهاتهم وان كان اصل ابيه من العجم الا انه ولد بين الابل والخيل وتعلم نزال الفرسان ومقارعة الابطال والغزو بالنهار والسري بالليل وغير هولاء بشر كثير ، فاول واقعة سمعنا بها في تونس اخذه لمحلة الصبايحية على يد قائده القائد مصطفى سبنيول وقد سبق خبره ثم غزا غزوة ثانية الى ناحية الكاف وساق احدى الزمائل وسار بها كل ذلك والناس يستصغرون امره ونار حربه احرقت الاقليم وهم يكذبون خبره وبعث عدة اوراق الى العسكر يعتذر ويحذر وينذر فلم يسمع له وكل من وجد ورقة من تلك الاوراق كتمها وذلك لما يريد الله به من نفاذ حكمه ، وبعث الى جبل وسلات فانقادوا اليه واظهروا نفاقهم محبة فيه ولا زال امره في صعود

وكل يوم في اقبال الى ان كانت الواقعة المذكورة قبل هذا عند كسره المحلة في الجبل المذكور وفك هناك كثيرا من الترك وفداهم بمال وعفا عنهم ولم يرد تعرضا للعسكر بمكروه ، ثم الطامة العظمى كسرت المحلة الثانية قريبا من سبيطلة بمنزلة المريقب يوم عيد الاضحى سنة سبع وثمانين والف واخذ المحلة وعفا عن اهلها وامنهم ، واتاه اكابر العسكر وبايعوه واظهروا له الطاعة وهذه اول محلة نفذ امره فيها وجاءت الاخبار الى تونس ثالث العيد فطارت عقول اعدائه ، وصار كل واحد منهم لا يعرف ارضه من سمائه ، وخامر جل العسكر الفشل ، واستولى على غيرهم الخوف والوجل ، واشتغل كل من العوام بما لا يعنيه ، ولكل امرئ منهم شان يغنيه ، واتت المكاتيب من المحلة واخبرت بما وقع وكانت في الحضرة هرجة عظيمة واتفق اهل الحل والعقد ان بعثوا جماعة من اكابرهم وجماعة من اكابر البلد ومفتيها شيخ الاسلام الشيخ ابا عبد الله محمد عرف قتاتة شيخ مفاتي المالكية والشيخ ابا المحاسن يوسف درغوث مفتي مذهب السادات الحنفية ، فلما وصلوا الى الباي حفظه الله عرف مقامهم وقابلهم بطلاقة وجه واحسن نزلهم ومن معهم واجرى لهم مئونة وقام بواجب حقهم ثم جمعهم واكابر عسكرهم وعد عليهم ولامهم وحاججهم وقطع حجتهم وشهدوا له ذلك اليوم برجاحة العقل لانه كان في سابق الامر لا يتعاطى شيئا من المناصب لانه تحت حجر والده ولم يظهر منه تصرف بما يستحسن إلّا ما كان يستحسن من خلقته وخلقه وعقله زاده الله تماما على الذي هو احسن ، ورفع قدره بين الرؤساء الى ان ينال مراده ويتمكن ، ولما اجتمع بفضلاء الحضرة اتفق معهم على خلع الحاج مامي جمل ومبايعة الحاج محمد بيشارة فبايعوه بالمحلة المذكورة في مكان يقال له باطن القرن قريب من القيروان فرجعوا به الى الحضرة وخلعوا الحاج مامي وجلس بيشارة في دار القصبة الى ان كان من امره ما تقدم ، ثم ان الامجد ابا الحسن علي باي رحل من هناك بعد ان كانت له واقعة مع الترويين اضربنا عنها وكانت سببا لنفاقهم لما اراد الله لهم ورجع الى ان نزل بالفحص واقام به

اياما حتى تلاحق العسكر وجمع رايه الى التوجه الى الكاف فنزل قريبا منه وبعث الى تونس بطلب المدافع فسيروا له ما اراد وهنالك جمع جموعه وعساكره وقصد محاربة البلد فنزل قريبا منه وركب المدافع عليه ورمى به وجعل العسكر نوبا في المتاريس ووقع الحرب بينهما واصابت المدافع اماكن من الحصار وكاد ان يتزعزع وتصدعت منه اماكن إلّا ان الله تعالى جعل لكل شيء حدا . ومن قدر الله كان في العسكر جماعة لهم ميل الى اخيه فبعثوا اليه يستنجدونه وهونوا الامر عليه وكان في ناحية الغرب فجد في السير راجعا ودخل الى بلد الكاف ليلا ومشت بينه وبين العسكر عدّة ارسال واتفقوا معه ومكنوه من المحلة وكان ابو الحسن استشعر بعض شيء من ذلك وكانت اقامته بمحلته الاخرى فلم يشعر إلّا والمدافع مالت اليه . والعسكر الذي كان معه صار عليه . ومال العسكر الى اخيه . ووقع النهب في خيمه ومن يليه . فطاح ما بيده ورحل من ساعته بجموعه وجنده وكر راجعا الى الجريد وكد في سيره خيفة ان تصل الاخبار الى من هنالك . ولما وصل لمدينة قفصة لم يظهر لاهل المحلة التي بها ما يرتابون منه وامر برحيلها فرحلت وليس لاهلها علم بما وقع ورجع كعادته على الطريق الجادة وفشا الخبر بالمحلة وهرب منها اناس فلم يتم لهم مرادهم واقبل اليه في وجهته جل مشائخ العربان مثل الشيخ احمد بن نوير وجماعة من الحامد والجمع الاعظم من نواجع دريد وشياطين العرب اولاد سعيد وسلطان العرب بخيله ورجله وجاءته الاحباب من كل فج عميق واقبل بجمع لا يعلمه إلّا الله . ولما قرب من القيروان اظهروا له الشر فلم يعبء بهم ووقع بعض مناوشة بينهم وبين جماعة من الصبايحية ورحل عنهم الى ان نزل بالفحص والجموع تترادف اليه من كل مكان * ونرجع الى خبر اخيه وقد تقدم انه لما احتوى على المحلة وجدد عهده مع اكابرها بعث الخبر الى تونس فحين بلغ الخبر بمجرده قام العسكر على ساق ومضوا الى الحاج عامي جل وكان مستترا في الزاوية فاخرجوه وطلعوا به الى القصبة وأعادوه الى منصبه وخلع ببشارة

وبعد ايام امر بقتله وقد تقدم ذكره فيما سبق ، ومن هنا بدا التخالف وعظم الارجاف وكثر الخلاف وتفرق الناس ، ولم يبق للعقل قياس ، وتبددت الآراء والعقول ، وكل انسان بما يختلج في صدره يقول ، إلّا ان غالب الناس على جهة وقصدة ويتكلمون بكلام لا يحسن السكوت عليه ولا تصح به الفائدة وكل يوم تاتي اخبار ليس لها صحة في الخارج وترادفت وتزاحمت الاراجيف بما لا يعقل عند الداخل والخارج وبعث الداي جماعة من اصحابه ليأتوه بالخبر ، فمنهم من قضا نحبه ومنهم من ينتظر ، ورفعت الاسعار وقطعت الاسفار ، ووقع العسس بالليل والنهار ، ولما زاد الوجل باهل تونس اجمع رايهم على ارسال جماعة من العلماء واكابر المملكة من اهل البلد لاصلاح ذات البين ، والجمع بين الاخوين ، فغابوا مدة في ترددهم بين الاثنين ، فرجعوا بخفي حنين ، ولم يتم لهم الامر الذي طلبوه ، وكل من الاخوين طلب شيئا لم يساعده عليه اخوه ، فلما رجعوا خائبين خاف الناس من نار الحروب التي وقودها الناس ، وشياطين الانس مشيدة لقصور الفتن وليس لبنيانهم اساس ، وقام سوق الخوف من بعد الامن ، وانتشر النفاق في غالب الوطن ، وتقطعت الطرقات ، وغلت الاقوات ، وكل احد من الفريقين يرجح من صاحبه بالكلام ، ولم يبق لاهل تونس من العقل إلّا قال قال والسلام ، وهذا من اكبر اعاجيب الزمان التي لم يقع مثلها والاخبار كل يوم متواترة بما ليس تحته طائل ، والعسس في الابواب كل يوم على الخارج والداخل ، وجاءت الاخبار ان ابا الحسن علي باي قارب القيروان في جموعه والمحلة التي اتى بها من الجريد معه وبعث بهذا الخبر الى تونس فلم يقبله احد وبعثوا الى من بالمحلة يامرونهم بالهروب فهرب منهم جماعة ، ولما سمع به اخوه تثاقل من المجيء ثم ثاب اليه رايه وجمع جمعا عظيما واستوثق من اهل محلته وجاء في نجدته الشيخ الحاج بن نصر وجماعته واقبل في عدد لا يعلمه إلّا الله تعالى وجاءته الاخبار من العرب وهونوا عليه امر اخيه فجد في السير الى ان التقيا بالقيروان يقول من شاهد ذلك اليوم رايت من الفريقين ما يذهل

العقل لما شاهدته من الفرسان ووقفت بازاء شيخ يحرض الناس فعلمت انه سلطان ورايت من اقدام الباي ابي الحسن علي وهو ثابت الجنان ، ويجول بين الفرسان ، وقدمت العرب هوادجها كعادتها والتقى الجمعان وحلوا حلة رجل واحد فلم يقف احد منهم ساعة واحدة إلّا وقد رزق الله النصر الى جماعة المعظم ابي الحسن علي باي فغنموا مغنما عظيما من الخيل والسلاح وحرب الحاج وجماعته وخلف امرأته قال من شاهدها وهي راكبة على بغل حين اتي بها عفا عنها وردها الى صاحبها فلم يكن له ذكر بعد هذه الواقعة . ولما فتح الله هذا الفتح الغريب في الزمن القريب وكان الحرب من الفريقين بين الخيالة ولم يكن للعسكر مدخل لان المحلة التي جاءت من الجريد بعثها الباي علي الى زغوان وقال لهم اقيموا هنالك فان كنتم لي رجعتم معي والّا رجعتم الى صاحبكم فحلفوا له فلم يقبل وكان سردار عسكرها محمد رايس عرف طاباق وقد تقدم ذكره والمحلة التي جاءت من الكاف كفلها ان منعت نفسها ونزلت بمكان عال وخندق عليها اهلها ومنع الباي علي من التعرض اليها . ولما ارتفع الحرب بعث الى اكابر المحلة فعدد ذنوبهم عليهم وكان ذلك ءاخر العهد بهم . ثم بعث الى محلة زغوان فجاءته وبعث قائده مصطفى سبنيول الى تونس وبلوك باشية ليخبروا بالواقع وهذه الواقعة كانت ءاخر ربيع الاول سنة ثمان وثمانين والف . ولما جاءت الاخبار الى تونس عظم البلاء وارتجت قلوب الناس وكان الخطب جليلا وبعث قائده مصطفى فحاصر المدينة وضايق بها الى ان اذعنوا له بالطاعة وبعث اليها سردار العسكر الداي محمد طاباق بعد ما بايعه بالمحلة وقد مر خبره فيما مضى وطلع الى افريقية كعادته لاستخلاص وطنها وتمهيده وكانت له واقعة اخرى مع جموع اخيه كابن الحاج شيخ الحنانشة واولاده ابي زيان وجماعتهم من دريد ومعهم جموع من عرب افريقية وغيرهم فكانت الطامة الكبرى ومات فيها الشيخ سلطان الحنانشي لانهم دهموا عليه على غفلة عشية نهار وباشر القتال بنفسه وكثرت عليه الجموع فطعن ومات ووقعت في عسكر ابي

الحسن رجة لولا لطف الله به وثبات جاشه فبات على احتراس ومن الغد اشتد الحرب واشتبكت وزاد الخطب وصبر الفريقان صبرا لم يكن قبل ذلك اليوم ومات خلق كثير ووقعت الهزيمة على اولاد الشابي وتن معهم وغنم من اموالهم شيء كثير وملئت ايدي الاعراب وتن سواهم من الابل والمتاع وكانت بمكان يقال له وادي تاسة وعدة من الوقائع التي يضرب بها المثل ورجع منصورا الى وطنه واستكمل جباه واحسن الى الشيخ احمد بن نوير ورده الى بلاده فمات قبل ان يصل الى وطنه قريبا من الحامة في معركة مع جنود محمد باي واخذ غالب نجعه هناك . وفي هذه المدة كثرت الاراجيف بتونس وقيل ان الباي مات واطلقت الاخبار الكاذبة واختبلت عقول الناس حتى انهم كذبوا بالضروريات وصدقوا بالمحالات وبعد ذلك رده الله سالما الى حضرته وصلم بعض شهر رمضان فيها وخرج بمحلته الشتائية في ءاخر الشهر المذكور من هذه السنة وهي سنة ثمان وثمانين وكان خروجه تحت الصناجق كعادة ءابائه وضربت البشائر وكان له زي عظيم وظهرت عليه مهابة الملك ولم يكن خرج قبل ذلك اليوم على هذه الصورة فتبارك الله احسن الخالقين على حسن خلقته وخلعته ولقد زانها حتى قلت فيه ذلك اليوم قصيدة مطلعها —

بدر السما ام نور وجهك يزهر لما خطرت بحلية تتبختر
من سندس خلعت قلوب حواسد لكن بها احبابكم يستبشر
ما عاين الراءون حسنك مشرقا إلّا وحقك هللوا او كبروا

وهي طويلة اضربت عنها ولم تساعد الاقدار ان يسمعها وسار في وجهته هذه ونزل على القيروان في ءاخر رمضان محاصرا لها ورمى عليها بالمدافع ولولا ان العسكر كان فيه اختلاف لكان استاصلها لانهم كانوا يقاتلون قتال تكلف بلا نية وعيد عليها عيد الفطر ورحل عنها وذلك انه جاءته الاخبار ان اخاه خالفه الى بلاد الجريد فقصد الاهم وارتحل عن القيروان ومن العجب انه نازل القيروان واقام عليها مدة ايام واهلها يحلفون انه مات وان الذي بالمحلة

غيره وهذا من اكبر الهذيان وشاهدنا وسمعنا بتونس ما هو اغرب من هذا نسال الله تعالى ان يحفظ عقولنا ويلهمنا رشدنا . ثم توجه الى بلاد الجريد فوجد اخاه قد احتوى على كثير منها وحصن حصار قفصة وشحنه فلما علم بقدومه فر امامه الى الزاب ودخل عدة مراحل في طلبه ففاته فرجع من خلفه وحاصر من بالحصار المذكور وعمل له لغما فطلب من به الامان فامنهم واحتوى على الحصار وجعل فيه نوبة من قبله . ولما اتم تشحينه واستكمل جباه من بلاد الجريد كر راجعا الى الحضرة وكان اتصل به الخبر من الاعراب بان اخاه قاصدا الى تونس فبعث قائده مصطفى سبنيول في عسكر من الصبايحية لحراسة المدينة فلم يغن شيئا وكانت الطامة الكبرى التي لم يسمع بمثلها في بلاد المغرب وهي التي حرقت فيها الابواب ونهبت الاسواق وقامت الحرب على ساق ولقي اهل تونس فيها بلاء عظيما وحوصر من بالقصبة وكانت الفتنة الكبرى وخرج جميع عسكر الحضرة الى قتال ابي الحسن علي باي وخرج في ذلك العسكر الداي الجديد ساقسلي وخرجوا باموالهم واولادهم ولم يبق منهم الّا القليل وقد ذكرت هذه الواقعة في ترجمة الداي طاباق واتصل الخبر بابي الحسن علي باي لطف الله به في اثناء الطريق فجد في سيره وكان معه جمع عظيم وبعث الى اكابر المحلة واخبرهم بالقصة فحلفوا له على الموت فوعدهم بزيادة خمسة نواصر ترقيا لكل واحد ورحل الى ان قرب من الفحص فالتقى هنالك بالمحلة الخارجة من تونس ومعها محلة من القيروان وغيرها من البدو ومثلها من صفاقس وعربان اجتمعت معهم من الاقليم لا يعلم قدرهم الّا الله فالتقيا في اول المحرم من سنة تسع وثمانين والف والتحم الحرب ورمى بعضهم على بعض بالمدافع والمكاحل وصادق بعضهم بعضا في القتال والتقت الخيل بالخيل واشتد البأس . وكثر المراس . وتقارب الصفان . واختلط الجمعان . وصارت كل محلة يقول اهلها نحن اخذناكم يعني اهل المحلة الاخرى . ولما اجتمع العسكران قالوا بكلمة واحدة ونكثوا ايمانهم وكان ابو الحسن علي باي بعيدا من الفريقين لموت احد رجاله

وخليفته في العسكر القائد مراد فارادوا قتله فنجاه الله وملع من بين أيديهم ، فلما تحقق ابو الحسن خديعتهم رجع على عقبه بمن معه من صبايحيته وزمولة واجتمع العسكران وبعثوا الى اخيه محمد باي وملكوه امرهم فرحل بهم في اثر اخيه وقد انسحب امامهم الى مكان يعرف بالمنزل فلما توسطوا به كر ابو الحسن بمن معه وتشجعت اصحابه وصادقوا في حلتهم فبددوا شملهم ومات من مات عن بينة وكان قدر الله امرا محتوما ومات عالم عظيم ووقع القتال من عشية النهار الى الليل ولم ينج الّا من طال اجله ومن عاش اخذته العرب وغنموا منهم مغنما لم يكن مثله في السابق من ذهب وفضة واثاث ما يجل عن الوصف وكانت هذه الواقعة من اعظم وقائع اهل المغرب ، ولما تم له ما تم امر بقطع رؤوس القتلى وبعثها محمولة على الجمال وكان يوم وصولها الى تونس يوما مهولا ، واغرب من هذا ان الرؤوس قبالة باب القصبة يشاهدونها والمرجفون يقولون ليس لذلك علم ولا اثر ومات ساقسلي اكبرهم ولم ينج الّا القليل ولا حول ولا قوة الّا بالله العلي العظيم ، ولولا نفاذ ما سبق في علم الله لم تكن هذه الواقعة التي شاد خبرها في الثقلين ، واضرمت نار حربها بين العسكرين ، واقتتلوا في محبة الاخرين ، ولكن لكل اجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ، ثم جاءته رسل اهل القيروان يطلبون العفو فعفا عنهم ورحل ونزل قريبا منهم وامنهم ولم يواخذهم بما فعلوا ما عدا ابن الشاطر الذي دعم اساس النفاق ، واجرى اهل القيروان على البغي والشقاق ، فانه لم يعف عنه ومات في سجنه وكر راجعا الى تونس واخذه في طريقه مرض خيف عليه منه فتداركه الله بلطفه ووصل الى منزله بباردو وهو في اثناء مرضه واستبشر بقدومه احبابه وفشا الخبر في البلد انه مات ، ولقد اتفق لي اني كنت حاضرا يوم وصوله وعاينته بعين راسي وسمعت ذلك اليوم رجلا يقول لاخر انه مات ودفن فاخبرتهما باني رايته فحلفاني فحلفت لهما ولم ادر اصدقاني ام لا ، واتفق في تلك الايام ان جاءته رسل من عند اخيه لقصد الصلح ولم يتم ذلك

وبعد ايام يسيرة دخل الى المدينة وعليه اثر الضعف ودخل الى القصبة وحشر الناس الى رويته واطلقت البشائر وكان يوما مشهودا عاينه فيه المحب الغال . والعدو القال . وعافاه الله من ذلك المرض ولله المنة . ثم استراح وخرج بمحلته الصيفية من السنة المذكورة لتحرك الاعراب بافريقية فعاجلهم قبل التئامهم وخلص مجباه كعادته ورجع الى تونس قبل ابانه ليلتقي مع عمه لما اتى من الديار الرومية . مستوليا على منصب الباشوية . فجمع الله شملهما بعد الغربة . وتجدد فرحهما في هذه النوبة . وصاما بالحضرة شهر رمضان . وعيدا عيد الفطر في هناء وامان . وحضر للزينة التي وقعت في اول شوال من السنة المذكورة وقد سبق ذكرها وخرج قبل تمامها بيوم وتوجه الى المنستير وقد استنفر اليها جمعا من كل مكان وكانت محلته قد سبقته بايام فنزل قريبا منها وحاصرها وقطع ما قدر عليه من زيتونها واشجارها وفعل بها الفاقرة . وكادت ان تكون له عليها الدائرة . ثم وردت عليه الاخبار بان اخاه في جمع عظيم بازاء جربة فاستدركه قبل ان يعيث في بلد الجريد فرحل من المنستير وتوجه الى اخيه ففر امامه ودخل الرمل فتبعه عدة مراحل ففاته ولم يلق قيدا ورجع الى الجريد فخلص مجباه على العادة ورحل عنها مويدا منصورا واخذ في رجعته على طريق صفاقس فشن غاراته عنها وبعث الرعب الى اهلها واخذ جماعة من اهل البلد ممن خرج منها الى بساتينهم على حين غفلة فعفا عنهم ولم يهرق دماءهم وكر راجعا الى وطنه ودخلت محلته الى تونس في ءاخر صفر سنة تسعين ولم يدخل معها وسار بمن معه من الاعراب والصبايحية الى ناحية الغرب لانه سمع باخيه رجع الى تلك البلاد وخرجت طائفته السنة المذكورة كعادتها وامتدت في البلاد لخلاص مجباها وهو مقيم بعسكره من ناحية الحدادة لكيلا ياتيه من قبل اخيه شيء واتصلت به الاخبار ان اهل توزر اختلفوا عليه واخوه بنى بها حصارا منيعا وشحنه بما يحتاج اليه فبعث اليهم مددا مع جماعة من الصبايحية فلقيتهم خيل اخيه هناك ومات ابن الجنان في تلك البعثة ثم وجه لهم

محلة الشتاء مع خليفته القائد مراد والتقى بجموع لاخيه هنالك ايضا وكانت بينهما واقعات وحروب انتصر القائد مراد فيها ونزل العسكر على البرج المذكور وحاصره اياما وجعلوا متاريس وصادقوهم القتال وحفروا تحته لغما فهدم منه جانبا ودخله العسكر بالسيف وجاءت الاخبار باخذه الى تونس واطلقت البشائر والمكابرون يتكرون ذلك كله ووصل الخبر الى الامجد ابي الحسن فرحل الى الجريد واطلع على البلاد ومدنها وكمل جباه ورجع الى ناحية المغرب ومن معه من العساكر اول سنة احدى وتسعين واقام قبالة اخيه لئلا يحدث حدثا في البلاد ونما اليه الخبر بان جماعة من الاعراب من اهل افريقية بعثوا الى اخيه فعاقب من قدر عليه منهم وسلبهم خيلهم واقام بمن معه من العرب ومحلة الترك في ناحية الزوارين وبعث الى محلة الصيف خرجت له قبل اوانها والتقت المحلتان هنالك واشتكى اليه العسكر من قلة ما بايديهم فبعث الى الحضرة يطلب الكتبة الموكلين باعطاء المرتبات فساروا اليه ودفع لهم مرتباتهم في المحلة ونصبت الاسواق في المحلة وجاءت التجار والباعة من كل مكان وصارت عندهم ايام نزهة . وعزم في وجهته هذه ان ينازل بلد الكاف فبعث بالخبر الى تونس بان يرسلوا له المدافع وقرب من الكاف بجموعه ووقعت بينهم مناوشة في الحرب في ايام وذلك اول ربيع الثاني سنة احدى وتسعين والف وبعد ما خرجت محلة الصيف استنفر الحاكمَ الذي هو داي العسكر بالامر الشديد وارسلهم الى الكاف نصرة وجاء الخبر الى تونس ان الحرب وقع بين اهل الكاف واصحاب المعظم ابي الحسن يوم الجمعة السادس والعشرين من ربيع الثاني وبلغ الخبر الى تونس ان المعظم ابا الحسن علي باي غزا يوم الاحد سادس ربيع الثاني اخاه وكان قريبا منه فاحتوى على من كان معه ولم يفلت الّا القليل واخذ شيئ النجع الذي معه وعفا عنه واطلقت البشائر بتونس في السابع عشر منه وقعت الحرب بين اهل الكاف والعسكر وولت الهزيمة على العسكر وجاء الخبر الى تونس وفي الحادي والعشرين منه نادى المنادي في الحضرة من

اراد مرتبه يمشي الى الكاف نجدة لمن هناك من العسكر وتوقف المرتب ومنعوا منه وحدد لهم الداي المذكور ان لا رجوع إلّا لمن بيده تذكرة بطابع الباي علي فخرجت الناس ارسالا وكان القتال بين اهل الكاف والعسكر مدة ايام ورحلوا عنه تاسع جمادى الاولى من السنة بعد القتال والحصار الشديد . وفي الثاني والعشرين من الشهر المذكور جاءت الرسل الى تونس من قبل اهل الجزائر لقصد الصلح بعد ما التقوا مع الباي فارسلهم الى تونس فلم يقع بينهم اتفاق وقابلهم الداي بكلام حسن . وفي هذه الايام صودر اهل المرتبات الذين تربصوا عن المسير الى الكاف فمنعوا من مرتباتهم لقلة استماعهم . وفي اول رجب من السنة المذكورة خرج الباشا مغاضبا للعسكر ومكث اياما في منارة مرناق . ثم توجه الى الساحل وتعاطى خراجها ثم سار الى القيروان واجتمعت اليه اولاد سعيد وغيرهم فكان في جمع عظيم وذلك ان اولاد سعيد اهل نفاق وشقاق جبلوا على خبث الطبيعة صاغرا عن كابر وكانوا في زمن المرحوم برحمة الله محمد باشا في الحضيض الاوهد حتى ان الرجل منهم ينتسب للبهودية . ولا ينتسب الى السعيدية . ولم تقم لهم قائمة مدة حياته . وكذلك في ايام ولده من بعده الى ان قدر الله تعالى بما سبق في علمه من انارات الفتن كبرت شوكتهم ومالوا الى باي الوقت فجابرهم ورفع منارهم فاحلهم البلاد . واطلق ايديهم فاكثروا فيها الفساد . وعاثوا كيف شاءوا وقطعوا الطريق ومنعوا الرفيق حتى صاروا لا يسلك احد في طريق إلّا ومعه منهم خبير وقاسموا اهل البلاد في غلاتهم واخذوا ما قدروا عليه ولم يقدر احد ان يقابلهم بشيء وتحكموا في غالب الاقليم وفعلوا ما لم تفعله الكفرة بالمسلمين والباي مع ذلك معرض عنهم ويلاطفهم وبعض احيان يعنفهم ومع ذلك يزيد شرهم في كل يوم . فلما ثبت عنده خبث طويتهم تربص بهم الدوائر والغاهم وصار لا يلتفت اليهم . فظنوا انه لا قدرة له عليهم . وان ذلك عجز منه عنهم فاعتدوا وتمردوا وصاروا لا يلتقون به إلّا ارسالا خيفة منه الى ان قدر الله تعالى بهلاكهم . فلما توجه الى الكاف كما قدمنا بعث

اليهم يستنجدهم فتثاقلوا عنه ولم يعبوا به وتفرقوا في الوطن فمنهم من ذهب الى الساحل وعاث فيه ومنهم من اقام بوطن الجزيرة بازاء بلد سليمان فوقعت بينهم وبين اهل البلد منازعة فاقتتلوا ومات ابن الكواي هنالك لا رحمه الله فاشتدت جاستهم وضايقوا بالبلد وقتلوا من اهلها واشرفوا على اخذها وحدثتهم امانيهم الفاسدة بان بعثوا للداي ان يبعث لهم نجدة من عسكر زواوة للاعانة على سليمان ومشت رسلهم للباي فمناهم بمرادهم وخادعهم ووعدهم باخذ الدية فزاد طمعهم لعنهم الله فضايقوا على اهل سليمان فاخرج الداي نجدة من العسكر لاهل سليمان في السابع عشر من ربيع الثاني وخرج مع العسكر خلق كثير لقصد جهادهم لان ضررهم اشد من ضرر النصارى فلما وصلهم الخبر بذلك رحلوا عن سليمان وجاءتهم الاخبار ان الباي عازم عليهم فانكسرت شوكتهم وتوجهوا الى الساحل وثبت عندهم انهم ان وقعوا في يده لا يترك منهم احدا فلما علموا بمغاضبة الباشا مالوا اليه وطمعوا فيما لديه فارضاهم وساروا معه الى القيروان واجتمع اليهم من يقول بقولهم الى ان كان منهم ما سنذكره ان شاء الله تعالى * ولمـــا وصل الخبر الى الباي لطف الله به بان العرب مجتمعون على عمه واخيه وان الحرب اضرمت نارها وتقوى شرارها بعث الى الحضرة فعينوا له عسكرا وارتحل بزمولة ومن معه الى القيروان فالتقى بهم ووقعت الحرب بينهم ساعة من نهار فانهزم ذلك الجمع وهربت اولاد سعيد الى ناحية المنستير ودخل الباشا الى القيروان وقيل ان ذلك الجمع كان يقرب من عشرة ءالاف فارس واما الرجالة فلا تعد ولا تحصى ولا يعلم عددهم إلاّ الله تعالى وصرفت فيهم اموال جزيلة وكانت هذه الواقعة في العشر الاخيرة من شعبان سنة احدى وتسعين والف . والله يويد بنصرة من يشاء * ورحل ابو الحسن علي باي من القيروان ونزل قريبا من المنستير وقد تحصن بها اخوه واولاد سعيد وضايقهم بها الى ان فنيت غالب ابلهم ولم يجدوا الى اين يكون ذهابهم ولما طال بهم الحصار وضاق خناقهم من شدة المحاصرة رجعوا الى خداعهم وبعثوا جماعة يطلبون من الباي ان

يرحل عنهم يسيرا لكي يخرجوا له وينزلوا على حكمه ان شاء خدمهم واسترعاهم وزعموا انهم مغلوبون من اخيه وان اظهروا الخروج على رضى عنهم يعاقبهم ولم يخف منه مكرهم فرحل عنهم ونزل قريبا من سوسة واصل زحيله مما ضاقت البلاد على الجموع التي معه لانه كان في امم لا تحصى . فاقام هنالك بقية رمضان وارسل الى تونس لجماعة من فضلائها وذكر اسماءهم ان يتوجهوا اليه لقصد ان يرسلهم الى عمه للصلح بينهما فساروا اليه وحدثهم بمراده وسمعت بعضهم يقول لله دره يعني الباي المذكور ما اجود ذهنه وما اقوى فراسته وماذا عنده من حسن السياسة وانه ليقول قولوا كذا واذا قال كذا اجيبوا بكذا حتى كانه مطلع على ما يختلج في الضمائر وهذا من اصابته في التدبير . ثم بعث باناس دون اناس شح بهم واظهر انه خاف عليهم من ان يعترضهم احد في طريقهم بمكروه ولم يتم له ذلك . وفي اقامته هنالك بعث اهل صفاقس له وطلبوا الامان منه وان يسلموا له مقاليدهم فاجابهم الى ما طلبوه وبعث معهم جماعة من اصحابه فسلموا البلد وهرب من كان بها من قبل اخيه وكفاه الله شرهم وعافاه من اهراق دمهم . وجاءت الاخبار الى تونس وامتنع الداي ان يطلق المدافع كما جرت به العادة لانه لم يأته كتاب من عند الباي واكثر المرجفون كعادتهم بالمكابرة ثم بعد ايام جاءت اوامره وصح الخبر فاطلقت البشائر عند ذلك ورحل بعد العيد متوجها الى القيروان فغلقوا الابواب ولم يخرج اليه احد فلم يتعرض لهم ونزل تحت جبل وسلات . وفي خامس شوال جاءت رسل الجزائريين الى تونس مرة ثانية واظهروا انهم لم يكن لهم ارب الا الصلح بين الاخوين وذاع في البلد ان قصدهم غير ما قالوه وكثرت بين الناس الاقوال وذلك انهم نزلوا اولا عند الحدادة المعلومة ثم جاء الخبر انهم دخلوا في الوطن وتسامعت اهل الحضرة فكرهوا ذلك وبعض المفسدين احبه وبعث الداي الى اشياخ البلد واستخبرهم على ما في ضمائرهم فقالوا له نحن ندافع عن انفسنا واولادنا ولم نرض بغير عسكرنا فشكرهم على قولهم وطلب من اهل باب السويقة ان يعطوه

اناسا يكونون عنده رهنا فاجابوه ولكن سلم الله ولو كانوا فعلوا ذلك لم يغن شيئا . وجاءت الاخبار ان الباشا خرج من القيروان ولحق باهل الجزائر ودخل بهم الوطن واباحهم ان ياخذوا ما يحتاجون اليه من الروابط . وجاءت الاخبار انهم بعثوا جماعة منهم الى الكاف لاخذ المئونة وانهم ارادوا الدخول الى الحصار وان يفتكوا بمن فيه فمنعهم كافل الحصار وفتكوا باهل البلد واظهروا فيها الفساد . وقد تقوى طمعهم في اخذ الكاف ومشت رسلهم الى الباي وهو في منزله السابق فاجابهم بما رضيت به نفوسهم وقال لهم انا قاصد اليكم ورحل واخذهم معه كل ذلك والاخبار متواترة في الحضرة بكل ارجاف فمن مكثر ومقل ولكل امرئ ما نوى . ولولا ما سبق في علمه تعالى من جميل اللطف بعباده لدهمت اهل هذه البلد امور مدهشة ويقاسون من الالم حتى يقول المار بها للقاطن تغير اسم بلدك عن المونسة بل انما هي الموحشة . ولما زاد الكرب بالناس . تداركهم الله بالفرج ولكن على غير قياس . لان الاخبار التي تصل الينا عن حصانة الكاف شيء يحير العقل في توهمه وانه جاء غصة في حلق البلاد . وكاد ان يكون صالة مستقلة ولا اقول كاد . ومن الناس من يقول يعجز عنه جميع العسكرين . وهو كالحاجز بين الوطنين . فكانوا يرون انه اذا طال امره تكثر الفتن . ويخرب الوطن . والله تعالى لطيف بعباده . والامور جارية بحسب مراده . وفي الحادي والعشرين من شوال من سنة احدى وتسعين جاءت الاخبار من الكاف ومكاتيب للداي من عند الحاكم فيه يطلب العفو وبذل الطاعة فاطلقت المدافع تلك الساعة وكان يوما مشهودا يعد من الايام العظام وفشا في الناس الفرح وامنوا ذلك اليوم على دمائهم واموالهم واولادهم . وفي الثالث والعشرين منه جاءت الاوامر من عند الباي بذلك فصدق غالب الناس إلّا قليلا منهم . وجاءت الاخبار بعد ذلك ان اهل الجزائر تقهقروا الى خلفهم لما سمعوا بالخبر وكان زعمهم انهم يتحكمون عليه واذا حصل في ايديهم صار لهم الوطن كله ووردت الاخبار ان الهمام ابا الحسن علي باي توجه الى الزوارين وبعث عامله وجماعة

معه الى الكاف ولم يصل هو اليه وهذا من الغرائب . ورزانة العقل وثبات الجاش والراي الصائب . فكانه لم يكن له به اهتمام ولا قصده ونازله هذا العام وذلك العام والله انه لمن الدهاة . ومن له الاصابة في الراي والثبات . فالحمد لله الذي يسر له هذا الفتح الغريب . في الزمن القريب . ولولا قدرة الله حفت به في جميع المواطن لما جاءه النصر . والعناية الربانية تعنيه في مواطنه كلها ولو دهمه اهل العصر . ولم تزل الاخبار في كل يوم تتواتر الى سابع ذي القعدة جاء الخبر ان الباشا والباي اصطلحا ولم تات المكاتيب من عند احد . وبعد خمسة ايام جاءت الاوامر مخبرة بما وقع وقرئت في الديوان وسرت الناس . ومن الغد جاءت بلوكباشية بالخبر ايضا واطلقت المدافع واخبروا بان الصلح وقع بينهم على التمام بما رضيت به نفوسهم بوفاق وامان . وقيل لمن اراد الدخول بينهم بالفتن . قضي الامر الذي فيه تستفتيان . ولكن لم يحط احد بما وقع بينهم . وانما هم اهل بيت جمعوا امرهم بينهم وذهب عنهم ان شاء الله ترحهم وبينهم . وكانت اولاد سعيد التحقت باهل الجزائر . وساعدهم عدد من المفسدين من القبائل والعشائر . وكادت ان تقوم الحرب بين الفريقين . وان تكون لها رجة تهز الثقلين . ومن الناس من يقول انما جاءوا للاصلاح بين الاخوين . ومن قائل يقول انما ارادوا حسم المادة من شر الاعراب . وانهم ان لم يتداركوا هذا الامر يوشك ان يدخل عليهم الفتن من غير الباب . ومن الناس من يقول ادركتهم حمية عن ابناء جنسهم وانفة . وبعضهم يقول لامر ما جدع قصير انفه . والله اعلم بحقائق الامور . وما تخفيه الصدور . وعلى كل حال فالله جعل لكل شيء سببا والسر الخفي الذي جعل الصلح على يد سردار الجزائر واسمه حسن فكان هذا الاسم رزق السعادة من بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لولده الحسن عسى الله ان يجمع بولدي هذا بين فئتين عظيمتين فظهرت الاجابة في ولده في الزمن السابق وبقيت البركة في هذا الاسم فكان هو السبب في التئام الكلمة حتى صلح الله حال هذه الامة وتداركت

بلطفه احوال العباد . وقام سوق الامن بعد الخوف في جميع البلاد . وخمدت نار الحرب بعد اضرامها . وبلغت كل نفس منيتها وفازت بمرامها . ولكن بعد ما بلغت النفوس التراقي . واتصلت الحرب بالحرب خمسة اعوام متتابعة حتى قيل هي من راق . وكثرت العداوة بين البادي والحاضر وظن كل احد انه الفراق . وكم سيقت من نفوس الى حتفها في مدة ايام والى ربك يومئذ المساق . وما قصر كل من الاخوين في طلبه لثاره . وقاوم كل واحد منهما صاحبه في المحاربة ورمى بنفسه في الحرب واصطلى بناره . فكم تلفت من نفوس . وقطعت من رؤوس . وكم انفقوا من الاموال . وكم اتلفت من رجال واي رجال . وسمحت بين الاثنين اقوام بالنفوس و بالاموال النفائس . وسمعت من حروبهما اهل المشرق والمغرب ما لم يسمع من حروب الغبراء والداحس . وما منهما الّا من خاطر بنفسه في مقارعة الابطال ومنازلة الفرسان . وادار رحى الحرب وعبست في وجهه الاسود عند اللقاء حتى قيل هذه حرب عبس وذبيان . ولم ينفك احد منهما من حرب الى حرب . وكم وقع في صدور الفرسان بالرمح والسيف من طعن ومن ضرب . واظلمت الافاق وقت النزال وارتفع القتام . وطلعت اسنة الرماح في سماء الهيجاء مطالع النجوم ولاح برق الصوارم فارتفع الظلام . فالحمد لله على ذهاب هذه الغمة . وتجديد الالفة بعد القطيعة باللطف من الله والرحمة . ولما شاع بين الناس ما وقع من الاتفاق واتصل الخبر بالداني والقاصي وتمشت الاخبار في الافاق استبشر الناس وكثرت الخيرات ورخصت الاسعار ورفع الله الفتن . فنعموا نعيم اهل الجنة وقالوا الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن . واتصل الخبر الينا انهما التقيا ساعة من نهار . وسلم كل واحد لصاحبه ما طلبه الاخر بالرضا والاختيار . ومن هنالك توجه ابو عبد الله محمد باي الى مدينة القيروان وبقي ابو الحسن علي باي حتى اخذ بخواطر اهل الجزائر ورجعوا الى اوطانهم واخذ يستجلب خواطر اولاد سعيد ويماكرهم . ورحل بهم اتباعا له ليصلوا الى وطنهم وفي ضمائره نار تتلظى من فعالهم الخبيثة . واراد ان يجعل

لهم سمعة تغني عن اخبارهم القديمة والحديثة . ونزل بهم في الشخص على طماتينة واراد ان يستاصلهم على بكرة ابيهم فغزاهم بليل بمن معه من خيل ورجل فسبق الخبر اليهم وانذرهم بعض اخوانهم من المشددين . واحاط بهم عند الصباح ونزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . فانزل الله الرعب في قلوبهم واخذوا اخذة رابية . وتبدد شملهم ونهبت اموالهم فهل ترى لهم من باقية . وسبيت نساؤهم وبيعت اولادهم وحاق بهم مكرهم . وحل بهم من الهوان في السبي ما لا رأته آباؤهم . ووصل الخبر الى تونس يوم الاحد الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة احدى وتسعين والف فاطلقت البشائر في الحضرة وفرح الناس باخذهم كما يفرحون باخذ الكفرة ولجا اكثرهم الى الاماكن التي تمنعهم من مساكن المرابطين . وقضي الامر وقيل بعدا للقوم الظالمين . ولم ينج من شياطينهم إلّا مَن دخل تحت ثوب الناس . او مَن اخذ في رقعة ومتع بالنفس والفرس . عسى الله ان يقطع دابرهم من الارض . ويسلط مَن بقي منهم بعضهم على بعض . ولما كمل الله لهذا الامير بالتاييد والنصر . وصار ذكره خبرا لرواة اهل العصر . رحل من مكانه وتوجه الى الجريد كعادته ونزل قريبا من القيروان واتفقت له أمور أضربنا عنها وتوجه من هنالك الى قابس . وبعث محلته السلطانية كعادتها ونزل قريبا من جزيرة جربة فصالح اهلها واخذ في تمهيد مَن هنالك من رعيته وسار فيهم برفق وعاملهم بما في نفوسهم ونزل بازاء الجبل لتسكين الفتنة التي وقعت به وهدن نفوس اهله ورجع الى بقية ما له من المجابي في بلاد الجريد . ورجع الى حضرته سالما غانما كما يريد . فلما قرب من القيروان خرج اليه اخوه لقصد السلام فعانق بعضهما بعضا ورقت نفوس الناس عند النظر اليهما وافترقا ورجع كل واحد الى مكانه . وعزه وسلطانه . وقال لسان حالهما هذه كرامة صرفها الله الينا . وتلا قوله تعالى انا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا . ورضي كل واحد منهما على ما اتفقا عليه . وتحكم في عمالته واطلق ما شاء من يديه . فالحمد لله على هذه النعمة وذهاب النحوس من اهل الحضرة

والصلاح احوال البلد واتى الله بالرحمة وانفرد ابو الحسن علي باي بتدبير الحمال السلطانية . وتصرفت احكامه في اهل الحضرة والرعية . ونفذت اوامره في الاقليم كما يشاء . قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . ورجع الى مستقره وامنه واموره جارية على الطريق المستقيم . ذلك الفضل من الله والله ذو الفضل العظيم . وكانت غيبته هذه ثلثين شهرا ووصل الى مستقر عزه يوم الثلثاء ثالث ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين والف —

والقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالاياب المسافر

وكان قبل وصوله بلغه الخبر بالواقعة التي كانت من قبل العسكر لما طالبوا الداي بارزاقهم وكادت ان تكون فتنة في المدينة وغلقت الاسواق ومدوا السنتهم وايديهم وقد مر سبب ذلك عند ذكر الداي المذكور واضرمت نار الفتنة لولا تداركهم الله بمجيئه فهدن العسكر ولاطفهم وساسهم برايه واخذ ثارهم وهذا من بعض لطف الله الخفي ونزل بمستقر عزه بباردو ولم يدخل الى الحضرة . وفي اول جمادى الاولى من السنة ابتدا في اصلاح الوليمة التي ختن فيها اخاه وابن عمه واراد ان يجعلها مختصرة فجاءت على وفق المراد واظهر فيها همته العلية والرتبة الملوكية —

واذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرامها الاجسام

واحتفل كعادة ءابائه وهرعت الناس الى التنزه والفرج . وفتح الباب لهذه الوليمة فدخل لها الناس من باب الفرح والفرج . ونصبت ءالات السماع عربية واعجمية وصنائع المشعوذين . ومدت اسمطة الطعام للاكلين . والحلاوات والفواكه بالليل للمتنزهين . وكانت تعد من الاعياد ولا ينكر هذه الفعال لمن امده الله بعنايته لانه وءاباءه واهل بيته كلهم ذووا شان . وبر واحسان . وهذا بيانه في المعالي كبنيانهم . وبحره الزاخر في المكرمات اجتمع من خلجانهم —

وبحرك من جاءه يا علي   لم يقبل الدر الّا كبارا

وحيث اتينا بهذه النبذة واكتفينا منها باليسير فانها نقطة من بحر . وغرفة من نهر . وربما اعرب اليسير عن الكثير . ولو تتبعنا جملة اخباره مفصلة لضاق

بنا المجال . وعجز القلم في ميدان الطرس وما جال . وكيف نحصر اخبار من رقي الى الرتب العلية بسيفه وجده . واحتوى على مفاخر واضافها الى مفاخر ابيه وجده . كم هزم من صفوف وكم انفق من الوف . وكم من غارات اثارها . وكم من حرب اخمد نارها . وكم باشر بنفسه من حروب . وكم هيجاء باشرته بوجه قطوب . وصبر في ساحة الحرب والنزال . والقى بروحه الى لقاء الابطال . وصارت لوقائعه سيرة اغنت عن سيرة البطال . وان قالوا عنترة الفرسان . قلنا لهم هذا عنترة هذا الزمان —

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وان قدمت في اول الكتاب اخبار من سبقه من الملوك . فاني جعلته مسك ختامهم ونظمت جواهر فعاله كنظم جواهر السلوك . لانه حاكم زماننا . والمتصرف في اوطاننا . والمالك لازمة عناننا . الهمه الله الى طريق الخير والسداد . وجعل الرحمة والرافة في قلبه لصلاح البلاد . وخلد شمله الصالح الى يوم التناد . ولما طلع هذا البدر في سماء هذا المجموع . ثبت ان لا بد للكواكب من الطلوع . ولابد للبدر من هالة . ويراه الراءي على تلك الحالة . وهذا الامير هو بدر الدولة اذا حل بموكبه . والهالة اصحابه ومواليه الحافون به . فمن الروساء القائمين باصلاح دولته . والمساعدين له في قومته وقعدته . والباذلين نفوسهم حفداة لنفسه . والصارفين هممهم في يومه وامسه . فمنهم المقتدى برايه الصائب وعقله الثاقب . المشير والمستشير عند مقارعة الكتائب . اعجمي الاصل وعربي التربية واللسان الفارس النجيب محمد بن الحسن . وهو من اقرب احبابه وانصح اصحابه متخلق في لباسه وفي مواعده باخلاق العرب . ومحافظ على اصلاح الدولة بحسن الادب . تشهد الحرب بذكاء عقله . وبمنازلة الحروب كابيه من قبله . فهو عمدة وعدة . وملجا لرايه في كل شدة . وله لطف الله به اولاد يضرب بهم المثل . والشبل من الاسد ومن البطل البطل . ومنهم من يستخلفه في سفره . ولا يستغني عنه في حضره . يقوم مقامه في محلته اذا غاب . واذا حضر لازم

خدمته وسد الباب ، مولاه وتربية نعماه ، القائد مراد بن عبد الله رزقه الله تعالى رضاه ، ورضى سيده ومولاه ، وهو ممن تحببه الرعية لرفقه ، وحسن خلقه ، وفيه لطافة ولين ، وجانب متين * ومن مواليه من يعتمد عليه في الحضرة بلسواره ، والمطلع على مكاتيبه الواردة باخباره ، الواقف عند باب الرؤساء وباب داره ، القائد مراد ايضا ابن عبد الله من رجال دولة استاذه محافظ على الطاعة ، وملازم للجماعة ، وفيه تدين ومحبة للفقراء واهل الصلاح ، وله مشاركة في علم القيم يرجى له ببركتهم النجاح ، هولاء اكبر مواليه ، واقرب من يليه * ومنهم الفارس ، والبطل الممارس ، المعتمد عليه في لقاء الاعداء ، الملازم لصهوات الخيل ولو طال المدا ، الصابر على الغمرات اذا لقحت الحروب ، والثابت الجنان اذا وجلت القلوب ، القائد مصطفى سبنيول ، وغير هولاء كثير لا يحصرني ذكرهم * ومن ذوي اليراعة والبراعة والاداب ، جماعة من الكتاب ، اكبرهم واكرمهم نفسا الفقيه الاكمل النبيه ، كاتب جده من قبل وكاتب ابيه ، المتصرف في حسابات البلاد ، وهو في هذا الفن واصابة الراي وتد من الاوتاد ، صاحب الخط العجيب ، والراي المصيب ، الزاهد في الدنيا وجودها عنده كالعدم ، الوزير الاعظم ، والفقيه الافخم ، والدستور الاكرم ، صاحب العلم والقلم ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، جمال الاسلام والمسلمين ، واجل الوزراء في العالمين ، مهد الله تعالى به المملكة وشد ازرها ، ووصل اسباب الدولة واعلى قدرها ، كيف لا وهو صاحب تدبيرها ، والقائم بصلاح امورها ، والكافل امر صغيرها وكبيرها ، من هو في الارض ظل الرحمان ، والمامور بالعدل والاحسان ، راجي غفران ربه الكريم ، القاري ابن القاري احمد سليم ، برد الله تعالى ضريحه ، واسكنه من بحبوحة الجنان فسيحه ، ءامين * ومنهم اي من الكتاب من شهد له في ذلك بالفضيلة والشرف ، الفقيه عبد الرحمان بن ابي القاسم بن خلف ، من ذرية اولياء ترجى له بركة جده ورثها خلف عن سلف ، وفيه حشمة ووقار ، وتلاوة لكتاب الله ومحافظة للاثار ، سدد الله

حاله . وجعل للصالحات مآله * ومـــن الكتاب المعتمد عليهم في حسن الخطاب . والخط المتصرف في فنون الاداب . الفقيه ابو عبد الله محمد عرف دحلاب . وكان قليل الاحتراف بالدنيا * هولاء من مشاهير الكتبة . سلمهم الله من كل نكبة . وغيرهم كثيرون . وما ذكرت هولاء الخدام الّا بيانا لشرف المخدوم . ولكي لا يظن الناظر في هذه الاوراق ان هذه الدولة سدى . فلهذا اظهرت لهم دلها ليكون لمن امه هدى * ومـــن مشاهير الكتبة الفقيه الاورع المودب الكاتب البليغ صاحب الخط البديع الذي يضرب به المثل كابن مقلة وياقوت المعتصمين وانظارهما الفقيه محمد صدام عرف اليمني * ومنهـــــم الكاتب المتقن ابو محفوظ محرز بن خلف حفيد الفقيه عبد الرحمان السابق الذكر * ومنهـــم الكاتب الفقيه محمد فارس وله في علم الميقات ملكة وفيه نية وبلاهة وكانت بيني وبينه مطارحة في الشعر الملحون . وغير هولاء كثيرون . وانما تعرف كل دولة برجالهـا . وتنصلح امور الملك باصلاح بطانته اذا اراد الله اصلاح حالها . وهذه الدولة ان شاء الله تعالى حفت بالسعود . واحيى بها الفرح في القصور المشيدة من باردو واخذ السعد في الصعود . والايام ترفل في حلل شبابها كما يرفل صاحبها في شبابه . والنصر والظفر مصاحب له في ذهابه وايابه . ولـما طلع نور هذا البدر في سماء تلك القصور . وتزينت تلك المنازه والقباب واحتفلت لفرح الطهور . وسمعت الناس اصوات المثالث والمثاني . وطربت النفوس لـما ترنمت الحان المغاني فكنت ممن شاقه الطرب . وساقه الادب . فنظمت قصيدة واشرت فيها الى هذا الهنا . فان اصبت فبسعادة الممدوح وان لم اصب فمن انا . والله تعالى يديم عزه وجنابه العلي . ويجعله كهفا للملتجين اليه ولمن يستغيث ولن يخيب من لجا الى حماه وقـــال يا عليّ . وهذه القصيدة الموعود بها —

اتاك هناء بالختان مشـــاب وطالع سعد مقبل وشبـــاب
اقامك فوق النيرين فمن يرم صعودا لمرقاه رماه شهـــاب

فلا تخش كيداً من عدو فانه | وحظك من سهم القضاء مصاب
علوت على دست الوكالة يا علي | فطبتها كما تبغي فانت مثاب
تباشرت الدنيا ببشرك في العلا | فكم كبد للحاسدين تذاب
وجددت بالدار الجديدة موسما | سما عن بني حفص حضرت وغابوا
وبالقبة الحمراء عيشك يانع | يروقك منها سائغ وشراب
منازل افراح لديك تجددت | تشرف منها منزه وقباب
حللت بها كالبدر بين كواكب | ونورك باد ما علاه ضباب
مفاخر عن جد بجد وعن اب | وراثة مجد ليس ذاك عجاب
وبابك مفتوح لقصد مكارم | وقد سد عن نيل المكارم باب
تهنا بهذا العز والدهر طيع | لديك وهاتيك الحواسد خابوا
لك الله ما ابهى وابهر سوددا | لغيرك عندي لا تشد ركاب
وان كنت في سن الشبيبة فالعدا | وحقك من صولات باسك شابوا
وانك بحر المكرمات لمن يرد | وغيرك فيه بلقع وسراب
لمن يرتجي عفوا لديك ينالـه | وللعد يا نجل الكرام عذاب
اذا ما بدا بدر جمالك طالعا | تمد الى ذاك الجمال رقاب
ترفق فان الرفق منك سجية | وانك ما تدعو اليه يجاب
تروع ابطالا وتاتي خائفا | وانك في ذي الحالتين مهاب
فباسك للاسد العرين مروع | ولو مد ظفر من سطاه وناب
فكم من اعاد عن لقاك تحيروا | وضاقت عليهم بيدة ورحاب
وان غرقوا في بحر باسك فلتكن | نكال عليهم ما عليك عتاب
وان جنت الايام منك فانها | اتابت وللجاني لديك متاب
فلا تبتئس من كيد ضد فانما | عليك من المولى الرؤوف حجاب
ولا زلت عن رتب السيادة والعلى | ورايك في كل الامور صواب
وعمرك في عز وربعك عامر | وربع اعاديك البغاة خراب
وذكرك ما بين المحافل ذائع | يغنى به لا زينب ورباب

فخذ من ثناهي ما استطعت فانه — بجهد مقل قد جفاه صحاب
اقلد در المدح جيدك والثنا — كما الدر في جيد الملاح سخاب
فانت محل المدح ان جاء مادح — وكل الذي فوق التراب تراب

ولما ذكرت هذه القصيدة واثبتها في هذا المحل وجب علي ان اثبت القصيدة التي مدحته بها يوم لبس الخلعة السلطانية ، وخرج تحت السناجق الملوكية . وكان يوما من اعجب الايام . وطلع بين الصفين كالبدر من تحت الغمام . فقلت فيه —

بدر السما ام نور وجهك يزهر — لما خطرت بحلة تتبختر
هي خلعة خلعت قلوب حواسد — لكن بها احبابكم تستبشر
فاعجب لها من خلعة ديباجها — يسبي العقول ونور وجهك انور
حلل الجمال مع الجلال وزدتها — عن حسنها وجمال حسنك ابهر
ما عاين الراءون حسنك باديا — الا وحقك هللوا او كبروا
تحت السناجق قد بدا لالاوه — نور على علم ووصفك اشهر
يوم لبست المجد كان تناوه — بين الخلائق في المحافل يذكر
ما البدر في افق السماء ونوره — بادي السناء فنوز وجهك ابدر
قاسوك بالشمس المنيرة يا علي — بين الكواكب في العلا تتبختر
لله سر في علاك وانه — يا كامل الاوصاف سر ظهر
ورايت نعمانا بخدك مشرقا — لي من بها تلك الشقائق منذر
وجه الغزالة والغزال ولحظه — تحت البيارق غير انك قسور
ولقد رقيت من المعالي رتبة — الوصف بين الناس عنها يقصر
واستبشرت آفاق تونس مذ بدا — سعد السعود على المنازل يقمر
جر السحاب الذيل عن ارجائها — والرعد زمزم والحيا مستمطر
من كان مثلك في الرئاسة معرقا — لا عيب فيه اذ يقول ويفخر
الناس من ماء وطين اصلهم — فاعجب لذاك واصل جدك عنبر
من جود الخال الزكي فلم يخب — نسلا ومثلك بالرئاسة اجدر

يا ءال بيت شاد حسن صنيعكم ... وروى ثناكم في البلاد المخبر
الدهر منقاد لكم ما تامروا ... طوعا لديكم اوردوا او قصروا
طاب الزمان بكم وزان بفعلكم ... كرمت اواخركم وطاب العنصر
من قال تاثير الكواكب في الورى ... فالفعل منكم في النجوم يوثر
المجد مجدكم وعبد ركابكم ... مهما فعلتم تللوا او كثروا
عش يا علي في هنا مستقبل ... لا تختشي من دهرنا ما يحذر
عطر الثنا يروي عليك ولم يكن ... يوفي بحقك ان فخرك اعطر
الله اولاك البلاد فلم تزل ... تنهى بما ترضى النفوس وتامر

وهذه القصيدة لم تعرض على سمعه الكريم وانبهنا هنا اضافة الى مالي فيه وعسى ان نثبت غيرها فيما يستقبل وتقدمت لي قصيدة اخرى وهي من القصائد التي عرضت على سمعه ومحلها تتقدم ولكن نضمها الى احبابها وهي هذه —

وثقت بنصر الله تم لك النصر ... وعند احتباك العسر جاءلك اليسر
علي علوت الناس قدرا ورفعة ... تساعدك الدنيا ويخدمك الدهر
فجدك منصور وانت مويد ... وربك فعال وقد قضي الامر
وان مكر الاعدا بسوء فعالهم ... فصاحب مكر السوء حل به المكر
وما عذرهم والعفو منك سجية ... اكان نهار الكاف في غدرهم عذر
الما يروا في يوم وسلات ما جرى ... على صخرة لوكان يستخبر الصخر
وجر سبيب في سبيبة قادهم ... الى اسرهم والعفو منّ به الحسر
وقد فرست اوراقهم بعروسة ... وبعد عروس لا يكون لهم طهر
لك الله كم تعفو قبيح فعالهم ... وليس لهم عما مننت به شكر
علي ثبا الهيجاء تنحو لنحوهم ... حروبا فلا زيد هناك ولا عمرو
فلا سيف الا ما هززت ولا فتى ... سواك لها يرجى اذا صعب الامر
ويوم التقى الصفان يوم مجحل ... فاوله حشر وءاخره نشر
بعثت لهم بالرعب كل كتيبة ... طيورا تؤم الحرب يقدمهم صقر

وجيش خميس بالكماة تمدده　على الارض يمشي ليس يحمله البحر
على صافنات من جياد سوابق　قوادمها شهب لواحقها شقر
راوا عجبا ما يذهل العقل دونه　وان كان جل القوم ليس لهم حجر
سماء قتام والنجوم اسنة　بوارقها برق اهلتها البتر
فولوا حيارى والمنايا تواجع　تمر بهم زحفا وقد قصر العمر
وقد وردوا حوض الردا بصدودهم　مذاقته هم ومطعمه مر
كتبت بهندي خطوطا واعجمت　بخطيها والنقط يقبله السطر
فامسوا سكارى من كئوس منية　منقعة في السم نكهتها الخمر
فمالت على الاقدام منهم رؤسهم　ولا عجب للراس مال به السكر
وكم هارب تحت الظلام بروحه　وءاخر ملقى في جوارحه بتر
واظلمت الافاق عنهم فلم يبن　الى احد من عظم روعته قطر
يود ظلام الليل مد رواقه　وظل على الافاق ليس له فجر
وفرق بين الهام والجسد الذي　تكنفها رمي وفارقه الستر
وان بكت الخنساء عن فقد صخرها　زمانا فعنهم ناحيا كم بكى الصخر
تقاسمت الافعال منك ومنهم　فمنك لهم روع ومنهم لك العمر
وكم نظموا كيدا فلم يغن عنهم　اذا كنت ممن شانه النظم والنثر
علي همام زاده الله رفعة　امام مقاما في علاه سوى البدر
امير جيوش العز في دولة الهنا　وباي بلاد الغرب واتضح الامر
تراه اذا ما جئته في مهمة　يلوح على مرءى محاسنه البشر
عليه من الرحمان كل تحية　تمد باعوام ويتبعها الدهر
ولا زال اهلا للمحامد والثنا　وفيه وفي علياه ينتظم الشعر

وهي قصيدة طويلة ولكن اقتصرنا على بعضها . ولما قضى الله تعالى ويسر بالسعادة عرضت على مسامعه ما امليته من بعض محاسنه ومحاسن ابيه وجده ولم يكن لي فضل فيما جمعته الا انني التقطت الجواهر من بحرهم . ونظمته في سلك الاماجد الذين من قبلهم . وان كان لهم التقدم بالسابقية

فان في الخمر معنى ليس في العنب وان كنت ممن ليس له يد بهذه الصناعة . واتيت الى سوق فضله بهذه المزجاة من البضاعة . فقبلها وقابلها بقبول حسن . جعله الله في بركات سميه ابي الحسن . فغمرني بفضله واحسانه . واجازني جائزتين بيده ولسانه . وما عسى ان اقول في من الهمه الله لتدبير الرعايا . واجرى على يديه الاحكام والعطايا . اصلح الله حاله في دنياه وءاخرته . وءاتاه كفلين من رحمته . ولما عزم ركابه الشريف على التوجه بالمحلة كعادته ابتدا بزيارة الزوايا للتبرك كعادة ابيه وجده . فزار الشيخ سيدي محرز بن خلف والشيخ سيدي ابا القاسم الجليزي والسيدة عائشة المنوبية وطلع لجبل الجلاز وصعد لمقام الشيخ سيدي ابي الحسن الشاذلي على اقدامه تقبل الله سعيه وزار عدة اماكن اخر واحسن الى اهلها وبعث لعدة مشائخ بالاحسان . ثم رجع الى منزله بباردو واول جمعة من رجب الاصم دخل الى تونس وزار الشيخ سيدي احمد بن عروس وصلى الجمعة بالجامع الاعظم وعند انفصاله خرج الى زيارة والده وتطاولت الاعناق لرويته فادى حق الزيارة ودخل الى دار سكنى ابيه وجده وجاءه حاكم الوقت الى مكانه فقضى حقه بالتسليم ثم عاد الى منزله بباردو ويوم الاحد ثالث رجب توجه الى القنطرة واقام بها ثلثا ومن هنالك سافر الى عمله اعاده الله سالما . وحيث ذكرت القنطرة وجب ان نذكر بعض محاسنها لانها من المتنزهات الغريبة في الاقليم الافريقي . وهذه القنطرة من بناء جده الامام المرحوم برحمة الله تعالى صاحب الخيرات والصدقات ابي المحاسن يوسف داي رحمه الله بناها من ماله احتسابا لله لينتفع المسلمون بها وانفق عليها اموالا جمة وكان بناءها سنة خمس وعشرين والف فجاءت من احسن ما يكون وجعل بها ارحاء تدور بالماء وبنى بها برجا لطيفا . ولما سار الى رحمة ربه تولع بها خادمه نصر الطواشي فزاد فيها عدة بساتين ومن بعده تولع بها المرحوم احمد شلبي وشيد فيها المنارة الرفيعة واهتم بها غاية الاهتمام حتى جاءت صنع الله . ولما سار الى رحمة ربه ووقعت الفتن كاد ان يتلاشى حالها

فتداركها بعزمه وحزمه المكرم علي باي فزادت محاسنها على ما كانت عليه وصارت من الاماكن التي يضرب بها المثل . وغدت احسن مما كانت قبل . فلو نظرها بديع مراكش لقلنا له انت بدعة وهذا هو البديع . وان شمخ ايوان كسرى فانه تهدم وهلا هذا البنيان الرفيع . وان فخر النعمان بن المنذر ببناء الخورنق والسدير . قلنا هذه القنطرة ومنازهها والوادي والغدير . كيف لاتفتخر هذه البقعة وهي ذات المنارة والقباب التي حيطانها ذات العماد . وشيدت معالمها وتزخرفت بالنقوش المذهبة حتى قيل لم يخلق مثلها في البلاد . وصنعت العجائب على حافتي الوادي . وجاءه طائعا فتبا لثمود الذين جابوا الصخر بالوادي . وبكت حامة بدموع نواعرها وزاد حنينها لما صارت اختها بالغرب . ودارت دوائر نواعرها وفقدت قلبها فهي تدور على القلب . وكان هذا الدولاب الذي احدث بالقنطرة على طابع مجردة احسن مما عمل في حماة اولى . وان كانت نواعير حماة اسبق بالزمان فالاخرة خير لك من الاولى . وهذه الابنية التي تمت محاسنها تذهب عن قلب ناظرها الوحشة . فلو رآها انوشروان لقال لصاحبها انت انا وهذه قصور الدهشة . فمن نظر الى تلك التماثيل المصورة حكم بذوقه ان ليس لها مثيل . ومن يرد الاكثار في وصفها فعليه بالقال والقيل . وبهاء فردوسها يشوق ناظره الى فردوس الجنة . وبه من الفواكه العجيبة ما لا يوصف وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وله الفضل والمنة . ولقد تنزهت في تلك المحاسن . ونظرت الى عذب الماء الذي هو غير آسن . وقد جرت جداوله ودخلت البستان فصار مروجا . وتطلعت الى البرج العالي المطل عليه فتلوت تبارك الذي جعل في السماء بروجا . ونظرت الى الكشك الذي في صدر الايوان وهو مطل على الخليج . فعاينت من نقوشه وصناعته التي اوتيت من كل حسن بهيج . فجعلت فيه عدة ابيات تحسن ان تكون تاريخا لمحاسنها . وتفاءلت بالسعد في مصارع التاريخ وهو طالع السعد لساكنها . فقلت —

فـــردوس قنطرة يا طيب الارج   تبارك الله من ذي المنظر البهج

وبرجك الضخم كالايوان نشائــــه   والكشك في البرج كالايوان للفرج
ان حل في الصدر صدر الملك قلت له   لقد حللت بصدر غير ذي حـــرج

وعدد التاريخ في المصراع الاخير وهو — قد جاءك السعد في العالي من البرج — وهذا دليل السعد ان شاء الله تعالى ولا باس بايراد هذه القصيدة ليجتمع كل قريب باقاربه وتكون بتمامها ان شاء الله تعالى مفيدة وهي هذه —

فــردوس قنطرة يا طيب الارج   تبارك الله من ذي المنظر البهج
وبرجك الضخم كالايوان نشائـــه   والكشك في الصدر كالايوان للفرج
ان حل في الصدر صدر الملك قلت له   لقد حللت بصدر غير ذي حـــرج
بناؤه بتماثيل منوعـــــــــة   بغاية النقش ما يغني عن السرج
وشاهق في علاه مثل سيــــــده   يرقى له فوق اعداد من الدرج
سماؤه ذهب حيطانه عجــــب   نقوشه نخب والباب من سبج
سعادة بسعيد الملك قارنهــــــا   سعد السعود باعلى الافق في لارج
بهمة من همام فيض راحتـــــه   لا تشتكي بذل انفاق ولا زعج
وقبة الملك قد شدت دعائمهــا   على استواء بلا ميل ولا عـــوج
جاءت كذات عماد في محاسنها   عمادها بين مبيض ومنضـــرج
باي البلاد علي القدر واحدهــا   عماد بيت المعالي كهف كل لج
بدائع لم تدع لبا لناظرهـــــــا   يصبـــو لها كل قلب بالغرام شج
يشوق للخلد من ينظر عجائبهـا   وينفق العمر بالساعات والدرج
كل المحاسن قد اتقنت صنعتهـا   زد في علاك بلا لوم ولا حـــرج
ان جاءها ليسلي القلب قاصدها   يفتح لخاطره باب من الفـــرج
ويسرح الطرف في مرءى بدائعها   بزخرف النقش او بالماء والمرج
والنهر يجري الى الدولاب منعطفا   تراه منعرجا في اثر منعـــــرج
وصوت دولابه في حسه نغـــم   اصوات معبد في الثاني من الهزج
وحافة النهر ان مر النسيم بهـــا   كالسيف منصقلا في كف مختلج
والروض لما تحيا بالصبا عبقــت   ازهــاره وذكت من طيب الارج

يسقى بماء معين من ينابعه فيستمر الترب طيبا لينا لزج
ومنية النفس ملء العين رويته تنفي الهموم على ذي الباطن السمج
يا ايها الملك الميمون طلعته تفدى من الضيم بالارواح والمهج
تبارك الله عن لفظ يورخها قد جاءك السعد في العالي من البرج

وهذه المنارة التي هي بالقنطرة من اعجب المتنزهات . واعجب من ذلك السعادة التي حفت بها من باي البايات . وكان الناظر على بنائه . المتصرف في اتقانه برايه . الباذل همته . الملازم خدمته . الواقف عند الاوامر الشريفة . المشيد لتلك البناءات المنيفة . الناصح الوافي . عبد الرحمان عرف الوفراقي . وهو من رجال الدولة العلوية . وله عقل ثاقب واخلاق مرضية . وفيه طلاقة وجه ولين وعقل رزين والخادم يدل على المخدوم . ولكل مقام مقال معلوم . ولما حل ركابه الشريف بها اقام ثلثة ايام . ورحل منها كالهلال وعسى ان يعود كبدر التمام . فتوجه الى الكاف متوكلا على ربه . فنال امنيته وبلغ ما اراد من اربه . ولقد سمعنا بيوم وصوله فكان احسن وصول . ويوم دخوله قابله اهل البلاد باحسن قبول . وخرج الى لقائه ابن خرطان وابن يوسف بمن معهما من جماعة الصبايحية . واديا حق الطاعة فرضيت عنهما تلك الاخلاق الرضية . ودخل البلاد بهمة ملوكية . وتفرجت اهل البلد في تلك الطلعة البهية . ولم يبق من اهل الكاف صغير ولا كبير الّا من كان تحت اللحود . وكان يوما مشهوداً سر به الشاهد والمشهود . واطلقت البشائر في البرج وتكلمت بافواه المدافع . ونمشت اصواتها واسمعت من به صمم وقالت هذا هو الفخر الذي ليس له مدافع . وبلغني ان عدة المدافع التي اطلقت ذلك اليوم تنيف على السبعين . ولم يحص احد عدد الزرابز والخزائن وبقيت من اول النهار الى حين . وتم الفرح بهذا الفتح الجسيم . ذلك الفضل من الله والله ذو الفضل العظيم . ولما استقر في دار سكناه . وبلغ ما تمناه . اقبل الناس بالسلام عليه . وما منهم الّا من خضع وقبل يديه . وهنا نكتة تدل على ما فيه من الظرافة . وتعلم ان

اخلاقه مجبولة على السياسة والرافة . وهي ان جماعة من المتعصبين كانبوا من بالحصار وحذروهم بطشه . فاراد بسياسته ان يذهب عنهم الوحشة . فبعث اليهم صاحب سره . الواقف عند نهيه وامره . المتخلق باخلاق العرب . المنتمي الى العجم في النسب . الشيخ محمد بن الحسن . وكان سفيرا بينهم في اول الامر وفي ءاخره بالغ فاحسن . وكان اهل الحصار في ريبة فازالها . وامانيهم متعلقة بالخوف ففك عقالها . ولما اراد ءافة الحصار ان يودي حق الطاعة . وان ينتظم في سلك الجماعة . هبط من الحصار على وجل . وتردد خاطره بين الامن والاجل . فقال بعض اصحابه لمحمد بن الحسن سر معه ليحصل له الامان . فاقسم ان لا يبرح من مكانه الّا ان يرجع صاحبكم حيث كان . وهذا من ظرفه وهو به امثل . والرسول صفة المرسل . ولما وصل الافة الى حضرة الباي قابله باحسان . وجدد له ما كان اعطاه قبل ذلك من الامان . وخلع عليه كركا كان اعده له من قبل . ونشرت رايات العز على راسه وضرب الطبل . ورجع الى مكانه سالما . وبالقبول والاحسان من الباي غانما . وهبط بعده محمد المليتي كاهية الحصار المذكور . ومعه الانباباشية فقابلهم بالهبات والسرور . وكان دخوله الى الكاف في الخامس عشر من رجب الفرد . فنال من بركة هذا الشهر ما لم ينله احد . وبقيت البشائر ثلثة ايام . وظهر فيها من الطاعة ما ظهر من العصيان في خمسة اعوام . وفي السابع عشر منه تزوج بكريمة من كرام الاقيال . جعلها الله بالوفاء والبنين والاقبال . وطلع في العشرين الى الحصار وتنزه في مناظره . واحاط خبرة بما فيه من اوله الى ءاخره . وانعم على من به باحسانه ولسانه وبالغ في الاكرام وتنصلوا بالاعتذار وهربوا من نار العصيان الى جنة الطاعة فصارت عليهم بردا وسلاما وهو متاهب للرواح الى منزله ودياره . ليصوم شهر رمضان المعظم ويتملا من مآربه واوطاره . والله يبلغ كل نفس مشتاقة الى روية اهلها . ويعيد شمس طلعته الى بروج سعادتها والشمس تجري لمستقر لها . وهنا ما انتهى به خبري . وما املیته

من ذكري ، وما التقطت هذه الجواهر إلّا من بحره ، ولا تعلّقت النظم إلّا من نثره ، وان مدّ الله في الاجل ، وجعل فسحة في العمر والامل ، لاجعلن كتابا مستقلا واشحنه بجميع مآثره ، وارصعه بدرر محاسنه من اوله الى ءاخره ، ان شاء الله ، والله يبلغ كل نفس ما تتمناه *

الخاتمة

وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

قد تقدم في اول الكتاب التعريف بتونس وما نقلته من اقوال المورخين هل هي قديمة او محدثة والذي صح عندي انها محدثة مشى على قول العلامة ابن الشماع ولكن لم يشف الغليل فيما نقله عن المورخين وهو من العلماء الراسخين وكان في ايام ملوك بني ابي حفص اواسط دولتهم وكانت تونس في زمانه في غاية الشرف مشحونة بالفضلاء والعلماء ومن يقتدى بهم وصنف كتابه للخليفة ابي عمرو عثمان والعجب له كيف رضي بهذا القدر اليسير وقصر في اماكن كثيرة ونبهت على بعضها وعجزت عن البعض لحشمتي منه لاني لست بكفو له ، ولما تكلم على اصل تونس وبنائها لم يستوف الكلام عليها إلّا انه قال احدثت بعد الثمانين من الهجرة الى ءاخر ما ذكر وقد تقدم في اول الكتاب وعلّلت بعض امور مما ذكرها وربما ذيلت عليه وعللت ما قاله غيره ولكن بقيت امور تمس بهذا المحل ناتي بها ان شاء الله ونذكر بعض امور حدثت في هذه الدولة التركية وبعض امور وقوانين احدثت بعد الدولة الحفصية وبعض امور باقية على حالها كما كانت عليه الى ان نستوفي ما نقدر على جمعه ليكون سلما لمن ياتي بعد ان شاء الله تعالى ، وقد تقدم ان الذي صح عندي انها قديمة من بناء الاول وانما فتحت في زمن حسان او في زمن زهير على اختلاف في ذلك بين المورخين وانها كانت مسورة ولها خندق

يدور بها . ثم ذكرت ان الجاري على السنة اهلها ان السور من بناء الشيخ سيدي محرز وهذا القول عليه اجماع اهل تونس وكنت اعتذرت في الاول وقلت قولهم بقولي ولعله جدده بعد المحنة التي وقعت على اهل افريقية من ابي يزيد الخارجي وقد تقدم اكثر هذا الخبر والان اقول ان السور الموجود في زماننا هذا هو غير السور الذي بناه الشيخ سيدي محرز رحمه الله والذي بناه الشيخ دثر ولم يبق منه شيء والله اعلم واظنه هو الذي كان دائرا بالارباض الذي منه باب الخضراء وباب ابي سعدون وباب الاقواس وباب الفلاق وباب علاوة وغير ذلك مما هو معلوم عند اهل تونس ويشهد لهذا ما ذكره ابن الشماع ان ابن تافراجين جعل نصف كراء المعاصر او ثلثه وقفا على بناء السور البراني وان الاوقاف التي هي الان على السور من تلك الاوقاف والله تعالى اعلم . وبقيت من هذا السور بقية الى ءاخر ايام بني ابي حفص لان احوال البلد تغيرت وتلاشت في ءاخر الدولة مما كان يقع بينهم من الافتان والمحن ونحن في طرف من ذلك نسال الله اللطف بمنه وكرمه وكذلك المكان الذي يقال له الفلة بمقربة من الجبارة خارج الربض القريب من مقابر الجلاز وانما سمي بذلك لانه كان ثلمة في السور المذكور ولما دهم اهل تونس العدو من النصارى وفروا بانفسهم خرجوا من هنالك خيفة ان توخذ منهم الابواب فخرج اكثرهم من هنالك فكان يقول بعضهم لبعض اخرجوا من الفلة او خرجنا من الفلة وهذا الاسم باق الى اليوم . وسمعت ايضا هذا الخبر من رجل حدثنيه ممن ادرك تلك الحادثة والله اعلم بحقيقة ذلك . وكذلك لم تكن تونس في اول امرها قاعدة من القواعد لانها ان كانت مما فتح فتكون احوالها تلاشت او لم تكن عامرة كغيرها وان كانت محدثة فقد تكون صغيرة في اول امرها ثم تزايد امرها بعد ذلك ولكن الذي نقله ابن الشماع مخالف لما ذكرناه لانه قال كان ابو جعفر المنصور العباسي اذا جاءه رسول من القيروان يقول له ما فعلت احدى القيروانين تعظيما لها وهذا يدل على انها كانت في غاية العمارة في ذلك

العصر والله اعلم . وايضا لم اجد من تصدى لها او دون فيها إلّا ما ذكره ابن الشماع او من تعرض لها عفوا من غير قصد ويمكن ان تكون فيها عدة دواوين إلّا انها نهبت في تلك الفتن او ان عمالها كانوا يحتقرون اهل هذا الفن لحقارته عندهم ولكن ابن خلدون كان من علماء هذه البلاد وله تاريخ يعد من التواريخ العظام حتى انه لما حصل في يد تيمور فما انجاه من شره إلّا هذا التاريخ لغرابته ولولا خوف الملالة لاستوفيت قصته الى ءاخرها .
ولنرجع الى تونس فنقول انها كانت احوالها متلاشية ولم يكن لها ذكر مع القيروان وانما ابتدات في الزيادة والنمو لما سكن بها بنو الاغلب ولما تغيرت دولتهم ببني عبيد كانت دولتهم بالمهدية والمنصورية والقيروان ولما تملكت صنهاجة على افريقية كانت عمالهم بتونس وعصت عليهم غير مرة وقدم اهلها احمد بن خراسان ورضوا به فكان يذب عنهم وبنيه بعده فكانت احوالهم مثل الثابيين بالقيروان واحدهم الشيخ الذي بمقبرة السكاجين بازاء دار الحاج محمد لاز والناس يقولون انه من السلاطين العادلين ولم اقف له على ترجمة لاصحح خبره . ثم لما اراد الله باصلاح حالها قامت بها الدولة الحفصية فعظم قدرها بين البلاد وما ذلك إلّا لانهم قاموا مقام الخلفاء وخطب لهم باامير المومنين وجاءتهم البيعة من الاندلس ومن مكة شرف الله تعالى قدرها سنة سبع وخمسين وستمائة فحينئذ ضخم امر تونس وشدت اليها الرحال وهوجر اليها من كل البلاد وكنت متشوقا الى الكشف عن هذه البيعة واي شيء كان سببها وسالت من له اعتناء بعلم التاريخ فلم يكن عنده جواب الى ان فتح الله علي بعد زمان وذلك ان الخلافة العباسية كانت ببغداد وانقرضت في سنة ست وخمسين وستمائة على ايدي التتار لما قتلوا الخليفة المعتصم وبقيت بلاد المشرق ثلثة اعوام بلا خليفة الى ان بويع بمصر الخليفة العباسي سنة ستين وستمائة وكذلك بلاد المغرب ضعفت بها الخلافة المومنية وانهدمت قواعدها فاحتاج الناس الى خليفة فلم يكن اقرب منهم لما ادعوه من النسب

وانهم من قريش من بني عدي من جماعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فحينئذ ارتفع ذكرهم وعمرت البلاد وجاءها الناس من اقطار الارض وكثرت علماؤها وانتشر ذكرها في الافاق بحيث اذا قالوا علماء افريقية في هذه المدة انما يعنون بها تونس . وكان بنو ابي حفص يجلون العلماء ويحافظون على الشرع ممتثلين لامره واخبارهم في ذلك شهيرة . وكان بتونس اربعة من القضاة قاضي الجماعة وقاضي الانكحة وقاضي المعاملات وقاضي الاهلة وقاضي الجماعة عبارة عن قاضي القضاة بالمشرق . وكان بالحضرة عدة من المفتيين فمنهم من يكون متصدرا لها بالقلم ومنهم من يتصدر للاخبار فقط وانما تنفذ الاحكام على يد قاضي الجماعة يتصرف في الاحكام الشرعية من غير مطلع عليه . وفي المائة التاسعة ظهرت رتبة المفتي وصارت ارفع درجة من درجة القاضي واذا اشكل على القاضي بعث الى المفتي يسأله ولاسيما في هذه الدولة التركية فان القضاة تجيئها من بلاد الترك والغالب عليهم العجمة ومذهبهم مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله تعالى عنه واهل الحضرة على مذهب الامام مالك امام دار الهجرة رضي الله عنه فاحتاجوا الى نائب يكون بين يدي القاضي فيكون بمثابة قاضي الخصومات والقاضي التركي مقام قاضي الجماعة . وكان بنو ابي حفص يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضي والعلماء في مجالسهم وتنفذ بين ايديهم الاحكام الشرعية وذلك في كل اسبوع وتلقى بين ايديهم المسائل المعضلة والمباحث بين العلماء والاحكام تتصرف بين يدي السلطان فلا يقع بين يديه من الاحكام الا ما هو مشهور بين العلماء وذلك المجلس ساعة من نهار وباقي الايام يتصرف القاضي في احكامه في داره او مكان يختص به . ولما جاءت الدولة التركية وصارت القضاة من تلك الديار كما قدمنا احتاجوا الى مجلس كما مرت به العادة فجعلوه بين يدي العامل وهو المعبر عنه بالباشا بلغتهم فيحتفل في مجلسه في دار الخلافة وهي التي يقال لها دار الباشا وان لم يحضره فالخليفة الذي له ويحضر القاضي والمفتيون ونقيب الاشراف

تبركا بالنسب الشريف وتلقى بين ايديهم المسائل المشكلة وذلك لما جرت به العادة والعمل بالحضرة ان المدعى عليه اذا لزمه شيء عند القاضي وخاف من الميل عليه يقول انا بالله وبالشرع وبالمجلس فيتوقف امره الى يوم الخميس فاذا حضر اليوم المعلوم رضي بما يحكم به عليه هذه القاعدة الى يومنا هذا وبزيادة وانه لما صار الحاكم بها كما قدمنا سردارا على العسكر وانه كالناظر على العامل وهو الدولاتلي بل ان العامل لا حجة له معه صارت الاحكام تتصرف في المجلس وبعد تمامها يخرجون باجمعهم القاضي والمفتيون ويمضون الى داره ويخبرونه بما وقع وبجميع ما حكموا به وربما يتوقفون في معضل لا يتم امره الّا بين يديه اما لتشاغب بين الخصمين او لالتجاء احدهما ببعض الامراء فلا يتم الّا بحضورته وهلم جرا . وفي الدولة التركية كان يحضر بهذا المجلس المذكور اربعة من المفتيين حتى اذا مات احدهم قام ءاخر عوضه الّا ان في يومنا هذا ليس بها الّا مفتيان لا غير . وفي اول ولايتهم لم يكن لهم مفتي حنفي الّا القاضي وكان الشيخ محمد بن ابي ربيع ممن يتعاطى حل المسائل من مذهب ابي حنيفة حتى نشات منهم جماعة تعاطوا المذهب هناك وذاع بينهم وشاع فقدموا مفتيا على مذهب الامام ابي حنيفة واول من تصدر لهذه الرتبة الشيخ ابو العباس احمد الشريف الحنفي وذلك بعد الاربعين والالف . واما الذين على مذهب الامام مالك ابن انس فكانوا في اول الدولة اربعة ولا يتقدم احد لهذه الرتبة الّا صاحب تدين وعفاف وكذلك الباشوات الذين كانوا في اول الدولة غالبهم كان على منهاج وفيهم من كانت له خبرة بالعلوم وسمعت ما حكي عن احدهم وهو فاصلي باشا وكان بعد العشرين والالف من الهجرة وهو ءاخر باشا كان مقامه بالقصبة ولم يحكم بها احد بعده من الباشوات كتب بين يديه كاتبه تذكرة لمن يتعاطى حسابات المعاصر فكتب هذه اللفظة بالسين فقال المعاسر . ولما وقف الباشا المذكور على هذه الكلمة قال ياحسرتاه على فاصلي باشا كاتبه لم يفرق بين السين والصاد وهذا دليل معرفته ونباهته رحمه

الله فاذا كان الباشا بهذه المثابة فاحرى ان تكون العلماء اعلى من ذلك وكانوا اذا حضروا بالمجلس انما يكون منهم الاخبار بالامور الشرعية اذا سئلوا عنها و ينفذ احكامه حاكم الوقت . واول من اظهر لهذه الرتبة تعظيما وزادها بشهامته تفخيما الشيخ ابو الحسن النفاتي ابن الشيخ سالم النفاتي وكان الشيخ سالم مفتيا في اول الدولة معاصرا للشيخ قاسم عظوم والشيخ ابراهيم والشيخ محمد قشور وكلهم على طريقة حسنة رحم الله الجميع . ولو تتبعنا اسماء من ولي منهم الفتيا لعجزنا من حصرهم لفوات عصرهم ويعز علي اذ لم ارهم وانما اذكر من ادركته وشاهدته والشيخ ابو الحسن ممن رايته. وكانت بينه وبين والدي صداقة وكان عظيم الحجاب رفيع الجناب وعاصره في وقته الشيخ ابو يحيى الرصاع وتصرف في حياته والشيخ محمد ابو ربيع وهو ممن شاهدته ايضا وكان صديقا لوالدي والشيخ ابو الحسن اخذهم كلهم واصلاهم جماعا فكان يتصرف في المملكة تصرف الوزير المستشار بحيث انه في احكامه — اذا قالت حذام فصدقوها — وتمام البيت معروف . وكان قبل ذلك اهل الحضرة اذا ترتب على احدهم حق بالاحكام الشرعية وحكم الحاكم او افتى المفتي بغير المشهور رفع امره الى بعض العلماء فيخبرونه بما عليه العمل وربما اطلعوه على محل النازلة او يقولون له المسالة في كتاب كذا وفي موضع كذا وان كانت له خبرة اوقفوه على مسالته ثمّ اذا حضر بالمجلس الشرعي تكلم بحجته وقال مسالتي كذا وكذا وتقع المشاجرة بينه وبين من قال بخلاف قوله وهذا مما يتجرا به العوام على اهل العلم ولما سافر الشيخ ابو الحسن المذكور الى الديار الرومية في مهم اقتضى ارساله جاء ومعه خط شريف من الباب العالي وانه لا يسال عن نص افتى به ولا يرد ما حكم به فانحسمت هذه المادة ولم يتعرض احد لذلك فيما بعد وبه جرت العادة الى يومنا هذا ولم يزل في رتبة عالية مدة حياته ومات من كان معاصرا له وانفرد بالكلمة هو واخواه الشيخ علي النفاتي والشيخ محمد النفاتي . ولما كانت سنة تسع واربعين والف وشي به عند حاكم الوقت يوسف داي

وشنعت على الشيخ ابي الحسن مسائل شنعها عليه بعض الكارهين له فتغير عليه حاكم الوقت المذكور فخرج الشيخ الى ناحية المشرق لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام فمات في الطريق في مكان يقال له الينبع وقبر هناك وقبره مشهور وقام اخواه مقامه من بعده . فلما تولى اسطا مراد الدولاتلية نكبهما واقام بدلا منهما الشيخ ابا الفضل المسراتي والشيخ احمد الرصاع وكانت بين الشيخ ابي الحسن والشيخ ابي الفضل المسراتي ضغائن في النفوس موجبها حب الرئاسة فلما حلت باخويه هذه النازلة كان ممن افتى بقتلهما فضلا عن العقوبة فنجاهما الله وصودرا بالمال . ولما تولى احمد خوجة منصب الدايات بعد اسطا مراد طلبا منه الاذن الى الحج الشريف فاذن لهما ولما بلغا الى الديار المصرية والحجازية كتبا سوالا على حسب النازلة التي نزلت بهما وبما افتى به الشيخ المسراتي فافتى علماء المشرق بما وافقهما وبعد تمام الحج رجعا الى الديار الرومية وعرضا امرهما على الابواب السلطانية فقبلت حجتهما وكتبت الاوامر على وفق مرادهما واقام الشيخ محمد في تلك البلاد وترقى الى رتبة الموالي الى ان مات هنالك في حدود السبعين والالف وله عقب هنالك ورجع الشيخ علي النفاتي الى تونس واستقل بمنصب الفتيا من غير منازع وعزل المسراتي وصاحبه احمد الرصاع ولم يزل في رتبته نافذ الامر ووافقه في المنصب الشيخ احمد الشريف الحنفي السابق ذكره ومن بعده الشيخ محمد بن مصطفى الازهري نزيل تونس الى ان مات الشيخ علي في مدة بعد الستين والالف فعند ذلك استقل الشيخ محمد بن مصطفى وانفرد بالمذهبين الى ان توفاه الله سنة ست وستين والف . فاقيم بدله الشيخ مصطفى بن عبد الكريم فتولى رئاسة الحنفية لا غير واعيد الشيخ المسراتي والشيخ الرصاع الى مكانهما . ولما كانت سنة اربع وسبعين صرف الشيخ مصطفى عن ولايته الحنفية واقيم بدله الشيخ ابو المحاسن يوسف درغوث فباشر المنصب بتعفف وامساك وصلابة في الحق ووقوف عند الكلمة فكانت تحدث من الشيخ المسراتي هفوات ياخذها عنه الشيخ يوسف

المذكور ولم يتم له قولا ويعارضه في سلطانه الى ان تسبب في عزله وبقي معه الشيخ احمد الوصاع وليس له مع الشيخ يوسف إلَّا الاسم والشيخ يوسف صاحب الحل والعقد الى ان مات في الواقعة المتقدم ذكرها رحمة الله عليه . ولما قدر الله تعالى بالطامة الكبرى وهي الواقعة التي كانت بين العسكر والمرحوم مراد باي وقد تقدم ذكرها كان الشيخ المسراقي احد اسبابها وهو الكاتب من املائه الحجة التي شنعت عليه فلما لم يتم ما اراده وانتصر الباي المذكور وعاقب من عاقب عن بينة وعفا عمن عفا عن بينة صادر الشيخ المسراقي ونكبه واراد قتله فشفع فيه صهره ابو العباس الشيخ احمد الشريف فشفعه فيه وذلك سنة اربع وثمانين . ثم ظهر للمرحوم برحمة الله مراد باي ان يولي هذا المنصب الشريف لمن يكون اهلا له فوقع اختياره على شيخ الوقت بالاطلاق . ومن شدت الرحال اليه من جميع الافاق . الشيخ العالم العلامة . الحبر الفهامة شيخ مشايخ الديار التونسية . ومن يشار اليه بالبنان في العلوم الموسوية . ومن تفتخر به الفضلاء من امة محمد . ومن سعى بسعيه المشكور وعمله المبرور وادركته بركة سميه لما سمي بمحمد . المتفنن في العلوم النقلية بما رواه عن الثقاة . المتصرف في الغوامض العقلية بممارسة العلوم وبالحفظ والثبات . الذي طلع في سماء البلاغة بعلم البيان فاظهر القطب . ونحا نحو المعرفة ففاخرنا به العرب . الهمام الامجد الشيخ ابي عبد الله محمد المدعو بفتاتة . سلم الله من كل الحوادث ذاته . وصرف عنه كيد الكارهين . ومتع احبابه بعلومه الشريفة وحياته الى حين . وبشهادة الله لم استوف حقه فيما قلته . ولم اك من المتعصبين في مدحه بما قلته . ولم يكابر إلَّا من طبع على قلبه . وانقطع سببه من سببه —

ومن يقل للمسك اين الشذا   كذبه في الحال من شمه

ولما عرض عليه المرحوم مراد باي ان يتولى هذا المنصب ابى ذلك . وامتنع من التعرض لهذا الامر الخطير والدخول في ضيق هذه المسالك . وتقرر امتناعه عند اهل البلاد فعظم عند الناس قدره وزاد مكانه وعلم الخاص والعام

ان تمنعه تنزها وديانة وكنت تطفلت على ذوقه السليم بان مدحته بعدة ابيات وقابلت سبائك ابريزه بما سبكته من مثاقيل النحاس فسترني بستائر حلمه وهكذا فليفعل الناس بالناس واردت ان ابث بعض ما قلته على جهة الايناس وتغزلت في اول القصيدة لمساعدة كنيته على الروي فقلت

بديع الحسن لو ابصرت ذاته   رايت الحسن مجموعا شتاته

وانا مستمر في تغزلي الى التخلص وهو المراد وفيه اشارة لاعراضه —

فاعرض جانبا وازور عني   لما اعرض عن الفتيا فتاته

ولولا خشية الاطالة لاتيت بها ، ثم بعد ايام اصطر الباي اليه لانه لم يجد من هو افهم منه سلمه الله لما كان يعرف من ديانته وعلوه على غيره في منصبه فالزمه على كره منه وهذه كانت تعد من حسنات الباي رحمه الله فامتثل لامره ذلك ، ورضي بما قضى به المالك ، فسر به اهل الصلاح والسداد ، واقتدوا به الى طريق الرشاد ، فاخذتني اريحة ادبية ، ومدحته بقصيدة رائية ، وجاءت براعة استهلالها وتخلصها صنع الله الذي اتقن كل شيء ببركة نيته الصالحة ، ومطلع القصيدة وفيه تغزل وتورية حيث قلت —

تمنع يوم الوصل واستعظم الامر   واعرض اجلالا فقلت له صبرا

مليح جرى ماء النعيم بوجهه   وفي كل قلب من حرارته جمرا

ورحت وانا مستمر الى ان تخلصت وانه من المخالص العجيبة التي حصلت لي ببركته ايضا فقلت —

تعلم من شيخ الانام تمنعا   ولكن ولي الامر الزمه جبرا

ولا يخفى على اهل الادب ما اشرت به في قولي تمنع واستعظم وفي التخلص ولكن ولي الامر الزمه جبرا فلا تخفى هذه الكلمات الا على اكمه لا يبصر القمر وما اطلت من ذكره الا بما يستحقه من الفضائل ولم ابلغ الى كنه وصفه والحق يقال والشيخ المذكور ممن اعتقد حبه في الله لا لشيء الا لشرف علومه وان كنت حرمت ان اغترف من بحره ولم يساعدني الحال ان التقط من دره فلقد اصابني رذاذ من وابله وذلك ان نجله السعيد النجيب

الشاب الانجد الشيخ ابا العباس احمد ابن الشيخ المذكور عندي له يد افادني بمسائل فتق ذهني بها واستفدت به زاد الله في حسناته وهو ممن ترجى له بركة ابيه ان شاء الله لانه تصدر للتدريس في حياة والده وله مسائل دقيقة على كتب القوم وعدة علوم زاده الله من فضله وكذلك اخوه ابراهيم ممن احبه في الله ويحبني فيه واظن ان شاء الله ان والدهما كذلك ولولا خشية الملالة لامليت في مناقبهما عدة كراريس وفي هذه النبذة كفاية واحلف بالله ما رقمت هذه الكلمات الّا بوقاحة مني لاني لست من اهل التعرض الى ذكره . ولما تم له من الامر بهذه الرتبة ما تم باشرها بتواضع ووقار ولم يغير من هيئته بل زاد في تواضعه يقضي حوائجه بنفسه ويباشر اموره لا يكلف بها احدا ولم ياخذ على ما يكتبه اجرا عامله الله بنيته وحفظه في ذريته . واعجب من هذا انه لما امتحن في الواقعة التي سلمه الله منها بسعاية الكارهين لما قبض عليه وعلى الشيخ يوسف درغوث وقد تقدم ذكرهما وقتل الشيخ يوسف ونجى الله من ذلك الشيخ محمد المذكور كل هذا من بركة العلم الشريف لانه لم يدلس فيه ولم يدنس . وكنت كتبت له رسالة هنيته ولكن لم تصل اليه ومنعتني منه الحشمة وافتتحتها بقولي سبحان الذي اسرى بعبده ليلا والحمد لله الذي انزل على عبده ان اسر باهلك بقطع من الليل انا منجوك واهلك الّا امراتك والهم عبده لما حصل في وثاق الاعداء ان فر من بين العسس فكتب له النجاة الّا واعوذ بالله من قوم ليس لهم عهد يعد ولا ذمة لذمام ولا يراعون فيكم الّا وهي طويلة اضربنا من ذكرها وهو حفظه الله تعالى ملازم للاشتغال بالقراآة وله عدة دروس في الجامع الاعظم وفي مسجده بمقربة من كتاب الوزير وفي داره هذا مع اشتغاله بما ينفع الناس اذهب الله تعالى عنه الكدر والوسواس والباس . ومن نيته الصالحة ان جعل الله رفيقه المفتي على مذهب الحنفية الشيخ ابا السعادة عبد الكبير ابن المرحوم الشيخ ابي المحاسن يوسف درغوث قدم بعد وفاة والده للخطبة بجامع المرحوم يوسف داي ثم قدم للفتيا بعد تمنع واستعفاف فسار بسيرة

مرضية . ولم تجر احكامه إلّا على القواعد الشرعية . وهو في عنفوان الشباب . ولم تظهر له صبوة في السابق يلزم منهـا العتاب . وهو حفظه الله من أهل الصلح بين الخصمين . وغالب اوقاته في المساعدة بين الناس بلا مين . وكان تقديمه اول سنة تسع وثمانين والف عن كره منه وجبره على ذلك علي بـاي لطف الله به وهو حسنة من حسناته كما ان رفيقه حسنة من حسنات والده رحمه الله *

الفصـــل الثاني

فيه حوادث ظهرت في الديار التونسية غير ما كانت عليه في الدولة الحفصية

كانت ايام بني ابي حفص في اول بدايتهم من غرر الايام . وانتشرت دولتهم حتى عمت بلاد الاسلام . وتقدم من ذكرهم ما فيه كفاية . ولكن ناتي بطرف من ذلك ليكون خبرة لاهل الدراية . وكانت دولتهم على أسلوب العرب وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ولم تكن المكاحل ظهرت في مبتدا امرهم وانما ظهرت في ءاخر ايامهم في ايام الفنش الاحول صاحب قشتالة لعنه الله ومن هنالك اخذت صناعتها في الزيادة الى ان كثرت في غالب المعمور . وكانت عساكرهم يدعون بالموحدين لانهم من اتباع ابن تومرت كما تقدم ذكره لانه سماهم بالموحدين لزعمه انه قائم بالتوحيد اي بكلمة التوحيد وجعل لاصحابه توحيدا بلسان البربر فمن لا يقوم بحفظه لا دين له فبقيت اشياعه من بعده على دعوته واقتدوا بامامته . والطبقة الاولى من بني ابي حفص امتد سلطانهم من تلمسان الى طرابلس الغرب ولما تقهقرت دولة بني عبد المومن من بلاد المغرب وكثرت الفتن بين ابناء الخلافة منهم تسمى بنو ابي حفص بالخلفاء وجاءتهم البيعة من الاندلس وغيرها وجاءتهم ايضا من مكة المشرفة لعدم الخلافة بالمشرق ولم يزل امرهم على احسن حال حتى وقع بينهم التحاسد وافتراق الكلمة فاخذت دولتهم في

الادبار الى ان كانت دولة السلطان محمد بن الحسن خرجت طرابلس عن حكمه واخذها عسكر آل عثمان وكذلك الجزائر ولم يبق بيده إلّا تونس وبلد العناب . وفي ايام ولده الحسن نافقت القيروان على ايدي الشابيين ونافق القليعي بسوسة والمهدية . وفي ايام السلطان احمد بن الحسن وصل العسكر العثماني الى الحمامات وطالت ايام السلطان احمد في الدولة واحيى بعض ما درس منها وكان عسكره لا يزيد على الفي فارس وسماهم الزمازمية ويركبون الخيل وكان مغرما بالتنجيم واهله وبعلوم الاجفار وكانوا يخبرونه بزوال الدولة عنه وتصير الى قوم لغتهم اعجمية إلّا ان سلطانهم يمشي على الاقدام لا يركب الخيل فذهب به رايه كل مذهب فلم يجد ملكا على هذه الحالة فاتخذ جندا من العبيد تفاولا وصارت لهم دولة يقال لها الدولة الجناوية ثم قتلهم وكذلك سمى مملوكا له علي باشا تفاولا لما كان يحذره والله غالب على امره . ولما جاءت الدولة التركية ظهر ما كان يحذره لانهم مشاة على الاقدام وكبيرهم الذي يقال له الداي كذلك فهو بمنزلة السلطان على الحقيقة لانه المتصرف بحكمه في الاقاليم فصحت الاخبار التي اخبر بها ولما تمكن حكمهم ودانت لهم البلاد اتخذوا اصطلاحا واحدثوا امورا غير ما كانت عليه اولا فمن ذلك ان لهم جماعة يقال لهم اوده باشية واحدهم اوده باشي معناه راس الدار لانهم يقدمون الصاف اليه فلفظة اوده هي الدار وباشي هو الراس واصله باش والياء زائدة عندهم إلّا انها كاحد الضمائر وتحت يد كل واحد منهم جماعة نحو العشرين واكثر واقل ولذلك الواحد النظر على جماعته واعلى من هولاء جماعة يقال لهم بلوك باشية واحدهم بلوك باشي والبلوك اسم للجماعة والباش للراس كما تقدم ومعناه راس الجماعة وهو اعلى من لفظة الاوده واعلى رتبة منه وكلهم بالترقي فمن الاوده باشي الى بلوك باشي ومن البلوك باشية يصير آغتهم وهو كبيرهم لا يصدرون ولا يردون إلّا عن مشورته وكان الاغة في مبتدا امرهم تاتيه الاوامر السلطانية من الباب العالي من عند الباشة الذي هناك ثم انخرمت هذه القاعدة

فصار يلي هذه الرتبة اكبرهم ولم يحتاجوا الى امر سلطاني وعدة الاوده باشية قبل اليوم مائة وخمسون ولما تزايد العسكر زيد فيهم ايضا فعددهم في زماننا مائتان واذا نقص واحد منهم حطوا بدله ولهم لباس يتميزون به عمن سواهم ولهم اقبية باكمام طويلة واسعة من عند المرافق وفم الكم ضيق ويضم عند الكومين بصناعة محكمة وعلى رؤوسهم طراطير من الجوخ بصناعة مكلفة يمتاز بها ويمتاز البلوك باشي بعمامة يكبرها قليلا فيعرف بها وكذلك الاغة له عمامة مفردة لا تكون لغيره ولها رجل مكلف باصلاحها ومن تحته جماعة يقال لهم ايه باشية معناه الحجة الكبرى لهم علامة على رؤوسهم يقال لها اسكفة مزركشة بالقصب يلبسونها ساعة من نهار في مواكبهم وهم ركبان امام اغاتهم . وكان في اول الامر الحكم للاغة والجماعة التي ذكرنا الى ان كان من امرهم ما تقدم عند ذكر مقتل البلوك باشية وتولية الحاكم الدولاتلي فصار غالب النظر في الاحكام له إلّا ما قل ولهم مكان يحضرون فيه كل يوم ساعة من نهار فيحضر الاغة وهذه الجماعة المذكورة في ذلك المكان ويسمونه دار الديوان ولهم شواش ستة ولباسهم مثل الاوده باشية إلّا ان الذي على رؤوسهم فيه بعض خلاف فيعرفون بذلك فاذا اجتمعوا في المكان المذكور جلس الاغة على كرسي في الصدر ثم الذي يليه بحيث لا يتقدم احد عن رتبته ولهم كتبة وترجمان ولهم اربعة من اكابر الاوده باشية يقال للواحد منهم باش اوده معناه كبير رؤوس الديار ويصلون الى هذه الرتبة بالترقي ثم اذا انفصل عن هذه الرتبة صار من البلوك باشية ويترقى الى ان يلي منصب الاغة ومادة الاغة ستة اشهر لا يخرج من بيته إلّا الى الديوان او في يوم معلوم ثم اذا جلس في الديوان يكون اكبر الشواش قائما بين كتفيه والترجمان بازاء الاغة فاذا اخذوا مراتبهم قام خطيبهم فدعا بدعوات للسلطان وللعسكر وقرئت الفاتحة ثم يخرج مناديهم عند الباب يقول من له دعوة فليدخل فاذا دخل قابله الترجمان واخذ دعوته من لسنه ثم يلقيها للاغة ثم ينادي مناديهم الى الباش اودات الاربعة فيحضرون

بين يدي الاغة ويعرض عليهم تلك الدعوة فان كانت من الامور الشرعية ردوها الى الشرع وان كانت قانونية فعلوا بآرائهم او بما جرت به العادة بينهم وان كانت مسالة معضلة اخروها الى مشورة حاكم الوقت وان كانت صدرت من اذنه امضيت فاذا تمت احكامهم حط لاكابرهم طعام اكلوه ثم ينصرفون الى مآربهم إلّا ان ءاغتهم يروح الى بيته واذا افترق ذلك الجمع انصرف من اكابرهم جماعة مثل الخوجات واكبر الشواش ومضوا الى حاكم الوقت فيخبرونه بجميع ما حكموا به إلّا النادر الذي لا يعبا به هكذا دابهم كل يوم الى انقضاء ستة اشهر يعزل ذلك الاغة ويقوم مقامه الذي يليه وهلم جرا ولهم مواكب يظهرون فيها ابهة الملك وينشرون ناموسا للسلطنة وذلك انهم اذا ارادوا اخراج المحلة على حسب العادة نادى مناديهم وهم الشواش يركبون الخيل ويلوجون في الاسواق ويخبرون جماعة العسكر ويامرونهم بالتاهب للخروج ومن الغد يصبحون وقد لبسوا ءالة حربهم ويجتمعون عند باب القصبة ويكون الحاكم هناك ثم يمضي الاغة والاودة باشية الى دار الخلافة ويحضر هناك الخوجات الذين يحملون البيارق فينشرونها ويحضر الباي المعين او خليفته فيخلع عليه الباشا خلعة سلطانية ثم يخرج كاهية الباشا معه وبين ايديهم الشطار والايياك مشاة على الاقدام وتنشر الرايات الملوكية وتدق النوبة العثمانية بالطبول والانفرة والزنجهارات ويخرجون بادب وسكينة مصطفين من دار الخلافة الى باب القصبة ويكون العسكر قد اجتمع هنالك فاذا قرب الديوان اي الجمع الذي فيه الاغة والباي الى باب القصبة قام الداي بنفسه ان شاء ومشى في اول الصف وان شاء قدم احد الاكابر من جماعته وامره بالمسير عوضه وذلك تعظيما له بحيث يكون هو المتصرف تلك الساعة وامره نافذ على ذلك الجمع فاذا خرجوا من المدينة الى ظاهرها حيث يكون الوطق والاخبية المهيئة للسفر دخل الباي والاغة والجماعة المستعدة للسفر ورجع الباقون الى البلد ويكون قد تعين على المسافرين منهم جماعة يتعاطون الاحكام في السفر مثل الاغة

والاودة باشية والبلوك باشية ومن يقوم مقام الداي فيهم مدة اقامتهم في السفر الى ان يرجعوا الى الحضرة ولهم ادب في رحيلهم واقامتهم وامور اخر اضربنا عنها فاذا رجعوا من سفرهم بعثوا ارسالا يخبرون بوقت مجيئهم في يوم كذا فيتاهبون للقائهم على العادة التي قدمنا إلّا ان في يوم دخولهم زيادة على ما ذكرنا وذلك ان العسكر الذي يخرج من البلد اذا صاروا من خارج المدينة وتقابل العسكران يجعلون بروزاً وهو ان يرموا بمكاحلهم ثلثا ثم يجيبهم المسافرون بثلث ثم يجتمع العسكران ويدخلون البلد ويكون يوما مشهودا تجتمع الناس لمشاهدته ويمضي اكابر العسكر الى دار الخلافة ويخلع هنالك على الباي اوعلى خليفته خلعة سلطانية ويرجع باكابر الديوان الى منزله وتدق هنالك الطبول ساعة ثم ينصرف ذلك الجمع هكذا دابهم في كل عام مرتين وهذا الناموس لم يكن مثله في البلاد الغربية التي تحت ايدي العساكر العثمانية . جعل الله اعلامهم بالعدل منشورة . واحكامهم بالتوفيق مذكورة . وجعل سيف هذا السلطان قاطعا في رقاب الكافرين . ... لاصلاح الدنيا والدين *

الفصل الثالث

فيما تميزت به الديار التونسية
وما تفتخر به بين احبابها

اعلم ايها الواقف على هذا المجموع ان لتونس مفاخر جمة لو استقصيناها لطال بنا المجال وخرجنا عن الحد ولكن ناتي من كل شيء بطرف . وقد كانت قبل هذا الزمان في غاية من الشرف . واهلها في النعيم والترف . بحيث لم تكن بلد تضاهيها . ونفوس اهلها مطمئنة بامنها وامانيها . وكانت محط الرحال . ومبلغ الامال . إلّا ان في زماننا هذا تلاشى اكثر نعمتها . ولكن بقيت منها بقية ستتلى عليك لتعلم مزيتها . واذا افتخرت مدينة من مدن الغرب فما احق الفخر بتونس . واذا حل بها غريب نال التانس من

تونس . والدليل على ما كانت عليه من رفاهية اهلها في القديم وبقيت ءاثاره هو ان غالب اهلها كانت لهم جنات وبساتين يخرجون اليها بعيالهم في زمن الصيف والخريف وتكون الناس في اسواقهم يتعاملون الى ءاخر النهار ومبيتهم في بساتينهم ومن الغد يبكرون الى البلد ولهذا كان سوق الربع وهو اكبر اسواقهم لا يفتح إلّا بعد طلوع الشمس وجرت هاته العادة الى اليوم ولهم غير ذلك من الاعياد والمواسم والتفاخر بالاعراس الحافلة واظهار التنعم حتى بالمآتم وناهيك ان اعيادهم مشهورة فمما يستعملونه في ايام العيد من الحلاوات والاطعمة التي لا توجد إلّا في الحضرة المقروض الذي يتفاخرون به وهو مشهور بينهم لا يحتاج الى تعريف وهو اطيب حلاواتهم وليس بعده شيء حتى اني التقيت بمن اكله في الحضرة فاعجبه غاية الاعجاب فقال عجبت لمن في بيته المقروض كيف ينام الليل وكذلك اللحم الذي يسمونه المروزية نسبة الى مروز مدينة ببلاد العجم يطبخونه بابزار تفوح لها قيمة ويرون اكلها عقيب الصوم من التطيب وكذلك الخبز المعلوم في اعيادهم لم ير مثله في المعمور ويتفاخرون بعظمه وتفاوته حتى ان الرغيف الواحد لو وضع بين جماعة من الناس من عشرين فصاعدا لكفاهم ويطول مكث هذا الخبز الى نحو شهر واكثر وهو في غاية الحسن وسبب تكبيره عندهم له ذكر فالمتقرر بينهم ان بعض العمال كان بها في الزمن السابق دامت ولايته واشتد سلطانه فسعى به بعض الكارهين الى استاذه وادعى انه استقل بالامر وخرج عن الطاعة وحرضه على الفتك به فتحرك اليه استاذه بعسكره فلما قرب من تونس خرج العامل بذات نفسه وقيل انه ابن خراسان وصحب معه رغيفا من اعجب ما يكون فلما وقعت عينه على استاذه ترجل وقبل ركابه واخرج ذلك الرغيف وناوله له فاخذه من يده وقبله ورده الى صاحبه ورجع من مكانه وقال لخاصته هذا مستمر على طاعتنا والاشارة لذلك خطابه بلسان الحال ان هذا ما انعمت به علي فان اردته فهو مردود اليك فعام حسن طويته فابقاه على عمله ورجع مسرورا فمن هنالك استمر الحال على

لتكبير هذا الرغيف وقد يكون اتفق ذلك اليوم انه يوم عيد او انهم تفاءلوا بسلامة عاملهم بسبب ذلك الرغيف الى ان صارت لهم عادة في كل عيد هذا هو المأثور بينهم ويغلب على ظني غير ذلك وهو ان حريمهم اي حريم هذه المدينة اكثر انهماكا من رجالهن ويكرهن الامتهان بالخدمة عدة ايام بعد العيد فلهذا جمعن بين الخبز والمروزية لطول بقائهما . وكذلك العادة التي جرت بين اهل الحضرة ان مدة اعيادهم خمسة عشر يوما وهذا المعهود بينهم وجرى العمل به وادركنا قبل اليوم ان اسواقهم لا تفتح الا بعد تمام الخمسة عشر يوما وتكون ايام تنزهات خارج المدينة وتلاشى البعض وبقي البعض . ومن ايامهم المشهورة اليوم العاشر من شهر المحرم يحتفلون له غاية الاحتفال ويصرفون فيه اموالا وافرة في الاطعمة والفواكه وقل ان تجد من لا يصرف شيئا ولو قل ولو حصر انفاق ذلك اليوم لبلغ مقدارا غريبا وكذلك اليوم التاسع منه يواظبون فيه على اكل الدجاج والطعام الذي يقال له الدويدة وهو بمثابة الكنافة عند المصريين ولكن الدويدة اضخم عند اهل الحضرة ويعبرون عن طعامهم هذا فيقولون الفطير وما يطير ويعظمون هذا اليوم وان كان عظيما الا انهم اكثروا في تعظيمه عمن سواهم ويرون الانفاق فيه من التوسعة على العيال وملازمة اكل الدجاج على جهة التطبب لان الحكماء قالوا لا بأس به مرة في السنة والمداومة عليه تورث النقرس اعاذنا الله منه . وكذلك جرت العادة بزكاة اموالهم يخرجونها في هذا اليوم ويلازمون على حرمته والانفاق فيه وتزين الحوانيت التي تباع فيها الفواكه اليابسة ويكون لها منظر عجيب وتنفق الناس من عندهم على قدر اقدارهم حتى لا يخلو مكان احد من الفاكهة الا القليل منهم . ولقد حضرت لرجلين تفاخرا احدهما من الجزائر والاخر من تونس فقال التونسي للجزيري ودت ان هذه الحوانيت يعني التي بها الفاكهة في يوم عاشوراء ترفع ليلا وتحط في الجزائر فاذا اصبح اهل الجزائر وراوها على هذه الحالة ثم اعيدت ليلا الى مكانها اظن ان نساءكم يطلقنكم ويأتين الى بلدنا وهذه مبالغة اني بها

ومن راى ذلك اليوم شهد بما قلناه وهذا من الايام المشهورة عند اهل تونس وتباع فيه من ءالات الطرب والملاهي لصبيانهم بما لا حصر له وهذا من رفاهية عيشهم وانهماكهم وكذا جرت عادتهم وهي باقية الى الان . ومن اعيادهم المشهورة ومواسمهم المذكورة ومساعيهم المشكورة تعظيمهم ليلة المولد الشريف وذلك لاجل محبتهم لمن ولد فيه وهو سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم . واول من اعتنى بتعظيمه في البلاد الغربية واظهر فيه شعائر الولادة المحمدية السلطان ابو عنان المريني شكر الله سعيه ثم اقتدى به بنو ابي حفص في الديار التونسية واولهم امير المومنين ابو فارس عبد العزيز وكان في اول المائة الثامنة واحتفل بتشييد شعائر هذا اليوم المبارك جعل الله ثوابه في صحائفه واظله في ظل النجاة يوم لا ظل إلّا ظل عرشه واقتدت به بنو ابي حفص من بعده ولم تزل عادتهم مستمرة على تعظيمه عاملهم الله بنياتهم فانهم يعظمون ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الاول وينشدون الاشعار في المكاتب ويحتفلون لتلك الليلة ويزينون المكاتب وربما يجعلون ديدبانات وهي المعبر عنها بالاصطلبات وتقرا فيها الكتاتيس وتنشد الابيات الشعرية التي تضمنت مدائح خير البرية وتوقد القناديل وتسرج الشموع وتكون تلك الليلة اشهر ليالي سنتهم ويصنعون الاطعمة الفاخرة احتسابا لله وربما يجعلها بعضهم للمباهاة والتفاخر ولكل امرء ما نوى وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الاشراف يحضرها الاجلة من الناس والقراء والفقهاء ويقع فيها السماع والاناشيد بالمدائح النبوية ويهرع الناس اليها من اطراف البلد وتكون عندهم من الليالي العظم ولنقيب الاشراف عادة ياخذها من السلطنة من زيت وشمع وما يحتاج اليه وهذه العادة جارية من زمن بني ابي حفص ودامت هذه الدولة عليها وادركنا قبل اليوم بالزاويتين المشهورتين القشاشية والبكرية محاسن جمة بحيث تدوم زينتهما خمسة عشر يوما لا تخليان من المدائح وتهرع الناس للتفرج والمبيت وقد تلاشى الحال . واما غيرهما فبحسب الامكان والاوقات وهذا الشهر المبارك له حرمة

عند اهل الحضرة لتعظيمهم لهذا اليوم زاد الله في حسناتهم وربما وقع فيه ما يذمه الشرع وذلك لجهل العوام ويرون ذلك صلاحا ومن اراد تفصيل ذلك فليطالع المورد في اخبار المولد للعلامة جلال الدين السيوطي فان فيه شفاء الغليل . ومن ايامهم المشهورة اول يوم من شهر مايه فانهم ينفقون فيه اموالا لا تحصى ويتفاخرون فيه بالاطعمة الفاخرة التي لا توصف ويكثرون من الانفاق فيه ويجتهدون في صناعة المرقاز حتى لا يخلو منه الّا مساكن الضعفاء ويكثرون من الرياحين والبقول ويباع في هذا اليوم من النارنج والليم الحلو والليمون بقدر ما يبيع في السنة كلها ومن الحشايش مثل الحمص والباقلاء الخضراء والحمص وغير ذلك ما يقوم بالمدينة سنة في غير هذا اليوم ويجعلون اخصاصا في بيوتهم مزينة ويعبرحنها بالحوانيت وتعلق فيها جميع البقولات والرياحين الموجودة حتى لا تخلو دار من ديارهم من مثل ما ذكرنا الّا ما قل ويتجاوزون الى المغاني وءالات الطرب لما لا حد له وانهماكهم في هذا اليوم اكثر من ايام الاعياد . وادركنا بعد الخمسين والالف من الهجرة مكانا لهم عند باب الخضراء يسمونه بالوردة يجتمع فيه اهل الخلاعة والبطالة ويكثرون من المجون هنالك من مغان ومطربين ومشعوذين وتباع فيه الفواكه اليابسة والحلواء وتخرج اهل الخلاعة ارسالا بعد صلاة العصر الى وقت الغروب ويكون هناك مفترج عظيم ابهج من ايام العيد ويستمرون على هذه الحالة خمسة عشر يوما هذا دابهم في كل سنة توارثوا ذلك خلفا عن سلف وابطلت هذه الايام في زمن اسطا مراد ثم اعيدت من بعده ولكن على غير هيئتها الاولى ثم ابطلها احمد خوجة ولم تعد بعد . ولقد ادركت للقوم في هذه الايام خلاعة لم تكن لغيرهم في غالب المعمور في هذا المكان الذي يقال له الوردة ولم ادر لم سمي بهذا الاسم الّا انه يظني انه كانت به حديقة بالورد فسمي بها والله اعلم وانقرضت هذه الحالة ولم يبق الّا اسمها واما الذي يستعملونه في الديار فهو باق على حالته وبزيادة وعند النسوة تفاخر بينهن لما يبدين من الزينة والاطعمة ولم يعلم

احد من اهل الحضرة ما السبب لاظهار هذا اليوم الّا لمنكر ظهم فيه حيث يقول هذا اليوم عيد لفرعون لعنه الله فكيف يعظمونه ويستدل بقوله تعالى - موعدكم يوم الزينة - والمجيب عنهم يقول فيه نصر الله موسى عليه السلام على فرعون وكل ليس تحته طائل لانا غير مكلفين بهذا اليوم ولا هو في شريعة غيرنا وهذا من خرافات العوام . وسمعت من مشيخة الحضرة ما يقارب الظن وهو ان اول يوم من شهر مايه تكون الشمس فيه مضرة بالصبيان الذين هم دون البلوغ فلهذا يجعلون تلك الحوانيت لتقي صبيانهم الحر بحيث يلعبون فيها وتنهيهم عن اللعب خارج الديار وكذلك يجعلون في انوف صبيانهم شيئا من القطران لخاصية في رائحته والله اعلم . ومنهم من يقول هذا اليوم هو النوروز ويحكم بصحته وليس عنده علم ما هو النوروز ولا لاي شيء وضع في هذا اليوم ولم لم يكن في غير هذا الشهر ولم اختص به هذا الشهر دون غيره الى غير ذلك الّا انها جبلة جبلون عليها صاغرا عن كابر الى يومنا هذا والذي صح عندي انه هو النوروز لاشك فيه الّا ان النوروز كان في غير هذا الشهر ثم صار اليه ولذلك حكاية تطول ولكن نأتي ببعضها ليعلم من يقف عليها ان الاولين من اهل الحضرة لم تكن افعالهم سدى وسيتلى عليك ان شاء الله تعالى ذكر أهل السير والإخبار ان النوروز كلمة اعجمية معناها اليوم الجديد لان نو هو الجديد وروز هو اليوم لان العجم يقدمون المضاف اليه على المضاف واول من اظهر هذا اليوم بارض فارس ملك من ملوك الفرس اسمه جمشيد من الطبقة الاولى من ملوك الفرس الذين يقال لهم البيشدانيه وهو الثالث من ملوكهم وكان قبل ابراهيم عليه السلام وجمشيد معناه شعاع القمر لان جم اسم القمر وشيد اسم الشعاع وكان ملك الاقاليم السبعة وسلك السيرة الصالحة ورتب الناس على طبقاتهم كالحجاب والكتاب والزم كل صاحب طبقة مكانه لا ينتقل منه الى سواه وجعل النوروز عيدا ينعم الناس فيه وكان صاحب عدل ووضع لكل امر خاتما مخصوصا به فخاتم الحرب مكتوب عليه الرفق والمداراة

وخاتم الخراج العدل والعمارات وخاتم البريد والرسل والامات الصدق والامانات وخاتم المغارم الانصاف والسياسات وبقيت تلك الاثار الى ان محاها الاسلام وءاخرحاله تكبر وتجبر وترك السيرة الصالحة فتنكر عليه الخواص وقام عليه بيوارسب فقتله واستقل مكانه . وكان النوروز اول يوم من يناير ويسمونه ايضا دينماه معناه غرة الحول الجديد والمهرجان يجعلونه سادس عشرين برحمات هذا أصطلاحهم في ذلك الزمان واول من احدثه من ملوك القبط بمصر مقلاوش بن مقناوش وهو اول من عبد البقر واستخرج الحكمة واول من عمل العجل يجرها البقر وفي زمانه بنيت البهنسا من اعمال مصر ودام ملكه ثمانمائة وثلثين سنة ودفن في الاهرام الصغير ودفن معه من الاموال والعجائب شيء كثير منها اصنام مدبرة على الكواكب السبعة التي يرى بها الدفائن والخبيات والف سراج من الذهب والفضة وعشرة ءالاف جام من ذهب وفضة والف مقار لفنون الاعمال من الكيمياء وغيرها ولـه اخبار غير هذه ليس هذا محلها وانما جذبنا مساق الحديث . ونرجع الى ذكر النوروز . واما الصابيون فهو عندهم يوم دخول الشمس برج الحمل وهو من اعظم الاعياد عندهم لان الشمس حلت في برج شرفها ثم ان الفرس جعلوه في الخامس من حزيران لان فيه استواء الزرع عندهم واذا حل خرجت العمال لاستفتاح الخراج . وكان هذا العيد عندهم لادراك الغلال يستبشرون بالسنة فيظهرون فيه من المآكل والمشارب ويتهادون بينهم ويهادون روساءهم وهو من اعظم الاشياء عندهم ولم يزالوا على ذلك الى ان اتى الله بالاسلام وهم باقوين على حالهم . وفي اول الاسلام كانت السنون متقاربا بعضها من بعض والزمان متقارب بين الشمسي والقمري في حساب السنين وملة الاسلام خراج اهل ذمتها وزكاة اموالها ومواقيت حجها بالسنة القمرية وجميع شعائر الاسلام كذلك . واما اعشار الغلال فتكون عند تمامها وحساباتها بالسنة الشمسية وأيام السنة الشمسية ثلثمائة يوم وخمس وستون يوما وكسور فيكون التفاضل بينهما احد عشر يوما على التقريب والروم

كانوا يكبسون سنيهم يوما في كل رابع من السنين واما الفرس فانهم يكبسون شهرا تاما بعد مائة وعشرين سنة فاذا انقضت هذه المدة ودخل شهر ايار الغوه ورجعوا الى حزيران فكان النوروز من الخامس من حزيران الى الخامس من ايار لا يتجاوز اكثر من ذلك . ولما كانت خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وكان عامله على العراق خالد بن عبد الله القسري وجاء وقت التكبيس عند اهل العراق اعطوا خالدا المذكور فمنعهم فبذلوا له اموالا فابى وبعث الى هشام يخبره ويقول له هذا من الذي قال الله تعالى انما النسي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما فاتاه الجواب بمنعهم فمنعوا وصار النوروز لا يتعدى زمانه وفيه يكون افتتاح الخراج والسنة تتقدم الى ان تتفاوت جدا . وفي ايام المتوكل على الله العباسي كانت سنة احدى واربعين ومائتين تجبى في سنة اثنتين واربعين ومائتين فتنبه لهذا الامر وامر ان تلغى سنة احدى واربعين وتذكر سنة اثنتين ولولا خشية الاطالة لاستوفيت السبب في ذلك وكيف تنبه وفيه قصة يطول شرحها . وفي تلك السنة جبيت البلاد بذكر سنة احدى واربعين واثنتين واربعين وخرجت بذلك الكتب الى العمال ومات المتوكل على الله ولم يتم له ما اراد ومن بعده رجع الامر الى الحالة الاولى . وفي خلافة المعتضد بالله جعل النوروز على حساب الروم وكذلك رتب المصريون حسابهم ووافقهم حساب القبط وفي ايام المعتضد كانت سنة ست وسبعين ومائتين تجري في سنة سبع وسبعين ومائتين فنقلت سنة ست الى سنة سبع . وكان المعتمد على الله العباسي اخر النوروز عن وقته ستين يوما وجرت جباية البلاد على هذا النمط وقدم المهرجان يوما واحدا ولم تزل خلفاء بني العباس يؤخرون النوروز عن وقته عشرين يوما واكثر واقل ليكون سببا لتاخير الخراج . وفي خلافة المطيع لله العباسي وسلطنة معز الدولة بن بويه والوزير المهلبي كان النقل من سنة احدى وخمسين وثلثمائة وكتب في ذلك العصر الصابي رسالة واودع فيها من الصناعة الفلكية ما يعجز عنه الكتبة وهي

رسالة مشهورة ولولا الاطالة لاوردتها بكمالها لحسن صناعتها كما ان رسالة القاضي عبد الرحيم البيساني كثيرة الايجاز والاعجاز وكان هذا النقل اغفل في الديار المصرية حتى كانت سنة تسع وتسعين واربعمائة تجري مع سنة احدى وخمسائة وكذلك سنة خمس وستين وخمسائة تجري مع تسع وستين وخمسائة فنقلت برسالة من انشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم المتقدم الذكر ورسالته موجودة في ايدي الناس ولو لم يكن له من الرسائل الا هذه الرسالة لكفته فخرا . وكانت الخلفاء من بني العباس وسلاطين وقتهم مولعون بايام النوروز وتعظيمه وكذلك الروساء والكتاب ولهم فيه مجالس انس مشهورة وتهدى لهم فيه الهدايا الجليلة وتمدحهم فيه الشعراء ولهم فيه الاشعار المستحسنة ومجالس الانس التي يتفاخر بها بعضهم على بعض وغير ذلك مما هو مشهور وجرت به دولة بني امية بالاندلس ولكن ليس لي علم به اي وقت كان عندهم الا ان لهم فيه مجالس مذكورة بين اكابرهم وهدايا جرت بها عادتهم الى انقراض دولتهم . واما تونس حرسها الله تعالى فحساباتهم بشهور الروم وذلك انهم يكبسون يوما في السنة الرابعة فكان النوروز لا يتعدى وقته في كل سنة الا ان الفرس كانوا يجعلونه في الخامس من شهر ايار وايار هو شهر ماية بحساب الروم وانما يجعلونه في حزيران في السنة الكبيسة لانهم اذا ارادوا تكبيس سنيهم كما جرت به عادتهم بعد المائة والعشرين سنة كما تقدم به الخبر جعلوا تلك السنة ثلثة عشر شهرا فاذا صاروا في شهر حزيران الذي هو يونية بحساب الروم الغوا ذلك الشهر ورجعوا القهقرة الى شهر ماية فلهذا كان اختلاف حال النوروز عندهم كما ذكرنا ومنعهم خالد بن عبد الله القسري على فعلهم وزعم انه من النسي الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز والنسي المذكور غير هذا وليس هذا محل بيانه وتمشي اصطلاح النوروز في مدينة تونس اول يوم من شهر ماية لان غالب سنينهم يطيب فيها زرعهم وتخرج الجباة الى اطراف البلاد وكذلك جملة ثمار تظهر في هذا الشهر واهل تونس يقولون تظهر يوم ماية

سبع غلال ويعدونها ولهم اختلاف في عددها وليس لهم في زعمهم الا ظهور هذه الفواكه في هذا اليوم وجرت به العادة من زمن بني ابي حفص الى يومنا هذا ولولا خشية الاطالة لاتيت بجملة من القصائد والمقطعات التي قيلت في النوروز وما ذكرت هذه النبذة إلّا ليعلم من يقف على كتابي هذا ان اهل الحضرة لم يكن عندهم سدى كل ما هو متعامل بينهم لان السلطنة في تونس كانت ضخمة وملوكها يعدون من الخلفاء وهذا مما هو مشهور عند اهل الامصار إلّا انه لما تغيرت الدول جهلت مسائل كثيرة مما كانت عليه واندرست قواعد كان الاهتمام بها وصعب الامر على ردها كما كانت عليه فمن بعضها ما يناسب النوروز مما كانت تهتم به الملوك في اول الزمان مثل النقل للسنين كما ذكرنا وهذا اليوم جار في وطن الساحل ويعنونه بالحول وذلك ان جباة اعشارهم من الحبوب والزيتون تباينت عن مراتبها حتى انهم يذكرون في تذاكر اعشارهم سنة ثمان وثمانين تجبى سنة احدى وتسعين ولم يتفطن احد الى هذا الامر وان تمادى الحال على مر السنين تفاقم الى اكثر من ذلك وهذا من الازدلاف بسبب المباينة بين السنة الشمسية والقمرية لان القواعد تلتزم على حساب السنة القمرية والاعشار على حساب الشمسية فسقطت في كل ثلث وثلثين سنة شمسية سنة قمرية واستمر العمل بها واتسع الخرق على الراقع والكلام يطول ولكن جذبتنا المادة وفي هذا القدر كفاية والله اعلم بحقائق الامور وما تخفي الصدور ولهم اصطلاحات غير ما ذكرنا لو تتبعناها لطال بنا الاكثار وخرجنا عن حد الاختصار . واما تعظيمهم لليلة النصف من رجب وليلة السابع والعشرين منه وكذلك ليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين منه ايضا لا يخفى على احد من الناس هذا التعظيم وان كان لغيرهم مشاركة في هذه الايام فان تعظيم اهل الحضرة اعظم من غيرهم وكذلك شهر رمضان المعظم قدره فانهم يحتفلون فيه غاية الاحتفال ويقومون بواجبه وواجب حقه اتم القيام ويختمون في غالب المساجد القرءان العظيم في صلاة التراويح إلّا فيما قل من المساجد . وكذلك اعتناؤهم

بختم المسند الصحيح للامام البخاري رضي الله عنه وبقية الاسانيد الستة
الا ان البخاري عندهم اشهر وروايته اظهر وان كان غيرهم من المغاربة
يقدمون كتاب الامام مسلم بن الحجاج رضي الله عنه على كتاب البخاري
وكلهم على حقيقة وصحة . فاهل تونس لهم ولع بالرواية لكن المشاهير من
علمائهم وغيرهم مولع بالختم لا غير واردنا ان ناتي بصورة الختم ليتم به الختم
ويحصل لنا حسن الختم ان شاء الله ولكن ناتي ببعض ونذكر بعض علماء
الحضرة الذين ادركتهم في هذه الايام تبركا باسمائهم لانهم فرسان هذا الميدان
وعلماء هذا الشان ولم اتعرض لغيرهم ممن تقدم لكثرتهم وفواتهم وربما تمس
الحاجة لبعضهم فناتي به عفوا ان شاء الله تعالى * فمن المشاهير من علماء
الحضرة الشيخ الامام علم الاعلام القدوة البركة المقتدى به المتبرك به المعمر
الذي الحق الاصاغر بالاكابر وتخرجت به جماعة من الاعلام في ايام حياته
وراى من تلامذته ما قرت به عينه وله الاسناد العالي ورحل الى الديار
المصرية والاماكن الحجازية والتقى بالرجال واخذ عن جم غفير واجيز واجاز
وافاد واستفاد بالحرمين الشريفين وارض الحجاز الامجد الشيخ ابو العباس
احمد الشريف زاده الله شرفا وهو اليوم بركة هذا الاقليم ملازم لافادة الطالبين
بجامعه المبارك بازاء دار الباشا وهو من المحافظين على رواية المسند زاد
الله في علومه ونفع به المسلمين يبداه من اوله الى ءاخره في مدة الثلثة
اشهر الى ان يختمه على وفق المراد فيكون الختم على بابه وهو حفظه الله
باق الى يومنا هذا متمتعا بسمعه وبصره ملازما للتدريس بجامعه المعروف
به ملاصقا لدار الخلافة وهو في سن الشيخوخة في الثمانين وفيه خشوع
ورقة وتخرج به جماعة وسلكوا طريقته زاد الله في شانه بمنه وكرمه *
ومنهم الشيخ المعروف النحرير الحبر الخبير الفقيه المتكلم المنطقي المحكم
المفوض العروضي الاصولي البياني الاديب المهذب الورع المرحب الذي
جمع بين المعقول والمنقول مفتي الحضرة العلية وشيخ شيوخ البلاد الافريقية
المشهور في ادبه بابن نبالة الشيخ ابو عبد الله محمد عرف فتاتة ابقى الله

بركته وقد تقدم شيء من ذكره ولا باس باعادته تعظيما لقدره وهو باق الى يومنا ملازما لافادة الطالبين وله عدة دروس منها في المسجد الاعظم وغيره مع ما ينظر فيه من مصالح المسلمين وتخرج به جم غفير وتصدروا في حياته لنفع المسلمين نفع الله ببركته * ومنهم شيخنا وصديقنا الشيخ الفقيه والحبر النبيه الوجيه الشيخ الاحجد ابو عبد الله محمد عرف ابن الشيخ متضلع بعلوم شتى ملازم للاشتغال والافادة بجامعه المعلق بمقربة من سوق المحصارين وبالمدرسة المنتصرية وقد سبق التعريف به في اول الكتاب وهو من المحافظين على التعليم لعلوم الدين وتخرج به جماعة كثيرة وهو من بدار الشيخ احمد الشريف وبه تخرج واخذ عن جماعة غيره متع الله بحياته المسلمين * ومنهم الشيخ العلامة وحيد دهره وفريد عصره المتصرف في علوم كثيرة الا انه بعلم المنطق اشهر من علم كشهرة ابيه من قبله بهذا الفن وهو مدرس بالمدرسة المرادية المحدثة عند باب الربع وهو وتد من اوتاد العلماء الانجاد الحاج الشيخ ابو عبد الله محمد عرف الغماد زاد الله في حسناته * ومنهم الشيخ البركة القدوة المدقق المحقق المتكلم الورع المتبرك به المشتهر بالورع في هذه البلاد الشيخ ابو الحسن علي عرف الغماد ابقى الله بركته وهو من المدرسين في الجامع الاعظم من تونس وله درس بجامعه المشهور به في حومة الدباغين وبالزاوية الحلفاوية في ربض باب السويقة متع الله المسلمين بحياته * ومنهم الشيخ المعمر العلامة المتورع المتبرك به الشيخ ابو العباس احمد عرف المهدوي وهو الان خطيب بجامع الحلق قريبا من باب الجديد زاد الله في حسناته * ومنهم الشيخ الفقيه المتفنن الورع العفيف الشيخ سعيد الشريف وهو من بدار الشيخين الشيخ سيدي احمد الشريف والشيخ سيدي محمد فتاتة وتصدر في حياتهما للافادة بالجامع الاعظم وفيه وقار وسكينة زاده الله من فضله * ومنهم الشيخ الفقيه عبد القادر الجبالي وهو من المدرسين بالجامع الاعظم ومن تلامذة الشيخ فتاتة وفيه نية وتدين وعفاف * ومنهم الشيخ الفقيه المدرس

المتصرف في علوم كثيرة إلّا انه بعلم الحديث الشريف اشهر الشيخ سعيد الحجوز امام جامع الخطبة خارج باب الجزيرة وفيه نية وتدين وعفاف زاده الله من فضله * ومنهم الشيخ الفقيه المدرس ابو عبد الله محمد عرف قويسم من اهل باب السويقة ولاهل ربضه فيه اعتقاد * ومنهم الشيخ الفقيه المدرس المتعفف ابو القاسم الغماري من اهل باب السويقة ايضا امام بجامع حومة الاندلس وفيه تدين . هولاء من مشاهير المالكية وغيرهم خلق كثيرون ولكن لم يبلغوا شأوى من ذكرنا وغيرهم لم يحصروني اسماوهم إلّا عند ذكرهم * . ومن مشايخ الحنفية الشيخان الفقيهان الشيخ محمد بن شعبان امام جامع المرحوم يوسف داي وخطيب جامع المرحوم محمد باشا والشيخ مصطفى بن عبد الكريم المنفصل عن الفتيا وهو اليوم امام جامع المرحوم محمد باشا * ومنهم الفقيه النبيه الشيخ ابو الحسن علي عرف الصوفي عنده ملكة في العربية والصرف والفقه وعلم الحديث * ومنهم الفقيه الشيخ ابو الحسن علي كرباصة مدرس بالمدرسة الشماعية وعنده ملكة في علم الحساب والميقات والفرائض ومختص بعلم الهيئة والهندسة * ومنهم الفقيه الشيخ ابو عبد الله محمد المهتار وهو راو للحديث في جامع القصبة * هولاء الذين بلغوا درجة الرواية للمسند الصحيح وغير هولاء جماعة يتعاطون الرواية وانما دخلوا بمخالبهم بين ذوي الاقتناص واكثرهم بين بناة وغواص ولم يكن بالديار التونسية من يوم حل بها العسكر العثماني من تعاطى الرواية والدراية إلّا الشيخ العالم العلم الرباني الشيخ ابو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني سقى الله ثراه من صوب الرحمة والرضوان وكان مجلسه بالجامع الاعظم من اجل المجالس وتحضره الاجلاء من اهل العلم وتدور بينهم المباحث الجميلة في العلوم الجليلة ولا يخلو مجلسه من فوائد في الثلثة اشهر رجب وشعبان ورمضان الى يوم الختم وهو اليوم السادس والعشرون من رمضان ثم تلاه ولده العلم الشهير والعالم النحرير الشيخ ابو بكر فسار بسيرة والده وقام بعلم الحديث الشريف احسن قيام وشهد له بالدراية علماء الاسلام فكان في هذا الفن

فسيح وحده وحصل له سر ابيه و بركة جده الى ان سار الى رحمة ربه في سنة ثلث وتسعين والف فتغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير وجرت بها العادة للتبرك وانقطعت المادة من السير لان ولديه لم يبلغا مبلغه ولا سعيا سعيه الّا ان الله تبارك وتعالى من بمن اقام مقامه بملازمة الرواية للتبرك بالحديث النبوي وهو الشيخ العالم العامل البركة سيدي علي الغماري فسح الله في مدته هو الذي يتعاطى الرواية في الجامع الاعظم الى يومنا هذا ولله الحمد ، وحيث بلغنا في خاتمة الكتاب الى ذكر ختم البخاري الشريف وجب ان نذكر صورة الختم عسى ان يحصل لي ببركة الختم ومجانسة الختم والختم ان شاء الله تعالى لا اله غيره ولا خير إلّا خيره وهو نعم المولى ونعم النصير *

الفصـــل الرابع

في تعظيم اهل الحضرة لختم البخاري

ولهم اهتمام عظيم يحتفل الشيخ لذلك اليوم غاية الاحتفال ولهم اماكن معلومة وايام معدودة بحيث يكون يوم كذا في المسجد الفلاني عند الشيخ فلان فتهرع الناس الى محله وتوقد الشموع وتسرج القناديل ويبخر المكان بانواع الطيب وقد تكلم الوالد رحمه الله على تعظيم اهل افريقية لختم البخاري وله في ذلك تصنيف سماه تاهب الراوي الفصيح لفتح الجامع الصحيح ونقل عن اشياخه من العلماء جملة من ءاداب المحدث واستفتاح مجلس الاملاء ثم قال واستحسن الشيوخ عند الاملاء استفتاح مجلس الاملاء بقراءة قاري لشيء من القرءان العظيم ثم يستنصت لسماع الحديث ثم قال قلت وعليه عمل الناس اليوم بافريقية عند ختمهم البخاري يقراون قبل افتتاح المحدث من سورة الملك الى سورة عم الى ءاخر سورة من قصار المفصل ويختمون بآية

الكرسي وءاخر البقرة ويصلون على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقرا الراوي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ولختم جامع البخاري في القيروان بلدنا شان عظيم ومشهد كريم . ومن تعظيمهم له واجلالهم اياه انهم يشتغلون به عن اهم شي من جميع اشغالهم ويغلقون حوانيتهم وينادي المنادي قبل ذلك الا ان الختم لجامع البخاري غدا صباحا او عشية في موضع كذا فيفزع الناس ويتسارعون لذلك وتتسارع له النساء والصبيان والخواص والعوام ويبدا الراوي بما فيه تعظيم لجناب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض سيرته ومعجزاته حتى يحصل لذلك ضجيج برفع الصوت بالصلاة عليه والتسليم ثم يذكر مواعظ ودقائق ويخوف الناس حتى يبكون ويندمون على ما فرطوا في جنب الله تعالى في ايامهم السالفة وربما حصل للمذنب بسبب ذلك التوبة ثم يذكر بعد ذلك من سعة رحمة الله تعالى ثم يصلي ويسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يختم بالجامع الصحيح فربما اشتغلوا بذلك من طلوع الشمس الى قرب الزوال . واما عمل اهل تونس بخلاف ذلك فلا يقراون الا ءاخر الجامع الصحيح او ءاخر الشفا للقاضي عياض بعد ان يستفتحوا بقراءة القرءان العظيم وعمل اهل القيروان اخص واهم وعمل حضرة تونس اخصر والله تعالى ينفع كل احد بنيته وكل بحسب سعته وقوته واجتهاده لينفق ذو سعة من سعته ثم ذكر كل ترجمة وما يناسبها ثم قال وعادة اهل تونس ان يفتتحوا مجلس الختم بترجمة كلام الرب مع اهل الجنة ومنهم من يبتدي بباب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه عز وجل وعادة اهل القيروان منهم من يبتدي بباب الماهر بالقرءان مع الكرام البررة ومنهم من يبتدي بترجمة باب بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ ومنهم من يبتدي بترجمة باب والله خلقكم وما تعملون . انتهى باختصار منه . قلت هذا قبل اليوم واما في هذا الزمان اختصروا بزيادة عما كان قبل لان هذه الرتبة لا يصل اليها الا زيد وعمرو وفي هذه الايام تصدر اليها خالد وبكر لمحبتهم للمباهاة وليقال فلان من الرواة .

فاما الاماثل فلم يرونه إلّا احتسابا لله ويداومون على روايته الثلثة اشهر فلذا كان يوم الختم جعلوه على بابه وبعضهم لم يتعاط شيئا من ذلك إلّا انه يحتفل ذلك اليوم ليدعي من اربابه حتى ان بعضهم يمكث من اول السنة يجمع في اقوال العلماء ويحفظها باللوح فاذا جاء ذلك اليوم املاها من حفظه وسودها ولو سأله احد في ذلك الجمع عن مسالة لعجز ان يسندها وهذا في بعض من تكون مباشرته للختم بوقاحة منه واستجراء وإلّا فالاجلاء من اهل الحضرة حاشاهم من هذه الرتبة الغير المرضية وغالبهم منزه عن الرتبة الدينية والدنيوية فاذا حضر يوم الختم تكون عليه سكينة ووقار ويلوح عنه نور الحديث الشريف ويكون يومه يعد من الاعمار فاذا اتى على ما املاه ختم مجلسه بحديث الشيخ ثم يسبح الله تعالى ويأتي ببعض المواعظ مما يناسب ذلك المحل ثم يدعو بما يتقبل الله منه ويومن على دعائه اقوام باصوات مرتفعة بقولهم اللهم ءامين يا رب العالمين فاذا كان في ءاخر التامين قالوا اللهم ءامين يا رب العالمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ثم تقرا الفاتحة عدة مرار بما يقتضيه المحل وينصرف ذلك الجمع بعد ان يقبل اكثرهم على ذلك الشيخ ويهنونه ويتبركون به ويكون له جمال في ذلك المجلس والله تعالى يجازي كل احد بنيته وهو المطلع على ما في طويته ولكل امرئ ما نوى . ولنختم هذا الختم بحديث الختم الذي جاء عن سيد البشر ونطق به وما ينطق عن الهوى وهو قوله صلى الله عليه وسلم كلمتان حبيبتان الى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . اللهم يا قابل الدعوات ويا مقيل العثرات اسالك بحبيبك وصفيك محمد صلى الله عليه وسلم افضل ولد عدنان والاحاديث التي وردت في هذه الليلة المباركة واخبرت بانك تقسم فيها الارزاق وتجيب فيها الدعاء والاستغفار ولها شان بين الليالي واي شان اسالك الاجابة وان تغفر ذنبي وتستر عيبي وترحم شيبي وان لا تؤاخذني بما فرطت ولا بما رقمت وجمعت وان تعاملني بحلمك ورحمتك

في الدنيا والاخرة انك اهل التقوى واهل المغفرة وكما فتقت لساني بكلمة التوحيد في الابتداء اجعل ختامي بها عند الختام يا رب العالمين . وكان الفراغ من هذا التعليق ليلة النصف من شعبان المبارك سنة اثنين وتسعين والف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام وعلى ءاله واصحابه ازكى التحية ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .



فهرس الكتاب





تم الكتاب

بعون الملك الوهاب



لمالكه السعادة والسلامة وطول العمر ما هملت غمامة

وما طلعت نجوم بنات نعش وما ناحت على غصن يمامة

